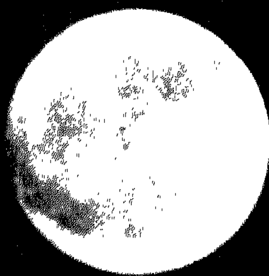

ملائكة الغيب قادمون

ترجمه وراجعه:
الشيخ علي كوراني

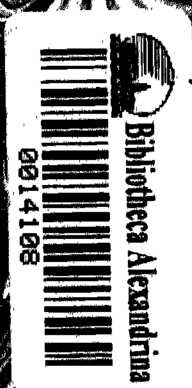

الدار الإسلامية

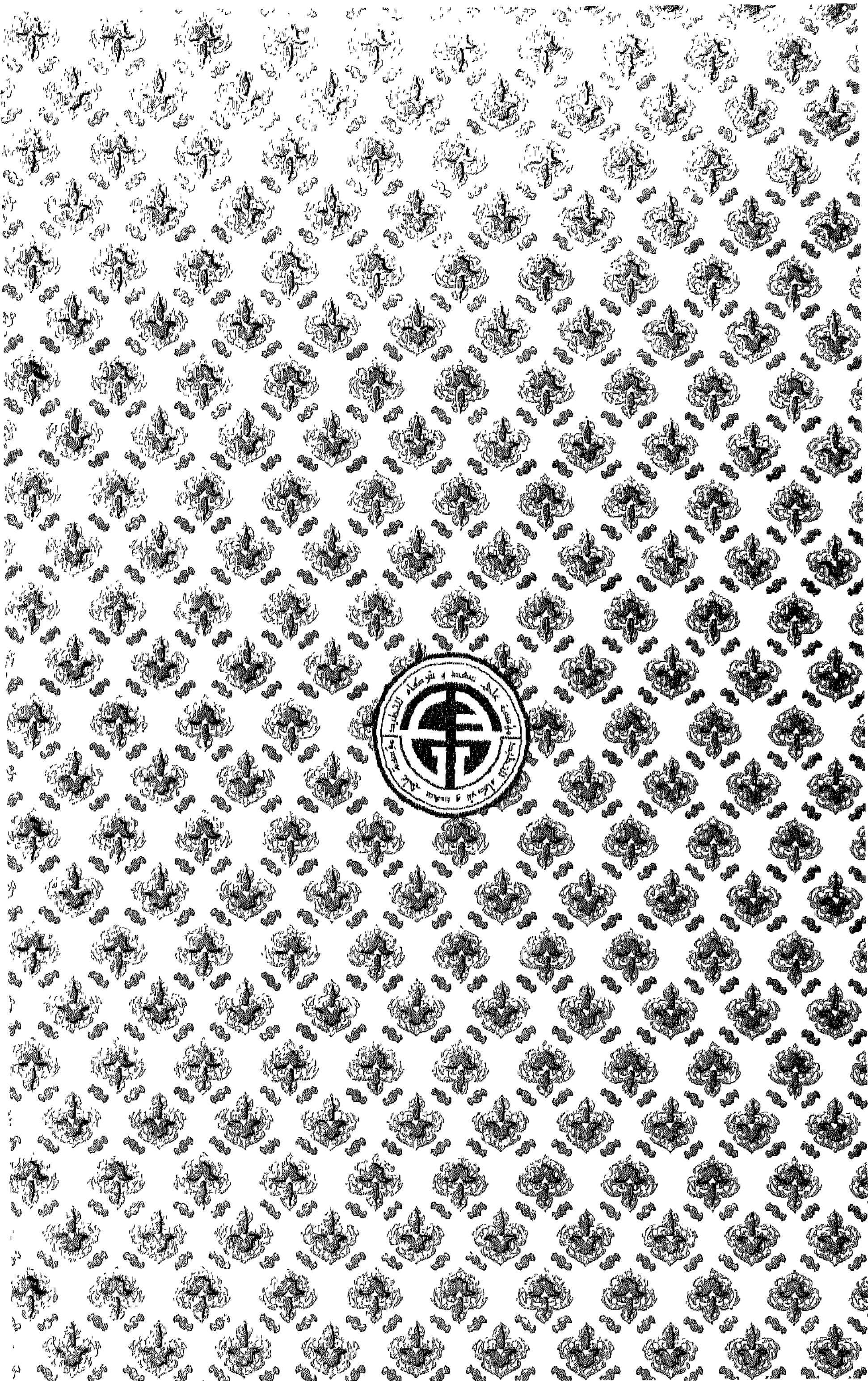

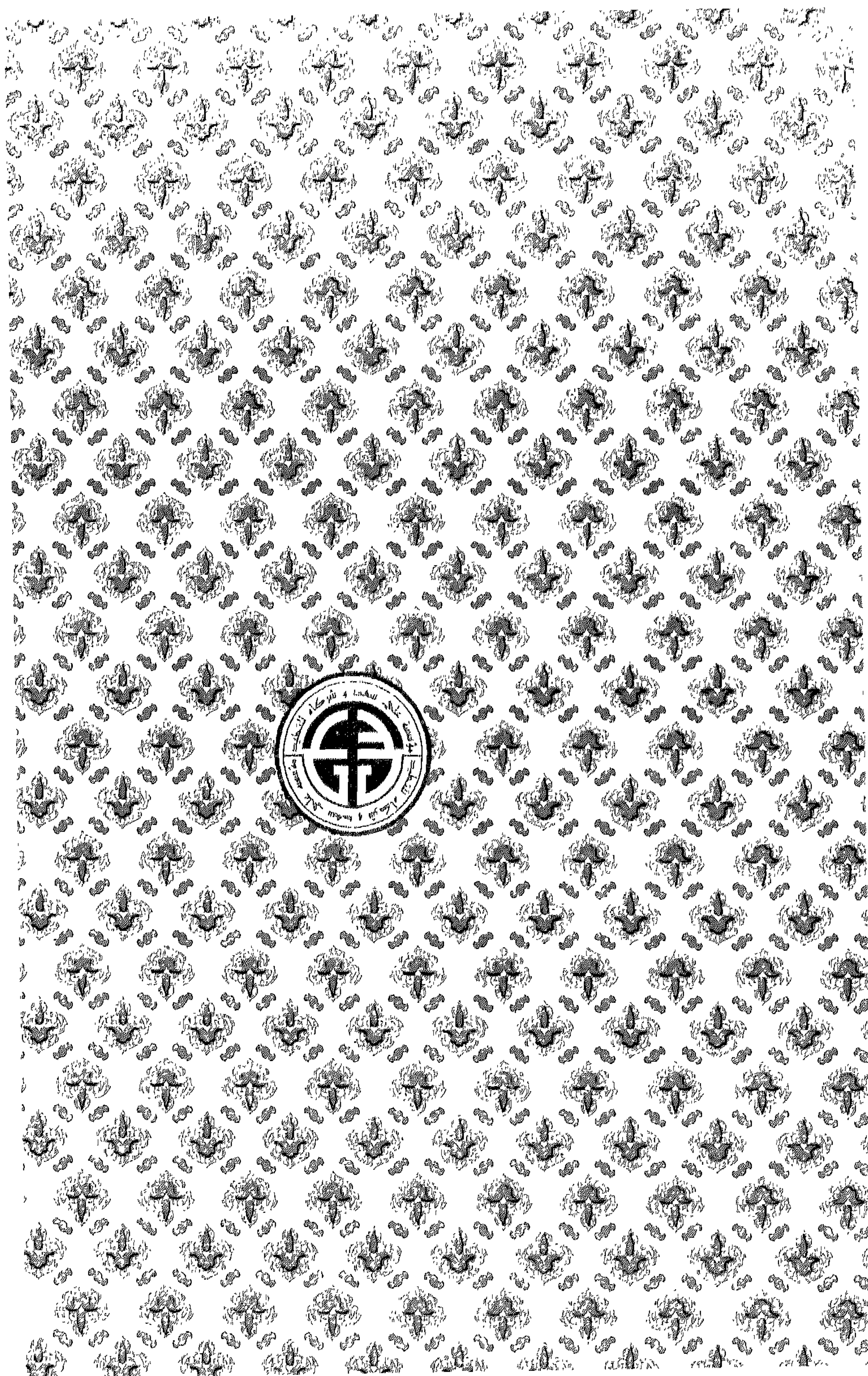

ملائكة الغيب قادمون

الطبعة الثانية

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

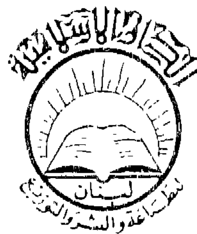

حارة حريك - شارع دكاش - مقابل مدرسة الليسيه أميكال مودرن

هاتف: ٥٥٣٨٦٣/ ٠١ - ٣٨٩١٦٦/ ٠٣ - ص. ب: ١٤/٥٦٨٠

ملائكة الغيب قادمون

قصة تدور أحداثها سنة ١٩٨٤ بين لندن والحجاز وإيران، تتضمن فلسفة الغيب والحج في إطار الصراع الحضاري بين الإسلام والمادية.

ترجمة ومراجعة

علي كوراني

الدار الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

صور من مطار هيثرو

جلسا ينتظران رحلتهما في مطار «هيثرو» وهما مغتبطان، ولم يكتم أصغر سروره عن صاحبه فقال:

ـ أنا سعيد بهذه السفرة معك يا دكتور، أشكر الله على هذا التوفيق وأرجو أن يكتب لي سهماً في ثواب حجك.

ـ وأنا سعيد جداً يا بنيّ، لقد أمضيت إجازات عديدة خارج لندن وخارج بريطانيا، ولكني لم أشعر بالاطمئنان والرضا كما أشعر تجاه هذه الرحلة، منذ تلك الليلة التي اتخذنا فيها القرار، ووجودك معي عنصر أساسي في اطمئناني وسعادتي.. أشعر يا أصغر بأنك ملاك أرسله الله لي في آخر عمري ليفتح أمامي آفاقاً جديدة، ويحل في نفسي مشكلات مزمنة..

قال أصغر وقد نكسّ رأسه خجلاً:

ـ أستغفر الله يا عم أنا لست شيئاً يذكر.

وتابع الدكتور بهرامي: ـ إن الروح الصافية والنظرة النافذة موهبتان من الله يا أصغر، وما أدري أيّهما يشدّني إليك أكثر.. لقد رأيت العديد من الطلبة الإيرانيين والشرقيين ولكني لم أر مثلك.. هل تعرف أني كلما مررت من أمام مجلس العموم وساعة «بيكبن» «وباكنغهام» أتذكرك عندما قلت: ألا تشعر معي بأن كل لبنة من هذه المباني مجبولة بعرق فقراء الشعوب، وأن ما بين المداميك

مجبول بدمائهم، أمّا قصر «باكنغهام» فهو مبنى من أشلائهم. . وهذه الثريات المنصوبة على أسواره ما هي إلا رؤوس إفريقية.

وكلما مررت على البنك المركزي البريطاني أتذكر قولك: هذا المبنى هو سيل من عرق المسلمين ودمائهم الطازجة، وأمواله ليست إلا ثمن خبزهم وأدويتهم وبيوتهم. .

ولقد رأيت في الأسبوع الماضي عملية نقل أموال إلى البنك المركزي، كانت السيارة الكبيرة محاطة بسيارات ودراجات حراسة فتذكرت كلمتك، ورأيت المشهد حقاً عملية نهب طازجة من بقايا مستعمرات التاج البريطاني. .

إن كلماتك وأفكارك كثيراً ما تفتح أمامي أبواباً وتؤثر في نفسي. . ولا أكتمك يا أصغر أنه لم يؤثر في نفسي شيء في مسألة نقل عملي إلى طهران مثل قولك لي يوماً: ساعدك الله يا دكتور على عملك الشاق في معالجة أكباد البريطانيين المتشمعة من شرب الخمور.

لقد جعلتني أُنْقِذُ من حجاب حياة الدعة والراحة التي تعودنا عليها في الغرب، وحجاب شهاداتي وخبرتي، وحجاب منصب رئاسة قسم في مستشفى ذي شهرة عالمية. .ووضعت يدي على حقيقة ما أنجزه من عمل في حياتي. .إنه ليس أكثر من معالجة تشمعات أكباد المخمورين والمتخمين من الإنكليز وتلاميذهم من مستعمراتهم، فهؤلاء هم مرضانا في «رُويل فْرِي» بنسبة ثمانين بالمئة.

على أي حال سنتحدث في هذا الموضوع، ولكن الآن وقبل أن يعلنوا موعد إقلاع الطائرة أريد أن تحدثني عما تراه في مطار «هيثرو». . . إني أحب أن أستمع إليك أكثر مما أتحدث. .

وانتظر الدكتور. . ثم نظر إلى وجه أصغر فلم يرَ جواباً إلا تلك الابتسامة الهادئة المصحوبة عادة بالصمت والتفكير، فقال:

ـ لعل لديك موضوعاً آخر، أو تريد التعليق على كلامي، حسناً. . لكن أرجو أن تحدثني الآن عن شعورك ونظرتك إلى مطار لندن.

ـ نعم يا دكتور، في كل مرة أسافر من هذا المطار أو أعود منه أكتشف جديداً، فالمطارات والموانئ في كل بلد تحكي خلاصة اقتصاده وسياسته وجغرافيته. . وصلت قبلك بحوالي نصف ساعة ومشيت في هذه الصالة جيئةً وذهاباً فرأيت العديد من المشاهد، كل واحد منها فيه الكثير. . على كل حال لا زالت بريطانيا العجوز تغذي صناعتها من بقايا مستعمراتها ونفوذها، ومن خبرتها العريقة في استعمار الشعوب. . إنها تبيع خبرتها الاستعمارية إلى أمريكا وفي بعض الحالات. . . إلى روسيا؟

رأيت مجموعة من الطلبة النيجريين يظهر أنهم من أبناء المسؤولين والتجار في بلدهم ، وقد ألفتني أنه كان بين أصدقائهم السود الذين جاؤوا لاستقبالهم امرأة بريطانية وشاب كأنه ابنها. . فتساءلت في نفسي متى كان الإنكليز يخرجون لاستقبال الأفارقة السود. ؟ ولكن بريطانيا أصبحت مثل هذه المرأة مضطرة أمام النفوذ الأمريكي إلى عمل أيّ شيء يحفظ ما يمكن من نفوذها. . كان الأفارقة يحملون الهدايا إلى منزل الإنكليزي في بلادهم أو بلاده ـ لا فرق ـ ويسلمونها باحترام إلى الخادم عند الباب الخارجي وينصرفون. . أما الآن فقد انتقلت هذه الكبرياء إلى الامريكيين وأصبح على المرأة البريطانية وابنها أن يسعيا وراء الهدية إلى المطار وأن يساعدا الزنجي الذي يسعى للحصول على الصفقة التجارية لشركته وراء الأمريكيين والمسؤولين في نيجريا.

كان مشهداً مؤنساً لانحسار تسلط كافر عن بلادنا الإسلامية، وإن كان انحساراً بطيئاً لا يوقظ شعباً ولا يردع ظالماً. . وفي المقابل كان مؤشراً على نمو التسلط الأمريكي البغيض. .

أما هدايا أولئك الطلبة وقد كانت حقائب مختلفة الحجوم تتضمن عادة تماثيل من العاج والخشب والجلود الثمينة، وحتى الفواكه النيجرية. . فقد رأيت فيها ذل قبيلة مسلمة بكاملها، إني أحب الأفارقة السود وأعشق تلك النفحة الخاصة الإيمانية والإنسانية التي تضيء من قلوبهم، وتشع في وجوههم. . ولكني شعرت بالاشمئزاز من هؤلاء الطلبة المترفين، ورأيت قلوبهم سوداء مظلمة. .كانت قلوباًغربية تفوح منها رائحة المخمورين وأكلة لحم الخنزير. . إنهم وآباؤهم سياط المستعمرين على ظهور مواطنيهم. .

أرأيت يا دكتور هذه المرأة المقابلة لنا ومن جاء لوداعها، وكيف انشغلت بكلبها عنهم؟!

- لم أنتبه يا أصغر، فحديثك شيّق.

وتبسم أصغر، فظنّت المرأة أنه يبتسم لها، فأقبلت نحوهما وحيتهما بلهجة أمريكية وسألتهما:

- على الخطوط البريطانية؟

أجابها الدكتور: - نعم.

- إلى الشرق الأوسط؟

- نعم.

- إلى السعودية؟

- نعم.

- جميـل،وأنا بنفس الطائرة، وجلست العجوز في المقعد المجاور، وتابعت:

- أنتم سعوديون أليس كذلك؟

- نعم.

- أنا سعيدة جداً بحياتي في السعودية، صحيح أني قضيت أياماً ممتعة في هـذا الصيف في «أريزُونا» وفي «لندن» و«دُورْبي» ولكني في الـظهـران أكـثر سعادة.. كانت السفرة لا تخلو من المتاعب، لقـد أتعبني «سودو» كثيراً، إنه كلب نجيب وأحبه كثيراً ولكن الجو تغـير عليه، أمـا في السعوديـة فهو هادئ ومؤدب، إنه من مواليد السعودية ويحمل شهادة جنسية سعوديـة.. واخـرجت من محفظتهـا شهادة ميـلاد الكلب وسلامـة صحته وجـواز سفره وعودته..

- هل أنت ذاهبة إلى جدة؟

- نعم، نعم ذاهبة إلى جدة.

- ألا يوجد طيران مباشر إلى الظهران؟

- ها.. أنا أسكن مع ابني في الظهران، ولكني ذاهبة إلى زيارة أخي فهو يعمل في جدة. أخي طيب جداً وهو رجل أعمال كبير في السعودية، لم أره منذ عيد رأس السنة الماضية، آه، نه طيب جداً وكريم.. صاحب فضل علينا جميعاً، على كل الذين يعملون في السعودية من عائلتنا، لقد وفر لهم فرص عمل لائقة، وكلما ذهبت لزيارته يقدم لي هدية جميلة وثمينة.

وأخذ الكلب يشد نفسه من يد صاحبته؛ فأخذت تكلمه طويلاً، وتوبخه

قليلاً . . بينما الدكتور وأصغر ينظران المشهد بتأمل . . وما إن هدأت نوبة الكلب حتى عادت صاحبته إلى نوبتها في الكلام مع الدكتور:

ـ أرأيت يا أخ لقد عاد إلى هدوئه، إنه غير مرتاح، ولكنه جميل جداً أليس كذلك. ؟

ـ . . . . .

ـ ألا تحب الكلاب ؟

ـ الواقع أيتها السيدة أني مشغول عن ذلك.

ـ هل أنت رجل أعمال كبير،؟ أراك تتقن الإنكليزية جيداً كأنك تعيش في لندن.

ـ لقد أفنيت عمري في لندن.

ونظرت إلى أصغر فتأملت لحيته وكأنها تراه لأول مرة وقالت للدكتور:

ـ هذا الشاب الذي معك أمير؟

ـ نعم.

ـ ها . . إذن أنت موظف عنده، أنت مدير أعماله؟

ـ أنا طبيب.

ـ لا بد أنه يملك بنايات وأسهماً في الفنادق و«البلاي بوي» ومزارع . . آه، إنه أمير عنده نفط، أليس كذلك. . ؟

ـ نعم.

ـ حسناً، حسناً، من فضلك يا دكتور هل لك خبرة بأمراض الكلاب؟

ـ قليلاً.

ـ أصلاً، عندنا طبيب ماهر في الظهران، وهو يفحص «سودو» كل شهر ولكني أحب أن أستشيرك.. فلأول مرة يا «دكتور» لاحظت أن لـون لسان «سودو» أخذ يميل إلى الصفرة؛ ولعل هذا هو السبب الذي غير أخلاقه، أرجوك أن تنظر إلى لسانه وتعطيني رأيك، وأخذت تشد الكلب لتمسك رأسه وتفتح حلقه وتقدمه إلى الدكتور، ولكن إعلان الرحلة أنقذ الموقف فنهضوا، وتوجهوا إلى الباب المحدد، وسبقتهما المرأة الأمريكية، وسبقها كلبها..

وقف صف المسافرين عند مدخل نفق الطائرة، وكانا بابتسامتيهما يعلقان على المشهد.. ولكن أصغر التفت إلى الدكتور قائلاً:

ـ بقي شيء أريد أن أفهمه من هذه المرأة.. وتقدم نحوها مُحَيِّياً برأسه وهو يوزع نظراته بينها وبين الكلب، فبادرته قائلة:

ـ يبدو أنك تحبه بعكس طبيبك!

ـ وهل تعتقدين أن ذوق السعوديين ناقص؟

ـ لا، أبداً، أنا عندي في الظهران سائق وحدائقي يحبان «سودو» كثيراً وأنا أحبهما لذلك!

ـ يظهر أن لك أصدقاء سعوديين كثيرين أيتها السيدة، وكأن الشابين الذين ودعاك قبل قليل كانا سعوديين.

ـ هه. هل رأيتهما أيها الأمير، نعم إنهما صديقا ابنتي هل تعرفهما. إن ابنتي متزوجة في لندن، زوجها من عائلة إنكليزية عريقة.

وتحرك الصف إلى الطائرة فأشار لها أصغر مودعاً، وعاد إلى مكانه..

.... عندما استقرا في الطائرة قال الدكتور:

ـ هات يا أصغر، كنت أتحدث مع المرأة وأفكر في أنك تحبس نفسك عن الكلام وعن الضحك.. فهات ما عندك.

ضحك أصغر وقال:

ـ اشكر الله يا دكتور أنك تعمل في بريطانيا وليس في أمريكا، فمعالجة المخمورين الإنكليز أفضل من معالجة كلاب الأمريكيين..

فضحك الدكتور وتابع أصغر:

ـ حينما أخذت تجر كلبها لتمسك برأسه وتضعه في حضنك نويت أن أتدخل حتى لا ينجّس الكلب ثيابك بلعابه، ولكن الله لطف..

كنت أستمع إلى هذه المرأة وأتأمل تصرفاتها فأرى فيها السياسة الأمريكية في بلادنا: الأنانية اللاأخلاقية، الغرور، احتقار الشعوب..

كلما تقدمت السن بالأناني المادي انكشفت أهدافه الحقيقية وانحسر غطاؤها الأخلاقي، ولذلك أصبحت هذه العجوز تحمل قضية ترفها وكلبها بشكل مكشوف وفظ، وتريد أن تحملها للآخرين.. وهل تظن يا دكتور أن هدف السياسة الامريكية في بلادنا أفضل من هدف هذه العجوز؟ في الحقيقة إنه المجموع الحاصل من هدف عجوزنا وابنتها في لندن، وأخيها في جدة، وابنها في الظهران، وعشيرتها في أريزونا، وأهداف مجموعة الأفراد والقبائل الأمريكية المترفة من التسلط على شعوبنا..

وهل تظن يا دكتور أن الجو الذي ساد لقاءنا بهذه المرأة أكثر سوءاً من الجو الذي يسر [illegible] الساسة الأمريكيين بساسة الشعوب المستضعفة؟ كلا. فهذه المرأة صادرت وجودنا وفرضت علينا جوها من الترف السخفيف، ولم تزد على ذلك. ولكن مندوبهم وجهازه في منظمة الأمم المتحدة وفروعها، وأجهزتهم المنتشرة

في طـول العالم الثـالث وعرضـه، لا تكتفي بفرض الـطروحـات والأجـواء الأمريكية ومصادرة وجود الشعوب وقضاياها، بل تتبع ذلك بثلاثة أسيـاف: سيف القانون. وسيف الإعلام. وسيف الدم. . ألا ترى هذه السيوف تعمل في رقاب عباد الله ليل نهار. . من قانون النقض في الأمم المتحدة والقـوانين والدساتير التي فرضتها أمريكا على الشعوب. . إلى سيف الإرهاب الإعلامي الذي تملك شبكته العالمية. . إلى سيف العنف والقوة العسكرية: العنف غير المباشر، والعنف المباشر الخفي، والعنف المباشر العلني؟!

وهذه المرأة ترى أن القيمة الإنسانية في السائق والبستاني المسلمينْ منحصرة في انهما يحبان كلبها!! أما المترفون المتسلطون من قومها فيروّن أن القيمة الإنسانية لشعوب العالم هي أن تقدم خيراتها لهم ولا مانع من أن تجوع وتعرى وتمرض وتموت من أجلهم. .

هل تستطيع يا دكتور أن تعيش مع هذه العجوز لمدة سنة دون أن تختلف معها وتثور عليها. .؟

ـ لا أتصور ذلك إلا أن أتحول إلى إنسان آخر.

ـ إذن ما ذنب الشعوب المستضعفة التي تعيش حياتها مع العجوز الأسوأ؟ ما ذنبها حتى لا نعمل على رفع كابوس الظلم عنها. .؟

ـ لله درك يا أصغر ما ألطف نظراتك وأعمقهـا، إني آمل أن تكـون في المستقبل صحفياً لامعاً بل مفكراً سياسياً، فأنت تنفذ من الأمور العادية إلى عمقها بذكاء، لقد ذكرتني بقولك يوما عن «لوريل وهاردي» إنهما نمـوذجان لسياسة بلديهما في الحماقة وادعاء الفهم.

أنا معك يا أصغر في تساؤلك البليغ: ما ذنب الفقراء المظلومين حتى لا

لنعمل على قطع يد الظالم عنهم. ومنذ أن سمعت هذا السؤال منك طرحته على نفسي لكي أجيب عليه..

وأنا معك أيضاً في أن إيران اليوم تقود التيار لإنقاذ المظلومين ومقاومة الظالمين، وأن اكتفاء مثلي بالمساعدات والخدمات البسيطة ليس بديلاً عن وضع كل طاقته في خدمة بلده..

ولكني صارحتك يا أصغر بمشكلتي، إني أخاف على الثورة الإسلامية والنظام الإسلامي في إيران،! ويتراءى لي في بعض الأحيان أن ما حدث إلى الآن إنما هو حلم يمر على العالم لسنوات ثم ينتهي فأرتعد وأبكي.. إن الغربيين يا بني أقوياء وشياطين، وأراهم يركزون جهودهم بشكل عجيب للقضاء على هذه الدولة التي قامت بالرغم عنهم، واستعادة هذا البلد الذي أفلت من يدهم، وهم يستطيعون تحقيق ذلك، فقدرتهم هائلة، ونفسهم طويل، وهم مستعدون لأن يجربوا مئة أسلوب وأسلوب، أو يستعملوها جميعاً في آن واحد.

إني متأكد مئة بالمئة أن يد الغيب قد تدخلت بالفعل في تسديد قائد الثورة وأحداثها، وقد تدخلت في نجاتها من أخطار محققة.. ولكن من أين ندري أنها سوف تتدخل لمدة خمسين سنة قادمة حتى يستطيع هذا التيار السماوي أن يثبت أقدامه في عالم تحكمه الدول الكبرى وتهيمن فيه أمريكا؟

إني أحترم كل أفكارك التي حدثتني فيها عن الغيب وعن المعادلة بين القوة المادية والقوة المعنوية.. ولكن الفرق بين قناعتي وقناعتك يا بني أنك تؤمن بأن التدخل الغيبي قانون يجب أن نعتمد عليه مضافاً إلى القانون المادي، وأنا أعتقد بأنه حالات نادرة في تاريخ الأنبياء والمؤمنين والشعوب، ليس من الضروري أبداً أن تستمر أو تتكرر..

قد أكون مخطئاً، وقد تكون حياتي في الغرب وثقافتي الغربية هي المسؤولة عن هذه القناعة كما ذكرت لي يوماً، ولكنها على أي حال قناعتي وعليّ أن أتعامل بها حتى أصل إلى غيرها. . إنني أرغب أن تكون رؤيتي مثل رؤيتك يا أصغر.

ـ الثقافة الغربية مسؤولة عن أشياء كثيرة في شخصياتنا يا دكتور، ليس فقط عن قناعتك في مسألة التدخل الغيبي وخوفك على الجمهورية الإسلامية، ولكن عن ربطك بين هذا الخوف وبين عودتك إلى إيران، اسمح لي أن أصارحك ونحن في طريقنا إلى بيت الله الحرام أني لا أرى مبرراً للربط بين الأمرين. . هب أن ما حدث هو إشراقة على العالم من نوع تلك الإشراقات التي أضاءت في تاريخ الأرض على أيدي الأنبياء والأئمة وأصحابهم؛ وأنها لا سمح الله سوف تنتهي بفعل الشر البشري بعد سنة أو خمسين سنة. . فما الذي يمنع أن تكون طاقة أحدنا وحياته مشعلاً في هذه الإشراقة. ؟

وبقطع النظر عن ذلك أتمنى لو أستطيع أن أبرهن لك عن صحة قناعتي في مسألة الغيب. . فالتدخل الغيبي قانون يتحقق كلما توفرت شروطه وليس حالات استثنائية قصيرة. . ولا أريد إعادة أحاديثنا الماضية حول الموضوع، وأعترف بأن سبب فشلي في البرهنة على صحة قناعتي يعود إلى نقص ثقافتي الإسلامية، وأنا آسف لأنه لم يتيسر لك أن تزور إيران ولا أن تلتقي في لندن بعالم دين يعالج هذه المسألة، ولكني آمل أن يهدينا الله تعالى في سفرتنا هذه إلى عالم متعمق يشرح لنا هذا الموضوع شرحاً وافياً ويجيب على أسئلتك ومناقشاتك. .

ـ حسناً يا أصغر، إذا لم يكن عندك مانع فلنتكلم الآن في البرنامج.

ـ حسناً.

وأخرج الدكتور من جيبه مذكرة وأخذ ينظر فيها قائلاً :

ـ لقد ثبّتُّ في دفتري خمسة أعمال :

١ ـ أداء واجبات الحج .

٢ ـ جلسة أو جلسات مع أحد العلماء لاستيضاح مسألة الغيب وبعض الفتاوى الشرعية .

٣ ـ العمل ساعتين في بعثة الحج الطبية .

٤ ـ زيارة عمتي ، فقد أخبروني أنها ستكون في الحج .

٥ ـ الاتصال مرتين على الأقل بعائلتي لطمأنتهم .

هذه مجرد نقاط ، وقد قلت لك إني أسلمك قيادي في هذه السفرة فأنت صاحب تجربة وأنا لا معرفة لي بمكة ولا بالواجبات الشرعية .

ـ هناك نقاط أخرى أيضاً يا دكتور ، مثل اللقاءات بالحجاج الإيرانيين والمشاركة في دعاء كميل والمظاهرات ، واللقاءات مع بعض الحجاج من البلاد الإسلامية المختلفة . . ومعرفة المزيد عن تاريخ الإسلام ، خاصة عن حياة النبي (ص) وأهل البيت (ع) والصحابة الذين عاشوا في تلك الأماكن المقدسة . . وعن الكعبة الشريفة الخ . . ويبدو لي أن الأفضل أن أعطيك صورة شريطية عن معالم الحج وعملنا من أول وصولنا حتى الختام .

ـ جيد جداً يا بني .

ـ مدينة جدة التي سنهبط فيها إن شاء الله هي العاصمة التجارية للحجاز وميناؤه الرئيسي على البحر الأحمر ، ويقابلها من الطرف الآخر ساحل السودان وأثيوبيا أي الحبشة . وجدة ميناء قديم ، لأن المسلمين على عهد النبي (ص) في

الهجرة الأولى ركبوا منها وعبروا إلى ساحل الحبشة. . مناخ جدة صحراوي رطب، وسكانها الأصليون خليط من أصول تركية وإفريقية وعربية وإيرانية الخ. . ويظهر ذلك من أسماء عوائلهم. . ولعلهم لا يبلغون خمسين ألفا من مجموع النصف مليون وأكثر الذين هم سكان جدة في الوقت الحاضر، والذين يكثر فيهم العمال اليمنيون والهنود والتايلانديون، والموظفون المصريون والفلسطينيون، والخبراء ورجال الأعمال الغربيون من نوع أخي عجوزنا الأمريكية يا دكتور. .

أقرب مدينتين إلى مكة المكرمة، الطائف من جهة الداخل، وجدة من جهة الساحل. أما الطائف فهي بستان مكة ومصيفها حيث تقع على مرتفع جبلي فيه ينابيع وزراعة.

وأما جدة فتقع في منبسط صحراوي يبعد عن مكة سبعين كيلومتراً ولكنه ينتهي من جهة مكة بعد عشرين كيلومتراً، لتبدأ مجموعة جبال مكة المتقاربة والمتلاصقة. . أما من جهة المدينة فتمتد الصحراء من جدة إلى أكثر من ثلثي الطريق البالغ ٤٥٠ كيلومتراً، لتبدأ مجموعات جبال متباعدة تسمح أحياناً نادرة بوجود تربة فيما بينها تصلح لزراعة بعض أنواع الأشجار والخضراوات، ولعل واحة المدينة المنورة أكبر فسحة منبسطة تتوفر فيها المياه بين تلك الجبال.

جدة لا علاقة لها بأمر الحج والزيارة فهي بالنسبة لنا مجرد ممر، لذا من الأفضل إذا لم تكن متعباً يا دكتور، أن نواصل سفرنا إلى المدينة المنورة.

ـ لقد هيأت نفسي لتحمل التعب والمشقة إن شاء الله.

ـ في المدينة المنورة يقوم الحجاج بزيارة النبيّ الأكرم (ص) وأهل بيته الطاهرين (ع) وزيارة معالم المدينة، وليس لهذه الزيارة علاقة بأعمال الحج؛ كما

أنه ليس لها وقت محدد أو مدة محددة، ولذلك يزور بعض الحجاج المدينة قبل الحج مثلنا، وبعضهم بعد الحج، ويبقى بعضهم فيها أسبوعا أو أكثر أو أقل، ولكن الأتقياء يحرصون على قضاء عشرة أيام لكي يصلّوا خمسين صلاة فريضة في مسجد النبي (ص) ونرجو أن نتوفق لذلك وإن لم نكن من الأتقياء.

يبدأ الحج يا دكتور عندما نتوجه من المدينة إلى مكة، فنحرم للعمرة أي لمراسم دخول مكة المكرمة وزيارة بيت الله الحرام. فمن مسجد الشجرة الذي يقع على بعد سبعة كيلومترات من المدينة يحرم الحجاج للعمرة. وعندما ندخل مكة محرمين إن شاء الله نؤدي أعمال العمرة التي هي الطواف والسعي والتقصير، ثم نحل من إحرامنا ونبقى في مكة بشكل عادي ليس علينا واجبات حتى عصر اليوم الثامن من ذي الحجة، حيث نحرم مجدداً للحج، ونذهب إلى عرفات التي تبعد ٢٥ كيلومتراً عن مكة، ونبقى فيها إلى مساء اليوم التالي. . ثم نعود تدريجياً باتجاه مكة فنبيت ليلة العيد في المشعر الحرام ـ المزدلفة، ونتحرك منها صبح العيد لأداء المناسك في منى القريبة من مكة، وهي رمي الجمرات والذبح والحلق، ثم نعود إلى مكة لنطوف ونسعى، ثم نعود إلى منى ونبيت فيها ليلتين، ثم ينتهي الحج في منتصف اليوم الثاني عشر من ذي الحجة إن شاء الله. .

. . كان أصغر يتابع شرحه وإجاباته على أسئلة الدكتور حول أعمال الزيارة والحج، عندما طلبت المضيفة من الركاب أن يستعدوا للهبوط في مطار جدة. . .

صور من مطار جدة

في ساعة متأخرة من الليل، ما إن خرجا من صالة المطار إلى مبنى الحجاج الذي تظلله الخيام الضخمة، حتى فوجئ الدكتور بمشهد لم يكن يتوقعه، فعلى المبنى الصغير المقابل لصالة المطار كان يرفرف علم الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وتبرز قطعة كتب عليها (مقر مندوب الإمام الخميني)، وفي الساحة الممتدة أمامه عرضاً وطولاً رأى أكثر من ألفي حاج إيراني على شكل مجموعات: بعضهم يصلون جماعة، وبعضهم يتناولون الطعام على سفرة إيرانية، وبعضهم وصلوا لتوّهم فهم يرتبون حقائبهم ويفرشون بسطهم، وبعضهم جلسوا يستمعون إلى درس أحد العلماء، وبعضهم يتحرك.. ومع كل مجموعة أكثر من راية وقطعة خضراء أو زرقاء مزينة بشعار الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وعليها اسم المدينة ورقم القافلة واسم مسؤولها..

وقف الدكتور بين حقيبتيه يجول بنظره طويلاً في مبنى الحجاج الكبير ثم يركزه على الحجاج الإيرانيين، وقال بنبرة هادئة معبرة:

ـ ما هذا يا أصغر. لقد شعرت بالاعتزاز عندما رأيت على مدرج المطار حوالي عشر طائرات إيرانية، هذه تهبط، وهذه تقلع، وهذه رابضة وهي تحمل على صدرها شعار الجمهورية الإسلامية.. وقد أعجبتني جداً كلمتك الرائعة: لقد (أسلمت) البوينغ رغماً عنها، وسوف (تسلم) التقنّية الغربية على يد العلماء الإيرانيين بإذن الله وننتج طائرات (مسلمة) طوعاً لا كرهاً.. ولكن المشهد هنا شيء آخر. لقد وجدت نفسي دفعة واحدة في وسط الحجاج الإيرانيين

وفوجئت بأنهم بتنظيمهم ووحدتهم يشكلون ظاهرة ووضعاً مميزاً عن بقية الحجاج، وضعاً يشدك إليهم، ولا بد أنه يشد أنظار كل الحجاج . . إني أشعر بمعان كثيرة، أشعر بأن الإيرانيين بثورتهم أصبحوا قلب الأمة الإسلامية، وأشعر بانتمائي، بل أشعر بغربتي يا أصغر . .

وانهمرت دموع الدكتور بهرامي فنشفها بمنديله ووقف صامتا، ووقف أصغر صامتاً أيضاً، حتى إذا همّ بالكلام تقدم إليهما رجل سلم عليهما وقال بالعربية:

ـ هل تنتظرون رفقاءكم؟

قال أصغر: ـ نعم.

ـ تفضل يا أخي المسلم اجلس معنا وانتظر هنا . . وأشار إلى مجموعة من الحجاج الإيرانيين على بعد أمتار . . فقال له أصغر بالفارسية:

ـ أنت إيراني إذن؟

ـ نعم وأنتم إيرانيون أيضاً؟

ـ نعم.

ـ من أين؟

ـ حضرة الدكتور بهرامي من لاهيجان، وأنا أصغر مهدوي من طهران.

ـ تشرفنا وأنا محمد غيوري من قم. حسناً تفضلوا . . وانحنى الرجل ليحمل بعض حقائبهما فلم يمكّناه، وسارا معه إلى مركز قافلته.

كان المكان ساحة مفروشة بالبسط وسجادات الصلاة تحيط بها الخفائب على شكل حلقة كبيرة، وقد خصص جانب منها للنساء وجانب للرجال . .

سلّموا عليهم فرحبوا بهما وأجلسوهما إلى جانب العالم في صدر الحلقة، وقام محمد غيوري بتعريفهم، سألهم العالم:

ـ مع أي قافلة جئتم؟

أجاب أصغر: ـ لم نأت من إيران يا سيدي فنحن نسكن في إنكلترا وقد وصلنا الآن.. ونريد أن نواصل سفرنا إلى المدينة، وهناك نرتب أمر التحاقنا بقافلة إن شاء الله.

ـ سمعت أنهم لا يسمحون للإيرانيين بالتنقل داخل الحجاز بسيارت النقل العادية، وأن تنقلهم يجب أن يكون على شكل قوافل بالسيارات المخصصة لهم وبموجب قوائم.. وسمعت أن نقاط التفتيش تعيد الإيرانيين المخالفين لهذه التعليمات إلى مراكز حركتهم.

ـ هذا خير. لا يجب أن ننزعج منه، إنهم بسبب خوفهم منا يحثوننا على الوحدة والتنظيم أكثر. والتفت إلى غيوري متابعا: ـ يا أخ محمد هل يوجد مسؤول نراجعه بشأن الالتحاق بقافلة؟

ـ نعم في هذا المبنى يوجد ممثل عن مركز عمليات الحج.

سأله الدكتور بهرامي:

ـ وماذا يوجد أيضا؟

ـ يوجد ممثلون عن كل الجهات التي لها علاقة بالحج تقريبا، فمضافا إلى ممثل لمندوب الإمام يوجد ممثلون لمنظمة الحج والزيارة، ووزارة الإرشاد، والخطوط الجوية، والبنك المركزي، وبعثة الحج الطبية، قال العالم:

ـ يظهر أن الدكتور بعيد العهد عن إيران.

ـ نعم يا سيدي، فمنذ أكثر من عشر سنوات لم أزر إيران.

ـ أمَا لك فيها أقارب؟

ـ ليس لي أقارب قريبون، وقد كان لي عم وأخوال وخالات توفوا ولم يبق إلا عمتي.

ـ وأولادهم، والأقارب الآخرون؟

ـ مع الأسف لا أعرفهم، فعندما زرت إيران لم أر غير طهران، ولم نتوفق لزيارة لاهيجان.

ـ منذ كم سنة غادرت إيران؟

ـ منذ أكثر من أربعين سنة.

ـ وهل كنت تزور والديك وأهلك في هذه المدة؟

ـ كلا يا سيدي لم أرَ إيران منذ ذلك الوقت إلا مرة واحدة قبل عشر سنوات.

ـ كأن لك قصة يا دكتور؟

ـ نعم يا سيدي، وخلاصتها أن والدي كان من الملاكين في لاهيجان وأرسلني لأتعلم في بريطانيا من المرحلة الثانوية.. فكان يزورني كل عام، ثم تزوجت من فتاة بريطانية وجرت لوالدي بعض المشاكل مع أقاربه فاستجاب لرغبتي في أن يسكن هو ووالدتي معنا في لندن، وكنت ولده الوحيد وكان يحبني حباً جماً، فباع أرضه وكل ما يملك في لاهيجان واشترى بعض العقارت في لندن.. وقد توفي رحمه الله منذ سبعة عشر عاماً، وتوفيت والدتي بعده بسنتين.. رحمها الله، فقد كانت قوية الإيمان محجبة عابدة، لم تؤثر لندن على إيمانها قيد شعرة..

وسكت الدكتور هنيهة وهو يحبس دموعه، وتابع بصوت هادئ : ـ رحمها الله لم أعرف قيمة إيمانها وكلماتها إلا بعد أن حدثت الثورة الإسلامية وبدأت أفكر في بلدي وفي وضعي البعيد عن الدين. .

أرجو أن تعذرني يا سيدي ويا إخواني إذا شغلتكم عن اهتماماتكم العالية بشأني الشخصي ؛ فعندما خرجت قبل قليل من صالة المطار ورأيت الحجاج الإيرانيين شعرت كأني في مطار طهران، وعندما جاءنا الأخ محمد وقال إنه من قم،وجاء بنا إليكم شعرت أنني أدخل إلى قم المشرفة وأجلس في حلقة من حلقاتها ، وذكرت أحاديث والدتي رحمها الله عن قم وعلمائها وطلبتها ومدارسها والمرقد المقدس فيها. . أرجو أن تعذروني! وأن تدعوا لي ولعائلتي بالهداية والتوفيق. . قال الدكتور عبارته الأخيرة وقد تهدج صوته، فساد المجلس صمت وسكون لم يقطعه إلا نظرات بعض الحجاج يتأملون في أصغر والدكتور الذي كان يجثو على ركبتيه وينظر إلى الأرض. . رفع العالم رأسه ونظر إلى الدكتور قائلاً :

ـ اشكر الله يا دكتور أن وفقك إلى حج بيته الحرام وزيارة نبيه وآله عليهم الصلاة والسلام، وحق لمن كان وافداً على الله ورسوله أن يقبله ويستجيب دعاءه ما دام مخلصاً، وقد ورد في الأحاديث الشريفة أن الحاج يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. . وأن له ثلاث دعوات مستجابة ويستجيب الله فوق ذلك لمن يشاء بما يشاء. . فاحرص على التوجه إليه في حجك وزيارتك واطلب ما ذكرت من الهداية والتوفيق لك ولعائلتك. ونرجو أن نتوفق للدعاء لك ولأمثالك من أبناء إيران وأبناء المسلمين الذين هم ضحايا الغربيين وإحدى جرائمهم العظيمة بحقنا. .

قال أصغر : ـ نحن سعداء جداً، كما ذكر الدكتور فالجلوس في محضر

علماء قم وأهلها شرف عظيم، وفضلهم على إيران والعالم الإسلامي لا يوصف. . عندما خرجت من الطائرة شممت عطر مكة المقدس وها أنا أشمه ممزوجاً بعطر قم وكربلاء والقدس. . لقد استفدنا من كلمات مولانا حفظه الله ونرجو أن نتوفق لأداء فريضتنا العبادية السياسية بإخلاص ونستفيد منها إن شاء الله.

لا نريد أن نأخذ من وقتكم أكثر من هذا، وسنأخذ من الأخ غيوري عنوانكم في المدينة لنزوركم ونستفيض من توجيهات مولانا حفظه الله. .

ونظر أصغر إلى الدكتور فنهضا، ونهض العالم والحجاج وودعوهما. . بينما رافقهم غيوري إلى مركز عمليات الحجاج.

* * *

بعد أداء صلاة الفجر أعلن مسؤول القافلة الخراسانية أن على حجاج قافلة السيد الطبري أن يتوجهوا إلى السيارات في آخر مبنى الحجاج للسفر إلى المدينة المنورة، فأجابه الحجاج فرحين بالصلاة على محمد وآل محمد. . ودبت الحركة في مئتي حاج وحاجة يجمعون أمتعتهم وينقلونها إلى سيارة شاحنة. .

وقف أصغر والدكتور على الرصيف ينتظران أن يكتمل ترتيب الأسباب والركاب فقال أصغر:

ـ وهكذا أصبحنا جزءاً من قافلة خراسانية يا دكتور، كيف تراك الآن؟

ـ أنا في ساعات سعيدة من حياتي يا أصغر. . إنني أكتشف الشعب الإيراني وانتمائي إليه من جديد؛ أكتشف مدى فعل الإيمان في شخصية الإنسان. . انظر كيف طبعوا السيارات الخمس بطابعهم لقد لاحظت أن الحجاج ـ وليس مدير القافلة وعماله ـ هم الذين نصبوا عليها أعلام الجمهورية الإسلامية

وصور الإمام والآيات القرآنية وعلم القافلة . . وقد رأيت الواحد منهم يشعر بأنه مسؤول عن نقل كل الحقائب، لا يفرق بين حقيبته وغيرها، وها هم يقومون بترتيبها في السيارة باعتبار ذلك مسؤولية الجميع، لقد ذاب دور عمال القافلة وأصبح الجميع عمالا، بل أصبح الجميع حجاجا . . انظر إلى هذا الشيخ فوق الشاحنة كيف يتناول الحقائب ويرتبها بحيوية وفرح . . لقد شعرت بالخجل وترددت لما أراد أن يتناول مني حقيبتي، فوضعها بهدوء ثم هزها وضرب بيده عليها ونظر وكأنه يقول بذلك: اطمئن فإن مكانها محكم وسليم.

هل فكرت في قيمة هذه الروحية في حياة المجتمعات يا أصغر، وهل تدري أنها لا وجود لها في الغرب؟

ـ نعم فكرت يا دكتور، واتمنى لو انك ترى روحية الناس في مراكز التطوع للقتال (البسيج) وفي معسكرات التدريب، ثم في الجبهة حيث العجائب في السمو الانساني والإيثار والتضحية . . إن الإيمان يصنع العجائب في شعبنا يا دكتور، إنه حقا يعيد تاريخ صدر الإسلام. وما تراه ليس إلا شيئا بسيطا من روحية شعبنا وعطائه . . فقاطعه الدكتور قائلا:

ـ إن روحية الشهامة والعطاء في الأمور الصغيرة هي الأصل يا أصغر، وما لم تكن موجودة فيها فلا أمل أن توجد فيما هو أكبر.

فكر أصغر طويلا وقال:

ـ تقصد يا دكتور أنها مؤشّر عليها؟

ـ بل أقصد أنها بذورها وأصلها يا أصغر، فالعطاء الكبير في حياة الإنسان لا يتحقق إلا بعطاءات صغيرة تتجمع في نفسه وتثمر العطاء الكبير. إن العطاء يا بني حالة تحتاج إلى إرهاف إنساني وهمة، وما لم يتحرك الإنسان للعطاء في صغار

الأمور فهو يفقد الحس المرهف أو الهمة أو كليهما. . أخبرني هل رأيت أحداً لا يعطي في الأمور الصغيرة أبداً ثم أعطى في أمر كبير، أو ضحى بنفسه؟ وهل رأيت أحداً يعطي في أمر كبير أو يضحي بنفسه ولم يكن في حياته يعطي في الأمور الصغيرة؟

ـ هذه قاعدة تحتاج مني إلى تفكير، وأشكرك عليها يا دكتور.

ـ لا بأس ، فكر يا أصغر، أما أنا فواثق من صحتها، ومن أن الشعب الذي لا يعطي من نفسه في القضايا الصغيرة لا يعطي في الكبيرة، وبهذا تعرف حالة الشعوب الغربية. . إن حالة (البسيج) في إيران مستحيلة التحقق في الغرب، حتى في حالات الخطر عليهم، ولكن قوتهم في مؤسساتهم الرسمية وتقنيتهم.

مع قافلة الخراسانيين

كانت السيارات الخمس تنساب مع هواء الصباح تحمل إلى بيت النبي وآله قلوباً مشتاقة عانت في حبهم طويلاً . .

فقد انتظمت قافلة الخراسانيين في طريق مفتوح، ونسيم عليل، وأفق أخذت تُلَوِّنُه شمس الحجاز للشروق.

كم هو ناعم هذا النسيم، لقد تخلص من رطوبة ساحل جدة فهو آت من هذا المدى المفتوح . . من وراء تلك الجبال البعيدة البعيدة . .

ألهذا السبب تراه طرد النوم من عيون الخراسانيين وأنعش قلوبهم . . أم لأنه نسيم الحجاز، نسيم محمد . . وعلي . . وفاطمة . . والحسنين . ؟

وهذا الأفق الصحراوي هل تراه يشد أنظارهم إليه بسبب أعماقه وتلاوينه . . أم لأنه في وجدانهم مضمخ بدماء أهل بيت النبي . . ؟

آه يا أفق الصحراء، لقد انطبعت بيوم الحسين إلى الأبد . . فأنت تحمل فُوار دمائه عند الشروق ولوعة ظلامته عند الغروب .

في مثل هذا الأفق عند الشروق وقف الحسين في كربلاء فخطب فيهم وأبلغ الخطاب . . فبكوا . . ولكنهم قتلوه .

قرروا أنهم يريدون من الإسلام الشكل فقط فقتلوا المضمون . . وهم اليوم يقتلون المضمون ولا يبكون . . وها هو الأفق يتموج بدماء تلاميذ الحسين . . ولوعتهم .

وفي مثل هذا الأفق عند الشروق دخل بشر بن حذلم إلى مدينة الرسول ينعىٰ سبط الرسول. . فانتظمت تواشيح نعيه في أفق الحجاز. .

وقافلة السبايا من أهل البيت يا قافلة الخراسانيين. . هل دخلت إلى المدينة مع فوار الشروق، أم مع لوعة الغروب. . ؟

آه يا أفق الصحراء في الحجاز وكربلاء. . إن لك في كل قرية ومدينة في خراسان صوراً ولوحات ليست على جدران المساجد والحسينيات وإنما في حبات القلوب. .

فهذه القلوب الأربعون في السيارة وهي تنظر إليك. . إنما تراجع مخزونها عنك فتجدك أغنى. . أغنى. .

جاش منها قلب في آخر السيارة فوقف يغترف من الأفق ويفيض، وما إن قال: السلام عليك يا رسول الله. السلام عليك يا أبا عبد الله. . حتى نبعت الدموع من القلوب وانفجر الحجاج بالبكاء. .

ماذا قال هذا القروي الخراساني على مدى نصف ساعة فجعل قلوب الحجاج لا تهدأ، ودموعهم لا تنقطع.؟ لم يكن عالم دين، أو قارئاً اختاره مسؤول القافلة لهذه المهمة، فذلك الرجل كان يجلس في مقدمة السيارة وهو الذي ختم المجلس بقصيدة تجاوب معها الحجاج باللطم المنتظم على الصدور. .

كان صاحبنا قروياً، فلاحاً أو كاسباً أو عاملاً، ولكنه كان مليء القلب، مرهف الحس، نديّ العواطف وهذا أقصى ما يطمح إليه مثقف أو مختص في موضوعه. .

لم يقرأ لهم شعراً ولا تاريخاً، بل كان يعيش ما في نفوسهم ويفيض عما في

قلوبهم فعاشوا معه في كل تجواله . . ونبضت قلوبهم مع نبض كلماته، وأنّت صدورهم مع نبرات روحه . . كان يقرأ لنفسه قبل أن يقرأ لهم، فلو كان هذا الخراساني وحده في سيارة فربما زاد من التعبير عن مشاعره، أما لو يمشي في هذه الفلاة باتجاه المدينة فلعله كان يقرأ ويبكي . . . حتى يخر مغشياً عليه.

كان قد سمع مرشد القافلة قبل ساعة يعتذر إلى الحجاج لعدم إمكان زيارة قبر أبي ذر ومسجد النبي في بدر، ويعدهم بزيارتها من المدينة : «إذا سمحوا لنا، وذلك لأنا سنسلك إلى المدينة طريقاً جديداً لا يمر ببدر والربذة، وإنه طريق واسع أقصر من غيره وهو طريق هجرة النبي (ص) . . ».

سمع هذا الخراساني اسم طريق الهجرة من مرشد القافلة، فكأنه تلقى دعوة للهجرة مع النبي (ص) فقد رسم بعواطفه لهجرة النبي صوراً جعل الحجاج يكادون يرون النبي وهو يقطع هذه الفلاة راكباً على بعيره المتعب تارة، وماشياً تنثر خطواته رملها تارة أخرى . . وجعلهم في بعضها يشعرون كأن رفيقهم أمضى يومين يبحث عن النبي في طريق هجرته ليساعده ويفديه بنفسه، وها قد رآه يستريح في حر الظهيرة عند ذلك التل الصغير فركض إليه وأكب على قدميه يأخذ الرمل من تحتهما ويمسح عينيه . .

كانت كلمات هذا الخراساني بليغة . . ولكن التأثير ليس لكلماته بقدر ما هو لروحه التي صيّرها الحب شظايا تحمل نبراته . .

* * *

كان أصغر يستمع كبقية الحجاج ويبكي . . أما الدكتور بهرامي فكان يتفرج . . لقد سمح له جاوسه في آخر مقعد في السيارة أن يرى المشهد كاملاً : الفلاح الخطيب والمستمعين . . كان مشدوهاً، يستمع تارة بدقة إلى الصور

النابضة يرسمها الخطيب ويتفاعل معها الحجاج، وينظر تارة إليه وكان على مقربة منه، وتارة إلى الحجاج والسيارة والشارع، وتارة إلى الصحراء والأفق وقد بزغت فيه الشمس وأخذت ترتفع . .

وانتهى المجلس وبقي الدكتور متكئاً بيديه على شباك السيارة ينظر من خلف الزجاج ويفكر . . نهض أحد عمال القافلة يوزع طعام الإفطار قطعاً من خبز الحلوى أو حلوى الخبز وبرتقالاً وموزاً ، ووصل إلى آخر السيارة فتناول أصغر حصته وحصة الدكتور ووضعها إلى جانبه ولم يشأ أن يقطع على الدكتور تفكيره وينبهه إلى الطعام، حتى وقفت القافلة عند نقطة تفتيش وارتفع الصراخ بين سائق السيارة المصري والشرطي السعودي . . لم يعرف الحجاج شيئاً عن المشكلة إلا أنهم رأوا الشرطي يركض إلى شباك السائق والسائق يخرج يديه ورأسه من الشباك ويتبادلان الكلام والصراخ . . وكان السائق يتكلم بسرعة شديدة ويشير بكلتا يديه ورأسه إلى الشارع وإلى داخل السيارة، وكان الشرطي يتكلم بانفعال ويشير بيده إلى الشارع ويضرب بعصاه بعنف على مقدمة السيارة . . سأل الدكتور أصغر عن الأمر باعتباره يعرف شيئاً من العربية :

ـ ما المشكلة؟

ـ أظنها بسيطة تتعلق بالسرعة .

ولكن المشكلة انتهت فجأة، فقد عاد الشرطي إلى مكانه في الشارع يستقبل السيارات الآتية، بينما أخذ السائق أوراقه إلى جهة أخرى . . ولكن لم يطمئن الحجاج إلا بعد أن وقف عامل القافلة ـ وكان يعرف العربية ـ قائلاً : اطمئنوا . لا شيء . أوراق السيارة كاملة، ولكن الشرطي يقول للسائق كان يجب أن تتوقف هناك عندما أشار لك الشرطي الأول، وكان السائق يجيبه بأن

الوقوف في هذا الطريق دفعة واحدة مستحيل بدون تعريض الركاب للخطر، وأن وقوفه لا زال ضمن نقطة التفتيش . .

. . وانتهى إجراء التفتيش، ثم انتظمت السيارات في سيرها مجدداً، فقال الدكتور:

ـ حسناً أنه لم يطل هذا الجو النشاز وأننا عدنا إلى أجواء طريق الهجرة، ثم لمح طعام الإفطار إلى جنب أصغر فسأله:

ـ ما هذا ؟

ـ وزعوا طعام الإفطار، وكنت منصرفاً إلى الشباك تفكر، فاحتفظت به ولم أحب أن أزعجك.

ـ عفواً يا أصغر، وتنهد، وتناول منه إفطاره . . وفتح أصغر منديلاً فيه حبات من اللوز والتين اليابس وقدمه إليه ليأخذ منه:

ـ تفضل يا دكتور . . وهذا وزعه على الحجاج هذا الرجل الطيب الذي قرأ التعزية، وأشار إليه، وكانت تفصله عنهما ثلاثة مقاعد وتابع أصغر: ـ إنه رجل طيب ويظهر من قراءته فهمه وإيمانه . . لاحظته وقد أخرج كيسين من قماش خيطين باليد وفتحهما جيداً، وتقدم إلى أول السيارة فقبض منهما قبضتين أعطاهماللسائق، ثم حمل كلا منهما بيد وضيّف الجميع من هذا التين واللوز . . كان بعضهم يشكره ولا يأخذ أو يأخذ من كيس واحد ولكنه لم يرض حتى أخذ الجميع من الكيسين ولم يبق فيهما إلا القليل . . وقد سمعته يقول لأحدهم: تفضل فهذا من شراكة أبي عبد الله الحسين عليه السلام . . أتدري معنى ذلك يا دكتور؟

ـ ما معناه ؟

ـ يعني أن عنده أرضاً فيها تين ولوز وقد نذر قسما من محصولها للحسين عليه السلام ربعاً أو نصفاً أو أقل أو أكثر، فهو يقوّم الموسم عندما يظهر الثمر ويعطي سهم الحسين للمصرف الذي عينه لقراءة التعزية أو الفقراء القرية، أو لمصارف المسجد والحسينية، أو لطلبة العلم.. وما شابه .. وهو يعتز بما بقي به باعتباره مباركا لشراكة الحسين عليه السلام. ومثل هذا النذر وغيره شائع في ريفنا الإيراني.

ـ متأسف أني لم أكن ملتفتاً ولم أر منظر هذا الحاج يوزع التين واللوز لكي أسلم عليه.. على كل كنت نويت أن أتعرف عليه وأجلس معه.

ـ كأنك أحببته يا دكتور وكأن التعزية التقليدية تعجبك. لقد فكرت أن أتحدث معك حول مجالس التعزيةالحسينية في إيران وأثرها في الثورة، لكن لما رأيتك متكئاً إلى شباك السيارة قلت في نفسي لعله كان منصرفا عن الاستماع يفكر في شيء آخر، فنويت أن أحدثك في موضوع اخر..

فتبسم الدكتور وهز برأسه :

ـ نعم، وما هو الموضوع الآخر يا أصغر.

ـ نويت أن أطلب منك المقارنة بين الطريق من جدة إلى المدينة والطريق من لندن إلى ويلز، لأني أعرفك تحب ويلز وتسافر إليه في الإجازات.

ـ أنت طيب يا أصغر، أوَتظنني كنت منصرفاً عن هذا العالم الرائع الذي عبر عنه هذا الرجل وعشتم جميعاً في نعيمه.. وتغفر لي؟

ـ وهل من الضروري أن يعيش رفيقك كل الأجواء التي تعيشها يا دكتور؟

ـ ولكني صديقك يا أصغر وأحبك وتحبني.

ـ صحيح ما تقوله يا عم، ولكن التفاعل مع أجواء التعزية والدعاء وتلاوة القرآن وأمثالها من الأجواء الروحية يحتاج إلى ممارسة وإلى حالة توجه ذهني ونفسي، وأنا أعرف أنك لم تمارس هذه الأجواء في حياتك إلا نادراً، ولا أدري كيف كانت حالتك الذهنية والنفسية عندما قرأ الرجل، فربما كنت متعباً، وربما طرأ عليك أمر كنت تفكر فيه، وما دمت تحب مثل هذه الأجواء فهي في الحج كثيرة والحمد لله.

تنهد الدكتور وهز برأسه:

ـ لنتناول إفطارنا أولاً يا بني، ثم أحدثك أنا عما وجدت في التعزية وفي الشعب الإيراني، وأقارن لك بين طريق ويلز وطريق المدينة.. أعطني أولاً حصتي من حبات اللوز والتين لأتبرك بها..

تناولها الدكتور برفق ووضعها في كفه وسأل أصغر:

ـ كيف يأكلونها، هل هناك مراسم معينة لذلك؟

ـ كلا يا دكتور، فقط يستحب الابتداء باسم الله.

أخذ الدكتور يتناولها بعناية واحدة واحدة، يقول قبل كل حبة منها «بسم الله» ويرفع رأسه كأنه يتناول دواء ويمضغها جيداً وهو مسرور بها، وأصغر يتناول إفطاره وينظر إلى فعل الدكتور ويبتسم ابتسامة الرضا..

حمل الدكتور آخر حبة منها وقال:

ـ لم آكل في حياتي تيناً ألذ من هذا يا أصغر وكذلك اللوز، سأحدثك الآن فقط عن هذه النقطة وأرجو أن تتابع إفطارك.

وأخذ يدير حبة التين بين أصبعيه ويتأملها، ثم تابع:

ـ هل تعرف كيف يجيب الطب على سؤال: ما هي الشروط الضرورية ثم النموذجية لغذاء الإنسان؟ يقول: سلامته من المواد والتأثيرات المضرة بالجسم، وغناه بالمواد المفيدة.. أي أنه يجيب فيزيائياً فقط، وينظر إلى الإنسان باعتباره كائناً عضوياً كغيره من الحيوانات متجاهلاً أنه يجيب عن غذاء كائن يبلغ حجمُ عالمه الروحي وتفاصيله أضعاف عالم جسمه وتفاصيله..

وحتى في الإطار العضوي الفيزيوي، هل إن إجابة الطب كاملة؟ وما هي نسبة التفاعلات الفيزيوية التي اكتشفها ـ ولا نقول سيطر عليها ـ في عالم التغذية بالإضافة إلى تلك التي لم يكتشفها بعد.. ما هي تأثيرات الأغذية المختلفة على أمراض الكبد والجهاز العصبي والقلب وعلى معدلات سوائل الدم وأمراض الكريات.. وغيرها وغيرها من حالات المرض، بل وحالات الصحة، التي نعرف أن للأغذية تأثيرات فيها لم تكتشف بعد.؟

باختصار إن بحوث الطب في حقل أنظمة التغذية البشرية ليست أكثر من قواعد لتسمين أي حيوان، وهي مع ذلك قواعد ناقصة تحمل مئة خطأ وخطأ..

ومع ذلك فإن جواب الطب ـ أقصد العضوي طبعاً ـ يبقى أفضل من جواب الطب النفسي الذي يدرس المسألة من زاوية الانفعالات النفسية المحسوسة المتعلقة بالغذاء، والتي هي انفعالات نسبية متفاوتة من بيئة اجتماعية إلى أخرى، بل من إنسان لآخر.. فيضع شروطاً للأنظمة الغذائية تدور حول الجوع، والرغبة في الغذاء المعين، وحالة السعادة النفسية عند تناوله وهضمه.. وما شابه.

مشكلة هذا الطب النفسي أنه يفترض أن العلاقة بين غذاء الإنسان

وروحه توجد فقط على مستوى الانفعـالات المحسوسة فعلاً . . والتي هي انفعالات نسبية جداً إلى حد يلغي الثوابت في الروح الإنسانيـة . . إن المقياس في الطب النفسي هو ما تحس به الآن أنت المتغـذي وليس غيرك وليس فيـما بعد . . ومهما كانت الأسباب لإحساسك تجاه الغذاء . . فاللص المحترف الذي يدخل إلى منزل ويقتل أصحابه ويجلس على مائدتهم ويأكل طعامهم بشهية وهو مطمئن البال سعيد بما فعل، يقول الـطب النفسي إن غذاءه جـامع للشـروط النفسية؟

والنتيجة أن الطب النفسي لا يرتقي إلى أعلى من انفعالات الروح الحيوانية تجاه الغذاء . وبذلك تعرف يا أصغر إصرار الغربيين على حيوانية الإنسان حتى في الطب النفسي .

الغذاء الحرام . والغذاء الحلال . والغذاء المبارك . هل تدري كم تتضمن هذه المبادىء الثلاثة من قواعد وأنظمة غذائية . . وكم أن النسبة عظيمة بين جواب الدين بهذه المبادئ الثلاثة عن الشروط الضرورية لغذاء الإنسان وبين جواب الطب .

إن جواب الدين يأخذ العالم الكامل للإنسان فيزياءه وروحه معاً . ومن جهة أخرى يحفظ الثوابت في الروح البشرية ويلغي الإحساسات التي تنشأ من تشويه الروح مهما كانت قوية . .

ومن جهة أخرى يصل إلى أبعد من الغذاء النموذجي ، فالحرام في الدين يقابل المضر في الطب ، والحلال يقابل المفيد أو النموذجي . . أما المبارك فيقابل الغذاء الممتاز . .

ومن جهات أخرى وأخرى . . أنا متأسف لأنه ليس عندي ثقافة دينية ولا

اطلاع ديني . . قل لهم في طهران يا أصغر . . لوزير الصحة ، لأساتذة الطب في الجامعة ،للأطباء الشباب ، ليدرسوا مثل هذه الموضوعات . . وقل لعلماء الدين ليقدموا لهم النصوص الدينية المتعلقة بمبادئ التغذية ، فبذلك نقدم للناس أشياء جديدة تغير نظرتهم إلى الدين وإلينا .

اسمع هذه القصة الطريفة :

كان أبي رحمه الله يصحبني معه دائماً إلى طهران لزيارة بعض أصدقائه الإنكليز ، وفي كل مرة كانت والدتي رحمها الله تحاول أن تبقيني عندها . . وعندما تُغلب على أمرها تقرأ عليّ شريطاً في التحذير من الإنكليزوأولادهم ،وقد حفظته لكثرة ما كررته عليّ . . كان من جملته ، اسألهم عن اللحم قبل أن تأكله ؛ إنهم يا بني يأكلون لحم الخنزير القذر الذي لا غَيْرة له فيصيرون مثله قذرين بلا غيرة . كنت يومذاك طفلاً أفهم معنى القذارة وأتصور أن عدم الغيرة من نوعها . . على أي حال أشكر الله أني كرهت لحم الخنزير ولم آكله طيلة حياتي وقد منعت زوجتي وأولادي منه . . آه لعله الشيء الوحيد الذي كنا ملتزمين فيه بالدين يا أصغر . .

كان رفضي لأكل لحم الخنزير مسألة دائمة رافقتني في كل مراحل دراستي ، وكانت تتحول في بعض الحالات إلى مشكلة . . كنت أجيب الطلاب والمدرسين بأني لا أحبه ، ولكنهم كانوا يلحّون بالسؤال : لماذا يحرم دينكم لحم الخنزير فكنت في مراحل دراستي الأولى أذكر لهم جراثيم الأمراض التي يمكن أن ينقلها إلى جسم الإنسان ، ولكنني في مراحل الدراسة المتأخرة تركت هذه الإجابة لأن التعقيم ـ من جهة ـ ووجود جراثيم مشابهة ، وإن كانت أقل بكثير في لحوم أخرى لا يحرمها الإسلام ـ من جهة أخرى ـ يجعل جوابي غير منطقي . . واعتمدت بدل ذلك

الإجابة بأني لا أدري لماذا . . . حتى اتصل بي يوماً طبيب يهتم بالطب النفسي وقد حصل على شهادات فيه، قال: أرجوك هل عندك شيء في سبب تحريم الإسلام للحم الخنزير؟ أريد أن ترشدني إلى كتاب أو أي نص ديني . . عرفت أنهم أرشدوه إلي باعتباري مسلماً . ، وأنه يسأل عن شيء من اختصاصه في الطب النفسي، فتذكرت قول والدتي رحمها الله وكأني وجدته لأول مرة، وأجبته بأني لا أعرف أسماء كتب في الموضوع، وليس عندي أي معلومات دينية ،ولكني كنت أسمع من والدتي أن الخنزير قذر ولا غيرة له، وأن صفاته هذه تنتقل إلى من يأكل لحمه . . فاندهش الطبيب من هذا الكلام وقال :وهل هذا قول ديني؟ إذا كان كذلك فهو خطير وعظيم . . ورجاني أن أتصل تلفونياً بوالدتي وكانت على قيد الحياة رحمهاالله ؛فقالت نعم يا بني هذا يقوله العلماء وأهل البيت عليهم السلام .

ثم رأيته بعد مدة في مناسبة فبادرني بالشكر، وقال لقد قدمت لي هدية عظيمة سوف لا أنساها كل حياتي وقد زاد احترامي للإسلام . . إنها يمكن أن تكون قاعدة لانتقال بعض الصفات النفسية من الحيوانات والطيور والأسماك إلى الإنسان عن طريق الغذاء . . وقال إنه يبحث فيها . .

لم أعرف إلى أين وصل ذلك الطبيب، فقد سألت عنه فقيل ربما سافر . . ولكن وصلت إلى نتيجة إيجابية في المسألة عن طريق الملاحظة، وأتمنى لو أن أحداً يدرسها عن طريق البحث المخبري . . لاحظت عدداً كبيراً من الشرهين في أكل لحم الخنزير فوجدت عدم الغيرة والقذارة بارزين فيهم أكثر من غيرهم ، ولاحظت أفراداً من الإنكليز الذين لا يأكلون لحم الخنزير فوجدت فيهم الغيرة والسمو أكثر من غيرهم . . لا تتصور أن القذارة تعني هنا وساخة البدن والثياب وما شابه، بل هي تعني القذارة النفسية . . إنها حالة الانحطاط

والدناءة الخلقية، ويقابلها الترفع والسمو الخلقي. وكذلك الأمر في عدم الغيرة فهو لا يعني فقط عدم المبالاة بأن تزني زوجته وبناته وأبناؤه وأقرباؤه.. بل هو يعني حالة فقدان الحدود بين ما هو مسموح وممنوع. حالة الميوعة في المجتمع وانهيار ضوابط القيم فيه.. ولا أرى أي مانع طبي في أن يكون لأكل لحم الخنزير هذا التأثير الخطير، بل أرى المؤشرات على ذلك.. إن تأثيرات الغذاء على الروح، وتأثيرات الروح على الغذاء أكثر مما نتصور.. حقاً إن الروح والمادة كلٌّ واحد متفاعل، وإن الفصل بينهما كما قلت لي يوماً هو جهالة أو مؤامرة..

لقد أثار في نفسي هذا التين المبارك من هذا الفلاح المبارك أفكاراً كثيرة، وذكرني بأشياء كثيرة يا أصغر.. ذكرني بوالدتي رحمها الله.. هل تعرف أني لم آكل التين الإيراني منذ سنوات طويلة مع أنّا نوصي بعض الأصدقاء المسافرين على محصولات وأشياء إيرانية، أو يأتون هم إلينا بهدايا من هذا النوع، وفي مرة كان منها التين اليابس.. وكانت والدتي رحمها الله موجودة، فأخبرني الأولاد أنهم عندما قدموه إليها أشاحت بوجهها عنه وقالت: تين؟ لا. لا أحبه. لم يكن الأولاد يعرفون قصة والدتي مع التين، ولم أحدثهم بها إلا بعد ألا بعد أن بدأنا بالتدين والصلاة.

كانت لأبي أرض واسعة تزرع أرزّاً وشاياً وفي جانب منها بستان فيه تين وفواكه أخرى وكان لبعض أبناء عمي أسهم فيها، ولكن والدي أقام عليهم دعوى وأخذ الحكم بالأرض والبستان بواسطة علاقاته مع الحكومة.

كان تين تلك المزرعة مشهوراً متيمزاً بأنواعه وجودته، وكانت والدتي تحبه وتأكل منه وتهدي، وكان والدي يرسل منه إلى أصدقائه في طهران.. ولكن بعد أن أخذ الحكم بالمزرعة لم تتناول والدتي من تينها حبة واحدة، وأخبرتني فيما بعد

أنها لم تتناول شيئاً من محصولاتها الأخرى . . وأرادت يومذاك أن تمنعني من أكل التين لأنه ليس حلالاً ، ولكني كنت مثل والدي لا أعير كلامها اهتماماً . . كأن الأمر يحتاج إلى أربعين سنة حتى أفهم كلامها . . رحمهاالله كانت تقول لي : ماذا أصنع ، لم أستطع يا جمشيد أن أمنعك من أكل الحرام ، ولكن حليبك يا بني حلال .

لو تعرف يا أصغر ماذا خطر لي وأنا أمضغ هذا اللوز وهذا التين اللذيذ المبارك . . خطر لي تساؤل هو: هل يزيل هذا التين آثار التين الحرام من روحي؟ . وخطر لي أن أسأل عالم دين عن تأثير الغذاء الحرام على روحية الإنسان ، فلا بد أنه كبير . . لا بد ، ولا بد أن له علاجاً بغذاء آخر أو بعمل شيء . .

كان الدكتور ما زال ممسكاً بحبة التين وقد أنساه الكلام إفطاره ، وكان أصغر قد توقف عن الطعام يستمع إليه بإصغاء حتى أنهى كلامه فقال :

ـ يا عم ،أنا سعيد جداً بما سمعته منك ، لقد تأثرت به واستفدت أشياء جديدة ، وهناك بعض النقاط أحب أن أسأل عنها! لكن أرجوك أولاً أن تتناول إفطارك .

ـ حسناً يا أصغر ، وأعتذر أني منعتك من إفطارك .

وانصرف كل منهما إلى إفطاره ، وبدأ الدكتور بآخر حبة تين فتناولها على طريقته . . وما كادا يكملان إفطارهما حتى توقفت السيارة عند نقطة تفتيش أخرى . . ونظر أصغر إلى الدكتور مبتسماً ، ثم حاول أن يرى خارج السيارة لعل في الأمر شرطياً وصراخاً ، فسمع بعض الحجاج يقولون : جاء ، جاء . . وتوقع الجميع أن يتكرر المشهد السابق ،ولكن عامل القافلة كان ذكياً فقد ركض من

خلف السائق، وأخرج رأسه وكتفيه من الشباك ليبعد السائق، ويقوم هو باستقبال الشرطي الذي تأخر وصوله هذه المرة لحظات لأنه كان يهرول هرولة لا ركضاً . .

اشرأبت أعناق الحجاج واشرأب كتفا السائق المصري عندما رأوا الشرطي يصرخ ويتكلم بعصبية وهو يشير بعصاه إلى الشارع باتجاه الخلف، والعامل يبتسم في وجهه ويهز رأسه بالإيجاب ثم يكلمه بهدوء . . فيعود الشرطي إلى انفعاله، ويعود العامل إلى هز رأسه وكلامه الهادئ . . إلى أن . . . رأوا الشرطي وقد كف عن الانفعال، والعامل وقد فتح باب السيارة ونزل مسرعاً وسلم عليه وقبله، فانقشع الشرطي عن ابتسامة خفيفة، ونادى العامل السائق فحمل أوراق السيارة وذهبوا جميعاً وهم يضحكون . .

ـ هل فهمت ماذا جرى يا أصغر؟

ـ لم أفهم إلا كلمات قليلة، ولكن أتعجب كيف استطاع هذا العامل بأسلوبه وهدوئه أن يطفئ نار الشرطي وينتزع منه ابتسامة . .

سرعان ما عاد السائق والعامل وطلب من الحجاج أن يرفعوا أصواتهم بالصلاة على النبي وآله . . وتحركت السيارة وسيارات القافلة، وأخذ العامل يوزع الماء البارد على الحجاج وهم يبتسمون له ويشكرونه . . وأصغر والدكتور ينظران إليه بتأمل: كان في أواخر العقد الرابع! أبيض اللون، أسود الشعر. تشع عيناه ذكاء . . متواضعاً للحجاج بادي السرور في خدمتهم . .

وصل إلى آخر السيارة وهو يسقي الماء فقال له أصغر:

ـ نشكرك كثيراً حيث حُلْت دون وقوع المشاجرة بين السائق والشرطي وأنجزت المعاملة بسرعة . . فأحنى العامل رأسه قائلاً:

ـ عفواً.

الدكتور: أيها الأخ هل تسمح ببعض الأسئلة؟

ـ تفضل يا حاج.

ـ أرجو أن تروي لنا الحوار الذي جرى بينك وبين الشرطي.

ـ المهم النتيجة يا حاج، فالحمد لله أنه لم يحدث صراخ بين الرجلين، ولم نتأخر ساعة أو ساعتين.

ـ هذا صحيح، ولكن لي حاجة بالحوار إذا سمحت وتفضلت.

ـ لا أحفظ كل ما قال هذا المستضعف فقد جاء مغضباً كما رأيتم وقال: ممنوع الوقوف هنا. هيا ارجع إلى هناك، لماذا لا تفهم، لماذا لم تقف عندما أشرنا لك في أول نقطة للتفتيش.

قلت له: أولاً السلام عليك أيها الأخ المسلم، أنا أخوك مسلم إيراني أحبك وأحب كل المسلمين، وأرجو أن تسامح هذا السائق لأنه لم يستطع التوقف فوراً عندما أشرتم له. فقال: أين السّواق هيا يا سواق ارجع وأرجعوا كل السيارات! هيا. قلت له: صحيح يا أخي أنك مكلف بتطبيق القانون وعليك مسؤولية، ولكن الأمر ينتهي خلال دقائق إذا ساعدتنا.. ثق بأن أوراقنا كاملة وليس فينا غير إيراني سوى السواق المصريين، كل القافلة إيرانيون من الباب إلى المحراب. قال. أنا شغلي مع السواق وليس معك، أين السواق.. اطلع يا سواق.. قلت له: حسناً، ولكي ترتاح مني ومن السواق ومن القافلة ساعدنا عند صاحباك المسؤول عن تفتيش الأوراق حتى لا يتأخر وقوفنا في هذا المكان الممنوع.

هذه خلاصة الحوار يا حاج.. ولما رأيته تعب من انفعاله وسكت أمام

كلامي نزلت وعانقته وأخذته معنا ليقول لصاحبه أن يعجل بمعاملتنا لأن سيارتنا واقفة في مكان غير مناسب.

ـ وماذا قلت له حتى ابتسم؟

ـ قلت له : ما ذا نصنع يا أخي لقد جعلونا نحن الحجاج الإيرانيين بلاء عليكم لا ليلكم ليل ولا نهاركم نهار، ساعد الله قلبكم أيها الشرطة الطيبون . .

ـ حسناً، وماذا لو رجعت السيارت كما أراد؟

ـ أولاً يوجد خلفنا سيارات كثيرة والشارع كما ترى، وثانياً إذا رجعنا أصبحنا عندهم مخالفين وأخروا أوراقنا كما يشاؤون.

ـ ولماذا قلت له ليس فينا غير إيراني؟

ـ إن الهدف الأساسي من نقاط التفتيش يا حاج هو إيقاف السيارات غير المخصصة للإيرانيين،والتي يحتمل أن يكون فيها إيراني، وإيقاف سيارات الإيرانيين ليتأكدوا أنه ليس فيها غير إيراني . . إنهم يخافون أن نختلط بشعبهم أو يختلطوا بنا. ولو استطاعوا أن يخصصوا لنا مكاناً نحج إليه لفعلوا ولبنوا حوله جداراً حتى لا نرى أحداً من شعب الحجاز ولا يرانا.

ـ أنا سعيد بالحديث معك وقد أكثرت عليك الأسئلة، فأرجو أن لا تنزعج منها.

ـ عفواً يا حاج، تفضل.

ـ أرى لك معرفة بالوضع والناس هنا فهل أنت تحج كل سنة؟

ـ توفقت للحج مرة واحدة وهذه الثانية والحمد لله، ولكن بحكم معرفتي باللغة أختلط بالناس وأفهم منهم.

ـ هل أنت متأكد من أن إجراء التفتيش موجّه ضد الإيرانيين بقصد عزلهم عن الحجازيين؟

ـ بل متأكد أنهم اتخذوا عدة إجراءات لهذا الغرض وسوف تلمسها بنفسك يا حاج، ليس فقط لمنعنا من الاختلاط بالحجازيين بل بغيرهم من المسلمين أيضاً. . فالقيود على الإيراني تبدأ من المطار إلى التنقل، والسكن، والحرم، والمزارات، والمشاعر. . . إلى أن يعود إلى الطائرة الإيرانية. والقيود على الحجازيين أيضاً في كل شيء يتعلق بالإيرانيين. . مثلاً أخبرني مدير قافلتنا السيد الطبري أنهم منعوا الحجازيين هذه السنة من تأجير بناياتهم وفنادقهم القريبة من الحرم إلى الإيرانيين، وأن مكان قافلتنا في المدينة يبعد عن الحرم بضعة كيلو مترات، وفي مكة أكثر. . ألا تعرف ياحاج أن الحجازي يعتقل لمجرد أنه زار بعثة الإمام أو أي قافلة إيرانية؟ وقد يتعرض للاعتقال إذا جلس في صفوف الصلاة إلى جانب الإيرانيين وتحدث معهم. . وكذلك الأمر بالنسبة إلى غير الحجازي ولكن بدرجة أقل حدة. .

من الممكن أن يكون غرضهم من نقاط التفتيش أمور أخرى، ولكن الأهم من بينها ما ذكرت لك يا حاج. . هل تعرف ما هي عقوبة السيارة التي تنقل راكباً إيرانياً بين جدة والمدينة ومكة، سيارة أجرة أو سيارة صديق لا فرق؟.

ـ ما هي العقوبة؟.

ـ البارحة تحدثت مع سواق حجازيين في المطار، وجرى مع أحدهم الحوار التالي:

ـ كيف الشغل في هذا الموسم؟

ـ والله ضعيف جداً، فالموسم لحدّ الآن أخف من العام الماضي بكثير، ونقل الإيرانيين ممنوع .

ـ لماذا ممنوع؟

ـ والله ما أدري . . يخافون من مشاكلهم .

ـ هل توافق أنت على أن الإيرانيين أصحاب مشاكل؟

ـ المسلمون كلهم خير وبركة . . ولكن هذه يا أخي سياسة .

ولما أردت متابعة الحديث معه قال : يا حاج أرجوك لا تدخلني بالسياسة ، أنا صاحب عائلة وهذا اليوم يكاد يمضي وأنا لم أستفتح بنقلة واحدة .

قلت له : هل تريد أن أدبر لك نقلة إيرانية يعطونك على النفر مئة ريال ، أي نحو الضعفين؟ .

فضحك وقال : هل تريد أن تخرب بيتي؟

ـ لماذا؟

ـ حجز السيارة لمدة شهر وخمسة آلاف ريال .

ـ إلى هذا الحد؟ !

ـ وأكثر . . خمسين ألف ريال وسجن .

ـ سجن لمدة كم؟

ـ حتى يفرجها ربك . .

ثم وجه العامل كلامه إلى الدكتور وبعض الحجاج القريبين الذين كانوا يستمعون إليه بإصغاء، وقال :

ـ يجب علينا أن نعرف قيمة هذه الثورة الإسلامية جيداً، ونقوم بواجبنا نحوها، فلو لم تكن حقاً لما خاف هؤلاء الحكام من مجرد حديثنا مع شعوبهم.

فقال الدكتور وغيره: صحيح، صحيح، وفقك الله.

سأله أصغر: ـ يا أخي اين تعلمت العربية؟.

ـ كانت لي رغبة فيها منذ الصغر، وقد ساعدني على ذلك عملي فترة في الأهواز وعبادان.

ـ ماذا كنت تعمل هناك؟.

ـ في شركة النفط.

ـ والآن أين تعمل؟

ـ في مشهد.

ـ ما عملك؟

ـ عامل.

ـ في أي مجال؟

ـ في البناء.

كان أحد الحجاج الذين يستمعون إلى حديثه يتأمل في وجهه ويتذكر كأنه رآه، فسأله:

ـ يا أخي هل تعرف السيد رحيمي مدير شركة النفط في نيشابور؟

فتبسم العامل وقال: ـ يقولون إني أشبهه أليس كذلك؟.

ـ سبحان الله ما أشبهك به، كأنك أخوه أو من أقربائه..

ـ يا حاج ، إنما المؤمنون إخوة . .

واعتذر منهم العامل لينصرف إلى عمله . . وعاد إلى مقدمة السيارة .

هز الدكتور رأسه، ثم نظر من زجاج السيارة طويلاً، ثم قال :

ـ ما قولك يا أصغر في هذا العامل وكلامه؟ .

ـ كلامه صحيح مئة بالمئة يا دكتور وذكاؤه جيد، ولكني أكاد أجزم بأنه ليس عاملاً . . الرجل إمّا أن يكون هو نفسه السيد رحيمي مدير فرع شركة النفط في نيشابور، أو يكون . . أحد رجال المخابرات الإسلامية من شباب حزب الله المخلصين الآتين من متن هذه الثورة . .

ـ وكيف يكون نفسه السيد رحيمي ؟

ـ تدور حول عمال القوافل قصص طريفة يا دكتور، حيث يتنافس بعض الناس، الذين لم تشملهم الأولويات المقررة في قبول طلبات الحج ، على المجيء بصفة عمال في القوافل، يأتي أحدهم إلى مدير القافلة فيقول له : ألست تريد عاملاً يطبخ ويغسل الأواني وينقل الأمتعة ويخدم الحجاج؟ فيقول بلى . يقول له : فأنا أقوم بذلك على أحسن وجه مجاناً قربة إلى الله وأعطيك الأجرة كاملة وأضعافها . . وبعض هؤلاء أصحاب ثروة أو موظفون كبار أو أشخاص محترمون في مناطقهم . . ولكن مدراء القوافل بشكل عام يمتنعون عن قبول العمال من هذا النوع لاعتبارات متعددة . . لذلك صار بعضهم يخفي نفسه حتى على مدير القافلة ويقدم نفسه إليه على أنه عامل حقيقي . . فلعل صاحبنا من هذا النوع خاصة وأنه ذكر أنه كان يعمل في شركة النفط في الأهواز وعبادان . .

ـ لماذا لا يمكن أن يكون عاملاً؟

ـ صحيح أن هناك عمالاً إيرانيين يعملون في بلاد عربية يتقنـون اللغة العربية مثل أهلها، وهم بعد من الفئة المستضعفة الذين قـامت الثورة عـلى أكتافهم، ولكن هذا الرجل مستوعب وهادف بمستوى لا يمكن القبول معه أنه عامل بناء. . على أي حال سأحاول أن أعرفه، سوف أسأل هذا الحاج الذي اشتبه به، ثم أتحدث معه هو.

ـ لماذا ، لماذا هذاالاهتمام بكشف الرجل يا أصغر، لقد لاحظت ثقل أسئلتك عليه، فهل هو نوعية شريرة حتى تهتم بكشفه وإزعاجه، وماذا يهمنا أن يكون هذا الإنسان الذكي المخلص لدينه ووطنه عاملاً، أو موظفـاً، أو من رجال مخابرات الثورة. ؟ إنما يهمنا المضمون والغنى في الإنسان. . نكس أصغر رأسه خجلاً وقال:

ـ صحيح، صحيح يـا عم، لقد انـدفعت بفضولي في اتجـاه خاطئ ! فمعذرة، وأستغفر الله وأتوب إليه. . لعن الله الشيطان كيف وسوس لي وأنا في الحج ليفسد عليّ عبادتي. . أشكرك يا عم عـلى تنبيهك. . إن مـلاحظاتـك وأفكارك عن الناس تعجبني كثيراً. . والواقع أنك أستاذي في ذلك وأرجو أن أكون تلميذاً جيداً.

ـ قد أكون على حد تعبيرك أستاذك في هذا المجال بحكم سني واهتمامي بفهم الناس، ولكنك يا أصغر خير مني، فأنا أعرف أن رغبتك في كشف الرجل هفوة ليست من خلقك، إنها جموح الاستطلاع في الشباب وسيزول عنك. . وما أدري هل علّمتك في هذه المسألة أكثر أم تعلمتُ منك يا بني، هل تعرف معنى أن يكون للإنسان حدود خلقية وأن يذوب عندها خجلاً وندامة إذا تجاوزها أو نوى أن يتجاوزها؟. هل تعرف أن هذا الغنى في الشخصية لا وجود لـه في الغرب. ؟ .

اسمع مني يا أصغر. . إن ما رأيته منذ البارحة إلى اليوم، من مشهد الإيرانيين في المطار، والعالم القمّي وجماعته، إلى مركز عمليات الحج وأصدقائك من بعثة الإذاعة والتلفزيون ، إلى القافلة الخراسانية وما شاهدناه في سفرنا اليوم. . يؤكد لي قناعتي بأني لم أكن أعرف الشعب الإيراني،وأن عليّ أن أكتشفه من جديد. . لقد كنت معنياً بفهم الناس منذ صغري، وقد حافظت على هذا الاهتمام في كل مراحل حياتي ولا أزال، وكنت أحمل عن الشعب الإيراني صوراً وتحليلات أصنفه فيها بدرجة متأخرة عن شعوب أوروبا وأمريكا وأوروبا الشرقية وروسيا واليابان. . فلما قام بالثورة الشبيهة بالمعجزة، اهتزت تلك الصورة وبطلت أكثر عناصرها. . كنا نجلس مجموعة أصدقاء إيرانيين وبريطانيين ونتحدث كثيراً. . ونتفق بالنتيجة على أن معرفتنا بالشعب الإيراني كانت ضعيفة ،وأن هناك أشياء كثيرة في وجدانه وحضارته لم نكن نعرفها. . كانوا يحاولون أن يكوّنوا صورة جديدة له أو يسدوا الفراغات التي انهارت من الصورة السابقة. . ولكني لم أوافقهم على ذلك. . لاعتقادي بأن الاستعجال في تكوين صورة سيوقع حتماً في الخطأ، وأن من المنطقي لمثلي أن يعترف بخطأ صورته السابقة، ويتأنى ويتعب في تكوين صورة جديدة. .

هل تدري إلى أين وصلت في هذه السنوات الخمس يا أصغر. . ؟ وصلت إلى أمرين جوهريين: الأول معرفة السبب الذي أوقعني في الخطأ. والثاني معرفة المفتاح الأساسي لفهم الشخصية الإيرانية والمجتمع الإيراني.

سبب خطئي يا أصغر أني لم أحتك بالشعب الإيراني ولم أكوّن صورتي عنه من مصادر صحيحة. . ففي طفولتي كنت معزولاً عن الناس، لم أختلط في لاهيجان إلا بعدد محدود من أولاد أصدقاء والدي، كان رحمه الله لا يرضى أن أتخذ أصدقاء من أولاد الخدم في البيت، أو أولاد الفلاحين في المزرعة. . وأنا ربما

كنت آنف أيضاً . . فقد سمعتهم يوماً في القرية يسخرون مني ويهمسون لبعضهم: انظروا ابن خسرو خان يلبس مثل الإنكليز.

كنت أذهب مع والدي إلى المزرعة فيجلس في مكان خارج بيوت الفلاحين ويوصيني أن أبقى معه أو قريباً منه، وألا أذهب إلى داخل القرية . .

أذكر آخر مرة دخلت فيها إلى تلك القرية الصغيرة، وكان الأولاد يلعبون في ساحتها فلم يرحب بي إلا ولدان كان أبوهما يتردد علي بيتنا كثيراً! ، وكانا وعداني أن يعطياني حسونين وبلبلاً، فذهبا وجاءا بها ليعطياني إياها، ولكن أحد الأولاد نهرهما قائلاً: ألم أقل لكما إنها لا تعيش عندهم . . فقالا له: صحيح، صحيح سنبقيها عندنا . . وانصرفا عني ولم يعودا . .

وعندما شكوت إلى والدي وبخني لذهابي إليهم، وأمر أباهما فأتى بها وبغيرها من العصافير ولكنها لم تعش في بيتنا يا أصغر، ولو بقيت في بيتهم لعاشت وفرّخت . .

يبدو أن مشكلة كل أولاد المترفين مثل مشكلتي، إنهم يعيشون في عزلة عن الناس، فلا يستطيعون أن يفهموهم . . وعندما يكبر أحدنا ويهتم بفهم إيران والشعب الإيراني فهو يعتمد على أمثاله أو على المصادر الإنكليزية، ولكن كتّاب هذه المصادر ليسوا أقل منا عزلة عن الشعب الإيراني، بل هم أشد . . هذا بقطع النظر عن الأهداف التي يقصدونها من كتبهم.

بعد الثورة كنت أفكر كثيراً في سبب خطأ تصوري عن الشعب الإيراني، وفي ذات يوم وقد كنت أناقش الأمر في نفسي وجدتني فجأة أكتشف أني في قعر الوادي . . فلا أنا اختلطت بالشعب الإيراني وعايشته، ولا أخذت الصورة عنه من مؤلفين اختلطوا به وعايشوه . .

يا أصغر . من يقول لك من الإيرانيين المستوطنين في الغرب إنه يفهم الشعب الإيراني فلا تشك في أنه مخطئ . . أنا نموذج منهم ، وأنا من أشدهم اهتماماً بفهم الناس وفهم بلدي . .

أما المفتاح والسر الذي يمكن به فهم الشخصية الإيرانية فهو الدين وليس شيئاً آخر . . لا جغرافيا ولا تاريخ ولا اقتصاد ، ولا عراقة في الحضارة . . فكلها يجب أن ننظر إليها على أنها نتائج تنتج عن سر الشخصية الإيرانية ، أو أدوات تسخر في خدمة هذا السر . . ومن حاول عن غير هذا الطريق فسيكتشف يوماً أنه كان يبني على فراغ . . لقد عشت مع والدتي رحمها الله قرابة أربعين سنة ولم أستطع فهم العديد من جوانب شخصيتها حتى بدأتُ بالتدين والتزمت بالصلاة وتعرفت على بعض أحكام الطهارة والنجاسة ، وبدأت بالتقليد وتعرفت على شيء من العلاقة بين المسلم وبين مرجع التقليد ، وعرفت معنى امتناع والدتي عن الالتحاق بنا في لندن سنتين كاملتين حتى أفتى لها المرجع . .

رحمها الله ، طلبت منها يوماً أن تطلعني على هذه الفتوى التي كانت تتضمن على ما يبدو شروطاً مشددة ، وكان والدي حاضراً فلم تقبل وقالت : أنتم ليس عندكم اعتقاد بهذا الأمر . . وكانت تحتفظ بردود العلماء على رسائلها وأشياء من هذا القبيل في صندوق ، فكان والدي يسميه «الصندوق المقدس والرسائل المقدسة» ولكنه لم يكن جاداً في تعبيره .

يا أصغر ، التدين لا يساعدك فقط على أن تفهم شخصية المسلمين ، بل وشخصية غيرهم أيضاً . . هل تعرف أني لم أفهم الشعب البريطاني بشكل كامل رغم أني عايشته بفئاته المختلفة وقرأت كثيراً لمن عايشوه ، إلا بعد أن بدأت في سلوك طريق التدين وبدأت أفهم شيئاً عن الإيرانيين . .

يا أصغر، إن ما أراه من غنى في شخصية هذا الفلاح الخراساني وهـذا العـامل وهؤلاء الحجاج، هو الـذي يعرفني مـدى الفقر في شخصيـة الفلاح البريطاني والشعب البريطاني. . وهذا الغنى الذي أراه في هذا الشارع الواسع الذي يشق صحراء قاحلة وهضاباً جرداء ويمر في نفس الخط الذي سلكه النبي (ص) في هجرته أو قريباً منه. . هو الذي يعرفني مدى الفقر في طريق ويلز ومروجه الفسيحة وهضابه الخضراء. .

كنت في السابق أقارن بين حياة الفلاح الإيراني والفلاح البريطاني فأفترض جدولاً لحياة الأسرتين يشمل ظروف العمل وساعـاته، والـدخل السنـوي، والتعرض للأمراض والمعالجة، ومستوى الرفاهية في الغذاء والسكن ووسائل المتعة، وتعليم الأولاد، والضريبة، والضمان الاقتصادي والاجتماعي. . . . وأضع نسبة مئوية لكل جانب، فتكون النتيجة لصالح الفلاح البريـطاني في بعضها بنسبة عشرة بالمئة وفي بعضها بنسبة عشرين وأربعين وسبعين. . . ما عدا الوضع الصحي حيث كانت تتعادل فيه حياة الأسرتين بالنتيجة، وما عدا الروابط الأسرية التي تصل في الأسرة الإيرانية إلى درجة تسعين بالمئة ومئة بـالمئـة بينها لا تزيد في الأسرة البريطانية على خمس عشرة بالمئة لإصابتها بمرض تفكك الأسرة المعاصر. . الخ.

ولكني الآن أراه أسلوباً بدائياً لا يصلح للمقارنة بين حياة شخصين أو أسرتين أو شعبين. . هل من الإنصاف أن نقارن بين حياة موظفين أحـدهما عبقري شاعر والآخر عادي خامل، فنضع بنوداً ونسباً لحياتهما المادية وروابطهما الأسرية والاجتماعية. .؟ فأين إذن عوالم الأفكار والمشاعر والعبقرية التي يمارس فيها الشاعر الحياة وأشياءها ويعيش فيها سعادات وآلاماً لا وجود لها عند

زميله، ويرسم منها لوحات تترنم بها شفاه الناس وتؤثر في حياتهم وتخلد في وجدانهم . ؟

إن البنود العشرين أو الأربعين لجوانب المعيشة والعلاقات الأسرية والاجتماعية قد تستوعب حياة الأسرة البريطانية،ولكنها لا تستوعب إلا جزءاً من حياة الأسرة الإيرانية . . ذلك أن عوالم الحياة الدينية لدى هذه الأسرة واسعة جداً وفاعلة في حياتها جداً.

إن هذا الفلاح الخراساني يعيش عوالم واسعة ومتنوعة مع الله والأنبياء والنبي محمد (ص) وأهل البيت ومرجع التقليد والآخرة . . لا تقاس بما يعيشه الفلاح البريطاني مع المسيح والعذراء والقديسين والكنيسة . .

وعوالم هذا الفلاح الخراساني فاعلة في حياته وأشيائها بدون استثناء . . فهي تعطيه الإحساس بها، وتحدد قيمتها، وتوجهها لهدفها، وتطبعها بطابعها . . هي التي تجعله يعيش مع الإمام الحسين ويشاركه في بستانه، ويعيش مع المرجع يأخذ منه الفتوى ويرسل إليه خمس أرباحه، وتجعله يرسل ولده الحبيب إلى القتال ويفرح بشهادته . . وتجعله يدخر لكي يتبرع للحسين وللجبهة، ولكي يزور الإمام الرضا ويحج بيت الله الحرام، وهذه الفاعلية لا وجود لها ولا لما يشبهها في حياة الفلاح البريطاني والشعب البريطاني .

كنت في السابق أنظر إلى العوالم التي يعيشها المتدينون على أنها عوالم روحية معزولة عن حركة الحياة،فلا هي مستوعبة لها ولا فاعلة فيها، ولكنها نظرة تصح فقط بالنسبة إلى الحياة الروحية عند الرهبان الغربيين . .

أما الحياة الروحية عند شعبنا فقد كشفت لنا الثورة أنها ذات فعل في الحياة

لم نكن نتصوره . . إن اللوحات التي رسمها هذا الفلاح من حياته في عالم النبي (ص) وعالم الحسين (ع) وتفاعل معها الحجاج، كانت تصدر عن رؤية كاملة لعصرنا ولحركة الصراع فيه بين خط الرسول وولده الحسين - من جهة - وخط المشركين والطواغيت - من جهة أخرى . . . لقد أدهشني هذا الربط والمزج العجيب الذي يعيشه هؤلاء الحجاج بين هجرة النبي ومعاناته وظلامته في نفسه وأهل بيته، وبين معاناة أتباعه ومحبيه إلى اليوم . . بين قتلى كربلاء المضرجين بدمائهم، وعوائلهم وأطفالهم الأسرى، وبين قتلى الإيرانيين في الحرب الفعلية وأسراهم . . بين أبي جهل وأبي لهب المشركين ويزيد وابن زياد، وبين رؤساء العالم المعاصرين . . إن ساحة الصورة في عالم هؤلاء الحجاج ساحة واحدة تشمل الماضي والحاضر والمستقبل وتتناسق فيها جميعاً.

كنت عندما أسمع منك يا أصغر ربطاً للعقيدة الإسلامية ومفاهيمها بالأوضاع السياسية المعاصرة؛ أو أقرأ ذلك في منشورات الثورة وفي الكتب والمجلات والصحف الإيرانية يعجبني ذلك وأتأثر به، وأعتبره عبقرية في توظيف الحياة الروحية لمصلحة الثورة. ولكني أخذت أكتشف أخيراً بأنه انسجام مع وظيفة المفاهيم والحياة الدينية وليس توظيفاً لها . . إن الإمام الخميني لم يقم بتوظيف الدين والحياة الدينية عند الشعب الإيراني، فهذه الوظيفة موجودة في الدين الإسلامي أساساً . . وإنما قام بالتعبير عن هذه الوظيفة وجعل الملايين تعبر عنها وتنسجم معها . .

أما الحياة الدينية عند الغربيين فهي تعجز عن هذا الفعل العميق في حياتهم . . إنها بالأصل محدودة وغير موظفة لهذا الفعل في الحياة، وإذا حدث أن وظفت يجيء فعلها ثانوياً . . سنكون سطحيين جداً أو ظالمين جداً إذا أجرينا

المقارنة بين الحياة المادية لهذا الفلاح الإيراني وزميله البريطاني، وتجاهلنا حياته الروحية بعوالمها الواسعة وفعلها القوي في حياته . . إنه يا أصغر يعيش حياتين؛ أولاهما واسعة شاملة تكمن في عوالمها كل قيمه ودوافعه وأسراره، وآلامه وأناشيده . . وثانيتهما حياة مادية مع أسرته في أرضهم ومسكنهم وملبسهم ومأكلهم وعلاقاتهم . . وهي حياة مطبوعة بمجملها وتفاصيلها بحياتهم الأولى وخاضعة لها خضوع الظاهرة لأسبابها .

تعال ساعدني يا أصغر كي نقارن بين حياة هذا الفلاح الإيراني؛ ولنفترض أنه رب أسرة مكونة منه ومن زوجته وخمسة أولاد، وأنهم يملكون أرضاً لزراعة القمح والشعير، وبستاناً فيه أشجار كرز وعنب ولوز وتين وقطعة يزرعونها زعفراناً، وأنهم يملكون خمس بقرات وحصاناً، ويعيشون في قرية من أربعة آلاف نسمة . . وبين فلاح من شمال بريطانيا؛ تتكون أسرته منه ومن زوجته وثلاثة أولاد، ويملكون أرضاً لزراعة البطاطا، وخيماً بلاستكية لزراعة الخضار، وخمس بقرات وحصاناً، وجراراً زراعياً وسيارة، ويعيشون في قرية مشابهة . .

من أين نبدأ المقارنة، وكيف نضع الجداول . . هل نغمض عيوننا عما يعيشه الخراساني وأسرته من عوالم روحية، ونبدأ من ذهابهم في الصباح إلى أرضهم . ؟ ألا يحق له أن يقول لنا : ماذا صنعتم، لقد ألغيتم القسم الأهم والأغلى من حياتي، إنها حياتي العليا، وأنتم تقارنون بين حياتين لإنسانين وأسرتين . . وحتى لو بدأنا بحياتهم المادية الظاهرة للعيان، فماذا نصنع أمام عشرات المفارقات التي تعترضنا؟

أول ما يعترضنا نظرة الأسرة الإيرانية إلى الحياة والأرض والعمل التي تؤكدها صلاتهم في مطلع يومهم ووسطه وختامه . . فكيف نقارن بين نظرة الأسرتين للحياة والأشياء وشعورهما المختلف تجاهها . .

كيف نقارن بين شعور الأسرة الإيرانية تجاه ولدهم الذي يساعد الثوار المسلمين في لبنان، وبين شعور الأسرة البريطانية؛ تجاه ولدهم الذي يعمل حارساً للسفارة البريطانية في لبنان؟

كيف نقارن بين حالة الرضا والاطمئنان عند الأسرة الإيرانية؛ إذا أضر الثلج والمطر ببستانهم فأعطى ربع محصوله.. وبين حالة التأزم العصبي والكارثة عند الأسرة البريطانية إذا أضر البرد بخضرواتهم فأعطت ربع محصولها..؟

كيف نقارن بين شعور الفلاح الإيراني نحو أمه العجوز؛ التي تصبح بعبادتها ووقارها بركة المنزل وملاكه المحبوب.. وبين شعور الفلاح البريطاني وأسرته نحو أمه العجوز؛ التي لم تقبلها مؤسسات العجزة فبقيت في زاوية المنزل كائناً ثقيل الظل مكروه المنظر؟.

كيف نقارن بين سفر العمر عند هذا الخراساني وزوجته إلى الحج والزيارة وكيف يمضيانه وبماذا يرجعان منه.. وبين سفر العمر عند الفلاح البريطاني وزوجته إلى ساحل مالقة الإسباني، وكيف يمضيانه وبماذا يرجعان منه؟..

إن الفارق بين حياة شعبنا الإيراني والشعوب الغربية، ليست فقط في الكمية وأن شعبنا يعيش حياتين حياة روحية وأخرى مادية، بينما يعيش الغربيون حياة مادية فقط.. بل هو فارق في نوعية الحياة المادية أيضاً، في فعل الحياة الروحية فيها وإشراقتها عليها، وفي حدة الحياة المادية عند الغربيين ولونها القاتم يا أصغر..

ـ أرجو أن تسمح لي يا عم، فمع تقديري لهذه الأفكار العميقة وسعادتي بها، خاصة في كشفك عن الحياة العليا عند الشعب الإيراني، وتحليلك لفعلها في

حياته المادية . . إلا أني أراك ألغيت الحياة الروحية أوالعليا عند الغربيين . .

يبدو لي أن الحياة الروحية أمر فطري عند كل إنسان ، وأن الديانة المسيحية فيها حياة روحية وإن اختلفت في كميتها ونوعيتها عما في الإسلام . . وأن المقارنة ينبغي أن تكون بين الحياة الروحية عند الأسرة المسلمة بعوالمها الواسعة وفعلها في حياتهم المادية ، وبين ما يقابلها من حياة روحية عند الأسرة الغربية وإن كانت محدودة السعة ومحدودة التأثير . .

ـ أتمنى يا أصغر لو تتعرف عن كثب على حياة الأسرة البريطانية في المدينة والريف ، لترى كيف تقوم المادية الحيوانية القاسية في هذا المجتمع بتشويه الفطرة الإنسانية . .

وترى أن ما عندهم من أفكار ومشاعر عن الدين والمسيح والعذراء والإنجيل والكنيسة . . ليس أكثر من عالم محدود ضبابي وخامل ، لا يستحق أن يسمى حياة أو عالماً من حياة الإنسان . . أجل يا أصغر ، لا توجد في الغرب حياة روحية تستحق المقايسة بالحياة الروحية للأسرة العادية في مدننا وأريافنا . . لا من حيث سعتها ووضوحها ، ولا من حيث تأثيرها في حياتهم . . فالذين يعيشون الحياة الروحية المسيحية في كل المجتمع البريطاني أفراد لا يتجاوزون العشرات أو المئات ، ولا يشكلون فيه تياراً اجتماعياً ولا جماعة . . شبيهاً بالذين يعيشون الحياة الروحية في إيران . . ونحن إنما نقارن بين نموذجين ومجتمعين وليس بين حالات شاذة أو استثنائية . .

إنك يا أصغر بكلامك عن الفطرة الإنسانية والحياة الروحية عند الغربيين تذكرني بنظرتي إليهم في طفولتي وشبابي . . ونظرتي بالمقابل إلى شعبنا الإيراني . .

كنت بحكم نشأتي في بيئة أصدقاء والدي من الملاكـين وبعض موظفي الدولة وبعض البريطانيين؛أنظر إلى الشعب الإيـراني على أنـه مثال التخلف والخرافة . . وإلى الشعب البريطاني والشعوب الغربيـة على أنها مثـال التقدم العلمي والحضارة الإنسانية . . كنت أقدس كل ما هو غربي وأحتقر كل ما هو إيراني . . آه يا أصغر . . لم أعرف إلا في وقت متأخر أن هذا التقديس للغربيين إنما كان بسبب طاقتي الروحية الموروثة وبما غرسوه في فطرة طفولتي . . لم أعرف إلا في وقت متأخر أن المسلم الإيراني إذا كفر بعالمه الروحي فهو يصنع لنفسه عالماً روحياً زائفاً من ها هنا وها هنا .

أعرني انتباهك يا أصغر لكي أهديـك نتيجة معـاناتي في فهم المجتمـع البريطاني ، الذي هو النموذج الكامل ـ إذا لم يكن الرائد ـ للمجتمعات الغربية كلها وللأمريكان ، الذين هم أبناء الأوروبيين وامتدادهم في بلاد الذهب ، وللروس أيضاً ، الذين هم امتداد أوروبا الصحراوي البدوي .

جئت إلى بريطانيا يا بني أحمل صورتي المثالية وعالمي الروحي عن الشعب البريطاني . . ومن الطبيعي أن أبدأ باكتشاف خطئي في وقت مبكر . . كنت يوماً أتحدث في هذا الموضوع مع والدي رحمه الله فقلت له : هل توافقني يا أبت على أن الصورة التي يعطيها الإنكليز عن أنفسهم ومجتمعهم في لاهيجان أو طهران تختلف عن واقعهم هنا إلى حد التناقض . . ؟ فقال : كل قوم يا بني يسعون إلى تقديم أنفسهم إلى الآخرين بأحسن صورة من أجل مصالحهم . . الدينا كلها مصالح يا جمشيد ، وهذه القيم التي تريدها لا تـوجد لا في بـريطانيـا ولا في غيرها . . يكفي أن الجماعة عندهم علم وعندهم أخلاق ، هل كنت تستطيع أن تحصل على شهادة عالية في إيران . . هل تستطيع أن تعمل هناك بمثل مرتبك هنا؟ . يكفي أنك هنا تعيش باحترام ،وأنهم يقدرون علمك وخدمتك كواحد

منهم . . ولو كنت في إيران لواجهتك ألف مشكلة . . أنت لا تعرف يا جمشيد كم لا قى أبوك من ذلك المجتمع الهمجي المتخلف . !

رحمه‌الله ؛كان يعيش ردة فعل من إيران ، فقد عانى فيها كثيراً من أقاربه ومن الفلاحين ،حتى أن عالِم المنطقة كاد يفتي بقتله ، وكان والدي يسميه الملاّ الجاهل المتحجر . . ولكني لا أقول إن والدي كان مظلوماً . . . أبداً . .

على أي حال أشكر الله أني لا أعيش ردة فعل من المجتمع الإيراني أو البريطاني ، فقد هاجرت من إيران طفلاً ، وعملي في بريطانيا وعلاقاتي الناجحة فيها كما تعرف . . ولقد عانيت يا أصغر في فهم هذا المجتمع معاناة طويلة ، في الاختلاط بأهله وملاحظتهم والقراءة عنهم ، معاناة قلّما تتهيأ للشرقيين وحتى للبريطانيين . . ووصلت إلى صورة عنه لم تزدد مع السنين إلا تأكداً ، ولم يطرأ عليها سوى تغيّرٌ ما بعد الثورة الإسلامية الإيرانية .

هل تعرف يا أصغر حالة في التاريخ لقوم أو جماعة ؛شحّت عليهم موارد الرزق وانعدمت فيهم القوانين والقيم ، فالقوي فيهم يأكل الضعيف ، والضعيف يحتال على القوي ، والحق فيهم مع السارق لأنه فاز بالمال ، ومع الخائن لأنه ذكي ، ومع القاتل لأنه انتصر . . !فهم يعيشون حياة مادية نهمة معمقة قاسية لا يشعرون بغيرها ، ولا يريدون أن يشعروا بغيرها . . ؟!

ـ هذه الصفات يا دكتورموجودة في شعوب كثيرة في التاريخ وفي الحاضر ، بنسب متفاوتة ، ولكن يبدو أنك تريدها مجتمعة في شعب أو جماعة . .

ـ نعم أريدها مجتمعة ، وهل تاريخ القبائل الأوروبية إلا هذه الصفات مجتمعة . . وهل طرأ على جوهرها تغير منذ ألفي سنة إلى اليوم ؟ .

نعم لقد طرأ على مادية الغربيين تطوران أساسيان هما العلم والمدنيّة ،

ولكنهما لم يمسا جوهرها أبداً يا أصغر. . أما التقدم العلمي فقد أصبح قاعدة علمية عريضة لخدمة هذه المادية بل حاولوا أن يجعلوه قاعدة فلسفية عقيدية لها. . وأما المدنية فهي تعني تبني المجتمع الغربي لمعادلة أن الأساليب غير المباشرة أنفع في تحقيق هذه المادية من الأساليب المباشرة. .

كان الغربي قبل ألفي سنة وقبل خمسمئة سنة إذا رأى أحداً يحمل ذهباً يقتله ويأخذ ماله بشكل مباشر، ويقولون عنه إنه شجاع وله الحق! أما اليوم فهو يقدم إليه أنواع الاحترام والإجلال، والخدمات الجزئية الحقيقية والزائفة، ويأخذ ماله بأساليب ملتوية مئة مرة، ويجعله يعمل ليكسب له الذهب ثانية. . وثالثة. . حتى يموت. . ويقولون عنه إنه ناجح وله الحق. . ! لقد أصبحت السرقة عملية مقننة، وأصبح غيرها من الممارسات المادية القديمة مقنناً أيضاً، وهل المدنية الغربية التي كان يسميها أبي رحمه الله أخلاقاً؛ إلا تقنين للمادية الغربية القديمة التي كانت تعيشها القبائل المتناحرة في الداخل، والقراصنة المتناثرة في الساحل. .

لعلك تسألني عن المسيحية وفعلها في المجتمع الغربي. . بلى، إن فعلها في ظاهره كثير، ولكنها لم يسمح لها أن تمس باطنه أبداً. . لقد حبست في نطاق المدنية الغربية، في نطاق هذا الشكل الخارجي المزخرف الذي ذكرته لك. . أما في العمق، في تكوين عالم روحي للشخصية يفعل في سلوك الغربيين، فلم أجده يتعدى ذلك العالم الضبابي الخامل. . اللهم إلا في أفراد معدودين في المدينة أو القرية لم يُسمح لهم يوماً أن يشكلوا في أي بلد أوروبي تياراً اجتماعياً. . ولو تعرف يا أصغر أن هؤلاء يصبحون بطبيعتهم أقرب إلى الشرقيين ويحبوننا. . .

إن المسيحية يا بني دخلت إلى أوروبا بتأشيرة موظفة، مشروطاً عليها شروط! ومقيدة بقيود. . أما التي دخلت سيدة محترمة بدون قيد أو شرط،

فهي المادية الإغراقية. وقد سمح لها أن تؤثر في أعماق المجتمع الأوروبي لأنها رافد يرفد ماديته . .

هذا هو السبب في أنك تلمس بصمات الإغريق في عمق المجتمع الغربي ومظاهره. . بينما لا تجد أثراً للمسيحية إذا تجاوزت المظهر. .

مسكينة المسيحية، كم لاقت من مادية الأوروبيين. . أنا لا أرى وجهاً لفكرة أن الإنسان لا يمكن أن يكون متديناً إلا إذا اعتزل المجتمع، إلا إصرار الغربيين على أن حركة الحياة الاجتماعية نجسة، ويجب أن تبقى نجسة، ولا يجوز أن نقوم بتطهيرها. . وأن التطهر المسموح هو أن يعتزلها الإنسان المتدين ويتركها لأهلها النجسين. .

لو كانت الذهنية الأوروبية بدائية أو بسيطة لا تستوعب إمكانية التركيب بين حياتين للمجتمع متفاعلتين متناسقتين إحداهما روحية والأخرى مادية، لقلنا إنها تؤمن بفكرة الاعتزال، كما نرى في ذهنية بعض الشعوب الإفريقية والهندية، التي تتجه دائماً إلى الاختيار البسيط، إما هذا وإما ذاك، ويصعب عليها أن تقبل التركيب بينهما. . ولكن الذهنية الأوروبية من أقدر الذهنيات في العالم على الجمع والتركيب، فتبنّيها لفكرة التدين هذه إنما هو قرار بعزل الدين وأهله وليس إيماناً بالرهبانية والاعتزال. .

إنك لا تجد المسيحية في الغرب يا أصغر إلا في حالتين لا ثالثة لهما، إما محبوسة في الصوامع تنفذ قرار العزل، وإما موظفة تخدم مدنية المادية الغربية، فقد كان هذا شرط القبائل الأوروبية القاسية ولا زال مفروضاً على هذه النفحة الآلهية والملاك القادم من فلسطين. .

هل تعرف يا أصغر هذا التناغم الحميم بين الأوروبين واليهود. . إن

المادية اليهودية كالمادية الإغريقية رافد يرفد المادية الغـربية المعبـودة. . وعلى المسيحية المسكينة أن تقبل ذلك. .

وهـل تعرف سر استيـراد الغربيـين لموديـلات التـدين من الـوثنيـات الهندية. . إنه تدين مطيع للمادية الغربية في تنفيـذ قرار العـزل. . إلى آخر مفردات الفعل الغربي وكلياته في خطة العزل والتسخير ضد المسيحية المسكينة.

الأديان في شعوب العالم سيدة يا أصغر، في الماضي والحاضر، تفعل في وجدان المجتمعات وحياتها، وتنفرد في السيادة أو تتقاسمها مع الحياة المادية. . ولكن الديانة المسيحية عند الغربيين خادمة لماديتهم، أو مطرودة إلى زاوية في دير أو مكتبة أو كوخ. . فالسيادة عندهم فقط للأشياء الماديـة الملموسـة ولذاتها المحسوسة. .

إني لم أرَ في حياتي، ولا أدري هل يوجد في تاريخ الأرض حالة مستعصية من عبادة المادة والنهم بها مثل الحالة الغربية يا أصغر. .

لا يغرنّك ما ترى من أخلاقية وشعارات وكنائس ورجال دين فتحسب أن وراء هذه الأشكال حياة روحية. . إنهم القيمون من قبل المادية الأوروبية على عزل المسيحية واستخدامها. . ولو احتككت بهم لوجدت أن كل ما يعيشونه من عالم روحي لا يبلغ أن يكون نفحة من حياة هذا الفلاح الخراساني. .

ـ الحقيقة يا دكتور أن الموضوع هام جداً ومتشعب، وأكثر أفكاره أسمعها منك لأول مرة وأشكرك كثيراً لأني استفدت منها. . لكن أرجو أن تسمح لي بمناقشة بعض النقاط وتوجيه بعض الأسئلة.

ـ سل يا أصغر وناقش.

ـ قبل الحديث في النقاط؛ أرجو أن تخبرني يا دكتور عن التغير الذي ذكرت أنه طرأ على رؤيتك للمجتمع الغربي بعد الثورة الإسلامية؟

ـ هذا التغير لا يتعلق مباشرة بنظرتي إلى مادية الغربيين، وإنما بنظرتي إلى روحانية غيرهم من شعوب العالم الإسلامية وخاصة شعبنا الإيراني. . فقد كنت أعتقد أن القوة الأساسية الفاعلة في حياة هذه الشعوب أيضاً هي النفعية المادية ولكن يوجد إلى جانبها حياة روحية وقيم إنسانية ودينية لها تأثير كبير، وأنه يجب اعتبارها عاملاً ثانياً في حياتهم يتقاسم التأثير مع العامل المادي. . أما بعد الثورة الإيرانية، فقد أصبحت أعتقد أن العامل الديني الروحي قد يصبح هو المحرك الأول في حياة المسلمين، وتكون العوامل الأخرى المادية عوامل مساعدة أو لا تكون. . وهذا يؤثر على تفسير صراع الغربيين مع هذه الشعوب، ويمهد لقبول تحليلاتك الذكية للسياسة الغربية يا أصغر. .

ـ شكراً يا عم، واسمح لي الآن أن أطرح سؤالاً أساسياً ينفعنا في الموضوع: هل أفهم من ذلك أنك توافق على تفسير التاريخ بنظرية العامل الواحد. . ؟

ـ اسمح لي يا بني أن أنبهك إلى الغموض والخلل في صيغة هذا السؤال الذي طرحه الأوروبيون. التاريخ يا أصغر هو مجموعة أحداث الحياة البشرية؛ يعني أنه أفعال الأفراد والمجتمعات والشعوب، وعوامل هذه الأفعال منها العوامل الروحية ومنها العوامل المادية، وكل منها أقسام كثيرة. . والذي يحصل في حياة الناس أن عدداً من هذه الدوافع أو العوامل قد يجتمع ويشترك في إيجاد حدث. . وقد يغلب بعضها فيكون هو سبب الحدث. . ثم إنها تختلف من شعب لآخر، ومن مرحلة في تاريخه إلى أخرى. .

إن كنت تسألني عن المادية التاريخية وما كتبه أنجلز وماركس ولينين من أن تاريخ الإنسان يتلخص في البحث عن الطعام والشراب وصراع الطبقات على ذلك. . ؟ فأقول لك لا. . لأنه يوجد مئة عامل آخر مادي وروحي في تاريخ شعوب العالم.

وإن كنت تسألني عن تاريخ شعوب أوربا المعروف والمكتوب حوله، منذ نحو ألفي سنة إلى الآن، فأقول لك نعم. . إن العامل الوحيد الذي كان يحرك هؤلاء القوم هو النفعية المادية، ولكنه لم يكن صراع طبقات بل كان صراع أفراد، وصراع عصابات، وصراع رؤساء قلاع، وصراع قبائل، وصراع ملوك، وصراع بلدان. . وفي بعض الأحيان النادرة كان صراع فئات اجتماعية. .

ـ السؤال عن تفسير التاريخ بعامل واحد أو عوامل متعددة سؤال علمي، فلماذا اعتبرته سؤالاً أوروبياً يتضمن الخلل يا دكتور. . إن الإسلام لا يرفض تفسير التاريخ بعامل أساسي وعوامل مساعدة، فالتاريخ برأيه يتلخص في الصراع بين خط الأنبياء وخط الطواغيت. . ولا مانع أن ينضم إليه عوامل مساعدة.

ـ السؤال عن تفسير التاريخ بهذه الصيغة وضعه كتّاب المادية التاريخية، والمادية التاريخية يا بني بدعة غربية، غرضهم منها تعميق ماديتهم وتعميمها إلى العالم. .

فلماذا السؤال عن تاريخ شعوب العالم كلها، والإجابة عليه بتاريخ أوروبا فقط؟!

وإذا كان العامل الواحد في تاريخ أوروبا هو العامل الاقتصادي أو المنفعة

المادية، فلماذا يكون نفسه في غيرها من البلاد والشعوب، ولا يكون العامل الروحي مثلاً. ؟

وإذا كان هو العامل المادي، فلماذا يجب أن تكون صيغته صراع الطبقات ولا تكون صيغاً أخرى؟ يا بني احذر من الزيف عند الغربيين فيما يقدمونه عن العلوم الإنسانية، كما تحذر من عملهم السياسي. . إن أصحاب هذاالسؤال (العلمي) يريدون أن يقولوا: إن الركض وراء المنفعة المادية والنهم والصراع عليها ليس مختصاً بتاريخ أوروبا، بل يشمل تاريخ شعوب العالم، فياشعوب العالم إن تاريخكم نجس مثل تاريخنا، ولا يوجد فيه عامل طهارةواحد،لا قيم دينية ولا إنسانية. .

والأمر الأخطر في السؤال أنه يفترض أن ما وقع في التاريخ يجب أن يستمر؛ فهو يخلط عن عمد بين ما كان وما ينبغي أن يكون، إن السؤال عن المحرك أو المحركات التي دفعت الشعوب إلى صناعة تاريخها سؤال عن تفسير ما حدث في الماضي، أما ما يحدث الآن وفي المستقبل فله سؤال آخر: ما هو المحرك الذي ينبغي أن يحرك الشعوب لصناعة حاضرها ومستقبلها. .

هل ترى يا أصغر أن كتاب المادية التاريخية الذين يطرحون السؤال عن العامل المحرك لتاريخ البشرية ويجعلونه المحور لبحثهم لا يدركون أوجه الخلل فيه، وأنه سؤال عن الماضي واتجاه إلى الجمود عليه. . بلى، ولكنه الإصرار على ماديتهم الغربية، ومحاولة إعطائها صفة القانون العالمي للماضي وللمستقبل أيضاً. . إن محاولات تفسير سلوك الإنسان وتاريخه بالعامل الاقتصادي والعامل الجنسي والعامل الحيواني وأمثالها، وإلغاء كل العوامل الروحية. . يدلك على المجتمع الذي أثمر هذه الأفكار، المجتمع الذي كان يعيش فيه أنجلز وماركس ولينين وفرويد وداروين. . إن الشيء العلمي والصحيح الذي كتبه هؤلاء هو

ملاحظاتهم عن الدوافع المادية في المجتمعات الأوروبية . . أما محاولاتهم تعميم ذلك إلى شعوب العالم، وأما إعطاؤهم صراعات الأوروبيين صفة الصراع الطبقي ومحاولتهم تعميمها على العالم أيضاً . . فهذا عمل سياسي لخدمة المادية الغربية وليس عملاً علمياً .

ـ أشكرك كثيراً يا دكتور، فلأول مرة ألتفت إلى أن هذا السؤال متخلف وأنّا نحن المسلمين نطرحه بصيغة تقدمية . . فهؤلاء يسألون عن عوامل الماضي ليسحبوها على المستقبل، ونحن نسأل عن العوامل التي ينبغي أن تحرك الشعوب لصنع مستقبلها بقطع النظر عن محركاتها الماضية . . إن صيغتنا متحررة علمياً وثورياً لأنها لا تستبطن انشدادهم إلى الماضي وانطلاقهم من زاويته . . فالقضية الثورية هي (ماذا ينبغي أن يكون) وليست (ماذا كان) وإن استفادت منها .

نحن نرى أن الشعوب قد تحركت في التاريخ بعشرات العوامل المادية والروحية، ولكنا غير ملزمين باختيارها وتحريك الناس بها لأنها قد استعملت . . وقد اختار إمامنا العامل الديني الذي استعمل في صدر الإسلام؛ بسبب أنه يملك السند العلمي، وليس بسبب أنه استعمل في الماضي . .

أشكرك كثيراً يا دكتور ، لقد نبهتني إلى دوافع كتّاب المادية في إصرارهم على الماضي في هذا الجانب فقط . . فعند الحديث عن الدين ونظرته إلى الكون والحياة والإنسان، وقدرته الهائلة على تحريك الشعوب يقولون هذا حديث عن الماضي، وعلينا أن ننطلق من عصرنا ولا نكون رجعيين . . أما عند الحديث عن المادية فهم يصرون على الماضي ،ليثبتوا لنا أن عامل البحث عن الطعام فقط هو الذي حرك الإنسان ويجب أن يستمر .

ينبغي أن نعاملهم بالمثل؛ وإذا رفضوا أن يبحثوا معنا الدين كمحرك وحيد في التاريخ؛ نرفض بالمقابل بحث العامل الاقتصادي كمحرك وحيد أيضاً.. ونطلب منهم الانطلاق من العصر ومن «ماذا ينبغي» لا من «ماذا كان».

على أي لقد تجاوز الأمر بيننا وبين الشيوعيين واليسار العالمي هذه المناقشات الفكرية يا دكتور.. فقد تحرك شعبنا بملايينه الأربعين بمحرك الإسلام، وأصبحت ثورتنا تياراً في العالم لما ينبغي أن يكون.. ولا زالوا هم مشغولين في (ماذا كان).

* * *

وتواصل الحديث بين أصغر والدكتور، يتخلله النقاش أحياناً، في موضوع الغربيين والإيرانيين، ثم دار حول ذكريات السفر بالسيارة في بريطانيا وأوروبا وإيران، ولم ينسيا أن يلتقطا صوراً للصحراء وجبالها.. كان أصغر يتولى التقاط الصور من جهته، والدكتور من شباك السيارة من جهة اليمين، وبينما كان مشغولاً بالتقاط إحداها سمع الحجاج يرفعون أصواتهم بالصلاة على النبي (ص) وأصغر يقوله له مشيراً إلى جهة اليسار:

ـ انظر؛ انظر يا دكتور تلك مآذن الحرم النبوي والقبة الخضراء الشريفة.. هل تراها..؟

ووجه الدكتور نظره وقلبه إلى حيث تتجه الأنظار والقلوب، إلى فضاء المدينة المنورة تتزاحم عليه أشعة الظهيرة.. تتنشق عبقه ولا ترتوي.. وتموج في فضاء حرمه المقدس، تقبل مآذنه نيابة عن الشمس والنجوم.. ثم تنتظم وهي تطوف حول قبته أفواجاً أفواجاً.. وتصير الأفواج حزماً.. وتصير الحزم خيوطاً، فتتكسر الخيوط أجزاء من شعاع، ليلامس كل جزء منها بقلبه صفحة القبة

الخضراء، ثم يكون نثاراً على أشعة الشمس في العالم. . فهكذا أمرت الشمس رسلها أن تزور المدينة، وتعفر قلوبها على أقدس قبة لأقدس إنسان.

وتقدمت قافلة الخراسانيين أكثر، فانفرجت الجبال عن مشهد المدينة: ساحة من الأرض مبسوطة على مد البصر. . فقد قيل لجبالها تفسحي واحتضنيها من بعيد، وسمح منها لأُحُد لفرط حبه أن يربض على مقربة بضعة كيلومترات، ولربوات أخرى أن تتناثر من بعض الجهات، أما الشرق فبقي مفتوحاً لتدخل منه الشمس إلى المدينة أبداً وتشرق منها على العالم.

مباني المدينة متواضعة، وحتى النشاز منها متطامن، فهكذا يفترض في مباني مدينة قريبة من السماء، تحتضن مهبط وحيها، وفوار نورها. . ومبنى الحرم النبوي في وسطها متواضع أيضاً. . فقد تعلمت قبته ومآذنه وجدرانه من رسول الله أن من يضيء بالمضمون وينوء به، لا يهتم كثيراً بالشكل. .

قال الدكتور: نعم رأيتها، رأيتها. . ولم يتمل من رؤيتها حتى وجد نفسه منشداً إلى الأنين والدموع داخل السيارة. . ما بال هؤلاء الخراسانيين. أكل هذا لأنهم رأوا المآذن والقبة كلا. . ولكنهم رأوه. . رأوه يجلس في مسجده، وحوله أهل بيته وأصحابه. .

أي بيغمبر (يا رسول الله) . . روحي فداك. . يا أبا الزهراء. . يا جد الحسين. . أي بيغمبر خدا، جئنا لزيارتك فاقبلنا. . يا أمنا فاطمة. . يا إمامنا الحسن. . يا أئمة البقيع. . روحي فداكم. . ونظرات والهة باتجاه المآذن والقبة. . ودموع سخية. . وبعضهم وضع رأسه بين يديه وأخذ يبكي. .

ونظر الدكتور إلى الفلاح الخراساني؛ فرآه جالساً قد نصب قامته على كرسيه ورفع رأسه قليلاً يحركه يميناً وشمالاً، ويهمهم والدموع تترقرق على خديه. . نظر

إليه وكأنه يقول له: قم أيها الفنان المثقف وهات لنا من لوحاتك. . ولكنه لم يقم، فلعله كان مستغرقاً، ولعله لم يحب أن يثقل على الحجاج، فالقلب المرهف يذوب في فنه ولكنه يتحاشى أن يفرضه على أحد. .

ونظر نحو القارئ في مقدمة السيارة، هل سيقرأ شيئاً؟ ولكنه سمع نداء ممتداً آتياً من أعماق قلب في السيارة: اي بيغمبر خدا، - يا رسول الله - ووقف صاحبه على أثره وعيناه باتجاه القبة الخضراء. . وأطلق صوته الشجي: روحي لك الفدا، كل الوجود لك الفدا. . نحن لسنا شيئاً حتى نكون أهلاً لزيارتك. . ولكن جئنا من عند ولدك الرضا. . جئنا من كربلاء. . شبابنا في جبهات المعركة. . من عند ولدك الإمام الخميني، حسين العصر. .

يا رسول الله . . أنت حنون. . أنت كريم. . أنت معدن الكرم والحنان. . حتماً إنك ستستقبل زوارك. . ستبعث أحداً لاستقبالهم. .

آه يا رسول الله. . لم يبق عندك أحد من أهل بيتك تبعثه لاستقبال الناس. . كلهم قتلوا . . كلهم ما بين مقتول ومسموم. . وغريب وشريد. . منذ البدء حتى يومنا هذا. . لم يبق في بيتك منهم أحد. .

بلى . . بقي ولدك المهدي الموعود، فهل يستقبلنا؟

أيها المهدي . . روحي فداك. . يا عزيز رسول الله. . يابقية الله في أرضه. . إنّا جئنا لزيارة جدك رسول الله. . لزيارة أمك الزهراء. . نحن خدامكم أيها المولى. .

وانطلق القارئ يجود في أبيات شعر رقيقة، في مدح النبي وآله. . ودخلت القافلة شوارع المدينة؛ وكانت مآذن الحرم وقبته تغيب هنيهة وتظهر أخرى، والسيارة تقف حيناً لازدخام السير وإشاراته؛ ولكن هذا الخراساني

ورفقاءه لم يتوقفوا عن فيض حنينهم المخزون وشوقهم المكنون، ينثرونه وروداً من كل نوع من نوافذ السيارة على السيارات والناس في شوارع المدينة . . حتى سلكت القافلة شارعاً داخلياً طويلاً قال العامل حسين إنه شارع قباء، وفي آخره منزل القافلة . .

قال أصغر: ـ الآن أسألك عن رأيك في هذا الشعر الذي قرأه الرجل، لم أكن أعرف يا دكتور أن التعزية التقليدية تعجبك إلى هذا الحد.

ـ أي تعزية تقليدية يا أصغر، إنها قراءة عصرية مليئة بالوعي والحيوية . . لقد أدهشني هذا الحضور الذي يعيشه هؤلاء الحجاج مع النبي وأهل بيته، وربطهم ذلك بعصرهم وقضيتهم . .

ـ إن العشق في شعبنا يصنع العجائب يا دكتور. . قبل سنوات كان في قافلتنا عدة أشخاص . . ـ وكان حجاجها من طهران ودماومند ـ كل منهم رأى في المنام مشهداً أو أكثر من سفره إلى الحج ،وكان طبق الأصل لما حدث معه . .

ـ أعد، أعد يا أصغر ما قلت؟

ـ نعم يا دكتور. . مثلاً، أحدهم رأى نفسه في المنام يزور النبي(ص)، ووصف الشرطة الذين يمنعون الناس عن التبرك بالضريح الشريف بأشكالهم وعددهم ؛ فكان المشهد كما قال. وأحدهم رأى جنة البقيع ووصفها ووصف زيارته لها، فكانت أول زيارة له كما رأى. . وأحدهم كنت شاهداً على قصته بنفسي يا دكتور كان من دماوند واسمه محسني پور، لم يكن حج من قبل ولا يعرف أين ستنزل القافلة ،وقد رأى الطريق من مسكنه في المدينة إلى باب مسجد النبي (ص) ؛ فعندما أردنا أن نتوجه إلى الحرم في أول زيارة قال لي: هذا الطريق أعرفه ؛ لقد رأيته في المنام ،عبرت فيه شارعاً محفوراً ثم مررت من أمام مستشفى رأيتهم

في مدخله يضعون شخصاً ميتاً في سيارة إسعاف، ثم مررت في شارع مزدحم فرأيت سيارة شرطة ضربت شاباً أسود فجرحت رجله ولم تقف . . ووصف الطريق حتى باب المسجد يا دكتور . . وقد سرنا جميعاً في الطرقات التي وصفها وشاهدتهم بعيني يضعون الجنازة في سيارة إسعاف، ثم رأيت سيارة الشرطة في الشارع المزدحم تصفر ببوقها وتشق المشاة، وعندما وصلت إلى مجموعة حجاج أفارقة تسمرت عينا محسني پور وعيناي عليهم، فزادت السيارة من صفيرها وشقتهم وذهبت؛ فسمعنا صياح الأفارقة وتجمعهم وركضنا لنرى الشاب ملقى بينهم والدم يسيل من ركبته وجماعته يتكلمون بغضب؛ فأخرج محسني پور منديله وشد به ركبته وقبله، بينما تكلمت أنا معهم بالإنكليزية كي يأخذوه إلى مستوصف قريب . .

ـ هذا عجيب يا أصغر، ذكرني لكي نتكلم في هذا الموضوع في وقت أوسع . .

وكانت السيارات قد دخلت حي المغاربة في آخر شارع قباء، وتوقفت أمام منزل القافلة . . ونزل الحجاج من السيارات يهنئون بعضهم بسلامة الوصول . . وطُلب إليهم أن يستمعوا إلى تعليمات مدير القافلة: بسم الله الرحمن الرحيم . إخواني أخواتي . . وصلنا إلى المدينة المشرفة والحمد لله وأصبحتم ضيوف رسول الله (ص) .

ـ الأمتعة وصلت أمامنا وهي جميعاً في القاعة . .

ـ كل غرفة مخصصة لعدة أشخاص من ثلاثة أو أربعة أو خمسة، حسب حجمها وحسب الإمكان . . نرجو أن تتعرفوا على غرفكم وتأخذوا المفاتيح من العامل المختص، وتأخذوا أمتعتكم من القاعة .

ـ برنامجنا اليوم: الغداء والصلاة والاستراحة إلى الساعة الرابعة، حيث نذهب إلى الزيارة إن شاء الله . . نرجو أن تكونوا حاضرين جميعاً خارج البناية في هذا المكان على رأس الساعة الرابعة، حتى لا نصل إلى الحرم في الوقت الذي يمنعون فيه الدخول.

ـ حسب ما تفضل به مولانا عالم القافلة: بحسب أمر الإمام تكون الصلاة في منازل القوافل فرادى، وصلاة الجماعة فقط في الحرم الشريف وفي مساجد المدينة، من أجل وحدة المسلمين . .

الى حرم النبي (ص)

في الرابعة إلا ربعاً كان أصغر والدكتور يقفان أمام البناية . . فقد أحبا أن يتأملا حركة الحجاج ووجوههم . . لم يكن قد حضر إلا أفراد منهم ، وعمال القافلة في حركة دائبة ، بعضهم ينقل مواد غذائية إلى مستودع البناية الذي أصبح قاعة للمحاضرات ، ومطعماً ومخزناً . . وأحدهم كان يخرج مكبّر صوت جديد من علبته ويُعده ، وإلى جانبه مكبر آخر ورايات باسم القافلة . . ورأيا عامل القافلة حسيناً ، الذي كان في سيارتهما يتكلم مع بعض الحجاج ويعطيهم أوراقاً ، فأشار إليه الدكتور بالسلام فتقدم إليهما وسلم عليهما ، فأخذ الدكتور يكلمه ، أما أصغر فقد نكس رأسه خجلاً منه ، ولكنه كان يكلمهما معاً بحيويته المشرقة ، وأعطاهما ، ورقتين كتب عليهما عنوان المنزل ، وقال :

ـ هذا العنوان سهل ، وأي سائق سيارة أجرة يعرفه ، لا تعطوا للسائق أكثر من عشرة ريالات . . وإذا حدث أن ضاع العنوان فاسألوا الحجاج الإيرانيين عن مركز عمليات الحج ، أو عن بعثة الإمام ، وهناك تعطونهم رقم القافلة أو اسم مديرها ليعطوكم العنوان . . ثم استأذن من الدكتور أن يكلم أصغر على انفراد ، وأخذه جانباً فكلمه قليلاً . . ثم انصرف إلى عمله يوزع العناوين على الحجاج . . قال أصغر وهو يتعجب : هل تحب أن تسمع ما قاله حسين يا دكتور؟ .

ـ إذا كان شيئاً من الأحسن أن تقوله لي فقله .

ـ . . . نعم من الأحسن يا دكتور، قال: يا أخي سمعت أن صاحبك طبيب كبير فلو اقترحت عليه أن يخصص في كل يوم ساعة للقافلة . . أنت أدرى بظروفه، ونحن عندنا طبيب عادي للقافلة، ولكني فكرت بالأمر من ناحية معنوية له وللحجاج، وتبسم أصغر وتابع: ـ هل أكمل ما قاله حسين يا دكتور.

ـ أكمل .

ـ قال والأهم من ذلك يا أخي أن نعالجه نحن؛ فقد سمعت أنه بعيد عن إيران وأجوائها الإسلامية . . احرص على أن يلتقي بعلماء، وبأطباء متدينين.

ـ سألته من أين سمع ذلك فأجاب:

ـ لقد أوصى بكم مدير القافلة العمال، وقال لنا: هذان ضيفان أوصى بهما مكتب مندوب الإمام، أحدهما طبيب كبير مقيم في إنكلترا، والثاني من شباب الإذاعة والتلفزيون في مكتب لندن . . ثم أردف قائلاً: أرجو أن تعتبرني خادماً صغيراً وأن تكلفني بأي خدمة لك أو للدكتور في أي وقت . . حتى لو كنت نائماً أيقظني وأكون شاكراً . .

قال الدكتور وهو يتعجب: ـ يبدو أن الشخصية الغنية يا أصغر مثل المنجم، كلما توغلت معها تعرفت على كنوزها . . ثم تنهد وتابع: نعم يا بني: أنا المريض وأنتم الأطباء . . أو تدري يا أصغر أني لو خُيرت بين دراستي وعملي في الطب وبين أن يكون لي قلب كقلب ذلك الفلاح الذي قرأ التعزية ووزع اللوز والتين، لاخترت القلب الغني ولم آسف . . ؟

* * *

نزلوا من السيارات جنوب غربي الحرم، وأخذوا يرتبون الوفد الخراساني إلى بيت النبي (ص) حسب تعليمات الدليل . . الرجال وراء راية خضراء،

وخلفهم النساء وراء راية زرقاء، يتقدمهم علم القافلة وبعض الوجهاء . . كانت المسافة إلى باب جبرئيل نحو ألف متر؛تمر من ساحة الحرم الواسعة، فهم يستعدون لقطعها مشياً . .

قال أصغر: ألاّ نكون بقرب العالم يا دكتور لنستفيد منه . ؟ لقد أحببت لو أنك أجبت دعوة مدير القافلة عندما دعانا لنركب مع العالم في السيارة . .

ـ يا أصغر ، رحم الله امرأً عرف حده فوقف عنده، لا أنا من علماء الدين ولا من الوجهاء في الدين، واني لأستحي من نفسي أن أكون هنا في وسط هؤلاء الحجاج ؛ فكيف أتقدمهم ! ؟ لقد شعرت يا أصغر عندما رأيت هذا الحضور للنبي وآله في وجدانهم وحياتهم ؛ بأني لا أستحق أن أكون رفيقاً لهم . . أما سمعت كلماتهم ورأيت تصرفاتهم عند المنزل وفي السيارة . ؟ إنهم ذاهبون حقاً لمقابلة الرسول وكل منهم له معه حديث ودموع . . له معه تاريخ وحاضر . . أنت رأيت الناس في أوروبا يا أصغر،ورأيت فراغ شخصياتهم وفقرهم . . أمّا هؤلاء الذين نحن معهم فإن شخصية الواحد منهم عالَم يموج بالثراء . . أتريدني أن أمشي في مقدمتهم . ؟

وسكت أصغر وهو ينظر إلى الأرض ويتأمل . . ثم قال:

ـ أنا أولى منك بالخجل يا دكتور؛ فقد عشت أجواء روحية وكسبت معلومات دينية أكثر منك، ومع هذا فإن نظرتك أعمق من نظرتي . .

* * *

توالى التحاق الحجاج والحاجات بالرايتين، وبعض عمال القافلة يجرون الترتيبات اللازمة لتحرك الوفد . . فتقدم حاج كبير السن إلى أصغر ووضع يده على كتفه قائلاً:

ـ يا ولدي أنت متعلم أليس كذلك؟

ـ تقريباً يا أبت . .

ـ أقصد هل تستطيع الإجابة على المسائل . . ؟

ـ إذا كنت أعرف جواب مسألتك أجبتك يا أبت .

ـ هل صحيح أن الذي في ذمته أشياء لله وللناس لا يحق له أن يتكلم مع النبي(ص) ، وأنه إذا تكلم معه لا يجيبه . ؟ قالوا إن له الحق فقط أن يسلم عليه ويقرأ الزيارة بالعربية ويسكت ، وليس له حق الحديث معه .

ـ من أين سمعت ذلك؟

ـ سمعته من أحد رفقائنا في القافلة ، ولكني سمعت قارئ التعزية في قريتنا رحمه الله يقول : من كانت في ذمته حقوق لله وللناس كيف لا يستحيي أن يذهب إلى زيارة النبي (ص) ويقول له : سيدي أنا مسلم أنا مطيع لأمرك ، وخادم ! ؟

ـ وهل عليك يا أبت حقوق لله وللناس . ؟

ـ علي قضاء سنتين صلاة ، وثلاثة آلاف تومان لشخص .

ـ أما سألت عالم القافلة أو أحداً غيره؟

ـ سألته فقال : تكلم معه وإذا كنت أهلاً للجواب أجابك . . وكان حوله ناس فاستحيت أن أشرح له مسألتي ، وأخاف أن لا أكون أهلاً للجواب أو لا يقبلني النبي(ص) . ودمعت عينا الشيخ . . وتابع : أنا لم أترك الصلاة عامداً يا بني ولكني سألت عن وضوئي في أول شبابي فقالوا إنه باطل ويجب أن تعيد الصلاة ، وقد أعدت إلى الآن ثلاث سنين وبقيت سنتان . . والثلاثة آلاف

تومان كانت محل خلاف بيني وبين شخص ؛أنا أقول له لـك علـي ألف وثمان مئة وهو يقول ثلاثة آلاف، وقد أردت أن أعطيه إياها قبل سفري وذهبت إليه وأخذت له ألف تومان ورجوته أن يقبلها وإذا رجعت أعطيته الألفين، وأخبرته أني أوصيت أولادي بذلك، فلم يقبلها مني وقال: ذا رجعت فأعطني المبلغ الذي تريد، وإذا لم ترجع فأنت مسامح وبريء الذمة، لكن أريد أن تدعو لي.. وسوف أدعو له..

ـ ألا تعرف يا أبت أن وفاء الدين مقدم على نفقة الحج ولا بد أنك أنفقت الكثير للحج فلماذا لم توف الرجل أولاً؟

ـ يا بني .. أنا لم أنفق شيئاً، ولو أن عندي لوفيت الرجل ولرفعت هذا الحمل الثقيل عن ظهري.

ـ هل دفع مصارف حجك أولادك يا أبت؟

ـ أولادي لو كان عندهم أيضاً لدفعوا الدين للرجل، ولكن يا بني كان للمرحوم خمسون ألفاً ادخرها لزواجه وأوصى أنه إذا توفق للشهادة أن نحج بها أنا ووالدته أو نعطيها للجبهة حسب ما يقول لنا العالم، وقد راجعنا العالم فقال حجّا بها..

ـ أنت والد شهيد إذن..؟

ـ نعم يا بني.

فاحتضنه أصغر يقبله وقال له: يا أبت تحدث مع رسول الله (ص) وقل له إني قدّمت ولدي في سبيلك.. وأطلب منه الشفاعة.. فأنت في اعتقادي أهل لأن تتحدث معه ولأن يجيبك..

فانفرجت أسارير الشيخ وقال:

ـ أفرح الله قلبك يا بني كما أفرحت قلبي . . وعاد إلى مكانه خلفهم . .

نظر أصغر إلى الدكتور فرآه يهز برأسه وقد خفضه إلى الأرض ووضع إحدى يديه على الأخرى .

ـ أرأيت يا دكتور؟

ـ نعم ، نعم ، رأيت يا أصغر . . وتحرك الوفد فمشوا . . ثم تابع الدكتور بهدوء عميق : نعم رأيت يا أصغر . . وها نحن نتقدم عليه لندخل أمامه على النبي (ص) . . وهو يحترمنا وقد يرانا خيراً منه ، بل يراك بسبب لحيتك عالماً أو مفتياً . . وأخذ بيد أصغر وتابع : تعال يا أصغر ما دمت رفيقي فلنتأخر عنه ولنفتح له الطريق ليتقدم ، فإني سألت نفسي عن شعوري لو كنت في وفد إلى مؤتمر طبي ؛ وتقدم عليّ إلى قاعة المؤتمر أو المنصة طالب مبتدئ في الطب . . دع هذا الشيخ القروي يتقدم يا أصغر ، فهو في الحياة الروحية أستاذ وأنا طالب مبتدئ . . وتباطآ في مشيهما ومالا جانباً حتى تقدم الرجل أمامهما ، فابتسم له قلباهما وهو يمشي بقامته القصيرة بحيوية واهتمام . .

توغل الوفد الخراساني في الساحة ، وأخذ يذوب في عالم الزوار من كل نوع ، لتتفتح في قلوب أفراده عوالم من كل نوع . . وهل مثل الخطوات إلى رسول الله خطوات . .

أكثر من مئتي إنسان يحملهم إلى النبي أكثر من مئتي عالَم . . في التفاصيل تختلف كثيراً عوالم أهل خراسان ، ولكنها في الأصول . . تتحد . تختلف فيها بناه الواحد منهم في معاناته وثقافته . . فالخراساني معنيّ من طفولته ببناء عالمه الروحي . . يجمع من أهل العلم قواعده وسماءه ونجومه . . ويستنبع بدموع فطرته أنهاره . . وينبت برفرفات قلبه أجنحة طيوره . .

قد لا تجد في عوالم هذا الوفد الذي يقطع الساحة عالمين اثنين متحدين في التفـاصيل . . ليس بسبب تفـاوت المستوى الثقـافي بين الشـاب والشيـخ ، والمدني والقروي، والرجل والمرأة . . بل بسبب نوع الفطرة ونوع المعانـاة أيضاً . . فالخراساني صاحب التين واللوز غلب عشقه على الخوف ، فهو لا يعيش حالة والد الشهيد، ولا ترى في قلبه إلا وجيب الشوق، وعلى وجهه إلا سرور اللقاء . . لقد اندفع من السيارة بقامته الطويلة إلى مقدمة الوفد يريد أن يرى بيت الرسول . . يريد أن يصل إليه . . كان يمشي في الساحة بخطوات طوال فيرى نفسه قد زاحم العالِم أو تقدم عليه ، فيمسكه الخجل ويُثقل خطاه ليعود إلى الصف الثاني . . ولكن قلبه يرف يرف ولا يهدأ . . يريد أن يفر من بدنه . . هل يختلف معنى الخوف عند هذا النوع من الناس، أم أنهم لا توجد في قلوبهم موجباته . ؟ لا قضاء صلاة . . ولا حق لإنسان بتومان واحد . .

قال الدكتور : انظر يا أصغر إلى صاحب التين واللوز، يكاد ينفلت من القافلة ويهرول إلى رسول الله . . لولا الحياء لأطلق صوتـه ودموعـه من أول الساحة . . ثم ارتمى على أعتاب حرم النبي يعفر خديه . . إني أحب أن نزور معه النبي وحدنا ذات مرة، لنتعلم كيف يزوره ، ونقرأ معه ما يقرأ . .

ولكن عناصر الوحدة في عالم الوافدين إلى النبي أكثر من عناصر التفاوت وأعظم . . ففي وجوههم تقرأ نفس سطور الفطرة وآيات القرآن . .

وهذا النسيم النبوي الآتي من الملأ الأعلى، من الضريح المقدس، يمر على بيت فاطمة فيحمل نسيمها، وعلى باب جبرئيل فيمس أجنحته . . تراه يهب على أجفانهم وشمائلهم فترشفه أرواحهم رشفاً . .

ألا . . ما أعذبك يا نسيم رسول الله . . . وما أغنى عوالمك . .

الهوينا أيها الوافدون إلى بيت النبي . . فأنتم تمشون إلى حرم ما على وجه الأرض حرمٌ أعظم منه لإنسان . . أنتم في ساحة بيت النبي ومسجده . . وفيها لا تمشي الأقدام ولكن القلوب على أجنحة الملائكة . . أما ترون إلى ثمرات القلوب من أرجاء الأرض تدرج فيها ساعية إليه . . أو مغادرة تحمل من بيته سلال النور؟!

رفقاً بوفدك يا صاحب الراية . . ففيه قلوب أثقلها الوقار . . وقلوب أمهات أثقلتها السنون، ولوعة الشهيد، وهيبة الزهراء . .

رفقاً . . لا تزْحَم برايتك أحداً، فلكل قلب من زواره حرمته . . وملائكته . .

دع هؤلاء الأفارقة يمرون . . دع وفدهم يتقدم إلى بيت نبيهم . . أما ترى قلوبهم شفّت فهي القوارير، وملائكتها تحوطها بأجنحتها . . وأجنحة جبرئيل ترف لهم عند بابه . ؟

الهوينا يا أبناء خراسان . . فمن أولى منكم بالاتزان والوقار، وأنتم تحملون إليه هدية ثمينة : تقريراً عن تجربتكم في استئناف مسيرته . . وتريدون منه سراً ثميناً : نفحةً ربانية نبوية كتلك التي عاش بها المهاجرون والأنصار وتنزلت عليهم بها الملائكة . .

واتزنت خطى الخراسانيين، وسكنت كلماتهم . . فهاهم يقتربون من جدار بيت النبي ويكادون يلامسونه . . وما إن استداروا من ركن الحرم الشرقي ، من عند بيت أبي أيوب الأنصاري ، حتى قيل ذاك باب جبرئيل . . وقيل لصاحب الراية قف ها هنا، فتسمر الشاب الشجاع في مكانه مشفقاً أن يكون

أخطأ الآداب، فقيل له لا بأس عليك، إنما أردنا أن نستأذن من هنا حتى لا نضر بحركة الزوار عند الباب . .

اتجهت الأنظار إلى عالم القافلة وهو يقول:

أيُّ نعمة هذه . . أي نعمة وتوفيق أن نصل إلى هذا المكان المقدس، فها نحن نريد أن ندخل إلى حرم رسول الله (ص) لزيارته . .

هذا المكان المقابل لنا هو بيت النبي (ص)، كان بيتاً كعامة بيوت المدينة، داراً مستطيلة من الشمال إلى الجنوب وفيها صف من الغرف، أبوابها تفتح على الدار وخلفها يقع المسجد، وفي جنب الدار باب يفتح على المسجد . .

وكانت تحيط بالمسجد دورأخرى،وفيها أبواب تفتحعليه،فأمر الله تعالى نبيه بسدها جميعاً ما عدا باب داره وباب دار علي وفاطمة . .

ويبدو أن باب جبرئيل عليه السلام هذا هو باب دار النبي الذي يفتح على الطريق، يعني أن جبرئيل(ع) كان ينزل من السماء من هاهنا، ويطرق الباب مستئذنا كأي شخص آخر . . فانظروا أيها الإخوة والأخوات إلى أدب سيد الملائكة مع رسول الله (ص).

اعرفوا اين أنتم أيها الأعزاء . . فلو نظر الإنسان فقط إلى هذاالفضاء، وفكّر كم مرة شقه جبرئيل (ع) آتياً من السماء السابعة ووقف عند هذا الباب يستأذن . . وكيف كان يدخل ويجلس مع رسول الله في بيته أو في المسجد . . وماذا كان يبلغه ويحدثه . . ثم يودعه ويعرج إلى السماء . .

لو فكر الإنسان كيف تنزل الملائكة الآن إلى هذا الحرم وتستأذن لزيارة ضريح النبي (ص) . . . أيها الأعزاء: إن حرمة رسول الله (ص) ميتاً كحرمته حياً، فهو عند ربه في الملأ الأعلى في مقام محمود، وهو هنا في ضريحه الطاهر،

ولا نعرف كيف هو الاتصال بين المكانين . . نحن نؤمن بالله تعالى وبرسوله وبالغيب كلّه ما عرفناه وما لم نعرفه . .

أيها الأعزاء ، لقد أوصيتكم اليوم وأؤكد وصيتي في هذا المكان المقدس :

لا تنسوا أننا يجب أن نكون قدوة في تعاملنا وآدابنا مع رسول الله (ص) ومع زواره ومع كل المسلمين . . لا تزاحموا أحداً وإن زاحمكم ، ولا تدفعوا أحداً وإن دفعكم ، ومن أساء إليكم فقولوا له : نحن إخوتك ونحبك . . وسوف يمنعكم الشرطة من التبرك بالضريح الطاهر ويتهمونكم بالشرك والكفر ، فلا داعي لأن تعرضوا أنفسكم إلى إهانتهم ، إنهم موظفون أمروهم بذلك ، وفي كل حال ردوا عليهم بالمحبة والأخوّة ، أو دعوهم وامضوا إلى شأنكم . .

أيها الأعزاء : ينبغي أن ندخل الآن إلى هذا الحرم المقدس بكمال الأدب والخشوع والاحترام . . واعلموا أن من سلم على رسول الله (ص) من أيّ مكان فإن السلام يبلغه ويصل إليه بواسطة الملائكة أوغيرهم ،يعلم ذلك الله . . أما من سلم عليه عند قبره الشريف فهو يسمعه ويجيبه فاعرفوا قيمة ذلك . .

اقرأ الاستئذان أيها الأخ . .

وانطلق الشاب الخراساني يقرأ بالعربية وهم يرددون معه . . وبعد قراءة الاستئذان أبلغوهم توصية العالم أن يدخلوا بسبب الازدحام فرادى لا جماعة ، فيسلموا على النبي (ص) ويطوفوا حول الضريح الشريف ، ثم يلتقوا في مكان من المسجد بعيد عن الزحام لتلاوة الزيارة والدعاء . .

وأخذ الحجاج يتقدمون إلى باب جبرئيل فرادى ومثنى وثُبات ، ليدخلوا منه إلى عالم مهيب ، ولكنه حبيب . . كانت المهابة والحب يمتزجان في قلوب

الخراسانيين أو يغلب الحب حيناً والمهابة حيناً . . إلا في قلب الدكتور بهرامي الذي كان على حد تعبيره يمتلئ بالشعور بخجل الغربة . .

كان يصغي إلى عالم القافلة يعطيهم فكرة عن الحرم ويوجههم ، ويفكر في كلماته وفي تفاعل الحجاج معها ، ويفكر في المكان ، وفي النبي (ص) ، ويفكر في نفسه وموقفه في هذا المكان ، كان فكره يعمل بكامل طاقته ، وبكل اتجاه . .

ولما أراد الشاب أن يقرأ الاستئذان عدّل الدكتور من وقفته وثيابه ، ولم يلتفت إليه إلاّأصغر ،عندما مد يده يريد أن يعدل ربطة عنقه ، فقد نسي أنه اتفق معه على أن لا يلبسها إلى آخر الحج . .

ولما رآهم يتقدمون إلى باب جبرئيل ويدخلون ،أخذ بيد أصغر جانباً وقال له بصوت منخفض : ـ ياأصغر ،أنا ما عندي استيعابكم ولا تجربتكم . . أرجو أن لا تتركني في هذا الموقف العظيم . . أرشدني إلى كل ما ينبغي ونبهني إلى كل خطأ . . أشعر بأن كل شيء عليّ جديد ، فقد كنت غريباً غريباً عن هذه الحقائق . . إن قلبي يمتلئ بشعور الخجل لغربتي عن النبي (ص) .

طمأنه أصغر بأن شعوره هذا له قيمة عند الله ورسوله ، وبأن النبي (ص) بالمؤمنين رؤوف رحيم . . ودخل معه وهما يرددان : «بسم الله ، بسم الله . . اللهم إن لم أكن أهلاً للدخول إلى حرم رسولك فأنت أهل للتفضل عليّ بذلك ، ورسولك أهل للتفضل عليّ بذلك . . » . وبقي الدكتور يردد بسم الله وهو يمشي وينظر أمامه . . لم يلتفت يميناً ولا شمالاًولم يرفع رأسه في فضاء المسجد حتى وقف أصغر وقال :

ـ انظر يا دكتور . . هذا المبنى الذي في الوسط من عند هذه الدكة إلى آخر المسجد هو صفّ الغرف الذي كان بيت النبي . . جعلوه بين صفين من

الأسطوانات يسد بينها مشبّكات حديدية من هذا النوع . . انظر إلى حديده المربّع وهندسته، لقد كتبوا عليه سنة صنعه أيضاً عام ثمانمئة وتسع وثمانين، يعني قبل أكثر من خمسمئة سنة . . فنظر الدكتور وسأله بصوت منخفض:

ـ من هنا يسلمون على النبي؟ .

ـ لا ، إن الضريح الشريف في آخر غرفة من جهة الجنوب، والطريق إليه من هنا من المسجد . .

ـ هل يوجد هنا واجب معين؟

ـ لا ، فقط أردت أن أشرح لك .

ـ حسناً، امض بنا إلى حيث يسلمون على النبي .

وتقدم أصغر في المسجد . . وأخذ يشرح للدكتور عن المسجد الأصلي والتوسعة التي أضيفت عليه، وعن الأسطوانات والنقوش في القباب التي تقوم عليها . . فقال له الدكتور بشيء من الانفعال وبصوت منخفض أيضاً:

ـ أرجو أن لا تعاملني يا أصغر كأني سائح لا يهتم إلا بالبناء والزخرفات، فما قيمة هذه الأمور بالنسبة لما نحن فيه . . صحيح أني متأثربالغربيين؛ولكني والحمد لله مسلم . . امض بنا يا بني إلى المكان الذي يسلمون منه على النبي فيسمع السلام ويرد الجواب . .

ـ معذرة يا عم فلعلي أسأت من حيث أردت أن أحسن . . سمعاً وطاعة، تفضل من هنا . . وتقدما من وسط المسجد حتى وصلا إلى مواجهة الحجرة النبوية الشريفة وكان الفاصل عنها كبيراً بسبب احتشاد الزائرين . . فقال له أصغر:

ـ الضريح الشريف مقابل تلك الأسطوانة الأخيرة فهي مقابل وسطه بالضبط يا دكتور. . والسلام يصح من أي مكان مواجه، ولكن فلنتقدم لنكون أقرب إليه. .

نظر الدكتور ملياً إلى الحجرة الشريفة وإلى الناس أمامه، وقال بصوت منخفض:

ـ تقدم أنت إذا شئت يا أصغر، أما أنا فلست أولى بالسلام على النبي من أحد من هؤلاء لأتقدم عليهم، أو أزاحم أحداً منهم. .

ورأى أصغر ساكتاً يفكر فتابع:

ـ أرجوك يا بني أن تذهب وتسلم من قرب وتصلي عنده، وأنا أنتظرك هنا في مكاني. . ما دام السلام يصح من هنا فدعني أكن في آخر المسلّمين. . دعني أقترب من النبي شيئاً فشيئاً. . أرجوك يا أصغر أن تتقدم فقد خجلت من كثرة ما تكلمنا في حرم النبي. .

وتقدم أصغر وظل الدكتور متباطئاً واقفاً متكئاً على الأسطوانة، ! وهو ينظر إلى أصغر يمشي بين صفوف المصلين، وأحياناً يتخطى الرقاب ولكن برفق شديد. . حتى وصل إلى مواجهة الضريح الشريف، ووقف يسلم ويزور وأطال الوقوف. . ثم غاب في الزائرين الواقفين أو المصلين، والدكتور يقول له في نفسه: مبارك عليك أيها الشاب الذكي هذا القرب من رسول الله، وهذه الدالة عليه. . فأنت تعيش معه دائماً، ولست مثلي غريباً عنه. .

لم يتوزع فكره هنا كما كان عند باب جبرئيل، بل سيطرت عليه فكرة واحدة وقضية واحدة هي . . الغيب. .

النبي موجود في الملأ الأعلى وفي ضريحه. . ولا نعرف كيفية الصلة بين

المكانين. . يوصلون إليه السلام. . يسمع السلام ويرد الجواب. . الملائكة. . جبرئيل. . باب جبرئيل . . الملكان المرافقان للإنسان. . العالم الروحي والحياة العليا عند المسلمين. . عالم الغيب. .

كان مستغرقاً في وقفته. . يفكر في مسألة الغيب من جوانبها المختلفة. . ينظر تارة إلى الحجرة النبوية الشريفة في مواجهته، ويفكر في نوع الانفتاح والصلة بين ضريح النبي (ص) وبين مكانه في الجنة. . بين روحه وجسده. . بين السماوات العليا والأرض. .؟ وينظر تارة إلى المصلين والزائرين أمامه، يتساءل عن تصوراتهم ومشاعرهم تجاه الغيب. . إنهم جميعاً مؤمنون بالغيب. . فأن تكون مسلماً يعني أن تكون مؤمناً بالغيب. . بأن جبرئيل نزل من السماء بالقرآن والرسالة إلى رسول الله (ص) وأخبره بعالم الغيب. .

أنا مسلم؛ فأنا مؤمن بالغيب. . ترى بكم مرحلة تتقدم هذه المعادلة عن معادلة: أنا أفكر فأنا موجود. . ولكن لماذا لا أعيش الغيب كما يعيشه هؤلاء المسلمون، كما يعيشه رفقائي الخراسانيون. . أين هم الآن. ؟ لقد توزعوا في الزوار؛ فهم يتقدمون الواحد والاثنان والثلاثة، الرجل والمرأة. . ويسلمون على النبي سلاماً حاراً ويبكون ويتحدثون معه ثم يصلون، ثم يطوفون حول الحجرة الطاهرة فيسلمون مرة أخرى، ويذهبون إلى وسط المسجد لقراءة الزيارة والدعاء. . أي ليلقوا كلمتهم ويقدموا مطالبهم إلى الله ورسوله. . إنهم منسجمون مع أنفسهم، يؤمنون بالروح والغيب ويمارسون عوالمها، الخائف منهم والعاشق، المتعلم والأمي، تلمس فيهم الانسجام والوحدة في الشخصية. .

أما أنا فلا أمارس العوالم التي أؤمن بها، ولا ألمس هذا الانسجام في شخصيتي. . لماذا. . ألست مسلماً؟. . بلى بالولادة ثم بالتفكير والقناعة. .

ولكن لعن الله الغـرب وماديتـه . . يجب أن أحقق الوحـدة في شخصيتي، والصدق . . ويجب أن أتحرر من الكذب الغربي . . يجب أن أفهم عالم الروح وعالم الغيب وأعيشهما . . لقد فهمت عالم المادة بما فيه الكفاية ، وزيادة . . وعليّ أن أحقق التناسق بين الحياة المادية والعليا في شخصيتي . . وأعوض عما فات . .

أنا الآن في الحج . . الحمد لله . . شكراً لك يا أصغر . . ماذا تفعل الآن أيها الملاك الذي أكرمني به الله . ؟ لعله الآن يعود وقد أكمل الزيارة والصلاة . . إذن يجب أن أسلّم وأصلي قبل أن يأتي . . نعم يجب أن أسلّم . .

عدّل الدكتور من وقفته وثيابه ،وألقى نظرة على قدميه وهندامه ، ووضع يديه إلى جانبيه بانتظام ، ثم نظر الى الحجرة النبويةالشريفة ،فامتلكته مهابة وصمت وسكون . .

ماذا أقول . . هل أسلّم فقط . . أم أتكلم معه . . قليلاً أم كثيراً . . هل يحق لي ذلك . . هل يجيبني . . أم يجيبني أحد الملائكة المقيمين عند ضريحه ، أو عنده في الملأ الأعلى: أيها الغربي لا جواب لك عند رسول الله . . أم يتفضل عليّ هو ويقول: وعليك السلام؟

أين أنت يا والد الشهيد ، أيها الإنسان الطاهر ، الوجل من ثلاث آلاف تومان وقضاء سنتي صلاة . ؟ تعال انظر إلى قلب جمشيد الذي من حقـه أن يصعق خوفاً ، إلى أمواله المشبوهة بحقوق أبناء عمه وحقوق فلاحي ثلاث قـرى في لاهيجان . . إلى عمر قضاه بلا صلاة ولا صيام . . تعال أيها الباكي من حملك الثقيل؛ انظر إلى الأثقال على ظهر جمشيد من كل نوع . .

أي المنطقين أصح : منطق العشق ، أم منطق الخوف . . منـطق الفيض النبوي ، أم منطق الجزاء بالعدل والقسطاس؟ .

وطال صمت الدكتور وفي داخله تتلاطم أمواج الخوف والرجاء. . حتى قرر أن النبي أكرم من أن يَجْبَهَ أحداً فيه ذرة من الصدق، وإنه في إيمانه بالله ورسوله صادق؛ وإن كان فيها بقي صفراً بل دون الصفر. . فغلبت موجات رجائه، وهدأ بحره، واطمأنت سفينته. .ثم قرر أن يكون سلامه اليوم افتتاحياً مختصراً جملة أو جملتين، وأن يُعِدّ في غد سلاماً أو حديثاً مركزاً مكتوباً. .

بينما كان الدكتور يعد في نفسه صيغة سلام الافتتاح ليلقيه وصل أصغر، ولكنه جاء من وسط المسجد من خلفه، فرآه واقفاً صامتاً وآثار الدموع في عينيه فوقف ولم يكلمه، ولم يشعر هو به.

أعاد الدكتور استعداده وعدل من هندامه، ونظر إلى الضريح الشريف وقال: السلام عليك يا رسول الله، انا جمشيد بهرامي أحد المصابين بداء المادية الغربية؛ أرجو أن تقبلني في مستشفاك . .وسكت قليلاً ثم قال: شكراً، وانحنى احتراماً واستدار إلى جهة القبلة فرأى أصغر وقد طفحت في عينيه دمعتان. .

- لقد جئت . . الحمد لله.

- تقبل الله يا دكتور. . هل نذهب إلى رفقائنا؟

- إذا كانت صلاة الزيارة تصح هناك نذهب.

- نعم تصح . .

كان عدد من حجاج القافلة وصلوا إلى المكان المحدد، وجلسوا مع العالم يستمعون إلى شاب يقرأ القرآن بصوت شجي، فاتخذ الدكتور وأصغر مكانهما في آخر المجلس، وكانا كلما جاء أحد من الرفقاء وأراد أن يجلس خلفهما وقفا له وقدماه. . فقد أراد الدكتور أن يكون في آخر القوم. .

كانا يجلسان على ركبتيهما كالمتشهد في الصلاة ، ويستمعان إلى القارئ ، ويتحدثان همساً عندما يتوقف بين آية وأخرى . .

سأله الدكتور:

ـ هل تفهم ما يقرأ ؟

ـ أفهم أنها آيات تتعلق بالنبي .

ـ هل تعرف شيئاً من أفكارها؟

ونهض أصغر فتناول من المسجد قرآناً، ثم سأل الجالسين وعاد إلى الدكتور وهو ينظر في فهرست القرآن ويقول:

ـ قالوا إنه يقرأ من الآية الأولى من سورة الحجرات، وأذكر أني قرأت تفسير معانيها بالفارسية . . وفتح أصغر على سورة الحجرات وأخذ يقرأ بينه وبين نفسه ويتابع مع القارئ . .

ـ الآيات الأولى يا دكتور كلها، تعليمات للمؤمنين، للتعامل مع الرسول . . ويأتي بعدها تعليم حول التحقق من خبر المسلم غير الملتزم . . ثم تعليم لإصلاح الخلافات بين المسلمين . .

ـ ليتنا نعرف ماذا تقول الآيات حول هذه الأفكار بالتفصيل، ونعرف وجه الربط بينها.

ـ إني أغبط هؤلاء العرب ؛ لأن القرآن بلغتهم ويستطيعون أن يفهموه . .

ـ هل تعرف ما معنى الحجرات يا أصغر؟

ـ نعم معناها غرف المنزل، ففي السورة آيات تنتقد قوماً كانوا يكلمون النبي من وراء المنزل، ولا يصبرون حتى يخرج إليهم .

ـ لعل الربط بين هذه الأفكار أنها تعالج أولاً الخلل في تعامل المسلمين مع النبي، ثم الخلل في اعتمادهم على غير الملتزمين منهم، ثم الخلل في وحدتهم.. أشعر بالتسلسل بينها.

ـ أحسنت يا دكتور.. كنت أرى الآيات تنتقل من موضوع إلى موضوع ولا أعرف الربط بينها.. أتمنى لو أنك تأملت في القرآن بخبرتك الاجتماعية ونظراتك العميقة..

وتابعا استماعهما وحديثهما بين الآيات، حتى ختم الشاب قراءته.. فقال الدكتور:

ـ مرت آية آخرها الصادقون، هل تعرف معناها يا أصغر؟

بحث عنها أصغر في السورة وقرأها أكثر من مرة.. وقال:

إنها الآية الخامسةعشرةيا دكتور، تذكر صفات وتقول إن أصحابها هم الصادقون.

ـ ما هذه الصفات؟

ـ الإيمان بالله ورسوله من دون شك، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس..

ـ نعم هذه حقيقة الصدق العملي والانسجام في الشخصية، وبدونها نبقى نتخبط في الكذب الغربي.. يا أصغر كما يوجد لسان صادق ولسان كاذب، توجد شخصية صادقة وشخصية كاذبة، ومجتمع صادق ومجتمع كاذب.. لقد شعرت اليوم أكثر من أي وقت مضى بأني أحمل في شخصيتي أثقالاً من الكذب الغربي، وأن شخصيتك وشخصية رفقائنا في القافلة منسجمة صادقة.. ولكن

عليّ أن أكافح كثيراً حتى أكون صادقاً . . ساعدني يا أصغر فأنت تعرف ظروف عائلتي الصعبة . .

ـ بالنسبة لرفقائنا فهم كما ذكرت ، أما بالنسبة لي فهذا حسن ظنك بي ، وأنا بخدمتك يا عم .

ونظر أصغر إلى القارئ يحمل كتيّب الزيارة ، ويتخذ مجلساً في وسط الحجاج لكي يسمعه الجميع فقال :

ـ يبدو أنهم جاؤوا جميعاً ، وأن الأخ يريد أن يقرأ الزيارة والدعاء . . فلما سمع الدكتور بذلك ، وقف وعدل ثيابه ثم جلس على ركبتيه ، ووضع عليهما يديه كالمتشهد في الصلاة ، وصمت عن الكلام استعداداً للزيارة . .

ـ أخشى أن تتعب من الجلوس هكذا يا دكتور ، فلا مانع أن نجلس بشكل آخر . .

ـ لا بأس ، لست متعباً . . اجلس أنت كما تحب يا أصغر . .

وشرع الخراساني يقرأ الزيارة ، وأمسك بقلوب الخراسانيين يحدو بها حَذْواً فيتبعه موكبها . . ويُغذ السير فترفّ أجنحتها . . ويمشي الهوينا فتجيبه بالنشيج . . ويُرقل إرقالاً فتحاكيه بالوجيب . . وظل ينثر عليهم من روحه في نبراته . . ويواصل بهم تحليقه ، وترتيله ، وإنشاده ، وذوْب مناجاته . . في زيارة النبي والزهراء . . ثم في الدعاء . . وهم معه معه لم يفارقوه ، بل هم أمامه . . يتواصل منهم الحنين وتتناثر الكلمات والدموع . . حتى حانت صلاة المغرب ودوت في الحرم (الله أكبر) فرددها الناس بعد المؤذن ، ووصلها الخراسانيون بدعائهم للإمام الذي علمهم التكبير ، ولأبنائهم المكبرين في الجبهات . .

كانوا ما عدا عالم القافلة وحسين العامل لا يعرفون العربية ، ولكن عدداً

من الكلمات والمصطلحات مألوفة لديهم، أضف إلى ذلك ما يثيره الحرم من أجواء النبي (ص) وأهل بيته، ثم هذا الأسلوب الخاص في قراءة الدعاء والزيارة، الذي تكوّن عناصره موجاً غيبياً ينساب في نبع فطرتك، ويثير فيك كوامن الأفكار والأحاسيس.. لا تدري أيّ عناصره أكثر فعلاً في روحك: لوعة الشجا.. أم نغم اللحن.. أم رنّة الإيقاع.. أم هزة الصدق في روح القارئ والمستمعين.. حتى ليخيل إليك أن في حرم النبي نشيدين يتجاوبان، نشيد الملائكة ونشيد أهل خراسان..

نعم إنه الصدق.. فهو الجوهرة تتفاعل مع إطارها البديع تزينه ويزينها، ويجذبان الناس، كما تجذبهم قافلة عجمية تقرأ الدعاء في مسجد النبي.. فيتفرجون عليها مندهشين أو يذوبون معها في البكاء.. ويتحدثون عنها عندما يرجعون إلى بلادهم..

الى حرم آل النبي

بدؤوا يتجمعون بعد صلاة المغرب في المكان المحدد عند باب جبرئيل، وأصغر والدكتور يتحدثان عن انطباعهما من الزيارة، ويبديان ملاحظاتهما حول علاقة المسلمين بالنبي (ص) التي تتميز عن علاقة الأمم والشعوب بقادتها. . وعن هدف الإسلام في جعلها علاقة فاعلة في بناء الحياة وقيادة العالم. . وعن واقعها اليوم. .

- برأيك يا أصغر ما هي الطرق التي ينبغي للجمهورية الإسلامية أن تبعث بها الفاعلية في علاقة المسلمين بالنبي (ص).

- صحيح يا دكتور أن مشكلة المسلمين ثقافية فهم يحتاجون إلى برامج واسعة في كل بلد لتوعيتهم على نبيهم وإسلامهم وقرآنهم، ومن ثم كشف زيف الثقافة الغربية وطردها. . وهي أيضاً مشكلة اقتصادية تحتاج إلى استنقاذ ثرواتهم من أيدي أعدائهم وإعادتها إلى أيديهم. . وهي من جانب آخر مشكلة علمية تكنولوجية. . ومن جانب آخر عسكرية. . إلى آخره. . لكن مفتاح ذلك كله يا دكتور المشكلة السياسية، يعني مسألة من يحكم بلاد المسلمين. . فإذا انحلت هذه انحلت بقية المسائل، أو أخذت طريقها إلى الحل. .

- تعجبني يا أصغر قدرتك الدائمة على ربط كل المسائل بالمسألة السياسية، إذن لا طريق في نظرك لتصحيح علاقة المسلمين بالنبي (ص) إلا بتصدير الثورة الإسلامية. .

ـ ماذا أصنع يا دكتور إذا كانت كل المسائل العامة مرتبطة عضوياً بالمسألة السياسية، أرجو أن تقايس بنفسك بين قضية «لمن الحكم» وقضايا: لمن الثقافة ولمن الاقتصاد، ولمن العلم.. ولمن السلاح والقوة المسلحة.. ليس فقط من ناحية الشمول والجزئية.. بل من ناحية الموقع التسلسلي لهذه القضايا.. إن قضية «لمن الحكم» لها موقع الجذر والأساس يا دكتور.. أحب أن أقرألك يوماً آيات القرآن المتعلقة بقضية الحكم ولعلك تستنتج منها أكثر مما أستنتج.

ـ هذه الصيغة في الطرح يا أصغر علمية تماماً.. وبودّي أن أفهم الأفكار التي يقدم فيها القرآن قضية الحكم.. ثم فكر طويلاً، وقال: ولكن العقبة أمام الجمهورية الإسلامية في تصدير الثورة ليس مجرد طرح الحكم الإسلامي، بل طرح حكم رجال الدين يا أصغر.. إنهم جماعة اختصاصيون وأهل تقوى لا شك في ذلك، ولكن ينبغي أن نفكر في طرح الحكم الإسلامي بشكل أكثر قبولاً بحيث لا يكون حكم فئة رجال الدين، أو غيرهم من الفئات..

تبسم أصغر وقال:

ـ أكثر قبولاً عند من يا دكتور؟

ـ عند الشعوب طبعاً.

ـ هؤلاء الحجاج هم أبناء الشعوب الإسلامية، هل تريد أن نسأل نماذج منهم عن ثقتهم بعلماء الدين في بلدانهم وثقتهم برجال حكومتهم.. لترى أيهم أكثر قبولاً.؟

إن الحكومات لا شعبية لها يا دكتور.. وإن الشعبية في بلاد المسلمين للعلماء.. وإن طرح الحكم الإسلامي بيد العلماء هو الطبيعي فكيف تراه عقبة؟.

ـ افرض أنه عقبة عند السياسيين والمتعلمين في ذلك البلد، ألا يعني ذلك أنه عقبة. . أو أن هؤلاء عقبة في طريقه؟

ـ العقبة يا دكتور في نظر هؤلاء ـ وبالأحرى في نظر ثقافتهم الغربية ومن يقلدونه من الغربيين ـ ليس هو حكم العلماء أو غيرهم، وإنما هو الحكم الإسلامي من أي شخص كان. . ولذلك تراهم يقبلون رجل الدين ولا يرونه عقبة إذا تنازل عن قضية الحكم الإسلامي ومشى في ركابهم أو سكت عنهم. . وفي نفس الوقت يرون في أستاذ الجامعة والمهندس والطبيب الذي يطرح قضية الحكم الإسلامي ويعمل لها عقبة في طريقهم، ويقفون عقبة في طريقه، مع أنه ليس عالم دين. . والحكم الإسلامي ليس حكم فئة يا دكتور ليكون حكم فئة رجال الدين أو غيرهم، فالإسلام دين مدوّن محدد والانحراف عنه لا يخفى. . أنا لا أقول إن علماء الدين لا يمكن أن ينحرفوا ولكن أقول إن احتمال انحرافهم يبقى أقل من احتمال انحراف غيرهم، لا في النظرية الإسلامية فقط، بل في التطبيق أيضاً. .

ـ ألست معي يا أصغر أنه توجد أمام هذا الطرح حالة استبعاد نفسي كبيرة في البلاد الإسلامية؟.

ـ بلى يا دكتور، ولكن من أين نشأت. . ومن الذي يغذيها. .؟ على أي حال مهما كان سببها ومهما كانت كبيرة فقد انحلت المشكلة ما دامت حالة استبعاد نفسي كما وصفتها وليس استبعاداً منطقياً. . إن الإسلام قام على إزالة حالات الاستبعاد النفسية وكسر حواجزها يا دكتور. . هذه حياة النبي (ص) كلها من النبوة وحتى إقامة الدولة، قامت على إزالة الحواجز النفسية والوهم عند الناس. . وهذه ثورتنا قامت من أولها حتى الآن على كسر الحواجز النفسية وإزالة الوهم. .

ـ وهل يمكننا أن نقيس علماء الدين في البلاد الإسلامية بعلماء الدين في إيران . . ألست معي يا أصغر في أن الفرق بينهم كبير؟

ـ مهما رأيناه كبيراً فهو فرق في الكمية يا دكتور وليس في الكيفية . . إن كل بلد من بلاد المسلمين فيه علماء، والناس يحبونهم ولا يحبون الحكومات، والفرق بينهم وبين علماء إيران هو في درجة العمل . . في المرحلة التي وصلوا إليها في طرح قضية الحكم الإسلامي . . وفي ثقتهم بأنفسهم وبالإسلام . .

وجاء عالم القافلة ومعه اثنان من أصحابه، فتقدم أصغر والدكتور وسلما عليه . . وما هو إلا قليل حتى تكامل وصول الحجاج وانتظم وفد الخراسانيين مجدداً وساروا من عند باب جبرئيل إلى زيارة الأئمة من أهل البيت (ع) في البقيع . .

كان الطريق إلى البقيع قصيراً، سكة واحدة قديمة متعرجة تضيق وتتسع، وتتكاثر فيها الدكاكين أو تتناثر . . مذكرة بتوابل الهند وأدهانها، وبأسواق المدينة وأحيائها القديمة . . وتنتهي فجأة لتواجهك عبر الشارع مقبرة البقيع، أو جنة البقيع، أشبه بربوة كبيرة محاطة بسور، تضم في تربتها الطاهرة أربعة من أئمة أهل البيت في بقعة واحدة: الإمام الحسن والإمام زين العابدين، والإمام جعفر الصادق، والإمام محمد الباقر (ع) . . وإبراهيم بن رسول الله (ص) في بقعة أخرى، والعديد العديد من شخصيات أهل البيت والصحابة والتابعين والشهداء والصالحين، عبر عصور الإسلام . .

المشهد هنا يختلف . . ففي حرم النبي (ص) ما يسر وما يحزن، وليس في البقيع إلا ما يحزن . .

في حرم النبي جلال الوحي ينزل به جبرئيل على النبي فيتلوه على المسلمين

فيكتبونه آيات وسوراً . . وفي البقيع جلال الشهداء من أهل البيت وأنصارهم وهم يحتضنون القرآن فيتضرج معهم . .

في حرم النبي مسجد واسع مكرم وضريح مجلل، تحمّله فقه الوهابيين فأبقوه بعد ما هموا بهدمه، وفي البقيع ضاق فقههم عن تحمل قبة وضريح ولَبِناتٍ على قبور الأئمة من أهل بيته فهدمتها معاولهم بفتوى . . نعم بفتوى!!

في حرم النبي تشعر بمعاناته وظلامته في وحيه وأهل بيته، ولكنك تشعر بأمجاد بدر والأحزاب وخيبر، وأمجاد انتصار الإسلام في الجزيرة والعالم . . أما في البقيع فتشعر بلوعة الظلامة وليس معها إلا لوعة الظلامة . .

المشهد يختلف حتى في مراسم الزيارة . . ففي الحرم تستأذن من الساحة أو عند الباب وتدخل ، وفي البقيع ممنوع عليك الدخول، وعليك أن تزور من الشارع أو من الرصيف الضيق الذي لا يتسع لأكثر من بضعة أشخاص . . لذلك تتخذ قوافل الزوار من الشارع مجالس للزيارة ،أو من المدخل الخارجي عند باب البقيع المقفل . . مبارك هذا الباب ،فكم سجلت الملائكة عنده لأولياء الله دعوات إلى الله وضراعات . . وتحيات لأهل البقيع ودموعاً . . أما قافلة الخراسانيين؛ فقد بدأت دموعهم منذ أن اتجهوا إلى البقيع ، فقد قال أحدهم هذه اسمها سكة بني هاشم ،وفي هذه المحلة تقع بيوت الأئمة عليهم السلام، فسرى الخبر فيهم كالبرق رجالاً ونساءً وجرت معه الدموع والنشيج . . وما إن انتهت السكة وعبروا الشارع حتى علا نشيجهم يجاوبون به قوافل الزوار وأفرادهم . .

لقد تحول شارع البقيع إلى ساحة عاشوراء، ولِمَ لا ؟ . فبين البقيع وكربلاء أكثر من سبب ونسب . . فالظلامة هي هي . . وأهل بيت النبي وتلامذتهم

الذين يكافحون ضد الاكتفاء باسم الإسلام ويصرون على المضمون، وهم هم في كل جيل . .

وفي بقيع كربلاء ترى ضريح الحسين وابنه في ناحية، وضريحاً ضم سبعين شهيداً من أصحابه في ناحية. وفي بقيع المدينة ترى ضريح أخي الحسين وثلاثة أئمة من أبنائه في ناحية، وترى ضريحاً في ناحية أخرى ضم نحو ألف شهيد من بقية الصحابة والتابعين، سقطوا بسيف يزيد في ثورة أهل المدينة، فالتحقوا سراعاً بأصحاب الحسين، واضطجعوا مثلهم في ضريح واحد.

اتخذت قافلة الخراسانيين مجلساً في شارع البقيع أو ساحة عاشوراء . . فرشوا سجادات الصلاة، وبعضهم جلس على الأرض كغيرهم من الوفود إلى بيت النبي وآله، غير عابئين بمجلس رتيب، ولا بالسيارات تشق صفوف المشاة وتدفعهم نحو الجالسين . . ولا بشرطة السير تملأ المكان كأنما الناس سيارات . . ولا بشرطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقفون بين الماشين ويمشون أمام الجالسين وبينهم إن استطاعوا . . ولا بهذا الشريط المسجل بانفعال وعصبية تزمجر به مكبرات الصوت الوهابية، تصفع به المسلمين وتكفرهم، لأنهم يتبركون بالقبور . .

لم يعبأ الخراسانيون بهذه السلبيات، لأن ما يعيشونه من البقيع أعظم، ولأن قلب العاشق في شغل عن مثلها، فكيف إذا كان عاشقاً ملتاعاً . .

على حافة رصيف الشارع جلس عالم القافلة، واستقبل الحجاج ليحدثهم، فنهض أحدهم ولم يرض حتى فرش له سجادته، فجلس عليها وصمت قليلاً فصمتوا وأصغوا . .

كان كهلاً أسمر، خفيف اللحية، مشدود البنية، غائر العينين، على بشرته

لفح جبال خراسان، وعلى ملامحه نفحة من أفغانستان . . تنفس الصعداء . .
وحمد الله وصلى على رسوله وآله وقال :

هل تعرفون يا إخواني وأخواتي أن الشارع الذي جئنا فيه من قباء إلى الحرم قريب إلى حد كبير من الطريق الذي سلكه رسول الله (ص) في أول هجرته . ؟ كان (ص) راكباً على ناقته المباركة . . وكلما مر على حي في الطريق استقبلوه وأحاطوا به وأمسكوا بزمام الناقة طالبين منه أن ينزل عندهم ، فكان يجيبهم : «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ . . خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ» . . كان (ص) قد ألقى زمام الناقة على غاربها وترك قيادتها للملائكة . . حتى وصلت إلى الساحة التي أمام بيت أبي أيوب الأنصاري فأناخت ، فأنهضها النبي ودفعها للسير فامتنعت وعجّت ، ثم أناخت وحنّت واطمأنت . . فنزل عنها النبي (ص) وبادر أبو أيوب إلى رحله فأخذه إلى بيته . . لله در أبي أيوب ، الذي يثوي الآن شهيداً في إستنبول ، أي رَحْل حمل بين يديه ، وأي نور حل في منزله . !

هل تعرفون أين هو بيت أبي أيوب؟ إنه اليوم «دكان» الأقمشة الذي أريته لبعض الإخوان عند الركن الجنوبي الشرقي للحرم ، وقد دلني عليه مفتي السودان قبل سنين ، وكان رجلاً له اطلاع واهتمام بالأماكن التاريخية . . كان الدكان يومها لبيع المرطبات . . وأما على عهد النبي (ص) فكان غرفتين إحداهما فوق الأخرى ، ويبدو أن بابها كان على الساحة وأن الدار كانت من جهة الداخل . .

نزل النبي (ص) في الغرفة الفوقانية حيث وضع أبو أيوب رحله ، ثم طلب أن يتحول إلى الغرفة التحتانية ، لأن ذلك أرفق بالأصحاب والمراجعين ، وبعائلة أبي أيوب أيضاً . .

رحم الله أبا أيوب، كان يتحدث بحنان عن تلك الفترة التي أمضاها النبي في منزله حتى تم بناء مسجد النبي وبيته، ويذكر كيف كان هو وعائلته المكونة من أمه وأخواته يتقيدون في تصرفاتهم في الغرفةالفوقانية،حتى لا يزعجوا النبي (ص) وزواره.

كان مكان المسجد أرضاً تستعمل ساحة لتجفيف التمر، فاشتراها النبي (ص) ولعله اشتراها ببقايا مال خديجة، سلام الله على خديجة.. وبنى المسلمون فيها المسجد الشريف، وبيت النبي (ص) وكان يضيف فيه الغرف حسب الحاجة.. ويبدو أن الغرفة الشمالية من جهة الدكة كانت تسكن فيها فاطمة الزهراء (ع) حتى تزوجت بعلي (ع) فسكنت في دارهالمجاورة،التي كان يسكن فيها مع أمه فاطمة بنت أسد.. وتعرف هذه الغرفة إلى اليوم بحجرة فاطمة، ويوجد في وسطها صندوق خشبي نفيس نقشت عليه آيات وأحاديث في فضلها (ع)..

وإلى جانبها غرف نساء النبي (ص) ما عدا أم إبراهيم مارية القبطية (ع) فإنها لم تنسجم مع بعضهن فآذينها؛خاصة بعد أن رزقت بإبراهيم (ع) فبنى لها النبي (ص) غرفة في جوار بعض الأنصار في الطريق إلى قباء.. وتعرف اليوم بمشربة أم إبراهيم وتزار..

ويبدو أنه (ص) كان يستقبل الضيوف في داره في حجرة فاطمة، وإذا كثروا ففي المسجد..

أما دار عليوفاطمة،فالمفروض أنها كانت في الساحة التي أمام باب جبرئيل التي جئنا منها أو على يمينه،لأنها كانت كدارالنبي؛ لها باب داخلية تفتح على المسجد.. وعلى العموم فهذه المنطقة من باب جبرئيل إلى البقيع هي محلة بني

هاشم، وفيها بيوت الأئمة من أهل البيت عليهم السلام . . وقد كان الكثير منها معروفاً إلى زمن قريب، وكان عدد منها موقوفاً مدارس دينية ، أو منازل للزوار، أو رباطات للفقراء المجاورين في المدينة، وما شابه . . ولكنها في عهد هؤلاء كغيرها من الآثار المباركة ، درست وضاعت أو هي في معرض الضياع . .

ومالنا نتكلم عن الآثار ونحن نراهم أقدموا على هدم قبور الأئمة من أهل البيت (ع) التي بنتها أجيال المسلمين، وتعهدتها بالعناية والإجلال؟!

المدينة أيها الأعزاء حرم رسول الله (ص) ودار هجرته ، وعاصمة دولته ، ومنطلق نور وحيه إلى العالم . . فيها صنعت أمته ، وصنعت أحداث العالم على عهده وفي صدر الإسلام . . وهي عاصمة الأئمة من أهل بيته (ع) فلم يغادرها أحد منهم إلا مضطراً، فأمير المؤمنين (ع) كان مضطراً لأن يكون في نقطة أقرب إلى مجرى أحداث الدولة الإسلامية، ولما استشهد في الكوفة وجرت الأحداث عاد الحسنان (ع) وبقية أهل البيت إلى مدينة جدهم ، وعاشا فيها حتى استشهد الإمام الحسن (ع) . . وذهب الإمام الحسين إلى كربلاء كما تعلمون . . وبعد استشهاده عاد الإمام زين العابدين وزينب الكبرى وسبايا أهل البيت إلى مدينة جدهم ، وعاش فيها واستشهد . .

وكذلك الإمامان الباقر والصادق (ع) عاشا واستشهدا فيها .

وغادرها الإمام الكاظم (ع) مقيداً سجيناً إلى البصرة ، ثم استشهد في سجن بغداد . .

وغادرها الإمام الرضا (ع) مجبراً على قبول ولاية عهد المأمون ، واستشهد في خراسان . .

وغادرها الإمام الجواد (ع) مجبراً لأن المأمون فرض عليه الإقامة الجبرية في بغداد حتى استشهد فيها . .

وغادرها الإمامان الهادي والعسكري (ع) لأنهم فرضوا عليهما الإقامة الجبرية في سامراء حتى استشهدا فيها .

وأما الإمام المهدي (ع) فقد ورد في الأحاديث أنها مسكنه في غيبته ﴿نِعْمَ المَسْكَنُ طَيْبَةُ وَمَا بِثَلاثِينَ مِنْ وَحْشَةٍ﴾ .

المدينة أيها الأعزاء غنية برسول الله (ص) ومطبوعة بطابعه . . وغنية بأهل بيته الطاهرين ومطبوعة بطابعهم . . فيها بيوتهم وآثارهم وحياتهم، وقبورهم . . وفيها يسكن مهديّهم الموعود . . فكيف يستطيع المحب للنبي وآله أن يدخل إلى المدينة ولا يتأثر وهو يرى ظلامتهم متجسدة أمام عينيه . . ديارهم خالية وآثارهم مضيعة . . وقبورهم مهدمة . . وهم ما بين قتيل ومسموم وغائب . .

وبكى العالم، وأخذ البكاء الجميع . . ثم تابع : على كل حال إذا كنا نتألم لهدم قبور الأئمة (ع) وضياع الآثار المباركة المرتبطة بالنبي وأهل بيته (ع) وأحداث صدر الإسلام ؛ فماذا ينبغي أن يكون حالنا لضياع وحيهم وقرآنهم الذي بذلوا أعمارهم وأرواحهم في سبيله . . نعم أيها الأعزاء إنه لا ظلامة كظلامة أهل بيت النبي صلى الله عليه وعليهم، ولا لوعة كلوعتهم، وإنها ظلامة الوحي والقرآن والإسلام، وجناية الناس عليه . . إن أهل البيت هم ثأر الله في أرضه، ولا تشفى صدورنا ولا تهدأ عبراتنا حتى نأخذ بثأرهم ونطبق إسلامهم في الأرض . .

في الماضي، كان الحكام المنحرفون هم أعداء الأئمة من أهل بيت النبي

(ص)، لأنهم كانوا يمنعون تطبيق وحيهم وقرآنهم. .أما اليوم، فإن أعداءهم الحقيقيين هم طواغيت الدول الكبرى فهم الذين يقومون بهذا الدور . . و يجب أن تلتفتوا أيها الأعزاء إلى أن ثأرنا للنبي وأهل بيته إنما هو بالأساس مع هؤلاء الطواغيت، أما هؤلاء الحكام فهم في الحقيقة ليسوا شيئاً ولا قيمة لهم. . لا الشيعة منهم موالون لأهل البيت، ولا السنة منهم موالون لعثمان وبني أمية وبني العباس. . إنهم موالون لطواغيت الغرب والشرق، وليسوا أكثر من أدوات مسخرة بأيديهم، إنهم واجهتهم في عداء النبي وآله وأصحابه وقرآنه وأمته. . ولو كانت مشكلتنا معهم لقضت الشعوب المسلمة عليهم وتخلصت منهم في مدة قصيرة. . فقد استيقظت الشعوب واستفادت من التجارب كثيراً. . ولو كانت مشكلة ثورتنا معهم لدخل أبناؤنا بغداد وكربلاء وحرروها من الشهور الأولى للحرب، ولحرروا الحرمين الشريفين في أيام، وحرروا القدس الشريف في شهور. .

في صدر الإسلام كانت قضية أهل البيت (ع) قضية داخلية يوم كان المسلمون يحكمون أنفسهم. . وكان يزيد هو العقبة، لأنه يملك القرار في بلاد المسلمين. . أما اليوم فإن يزيد الذي يملك القرار لا يوجد في الشام ولا في عواصم المسلمين، إنه يسكن في واشنطن وموسكو وباريس ولندن، ويدير الأمور من هناك. . وهؤلاء الحكام إنما هم مأمورون ومطيعون ليزيد. وأكبر واحد فيهم لايصل إلى مستوى عبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد، والحجاج، والسندي بن شاهك، والفتح بن خاقان. .

اعرفوا أيها الأعزاء معنى كلمة شيعة أهل البيت (ع). . شيعتهم يعني أنصارهم، أنصار قضيتهم. . وليست قضيتهم إلا الإسلام. . أن يطبق هذا الوحي الذي أنزله الله على جدهم. . فمن أجل هذا الإسلام العزيز عاشوا

وعملوا وضحـوا واستشهدوا، وتيتـم أطفـالهم وسبيت نساؤهم ، وتحملوا الاضطهاد والتشريد في البلاد. . فاعـرفوا أين قضيتهم اليـوم ومن يقف إلى جانبها في العالم، ومن يعاديهـا ويقف عقبة في طـريقها، تفقهـوا في الولايـة والبراءة. . وتفقهوا في العمل لقضية أهل البيت (ع). . هل عدونا الأصلي هؤلاء الشرطة الذين يمنعوننـا من التبرك بـأضرحتهم الـطاهرة. . هؤلاء أدوات لا يفقهون شيئاً. سيدهم ليس أكثر من أداة لعدونا الأصلي. .

تعلموا من إمامنا العزيز. . فقد كان أحد العلماء يحدثه يوماً عن رئيس السافاك فقال عنه إنه عدونا الأصلي. . فقال الإمام: ماذا تقول. . لقد كبّرته كثيراً. . إنه خادم صغير ــ وإن سيـده محمد رضـا ليس إلا خادمـاً لعدوكم الأصـلي. . عـدوكم الأصـلي أمـريكـا. . وسكت العـالم لحظات. . ففهم الخراسانيون إشارته وانطلق الهتاف: الموت لأمريكا. . الموت لروسيا. . الموت لإسرائيل. . وتبعه هتاف متقطع من بعضهم: الموت لعملائهم. .

* * *

نزل العالم عن منبره، ولكن ليقف شاب فيرسم خطابـه في لوحـات، ويجسده في مشاهد ملكت أسماع الجـالسين والمـارة وقلوبهم، وأنْستهم أنهم يجلسون في شارع أو يمرّون. .

أي ريشة بيد هذا الفنان، هذا الصوت الرخيم الذي يحمل معنى غيبياً غير مألوف، ولكنك تحبه وتريده أن يستمر ويأخد مداه؟!

صوت آت من أعالٍ هناك هناك، بعيدة ومحبوبـة. . ينادي أعمـاقاً في روحك لم تُنادَ من قبل، ولم تُمس أوتارها. .

والألوان التي يستعملها هذا الشاب مجبولة بزلال تلك الينابيـع، عذبـة

منسابة مثلها . . والحركات . . والأبعاد . . والكلمات . . كلها قادمة إلى الدينا من تلك الأعالي، تبشر بقدوم السيد على صهوة جواده :

أيها المهدي الموعود . . العالم في انتظارك . . يا بقية الله في الأرض، يا ذخيرة رسول الله . . يا عزيز الزهراء . . العالم في انتظارك سيدي . . روحي فداك . .

واغرورقت عيون الخراسانيين بالدموع، وتطلعت محدقة في أفق المدينة من جهة البقيع، تعبر مع الشاب عن الشوق المكنون للغائب، وتفرش له الأجفان والقلوب . .

وواصل الشاب رسم لوحاته، كلما قدم منها واحدة قُلت ولا أروع . . فإذا قدم الثانية فإذا بها تفوقها . .

إنه يتناول من قمم الغيب . . ومن سماء التاريخ . . وآفاق المستقبل . . نجوماً ينثرها على الحاضر فتضيئه . . وعلى الطريق فيشرق . . وعلى قلوب الخراسانيين فيتجاوبون معه بلا حدود . . لأنه يعبر عن ضميرهم بلا حدود . . .

قال الشاب ولكن بصوته وأسلوبه :

يا بقية الله . . ذهبنا إلى جدك رسول الله . . أدينا الاحترام عند أعتابه . . ولو سمحوا لنا أن نقبلها ونمسح بها عيوننا لفعلنا . . وقفنا خداماً خاشعين بين يديه . . وشكونا إليه . . . فقال مالكم غير ولدي المهدي . . ولقد كنت أخبرتكم بذلك . .

ذهبنا إلى أمك الزهراء . . بكينا عند باب دارها . . طلبناك منها . . فلم نسمع جواباً . . بكينا وقلنا يا بنت رسول الله، يا سيدة النساء، لقد أرشدنا رسول الله إلى ولدك المهدي . . ونحن مواليكم أهل البيت . . أرواحنا فداؤكم . .

فبكت بكاء تقطعت له قلوبنا وقالت: لم يبق عندي غير هذا الولد. . وقد غيبه الله تعالى إبقاءً عليه. . أمّا الحسن فقطعوا كبده بالسم. . وأما الحسين فوالهفي للحسين. . وأما زين العابدين والباقر، والصادق، والكاظم، والرضا، والجواد، والهادي، والعسكري، وغيرهم من أولادي . . فلهفي عليهم مضيعين مشردين. . ما بين مقتول ومسموم. .

يا أهل خراسان إني لأحبكم، ولكن الله أمرني أن لا أرضى لولدي أن يظهر من غيبته حتى تتمهد له الأمور، ويتهيأ له أصحاب الصدق. . وإنكم يا أهل خراسان أنصاره، فالجد الجد. .

أيها المهدي . . يا بقية الله. . أرواحنا لتراب قدميك الفداء. . نقسم لك بالذي بعث جدك رحمة للعالمين، بالذي جعلكم أهل البيت معدن العلم وأئمة المسلمين. . نقسم لك بجدك المصطفى، وجدك المرتضى وأمك الزهراء، بكبد عمك الحسن، بدم جدك الحسين، ودم طفله الرضيع. . إننا موالٍ صادقون، وقد أعددنا لك بلدنا. . وأرخصنا لمقدمك دماءنا. . ندعو الله لظهورك في الأسحار، ونلهج بذكرك في الليل والنهار. . من شيخنا الكبير نائبك في جمران. . إلى أطفالنا في الروضة، نعيش حبك في قلوبنا. .

اسمك الشريف على كل معالم بلدنا، جعله مواليك إعلاناً للولاء وتبركاً. . وقد توجنا به دستورنا، فالبلد لك أيها المولى. . يحكمه نائبك حتى تأتي. .

ومن أجل التمهيد لك كانت ثورتنا. . أرخصنا فيها الدماء. . وواصلنا فيها البذل. . ولم نجزع للتضحيات. . ولم نتعب من المشاق. . حتى جاء نصر الله. . كنا بذلك نطيع أمر نائبك الغائب عنا، فقد أحببناه حباً لا يفوقه إلا حبك أيها الغائب وحب آبائك وجدك. .

وقد رأيت يا سيدي كيف تظافرت علينا أحزاب الغرب والشرق، من أجل أنّا أقمنا دولة تحكم بقرآن جدك المصطفى (ص) وتستعد لمقدمك.. فأسرّوا مكرهم، وأجمعوا أمرهم، ورمونا بكيدهم.. فقلنا: هيهات أن نُسْلِم بلد مولانا ولو اجتمع على قتالنا أهل الأرض، وقلنا لنائبك: طب نفساً يا نائب المولى فلسنا كأهل الكوفة أبداً. ولن نتركك حتى آخر رجل منا.. وحتى آخر امرأة وطفل.. وصدقنا قولنا بفعلنا، وتقدمنا للشهادة وصبرنا لها، وسخونا بها دماء غزيرة.. وتحملناها نقصاً في الأنفس والأموال والثمرات.. وأذىً كثيراً.. كلما جاءت منها شدة شددنا لها حزام التوكل وصمدنا لها واستقمنا.. حتى يفرجها الذي فرج الشدائد عن وجه جدك وآبائك الطاهرين.. وها أنت ترانا في غمارها يتواصل منا سيل الدماء، وتَلَقّي الشدائد.. ومضاء العزيمة..

معاذ الله أيها المولى أن نمن بشيء عليك.. وإنما نخبرك بأننا صادقون أوفياء.. وما قيمة كل ما قدمناه وما نقدمه أمام حقك العظيم علينا.. فوالذي وعدنا بك على لسان جدك المصطفى لو طالت الحرب والشدائد علينا عمراً تمطر علينا قنابلها، وتقذفنا بصواريخها.. فتُجري منا الدماء، وتنثر الأشلاء، وتهدم فوق رؤوسنا البيوت.. لَمَا مسّنا لها وَهْنٌ ولا جَزَع.. ولرأينا ذلك قليلاً في رضاكم.. فإن رضا لله رضاكم أهل البيت.. وإنما نشكو إليك أيها المولى ونناديك.. شوقاً وطمعاً، ولا وهناً ولا جزعاً..

يا مهدي آل محمد.. روحي فداك.. إن من دخل مدينة يسكن فيها محبوبه لا يتعب من البحث عنه فيها، ومن شمّ رائحته في نسيمها، وتنسم أخباره في أحيائها..

وها نحن أيها المولى الحبيب نشم في المدينة عطرك، ونتنسم فيها أخبارك، ونناديك يا من فداك أرواحنا.. ها نحن نبحث عنك ونتصفح

الوجوه في حرم جدك المصطفى وعند ضريحه الشريف. . لعل نواظرنا تنعم بالنظر إليك ولو لم نعرفك. . وها نحن نبحث عنك هنا أيها المولى عند قبر أمك الزهراء. . أيها المولى دلنا على قبر أمك سيدة النساء. . قالوا إنه في الحرم ولم نرَ لها قبراً في الحرم. . وقالوا في البقيع ولا قبر لها في البقيع . . علّمنا يا سيدي كيف تزورها وماذا تقول لها. . كيف تسلم عليها وعلى عمك الحسن، وعلى أجدادك الصادق والباقر وزين العابدين. .

السلام عليك يا فاطمة الزهراء. . السلام عليك يا من قال فيك رسول الله : فاطمة سيدة نساء العالمين، فاطمة بضعة منّي، من أحبها فقد أحبني ومن آذاها فقد آذاني. . يا أم، يا زهراء. . روحي فداك. . زرناك عند قبر أبيك وها نحن نزورك هنا، ولا نعلم أين قبرك. .

وأخذ الشاب البكاءُ ولم يستطع مواصلة الزيارة فناول أحدهم كراساً ملفوفاً كان يحمله بيده قائلاً: اقرأ الزيارة، وجلس ، فقرأ الرجل بالعربية زيارة الزهراء والأئمة وأهل البقيع . .

* * *

في طريق العودة إلى المسكن لم يحاول أصغر أن يكسر صمت الدكتور الذي سيطر عليه منذ زيارة البقيع . . فقد حاول قبل ذلك فوجده يجيب على أسئلته باقتضاب، أو بالإشارة بنعم أو لا ، كأنما يقول له أنا مشغول عن الكلام. .

حتى إذا نزلوا من السيارة أمام البناية سأله:

ـ هل أنت متعب يا دكتور؟

فكر الدكتور طويلاً، وقال:

ـ اتعرف يا أصغر أني لم أكن ملتفتاً إلى حالتي الجسمية أبداً حتى ذكرتني

بسؤالك فاحتجت إلى أن أعيد شعوري، وأسأل نفسي هل أنا متعب، هل أنا جائع، هل أنا بحاجة إلى النوم . . فوجدت نفسي كأني في الساعة العاشرة صباحاً في عملي، جيد النشاط احتاج إلى شيء قليل من الطعام فقط . .

لقد لمست لماذا لا يتعب المسلمون من الأعمال الروحية . . لأنهم لا يعيشون في أثنائها الشعور الاعتيادي بأجسادهم . . ولا بد أنهم في حياتهم العادية يعيشون الشعور الاعتيادي بالمقياس الطبي أو أقل منه . . في حين أن من أكبر أسباب المشاكل الصحية في الغرب زيادة شعور أحدهم بجسده وتفكيره بحالته الصحية . .

هل تعرف يا أصغر أن تأثير ذلك لا يقف عند كثرة مراجعة الأطباء واستعمال الأدوية والأطعمة والأشربة . . بل يتعداه إلى التأثير على عمل الخلايا وفي مقدمتها خلايا الكبد . .

أرأيت إذا كانت أم مهووسة بصحة طفلها كيف تُرْبك جسمه بكثرة الفحوص والأدوية والأغذية والأوامر والنواهي . . وكيف تنشئه من طفولته على الوسوسة في صحته . . هذه الأم هي المادية الغربية . . وأطفالها هم كل الغربيين يا أصغر . . إنه توجد فيهم الأعاجيب في هوسهم بصحتهم . . لا تستثن من ذلك إلا الفقراء في الأرياف نسبياً، وإلا العباقرة والعاشقين لأعمالهم، نسبياً أيضاً، واستثن منه كل من يعيشون حياة عليا يا أصغر . .

***

المطعم النبوي

ما هو إلا أن أخذ الحجاج يتجمعون إلى مائدة طعام العشاء.. ودخل الدكتور وأصغر من باب السطح فأعجبهما المشهد.. لقد تحول السطح إلى ساحة كبيرة مفروشة بالأبسطة يمتد فيها سماطان متقابلان لأكثر من مئة رجل، بينما امتدت بردة من القماش الأبيض أمام القسم الآخر المخصص للنساء..

كان بعض الحجاج يجلسون، بينما وقف بعضهم يتأملون قباء والمدينة.. كان مسجد قباء القريب واضح المعالم تنبعث الأنوار من مآذنه وأركانه.. ومن شارع قباء الخارجي، الذي يقطع واديها باتجاه الشمال نحو المدينة وجبل أُحُد.. ومن بعض الشوارع الأخرى.. ومن مآذن بعض المساجد.. لكن المنظر الأروع كان إلى الشمال الشرقي لقباء في وسط المدينة، حيث تتلألأ أنوار الحرم النبوي الشريف.. أضواء تزهر من مآذنه السامقة، وفوار نور يصعد منه ومن ساحاته إلى السماء..

كان النسيم عذباً منعشاً.. يحمل رقته من الصحراء والجبال، ومن نخيل العوالي وقباء.. ويحمل الكثير الكثير من جمال المصطفى الحبيب ومعانيه.. يعبر عنها الحجاج كلما أعجب أحدهم منظر فيذكر سيد الرسل ويصلي عليه وآله..

جاء العالم فسلم ووقف معهم ينظر، فأحاطوا به يسألونه عن جغرافية المدينة ومعالمها، وعن نقاط من سيرة النبي (ص).. وانسجم الواقفون في المشاهد

والتعليقات عليها فانضم إليهم الجالسون. . حتى جاء مدير القافلة يدعوهم لتناول العشاء، فقد شرع العمال يضعون الطعام على السماط. .

. . قرأ العالم البسملة ودعاء قصيراً وشرعوا في تناول العشاء، ولكن بعد أن ألزموا مدير القافلة وعماله أن يتعشوا معهم. .

كان كل شيء يطفح بفرح خاص. . المجلس أو المطعم الليلي على سطح بناية عالية في قباء، الذي ابتكره ذوق مدير القافلة. . ومناظر المدينة في الليل التي شاهدوها قبل قليل، فهم يجلسون في وسطها. . والنسيم العذب بعد يوم حار. . وأخلاق السيد الطبري وعماله اللطيفة. . وطعامهم اللذيذ، وشعور المحبة والأخوة الذي أصبح معاشاً بين الحجاج، كأنما هم أصدقاء من قديم. . وأكبر من ذلك، ما طفحت به نفس الواحد منهم من رحلة الخمس ساعات إلى زيارة الحرم النبوي وجنة البقيع. .

لم يستطع الدكتور أن يجلس حيث أراد في آخر السماط، فقد دعاه مدير القافلة وأخذ بيده ويد أصغر وأجلسهما قرب العالم في صدر المجلس. . كان يتناول طعامه بحيوية وهدوء، والخواطر تتوارد على ذهنه من الماضي والحاضر، عن الغرب وعن إيران. . عن رحلته التي أدخلته من يومها الأول في عوالم جديدة. . عن هذا المطعم وزبائنه وأجوائه التي لم ير مثلها في كل حياته. . وعن عائلته، وعن برنامج الغد. . ولكنها لم تكن خواطر مزدحمة ولا ضاغطة . . كانت متسلسلة منسابة كنسيم ليل المدينة. . هادئة كأنفس هؤلا الرفقاء، الذين ينعمون بعشاء شهيّ في مطعم النبيّ.

المدينة مع الفجر

كانا قبيل الفجر يمشيان إلى الحرم، وقد بدأت الحياة تدب في شارع قباء الطويل وكلها حياة باتجاه الحرم وصلاة الفجر عند النبي . . خط السير باتجاه الحرم مزدحم بالسيارات والمشاة . . أما خط العودة ففيه سيارات وليس فيه مشاة . .

صدق حسين العامل، ففي أول الشارع من جهة قباء، لا تكاد ترى في المشاة إلا الحجاج الإيرانيين فرادى وقوافل . . لقد أبعدوا مساكنهم عن النبي، لكنهم يأتون إليه قبل الفجر . . كل الحجاج من أنحاء العالم ذاهبون إلى النبي الآن . . إلا المتعبون من عناء السفر ساعدهم الله، والذين غلبهم النوم فهم معذورون، وكلما اقتربت من منطقة الحرم رأيت حركتهم في ازدياد . . المدينة الآن تشهد حركة واحدة باتجاه الحرم . . من أحيائها البعيدة والقريبة، من أزقتها وشوارعها، يتجه المسلمون مجموعات وآحاداً نحو النبي . . إنهم أسراب طيور تبكر إلى بستانه . . وأسراب فراشات تطير نحو أزهاره . . وخلايا نحل تهفو إلى رحيقه . . إنها قلوب المسلمين المضيئة بوحيه تحنّ إلى مصدر نورها، وتهوي إلى نبعه لتتزود . .

الحركة واحدة . . والقلوب ، والنبض، والمشاعر، وإن تعددت الألوان . . من الصين . . إلى أوروبا . . وأمريكا . . من أنواع الشعوب والأعراق والأشكال . . زادك الله شرفاً يا رسول الله . . وقلبي عليك يا أمة رسول الله . .

أهل المدينة بدؤوا يفتحون محلاتهم . . والباعة في الطريق من المستضعفين والمستضعفات في منطقة الحرم يفرشون بضاعتهم المتواضعة في أيّ مكان يكثر فيه مرور الحجاج . . ترى هل يأتي أهل المدينة لزيارة النبي ، والصلاة في مسجده . . أم هم مشغولون بموسم الحجاج يركضون ليل نهار . . وكم نسبة المتدينين منهم . . وكيف وضعهم الاقتصادي . . من يملك الثروة فيهم . . وهل يوجد فيهم مستضعفون إلى حد أنهم يحتاجون إلى بيع أشياء بسيطة في الشارع ، بسيطة جداً؟!

قال أصغر :

ـ ينبغي أن نسرع في المشي يا دكتور حتى نحصل على مكان داخل الحرم . .

فهذا المؤذن يرفع الأذان الأول لتنبيه الناس للاستعداد للصلاة ، ولعل أذان الصلاة بعده بربع ساعة . . والطريق طويل . .

وزاد الدكتور من سرعته وهو يفكر: كم هو الفرق بين هذه الرياضة ورياضته الصباحية في لندن أو خارجها في عطلة الأسبوع والإجازات . . كم هو الفرق بين الرياضة للرياضة والرياضة لعمل روحي مقدس . . تلك تركز شعور الإنسان على جسده وماديته . . وهذه تركز شعوره على الهدف الروحي ، وتجعل خلايا جسده تعمل بدون إزعاج . . لا شيء يريك عمل الخلايا مثل الإرهاق العصبي وعدم الانتظام الغذائي . .

كان يفكر في دخوله بعد قليل إلى الحرم وسلامه على النبي (ص) ويعيد في نفسه ما كتبه ليلاً ليلقيه أمامه ، ويفكر هل يغير فيه شيئاً . . قد تكون هناك أفكار أخرى أهم ، وأسلوب آخر اكثر فصاحة ، ولكنه راضٍ عما كتب لأنه كلام طبيعي صادق ، ولو فرض أن النبي كان موجوداً فعلاً ووقف أمامه لتكلم معه

بنفس الكلام. هذا إذا استطاع أن يملأ عينيه من النظر إليه، ولم تأخذه الهيبة النبوية فتمنعه عن الكلام . .

ولكن . . ما الفرق بين الرؤية بالعين، والرؤية بالعقل والقلب. . هذا الانعكاس البصري، وهذه العصبيات التي تتحرك به فتذهب إلى العقل وتخبرة برمز يفهم منه وجود الشيء. . هل هي وحدها الطريق لإدراك العقل للأشياء. ؟ كلا . .

وهل هي أفضل الطرق. ؟

ليس معلوماً. . .

إذن ليس معلوماً أن موقفي اليوم أمام النبي، أقل من موقفي أمامه وأنا أشاهده. . على أي حال الموقف ليس هيناً. .

وتذكر . . ومد يده ليتأكد من وجود الورقة التي كتب عليها خطابه للنبي. . وأخرج الأوراق من جيبه. . نعم هذه هي، وهذه ورقة عنوان المسكن، وورقة برنامج اليوم، وهاتان الورقتان القديمتان ورقة الأسئلة عن الغيب، والأسئلة عن فتاوي شرعية. . هل ألتقي اليوم في بعثة الإمام بعالم يعطيني صورة واضحة عن الغيب. ؟ هذا السيد الخراساني، عالم القافلة، يبدو عليه أنه مثقف، ولو كان مظهره قروياً. . لكن أصغر قال إن مندوب الإمام والبعثة يعرفون العلماء أكثر، ويرشدوننا إلى من هو أكثر علماً وثقافة. . قال أصغر إن طريق البعثة من جهة البقيع، وإننا بعد الصلاة وزيارة النبي نزور الأئمة في البقيع، ونذهب مباشرة إلى البعثة ونتناول إفطارنا هناك. . أخشى أن لا يكون في الأمر لياقة. . ولكن أصغر يقول أبداً إنه أمر اعتيادي لمن وجد في بعثة الإمام في

وقت الإفطار والغذاء أو العشاء . . على كل حال؛ شيء حسن أن نزور النبي والأئمة (ع) ثم نفطر في بيت الإمام الخميني . .

***

عندما أطلّا على ساحة الحرم نظر أصغر بتعجب ، وصلى على النبي وآله وقال:

ـ ما دامت الساحة مزدحمة هكذا، فكيف يمكن الوصول إلى الحرم . . من الأفضل أن نصلي في أقرب نقطة ممكنة ثم نزور بعد الصلاة . .

تقدما في الساحة . . . وفي مصلّاها . . حتى . . عثرا على مكان في الجهة الغربية . . وما إن جلسا حتى أقام المؤذن الصلاة، فوقفا خاشعين فرحين بنعمة الصلاة في ساحة حرم رسول الله، مع جماهير أمته . .

***

دخلا هذه المرة من باب السلام يمشيان بين صفوف المصلين . . كان البعض يغادر بعد الصلاة ، وآخرون يتوجهون نحو الضريح الشريف لأداء الزيارة . . وأصغر يمشي أمامه ويقول: بسم الله وعلى ملة رسول الله . . والدكتور يرددها بخشوع، فقد ترجم له أصغر معناها وأعجبته . .

رفع الدكتور رأسه ونظر أمامه في المسجد، فرأى في آخره الحجرة النبوية الشريفة، وأنه يمشي مقابلها بخط مستقيم، فأخذ يبحث عن النقطة التي وقف فيها بالأمس، حتى إذا اقترب منها قال بصوت منخفض:

ـ يا أصغر، أنا اليوم أيضاً أُسلّم من هنا، وأنت تقدم، وزُرْ وصلّ، وعدْ إليّ في مكاني . .

ـ كما تحب يا دكتور، خذ أنت الكتاب واقرأ فيه الزيارة، وأنا أدبر كتاباً من أحد إن شاء الله . . أرجو أن تقرأ الترجمة أولاً لتكون في جو معناها، ثم تقرأ النص . .

ـ شكراً لإيثارك يا أصغر، ولكن كما قلت لك أريد أن أقترب من النبي (ص) بالتدريج . . في المرة الآتية أزور معك من الكتاب . . أما الآن فأريد أن أسلم عليه بكلمات من عندي . . فكر أصغر ملياً . . ثم قال:

ـ لو سمحت لي أن أقرأ معك كلماتك . . لقد فكرت أنها لا بد أن تكون بليغة، وأني بحاجة إليها . .

فاحمر وجه الدكتور خجلاً وقال:

ـ عفواً يا أصغر، لقد أخجلتني بكلامك . . إنها يا بني خطاب من شخص مثلي بعيد عن التدين، غريب عن النبي . . أما أنت فإنك أهل لأن تخاطبه بما يخاطبه به المؤمنون القريبون إليه . .

ووصلا إلى الأسطوانة التي وقف عندها بالأمس، فتقدم إليها الدكتور ووقف عندها لا يريم . .

ووقف أصغر معه وقال:

ـ هذا حسن ظنك بي يادكتور،أما أنا فلا أعلم أني أقرب إلى النبي منك، على أيّ حال إذا لم يكن عندك مانع فإني أحب أن أسمع ما تقوله للنبي (ص) ثم إذا أردت أن تبقى واقفاً هنا أتقدم أنا وأزور زيارة مختصرة وأعود إليك.

ـ ذلك إليك يا أصغر . . وأخرج الدكتور من جيبه ورقه وتابع:

ـ سأقرأ أمامه هذه السطور التي كتبتها البارحة، وقد فكرت أن أكلفك

بكتابتها بالفارسية؛ لأني غير متمكن منها كما تعرف، ولكني فضلت أن تكون طبيعية أكثر باللغة التي تعودت أن أتكلم وأكتب بها . .

ـ لا بأس، لا بأس يا دكتور، اقرأ كما تحب، ولا تتقيد بشيء من أجل وجودي معك . . وأخذ مكانه إلى جانبه إلى الخلف قليلاً ،فوضع الدكتور سجادته من يده عند الأسطوانة، وعدّل من وقفته وهندامه ونظر إلى قدميه وثيابه؛ ووضع يديه إلى جانبيه بانتظام، وقد أمسك الورقة جيداً بيده اليمنى استعداداً لإلقاء سطورها . . ولكنه دخل في صمت الهيبة . . وصمت التفكير . .

طال صمت الدكتور وهو على وقفته تلك، وقد خفض رأسه ينظر إلى الأرض . . ثم رفعه ونظر إلى جهة الضريح الشريف لحظات، ثم خفضه وعاد إلى صمته . .

كان أصغر يفكر وحده تارة، ثم يعود إلى التفكير في الدكتور وصمته، وكلمته التي سيخاطب بها النبي (ص) . . ويقول في نفسه: سوف أسأله عما عاشه هنا من أفكار ومشاعر؛ فالرجل صاحب معايشة طويلة للناس، ونظرات عميقة في المجتمع . . ورآه عاد فرفع رأسه، فحسب أنه سينظر إلى الضريح الشريف مرة أخرى ثم يعود إلى صمته، ولكنه رآه ما زال ينظر أمامه وقد احمر وجهه، ثم رفع يده اليمنى باتزان إلى محاذاة صدره، محافظاً على مراسم الاحترام واللياقة بدرجة عالية . . وبدأ يقرأ بصوت منخفض ونبرة جادة: بسم الله الرحمن الرحيم. السلام عليك يا رسول الله .

ـ قرأ ذلك بالعربية، ثم تابع بالإنكليزية: سيدي:

بالأمس مثلت بين يديك، وطلبت من حضرتك المقدسة أن تقبلني في مستشفاك العظيم، لمعالجتي من داء المادية الغربية . . ثم فكرت فوجدت أني غير

صادق في طلبي ، لأني لا أعرف مدى استعدادي بـالفعل لتقبـل العمليات الجراحية والأدوية اللازمة . .

كان عليّ أيضاً يا سيدي أن أعترف بأني أتحمل مسؤولية مرضي كاملة ، فقد رفضت نداءات فطرتي طول حياتي . . ورفضت نداءات والدتي الطاهرة حتى عجزت عن التأثير فيّ . . وأعترف بأني لا أستطيع أن أضمن استعدادي لتقبل العلاج ، أو لأداء الشكر عليه . .

متأسف جداً يا سيدي أني مريض غير جدير بالقبول ، بل من النوع الذي يستحق أن يترك لشأنه حتى يقضي عليه المرض . . لذلك جئت أطلب اليوم من حضرتك الشفاعة إلى الله أن يجعلني مريضاً جديراً بالمعالجة . .

كنت أحب أن يكون خطابي مدحاً لمقامك المقدس أيها النبي العظيم . . ولكنك أسمى من أن يمدحك شخص مصاب بمئة مرض مثلي . . أنت يا سيدي صادق في جميع جوانب شخصيتك . . والذين هم أهل لمدحك هم الصادقون . . ولولا أن فيّ شيئاً من الصدق يبرر لي الدخول إلى حرمك ومخاطبة حضرتك . . لما فعلت ذلك . .

إن إيماني بأنك رسول الله الصادق إلى العالم هو كل ما أملكه من الصدق في شخصيتي يا سيدي . . وما عداه تنهشه الأمراض والخوف من العلاج . .

أعترف لك يا سيدي أن الذي يهدم مقومات الصدق في شخصيته ، الواحدة تلو الأخرى ، خلال خمسين سنة ، عليه أن يتحمل مسؤولية عمله ، ولا ينتظر منك أن تهبه شخصية صادقة في لحظة . . ولكنك أيّها النبي العظيم متصل بالمطلق الذي يهب على يديك بدون حدود . . إن ما حدث على يديك في حياة العالم ، وما يحدث الآن ، يشجعني أن أطلب منك أن يهبني الله شجاعة أملك بها شخصية

صادقة . . إن بعث الحياة على يديك فيمن هو مثلي وأسوأ مني يجعلني أطمع . . أطمع ليس في أن يهبني الله على يديك الصدق فقط، بل وأن أقضي بقية عمري في بعث تيار صدقك في العالم.

ثم انحنى الدكتور محيياً النبي (ص)، ثم تناول سجادته ووقف ليصلي ركعتين يهديهما إلى النبي (ص) كما علمه أصغر، ولكنه فكر فوجد أن صلاته ليست أهلاً لأن تهدى إلى الرسول(ص) ،وتصور أنه لا يجوز أن يتكلم مع أصغر ويسأله أثناء الزيارة والصلاة ، فنواها قربة إلى الله تعالى ولم يزد.

كان أصغر ينظر إلى الدكتور في وقفته ، ويستمع إليه وهو يقرأ خطابه للنبي (ص) بهدوء وجدية، ودموعه تجري دون أن يكترث بها، فلعله لم يلتفت إليها، أو يرى أن إخراج المنديل ومسح الدموع لا يناسب الموقف . . ولكن أصغر بكى كثيراً تأثراً على صاحبه وتأثراً بما تضمنه خطابه، ونشف دموعه وصلى إلى جانب الدكتور، ثم التفت إليه مصافحاً :

ـ تقبل الله زيارتك وصلاتك يا دكتور . . لقد تأثرت من خطابك للنبي (ص) واستفدت . . وقد ذكرني بآية من القرآن تضمنها نص الزيارة الموجود في هذا الكراس، أقرؤها لك إذا أحببت .

ـ نعم، تفضل .

وقرأ له من الكراس النص والترجمة : «اللَّهُمَّ إِنَّكَ قُلْتَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيمًا﴾ . . وَإِنِّي أَتَيْتُكَ مُسْتَغْفِراً تَائِباً مِنْ ذُنُوبِي . . وَإِنِّي أَتَوَجَّهُ إِلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكَ لِيَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي» . .

ـ شكراً شكراً لك يا بني . . هذا ما أردت أن أقوله . . إنها أبلغ من كل

كلماتي وأفكاري . . والشيء الرائع فيها أنها موجهة إلى الله في حضرة الرسول . .
أرجو أن تقرأها يا أصغر أمام الله ورسوله لأقرأها معك . .

وقرأها أصغر بصوته. فطلب منه الدكتور أن يعيدها فأعادها . . وبكيا معاً . . ثم نهضا وتقدم أصغر ليزور النبي (ص) عن قرب، واتفق مع الدكتور أن يلتقيا خارج الحرم عند باب جبرئيل،ليذهبا من هناك إلى زيارة البقيع . .

* **

حمام البقيع

صعدا على مدرج باب البقيع المقفل، وتقدما على رصيف الجهة اليمنى، حتى وصلا إلى شباك في سور البقيع يطل على قبور الأئمة عليهم السلام . . كانت دموع أصغر بدأت تنحدر بصمت منذ أن خرج من سكة بني هاشم وأطل على البقيع، فلما وقف عند شباك السور ونظر إلى القبور، أجهش بالبكاء . .

نظر الدكتور من الشباك فرأى بعد السور خندقاً عمقه متران أو ثلاثة، وعرضه بضعة أمتار، وقد ملأه الحجاج بحب القمح، يلقونه من الشبابيك إلى حمام البقيع، حتى أصبح الخندق أشبه بطريق ترابي مفروش بحب القمح وبأكياسه الصغيره جداً، بعضها فارغ ملقىً فوق الحب، وبعضها أُلقِيَ مفتوحاً فانتثر قسم من قمحه وبقي قسم فيه، وبعضها أُلقي مقفلاً فوق الحبوب . . وأسراب الحمام في حركة دائبة . . منها ما يحوم فوق البقيع، ومنها ما يحط على قمحه المبارك . . إنها نفس أسراب حمام الحرم، تعيش في المدينة عند النبي وأهل بيته . . تروي للحجاج من قصصهم، وتقيم مركبها عندهم كل يوم مع مجيء الشمس . .

نظر الدكتور فرأى بعد الخندق ربوة كبيرة، وفي يسار قمتها زاوية تشكلها بقية جدارين حجريين قديمين، محكمي البناء، يقومان من جهة الشرق والشمال، كأنما شق المسلمون رأس الربوة ليقيموا فيه هذا الركن عندما بنوا قبور أبناء الرسول . . أو كأنما ألقى الوهابيون بتراب البناء وأنقاضه خلف هذا الركن

عندما هدموا قبته وبقية جدرانه، فاضطروا لإبقاء الركن مع قسم من الجدارين لإسناد الأنقاض..

أيّاً كان الأمر، ففي يسار ربوة البقيع الكبرى تحل الأجساد الطاهرة للأئمة الأربعة من أهل البيت (ع): الحسن السبط وزين العابدين والباقر والصادق.. فترى قبورهم المتجاورة في فسحة أمام الزاوية، وكأنما فرغ المسلمون من دفنهم الآن، وميّزوا قبورهم بأحجار بسيطة بشكل موقت، ولمّا يشيدوا ضريحها وحرمها بعد..

ليس أصغر وحده الذي يبكي.. فكل هؤلاء الزوار خلف السور.. من يمسك منهم بشبابيكه وينظر إلى البقيع، ومن يقف خلفهم، والجالسون في الشارع، والواقفون.. كلهم يبكون بشكل أو بآخر.. ومنهم من يجهش بالبكاء مثل أصغر ثم لا يهدأ بكاؤه حتى ينفجر مرة أخرى.. لقد بكّروا بالقراءة والبكاء قبل طلوع الشمس، مع موكب حمام البقيع وهديله وتحويمه..

نظر الدكتور إلى أصغر وهو يمسك بيديه بشباك البقيع، ينظر تارة إلى ضريح الأئمة فيتكلم ويبكي، ثم يضع رأسه على يديه فيبكي ويتكلم.. إنه يزور ويقرأ لكن من قلبه وليس من الكراس.. فقرر أن يدعه لشأنه، وأن يسلّم هو ثم يعطي مكانه لبعض الواقفين خلفه، ويجلس مقابل الشباك على دكة الرصيف، ينتظر أصغر ويتأمل الناس..

وجمع الدكتور نفسه ووقف بانتظام وقال: السلام عليك يا فاطمة الزهراء.. السلام عليك أيها الإمام الحسن. السلام عليك أيها الإمام زين العابدين. السلام عليك أيها الإمام الباقر.. السلام عليك أيها الإمام الصادق.. السلام عليك يا إبراهيم بن رسول الله. السلام عليكم يا أهل

البقيع جميعاً. ولم يزد على ذلك، ثم انحنى احتراماً وانسحب بهدوء، وجلس على دكة الرصيف عند حافة ذلك الرواق الصغير، وأخذ يتأمل المشاهد القريبة منه.. ويتذكر مجلسهم البارحة إلى الجهة الجنوبية، وحديث العالم البليغ، وقراءة الشاب الحنونة العجيبة.. والمجالس القائمة الآن قبل طلوع الشمس، وتوافد الزائرين.. وسيل العواطف والدموع ،الذي يبدو أنه لا ينقطع من شارع البقيع ،ومن عند أرصفته ونوافذه، إلا ساعات من الليل،ليعود بعد صلاة الفجر..

لماذا تختلف علاقة المسلمين بآل النبي في لونها عن علاقتهم بالنبي(ص)، فتراها يطبعها هناك الحب والهيبة، ويطبعها هنا الحب واللوعة.. يبدو أن ذلك لأن مقام النبي أعظم وأنه حقق هدفه نسبياً، أما أهل بيته فلم يحققوا من هدفهم إلا قليلا.. وظلامتهم في سبيله بارزة صارخة..

وحب أهل البيت الذي جال في كل بلاد المسلمين وانتشر فيها. لماذا استقر مركزه في إيران.. هل لأنه يوجد العلم عند أهل البيت ولا بد أن يصل إليه الفرس ولو كان بالثريا، كما قال الرسول.. أم لأن هناك تناسباً بين هذه الرقة في قلوب الإيرانيين،وبين هذه الإنسانية ومأساتها في حياة أهل البيت؟

وهذه العاشوراء التي يقيمها المسلمون في شارع البقيع من بعد صلاة الفجر إلى وقت متأخر من الليل، وتختلط فيها عواطف المصريين والهنود والأفارقة والمغاربة والبدو واللبنانيين والفلسطينيين والإيرانيين ودموعهم.. ماذا تعني وماذا يوجد وراءها في وجدانهم..؟

يوجد وراء ها الحب العميق.. الغزير.. وتعني أن مخزون المسلمين من حبهم لإسلامهم ورموزه مخزون كبير.. وحيوي..

ترى لو كانت قلوب الغربيين مفعمة بمثل هذا الحب الإنساني المتدفق للمسيح والعذراء. . فكيف كانت ستتجه حياتهم وسلوكهم في العالم. ؟

والآن كيف سيوجه هذا الحب سلوك الثورة الإسلامية المعاصرة. . وهل سيقدم المسلمون الثوريون إلى العالم مدرسة في الحب الإنساني أيضاً. ؟

تُرى ما الفرق بيني وبين هؤلاء المسلمين من أنحاء العالم، الذين تكاد قلوبهم تذوب حباً وهيبةً عند ضريح النبي(ص)، وحباً وحزناً عند نافذة البقيع. ؟

أليس لي قلب كقلوبهم. . فلماذا لا أملك شفافيتهم، ومخزونهم الإنساني. ؟ لعن الله المادية الغربية كيف تكثف القلب وتجعله ينبض فقط للمعاني الحيوانية، ويتكلس ويتحجر ويموت أمام المعاني الإنسانية والروحية. .

وأخذ الدكتور يتأمل رجلاً أمامه وقف خلف النافذة ينظر منها إلى البقيع ويقول بالفارسية: يا أم يا زهراء ــ أين قبرك. . ويبكي . . والدكتور يقول في نفسه: هذا الرجل في عمري، ولعله في إيران موظف، ولعله طبيب. . فلماذا لا يملك قلبي مثل شفافيته. . هل هو من أبناء الزهراء فهي جدته حقاً، أم هي الأمومة الروحية لبنت رسول الله جعلته مفجوعاً، فهو يناديها ويبحث عن قبرها. . وكيف شعوره نحو والدته وقبرها. ؟ آه لا بد أنه أقوى من شعوري نحو أمي . . إن الأمومة الروحية والنسبية تتكاملان وتعطي كل منهما الأخرى. . ترى هل أستطيع أن أعيش أمومة والدتي بعدما فقدتها. . وأمومة الزهراء سيدة نساء العالمين وأم الأئمة العظماء. ؟

هل يصبح قلبي مثل قلوب هؤلاء المؤمنين مملوءاً بمخزون الحب الإنساني

والحـزن الإنساني، والفـرح الإنساني. . ويتعـامـل مـع قيمهـا ومعـانيهـا مثلهم. ؟

. . ورأى أصغر يفتش عنه بين الواقفين فوقف وتقدم إليه:

ـ تقبـل الله زيارتـك يا أصغـر. . وزاد قلبـك غنى من هـذا المخـزون الإلهي. .

ـ شكراً يا دكتور. . افتقدتك من جانبي عندما أردت أن أقرأ الزيارة، ثم رأيت أن الأفضل أن أتركك تزور كما تحب. .

ـ شكراً لك يا بني. . لقد سلمت عليهم، وجلست هنا، أتأمل. .

ـ هل تريد أن تواصل الجلوس أم نذهب، فهنا لا تمكن الصلاة. ؟

ـ يكفي بني. . نذهب. .

وغادرا البقيع، وقـد جاءت الشمس لتـزوره، وتعفر أشعتهـا بترابـه. . كانت تبزغ رويداً رويداً وتتقدم نحو ربوة البقيع لتلثم قبور أهل البيت وهي في طريقها إلى جدهم العظيم (ص).

* * *

في بعثة الإمام الخميني

تناولا طعام الإفطار في بعثة الإمام، وكان الأمر طبيعياً كما قال أصغر، ليس فيه ما ينافي اللياقة، بل فيه ما يشعر بالسعادة الروحية.

كانت القاعة الكبيرة في الطابق الأول مفروشة على طريقة البيوت الإيرانية، أو طريقة المساجد، وكان فيها عدد من المراجعين، إيرانيين وغير إيرانيين، وبعض علماء الدين.. وفي الساعة السابعة تحولت إلى مطعم للجميع، فقد مدوا السماط إلى آخرها، ووضعوا الإفطار للحاضرين، وكانوا يأتون به للوافدين الجدد أو بما نقص منه..

***

صعدا إلى الطابق الثاني حيث أخذوا لهم موعداً مع أحد كبار العلماء في البعثة، فرحب بهما واستمع إلى طلبهما وقال مخاطباً أصغر الذي كان يتولى الحديث:

ـ الذي أفهمه أيها الأخ أن جناب الدكتور يريد الإجابة على مسائل فقهية، ويريد بحثاً في مسألة الغيب، وليس إجابة على بعض الأسئلة، يعني بحثاً فكرياً عقائدياً.. أليس كذلك؟

قال الدكتور: نعم، نعم هو كذلك..

ـ حسناً، سأحاول أن آخذ لكم وقتاً من بعض الإخوان.. ودعا أحدهم وقال له: اذهب إلى الشيخ الطبري وقل له يسلم عليك فلان، ويرجو أن

تعطي وقتاً لأحد أطبائنا المقيمين في الغرب، حيث أن عنده مسائل فكرية قد تحتاج إلى بحث ونقاش . .

* * *

قرابة التاسعة كانا يصعدان إلى الطابق السادس، حيث الموعد مع الشيخ الطبري . . وكانا أمضيا الوقت في أجواء القاعة الجميلة المتنوعة، في الحديث مع بعض الهنود المقيمين في أوروبا . . ثم في قسم العلاقات العامة، للتعرف على أقسام البعثة ونشاطها . . قال الدكتور:

ـ ذكرني اسم الطبري باسم مدير قافلتنا يا أصغر، أتراه يكون من نفس العائلة؟

ـ مدير القافلة يا دكتور سيّد، يعني من بني هاشم، والعالم الذي نذهب إليه شيخ، يعني ليس من بني هاشم، وكأنه غاب عنك أن الطبري ليس اسم عائلة بل هو نسبة إلى منطقة، وأنها منطقتك بالذات يا دكتور. . أما سمعت بطبرستان!؟ .

ـ أحسنت يا أصغر، نعم سمعت بطبرستان، ولكن تخفيف النسبة جعل الأمر يغيب عني .

ـ لعل منطقتكم يا دكتور أقدم منطقة في إيران ارتبطت بأهل البيت (ع) فقد احتضن أهلها أبناء الأئمة وساندوهم في ثوراتهم منذ صدر الإسلام . . لقد كانت طبرستان لمدة طويلة دولة يحكمها أبناء الأئمة عليهم السلام . . ومن يدري فلعل مدير قافلتنا من ذريتهم . .

ـ نعم، كنت سمعت شيئاً من تاريخ طبرستان، ولكني أراه الآن جديداً . . إنه أمر جميل حقاً . . هل يوجد كتاب حوله يا أصغر؟

ـ يوجد أكثر من كتاب يا دكتور.

ـ كم أنا بحاجة إلى القراءة عن تاريخ الإسلام وتاريخ إيران، وأرجو أن أوفق لذلك. . أريد منك يا أصغر عندما تكون منسجماً مع الله تعالى في الحرم أو عند البقيع أن تدعوه لي بالتوفيق، لأن أفهم الدين وأطبقه بصدق. . . هل تفعل؟

ـ إن شاء الله. .

ـ شكراً.

ودخلا إلى غرفة الشيخ الطبري فوقف لاستقبالهما، ووقف معه بضعة أشخاص كانوا عنده فودعهم، وصب لهما الشاي ووضع في متناولهما الفاكهة، ثم قال:

ـ أهلاً وسهلاً، شرفتم، وعملاً بآداب الإسلام في التعارف أردف قائلاً:

ـ الداعي لكم محمد باقر الطبري من قرى الطالقان، طالب في قم المشرفة، أعمل في الدراسة والتدريس، وفي مكتب التبليغ التابع للحوزة العلمية. .

ـ أصغر مهدوي من طهران مقيم في لندن، طالب سنة رابعة اقتصاد وعلوم سياسية؛ وأعمل في مكتب الإذاعة والتلفزيون الإيراني في لندن. .

ـ جمشيد بهرامي من لاهيجان، أسكن في بريطانيا منذ أكثر من أربعين سنة، ولم أزر إيران مع الأسف إلا مرة واحدة قبل عشر سنوات، أعمل طبيباً في لندن، مدير قسم في أحد المستشفيات.

ـ أهلاً وسهلاً شرفتم . . هل تعرفون الدكتور صالحي . ؟

وأخذ يسألهم عن بعض معارفه، وعن أوضاع الإيرانيين والمسلمين عموماً في بريطانيا . . وأصغر يجيبه تارة، والدكتور أخرى . . كانت أسئلته وملاحظاته ذكية أساسية، تدل على معرفته بحياة المسلمين في المجتمعات الغربية . . فسأله أصغر:

ـ هل سبق أن زرتم بريطانيا؟

ـ زرتها لمدة قصيرة وكنت مشغولاً بمعالجة ولدي ، فلم أخرج خارج لندن ولم أتوفق إلى اللقاء بإخواني الإيرانيين وغيرهم كما أحب .

ـ هل كان ولدكم مصاباً في الحرب؟

ـ نعم وقد شفي والحمد لله .

ـ من ير حضرتكم لا يتوقع أن يكون لكم ولد كبير يشارك في الجبهة .

ـ لي ثلاثة أولاد يشاركون في الجبهة والحمد لله . . على أي حال إن ألطاف الأخ أصغر جعلتنا ندخل في موضوع شخصي، ولكن الوقت في أيام الحج كما تعرفون ، وأنا في خدمتكم إلى الساعة العاشرة ، حيث يجب أن أجلس في القاعة في خدمة المراجعين . . لذلك أرجو أن تتفضلوا فنشرع في الأسئلة أو الموضوعات، وإذا لم يكف الوقت الآن نحدد موعداً للغد إن شاء الله . .

ـ أرجو المعذرة يا سيدي ، فربما أسأت الأدب بخدمتكم .

ـ أستغفر الله يا أخي . . أبداً . . إنما المسألة الوقت فقط . .

وصمت العالم، وصمت أصغر . . فأخرج الدكتور من جيبه ورقة الأسئلة وقال:

ـ أسئلتي كلها يا سيدي تدور حول الغيب، وأهمها أربعة اسئلة سأقرؤها وأترك لك أن تبدأ سن أيها شئت. .

السؤال الأول: إن الإسلام يجمع بين الإيمان بالواقع المادي والإيمان بالغيب. . ومن الناحية النظرية يمكن أن نتصور الجمع بين هذه الواقعية والغيبية بعدة صور. . ولكن من الناحية العملية في حياة الشعوب كيف يمكن الجمع، وما هي النظرية الإسلامية في ذلك بالضبط.؟ حيث أن الملاحظ أن حالة أي شعب إما أن تغلب عليها الواقعية أو الغيبية. . وكأنه لا يمكن للناس أن يعيشوا بهما معاً. .

السؤال الثاني : عن حالات التدخل الغيبي أو التدخل الإلهي، التي تبطل فيها العوامل المادية تماماً أو تغلبها العوامل الغيبية والتي حدثت على يد الأنبياء والأئمة في التاريخ، مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم، أو عصا سيدنا موسى وتجمد ماء البحر وانشقاقه، أو إحياء الموتى على يد سيدنا عيسى، وشفاء الحالات المرضية المستعصية على يده. . ومعاجز الأنبياء جميعاً التي في ختامها معاجز نبينا محمد (ص). . هذه الحالات هل هي في نظر الإسلام قانون يمكن الاعتماد عليه في الثورة والعمل السياسي والعسكري. . أم أنها استثناءات لا نعرف قانونها ولا يمكننا إدخالها كمادة ثابتة في حسابنا؟

السؤال الثالث: عن الموجة الغيبية التي تشهدها إيران، ما هي التطورات المستقبلية المتوقعة لها. . فهناك رأي يقول إنها حماسة سوف تصل بالنتيجة إلى الضعف والتلاشي، أو التحول إلى أساطير غيبية غير مؤثرة في حياة الشعب الإيراني والشعوب الإسلامية. ورأي آخر يقول إنها رؤية إسلامية سوف تتعمق وتتبلور، وتكون مدرسة للمسلمين في فهم الإسلام وتطبيقه، شبيهة بمدرسة صدر الإسلام. .

السؤال الرابع: إن المدرسة الثقافية السائدة في العالم والحاكمة على شعوب اليوم هي مدرسة المادية الغربية؛ التي لا تؤمن إلا بالعوامل المادية وترفض ما عداها.. فهل باستطاعة الثورة الإسلامية الإيرانية أن تقنع الشعوب الإسلامية وغيرها بمعادلتها الجديدة.. وما هي الصيغة العلمية التي تعتمدها لذلك.؟

ـ والأسئلة الأخرى يا دكتور؟

ـ الأسئلة الأخرى كثيرة يا سيدي، وأفضل أن أطرحها حسب المناسبة أثناء إجابتكم..

وسكت العالم مفكراً.. وهو ينظر أمامه.. وأطال السكوت..

كان أصغر يتأمله وهو جاث على ركبتيه، يتساءل في نفسه عن علمه ويدعو الله أن يكون هو الشخص المطلوب لإقناع الدكتور.. كان حنطي اللون، قصير القامة، نحيل الجسم، كثيف الحاجبين، في وجهه بشاشة محببة، تبدو عليه قوة الشخصية، وفي عينيه الصغيرتين ذكاء وعمق.. رفع رأسه وقال:

ـ لقد أنست بأن لك اهتماماً فكرياً يا دكتور، ويبدو أنّ علينا أن نبدأ بما قبل الأسئلة، فهل تسمح لي بأن أطرح بعض الأسئلة لكي أعرف من أين نبدأ بالموضوع؟

ـ تفضل يا سيدي.

ـ هل تقصد بتعبير «الواقعية» الواقع المادي المحسوس في مقابل الواقع غير المحسوس؛ سواء كان مادياً أو غيره. .أم تستعمله كما يستعمله الغربيون في مقابل المثالية غير الموجودة أو غير الثابتة.؟

ـ كلا، لا أقصد الواقعية في مقابل المثالية. . فأنا مؤمن بالله تعالى وهو واقع غير مادي، ومؤمن بجبرئيل والملائكة والآخرة. . وهي واقع مادي وغير محسوس. .

ـ يعني تقصد بالواقعية: المادية المحسوسة أو المشهودة، في مقابل الغيب غير المحسوس، .

ـ نعم، بالضبط.

ـ حسناً، وهل تقصد بتعبير التدخل الإلهي، أن الله تعالى بعيد عن إدارة الكون وحياة الناس، وأنه قد ترك مسيرتها تجري بطريقة آلية فهو لا يتدخل فيها إلا في حالات معينة. . فيعطل قوانينها أو يغلّب بعضها على بعض وما شابه؟

ـ لا أقصد ذلك يا سيدي. . فأنا مؤمن بأن كل مسيرة الوجود هي فعل الله تعالى، حتى عمل الخلية وحركة الذرة. . وأنه جعل فعله بواسطة قوانين وعوامل، وأنه في بعض الحالات يتجاوز ذلك. . إن الإدارة والتسيير كلها منه، ولكن قد يستعمل أسلوباً جديداً في الإدارة والفعل. . هذا ما أقصده بالتدخل الإلهي. .

ـ حسناً، أرجو أن تعرفني اختصاصك الطبي يا دكتور.

ـ في الكبد.

وتدخل أصغر قائلاً:

ـ عند الدكتور يا سيدي عدة اختصاصات في الجراحة والتشخيص ولكن تركيزه على الكبد.

ـ حسناً، أليس المنهج الطبيعي لدراسة الكبد يا دكتور أن ندرس وظيفته أو وظائفه في حياة البدن، وأعراضه وأمراضه وعلاجاتهـا. ؟

ـ بلى يا سيدي.

ـ فلو أنّا جعلنا منهج دراسته في المؤسسات الطبية عبارة عن تاريخ الكبد في حياة الشعوب وحالته الحاضرة في العالم، والتوقعات المستقبلية له. . واقتصرنا على ذلك. . فهل يكون منهجاً علمياً. ؟

ـ هذه مسائل مفيدة عن الكبد تنفع في دراسته الوظيفية؛ ولكنها لا تغني عنها ولا يصح أن تكون بديلة لها. .

ـ فلو بدأنا المنهج بهذه المسائل. . ثم شرعنا بمنهج دراسته الوظيفية؟

ـ في اعتقادي أن البدء بهذه المسائل في المنهج سوف يشوش الطالب، فالطالب بحاجة إلى أن يعرف أولاً أين هو الكبد، وأن يراه، ويبدأ بالتعرف على عمله ووظائفه. . وفي أثناء المنهج يمكن إعطاؤه الأفكار المفيدة من التاريخ والحاضر وتوقعات المستقبل.

ـ حسناً يا دكتور، أرجو أن تقيس مسألة الغيب على ضوء أسئلتي لك عن مسألة الكبد. . وتعطيني رأيك في المنهج الذي تطرحه أسئلتك لفهم الغيب. .

فكر الدكتور. . ثم قال:

ـ نعم يا سيدي، إن أسئلتي تتركز على تاريخ المادية المحسوسة والغيبية في حياة الشعوب، وعلى حاضرها ومستقبلها. شكراً لك على هذا الإلفات الأساسي، ولكن لم أعرف المنهج الصحيح الذي تقصده لدراسة الغيب وفهمه.

ـ المنهج الصحيح يا دكتور هو: تحديد معنى الغيب.. وهل هو موجود.. وهل أمرنا بالاعتقاد به.. وهل أمرنا بإدخاله في سلوكنا ومعادلاتنا.. وإلى أيّ مدى، وبأي صيغة.. هل بصيغة البديل عن المعادلات المادية المحسوسة أم بصيغة يكون مكملاً لها، أو تكون هي مكملاً له.. الخ. أما تاريخ معايشة الشعوب لعالمي الشهادة والغيب وتأثيرهما في حياتهم، وفي حاضرهم والتوقعات المستقبلية لإيمان المسلمين وخاصة الإيرانيين بالغيب وكفر الغربيين به.. فهي مسائل مفيدة في الموضوع، ولكننا إذا جعلناها هي المنهج العلمي نكون قد أخطأنا، وإذا بدأنا بها أصبنا ذهننا بالتشويش كما تفضلت يا حضرة الدكتور.. أليس كذلك.؟

ـ تماماً يا سيدي وشكراً لك.. نترك هذه الأسئلة إذن ونتبع المنهج الذي تفضلت به.

ـ وأنا أشكرك على هذه الموضوعية والعقلانية يا جناب الدكتور، وأسمح لنفسي بسببها أن أشكو إليك مشكلتنا مع المفكرين والكتاب الغربيين فبمقدار ما هم موضوعيون في العلوم الطبيعية، بل وأضعاف ذلك، تراهم غير موضوعيين في العلوم الفلسفية والإنسانية.. إن مشكلتهم تكمن في المنهجية الخاطئة.. أفكر في بعض الحالات وأنا أقرأ لبعضهم لماذا يا ترى يصر الكاتب على هذه المنهجية الخاطئة.. فأرى أنه مشدود لا شعورياً لماديته، أو أراه يشعر ولكنه يتعمد التزييف وزخرفة القول..

ـ صحيح، وأشكر الله يا سيدي أنك خبير بهم، وسليم من مرضهم، أما أنا فمع خبرتي بهم واقع تحت تأثيرهم.. أعترف بأن المنهجة التي تضمنتها أسئلتي جاءت متأثرة بالثقافة الغربية.. وأشكرك على المنهجة الصحيحة التي أشرت إليها..

ـ لو سمحت لي يا دكتور أن أتابع ما بقي من أسئلتي . .

ـ تفضل يا سيدي . .

ـ هل نحتاج في بحثنا إلى شيء من الاستدلال أو التوضيح حول وجود الله تعالى ونبوة نبينا محمد (ص) وما جاء به صلى الله عليه وآله من القرآن والوحي . .

ـ الحمد لله يا سيدي أني مسلم أؤمن بالله تعالى ورسوله وكل ما أوحي إليه، وأني مقتنع بذلك تماماً، فقد عشت الموضوع لمدة طويلة تفكيراً وقراءة، ووصلت إلى الإيمان والحمد لله . .

ـ وعليه، يكفي في بحثنا أن يكون من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

ـ نعم يكفي، فأنا مؤمن بهما والحمد لله . .

ونظر العالم إلى الساعة، وقال:

ـ أقدّر أن ما بقي من الوقت يكفي لأن أقدم لكما فكرة عامة عن الغيب والشهادة. ثم يكون موعدنا غداً إن شاء الله الساعة السابعة صباحاً لاستكمال الموضوع، فهل يناسبكم ذلك؟

ـ نعم، ولكم الفضل.

وتناول الشيخ الطبري المعجم المفهرس لألفاظ القرآن وفتحه . . وتأمل فيه قليلاً وقال:

ـ ورد ذكر الغيب في القرآن ثمانياً وأربعين مرة يا دكتور، كما يشير الرقم هنا . . ولا بد أنها تتضمن تحديد مفهوم الغيب ومفهوم الشهادة الذي يقابله . . وأنواع الغيب . . وأصول كل المفاهيم والتكاليف المتعلقة

بالغيب. . فهذا هو أسلوب القرآن في تناول المواضيع والمفاهيم دائماً. . القرآن عجيب، أرجو أن تهتم بقراءته يا دكتور.

ـ قرأت تفسيره اللفظي مرة واحدة، وبدأت بقراءة التفسير. . أرجو دعاءك يا سيدي. .

ـ وأول آية نجدها عن الغيب في مطلع سورة البقرة تفيد أن الإيمان بالغيب أول صفة من صفات المتقين.

ثم الآية الثالثة والثلاثون الواردة في حديث الله تعالى مع الملائكة تذكر: ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كما أن الأرض فيها قسم مشهور وقسم غائب فكذلك السماوات.

ثم الآية الرابعة والأربعون من آل عمران تسمي التاريخ غير المعروف غيباً فتقول عن قصة مريم وعيسى عليهما السلام ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

والآية التاسعة والسبعون بعد المئة منها تسمي الخبث والطيبة المستورين في باطن المسلمين والنتائج المستقبلة لحركة التمييز بينهما غيباً: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

والآية الرابعة والثلاثون من سورة النساء تسمي حياة الرجل الشخصية وأسراره غيباً: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾.

والآية الرابعة والتسعون من سورة المائدة تعتبر الناس في الدنيا غائبين عن الله تعالى وتسمي من يطيع أوامره ويمتنع عن المحرمات: ﴿يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.

والآية الخمسون من سورة الأنعام تنفي عن النبي (ص) أنه يدعي علم الغيب : ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ؛ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ . . . إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

والآية التاسعة والخمسون منها تذكر أن لعلم الغيب مفاتيح : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ يعني وللمفاتيح أقفال وأبواب وعوالم وقواعد وقوانين . . إلى آخر الآيات الثماني والأربعين وما فيها من حقائق ومفاهيم عن عالم الغيب وعالم الشهادة . .

إن الغيب يعني كل ما غاب عن حواسنا يا دكتور، وهو أضعاف أضعاف العالم المحسوس، قال تبارك وتعالى في سورة الروم : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . . يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ .

والغيب يا دكتور أنواع متعددة ، منه ما يصل إليه الناس بالجهد العلمي . .

ومنه ما أَطْلَعَ الله تعالى عليه كل الناس في قرآنه وعلى لسان نبيه (ص) .

ومنه ما أطلع عليه نبيه (ص) فأطلع عليه بدوره علياً (ع) والحواريين من أصحابه خاصة ،كل بحسب مستواه . . قال عز وجل في سورة الجن : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً ! إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ .

ومنه غيب مكنون لا يظهر عليه أحداً حتى الأنبياء والرسل والملائكة والمقربين : ﴿وَيَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ﴾ .

إن القرآن يا دكتور صورة لحياة الناس، كما ينبغي أن تكون، وكما يريدها الله تعالى، فيه كل أبعادها وخصائصها، وقد ذكرت أنك قرأته مرة، فباستطاعتك أن تقدر نسبة البعد الغيبي فيه إلى نسبة البعد المحسوس، حتى لو كانت قراءتك ترجمة لفظية.. فكم رأيت نسبة الغيب فيه يا دكتور.؟

ـ أكثر من البعد المحسوس بأضعاف كثيرة.

ـ هكذا يجب أن تكون حياة الناس على الأرض يا دكتور.. فهذه الصورة القرآنية وحدها هي الصورة الصحيحة، وكل الصور الأخرى للحياة خاطئة أو ناقصة.. إن مشكلتنا مع الماديين الغربيين والشرقيين أننا نريد أن نعيش الحياة وأشياءها ببعدها المعنوي، بشهادتها وغيبها، بكامل مساحتها وواقعها.. ويريدون هم أن يعيشوها ببعدها المادي المحسوس، ببعدها الأدنى فقط.. إن مَثَلَ أحدهم كمن ينظر إلى شجرة فلا يرى فيها إلا ثمراً يؤكل أو خشباً يباع.. يا أخي صحيح، ولكنها عالم قائم لها أنظمتها الغذائية، والتنفسية، وعملياتها في التمثيل الضوئي.. ولها في كل سنة من عمرها قصة، وفي كل فصل حكاية.. ولها أهل وأقارب ومحيط.. ولها تسبيح لله وصلاة، ولها نسيم وظل وعطر وزهور، وفراشات وطيور.. ولكن صاحبنا لا يريد أن يرى فيها إلا مِلءَ بطنٍ أو ملءَ جيب..

نقول لهم إن الإنسان مخلوق عظيم جداً ومقدس، إلى حد أنه هو وأرضه محط أنظار الملائكة والعوالم الأخرى.. وإن أمره دقيق وحساس ومؤثر في الكون وفي المستقبل جداً.. اعتقادات الإنسان دقيقة ومؤثرة.. ونواياه، وكلماته، والأعمال الجزئية منه فضلاً عن الكبيرة..

نقول لهم إن الإنسان قد يتكلم بكلمة فيهتز لها عرش الله، الذي هو «سنترال» هذا الكون، وقد يتكلم بكلمة فتفرح لها الملائكة وتحتفل.. وقد يتكلم بكلمة فيكتب بها في الأموات.. وقد ينوي النية فتفوح منها رائحة عطره إلى السماء الرابعة، أو تفوح رائحة جيفتها إلى الأرض السابعة.. فكيف بتأثير عمله الصغير والكبير..

نقول لهم إن الإنسان ليس وحده، نعم ليس وحده حتى حينما يكون وحده، وإن معه عدداً من الملائكة قد يصلون إلى العشرين. .ثمانية لكتابة الحسنات والسيئات أربعة لليل وأربعة للنهار، والمعقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله.. إلى آخره..

نقول لهم: إن حياتنا على الأرض هي البعد الأدنى فقط لحياتنا الكبرى القادمة.. وإن الأشياء المحسوسة فيها هي البعد الأدنى للأشياء الكبرى غير المحسوسة.. ولكنهم يصرون على التقوقع في قوقعة الأبعاد الدنيا،وعلى اعتبار الإنسان حيواناً بل آلة، وينفرون من الدين لأنه يقدم للحياة وأشيائها مفهوماً معنوياً وبعداً غيبياً، فهم كما قال عنهم عز وجل في سورة النجم: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً. فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ.. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

إن مسألة الغيب يا دكتور هي مشكلتنا مع الغربيين، وهي حجر الزاوية في حضارتنا الإسلامية التي نريد أن نقيمها بدل حضارتهم المادية.. إن أمر الإسلام قائم على الغيب، على التصديق بإرسال الله تعالى رسوله

(ص) إلى الناس وأجيالهم، ليخبرهم ويوجههم ويأمرهم بإقامة حياتهم على أساس المساحة الكاملة للمادة المحسوسة والغيب.

الغيب في الإسلام يا دكتور ليس بعداً إضافياً، حتى نضيفه تارة إلى أمورنا ومعادلاتنا ونحذفه أخرى. .إنه واقع ثابت أضفناه أم لم نضفه، عرفناه أم لم نعرفه. . ترى هل تستطيع أن تدخل في حسابك الملائكة الرقباء العتداء عن يمينك وشمالك تارة، وتحذفهم من حسابك تارة أخرى. . هل تستطيع أن تسقط من حسابك الملائكة الذين هم أمامك ووراءك يحفظونك من إشعاع النجم الثاقب وغيره من المؤثرات والقوى الضارة، التي يعلمها الله. ؟ إن عدم اكتشاف الأشياء وقوانينها أو عدم الاعتراف بها يا دكتور لا يغير من واقعها شيئاً. .كانت عشرات القوانين الطبيعية غير مكتشفة أو غير معترف بها، ولكنها كانت تعمل. . والغيب هو الأشياء الغائبة عنا في الأرض وفي الكون. . وهي واقع ثابت وشاسع، وقوانينها جارية فاعلة سواء أكتشفناها أم لم نكتشف، واعترفنا بها أم لم نعترف. .

إننا مظلومون مع أعدائنا يا دكتور. . نقول لهم إنه يوجد لون جديد للحياة غير الذي تمارسونه وتفرضونه على العالم. . لون حضاري يختلف تماماً عن حضارتكم، ونحن مؤمنون به واثقون منه، فدعونا نطبقه في بلدنا فعسى يكون حقاً، وعسى يكون خيراً لكم وللعالم. .

إن الإسلام مظلوم يا دكتور. . ورسول الله (ص) الذي نحن في حرمه مظلوم من هؤلاء الماديين. . إنهم يرونه قد نفخ الحياة في بدو الصحراء، وأقام في الأرض حضارة متقدمة في برهة قليلة. . ويرون أن بلادهم وشعوبهم اليوم أكثر حاجة إلى تجربتها منا. . ومع ذلك ترى موقفهم!!

ما دمت يا دكتور تؤمن بالله تعالى ورسوله؛ فإن باستطاعتك أن تستوعب مسألة الغيب وتعيشها إن شاء الله، لأنك معافى من مرض المادية، الذي يصبح عائقاً نفسياً عن إدراك الأبعاد الأخرى في الإنسان وحياته، بل قد يصبح عائقاً عقلياً أيضاً. .

وواصل الشيخ الطبري حديثه، حتى أوشك الوقت على الانتهاء. . وختمه بقوله:

ـ أرجو أن تسمحا لي يا جناب الدكتور وجناب الأخ إذا استرسلت في حديثي ولم أسألكما رأيكما وقناعتكما في أفكاره، واحدة واحدة. . وأستمع إليكما إن كانت عندكما أسئلة أو مناقشة. . فقد أردته فكرة عامة ونفثات لظلامة الإسلام من أعدائنا الماديين الذين يدّعون الانتساب إلى الأديان السماوية. . أرجو أيها الأخ الدكتور أن تفكر في مسألة الغيب بالمنهج الإسلامي الذي أشرنا إليه، وتهيّئ على أساسه الأسئلة لجلسة الغد إن شاء الله. .

* * *

ودّعا الشيخ الطبري بحرارة ونزلا في المصعد/وهما صامتان. . كان أصغر يشعر بالخشوع لهذه المفاهيم الإسلامية الجديدة، وبالسرور لأنه وجد للدكتور عالماً يجيب على أسئلته ويروي بعلمه عطشه. . فقد رآه وهو يؤمّن على حديث الشيخ أحياناً بنعم، أو يهز رأسه تعجباً. . وما إن دلفا إلى الشارع حتى سأله:

ـ ما رأيك بحديث الشيخ يا دكتور.

ـ كلامه حول المنهج صحيح مئة بالمئة يا أصغر، وكذلك بعض

الأفكار التي قدمها، ولكن دعني أفكر؛ فالرجل عالم ومطلع، وأفكاره غزيرة ومنسابة.

ـ هل تريد أن تنصرف الآن إلى التفكير يا دكتور، أم نتحدث؟

ـ بل تحدث يا أصغر، فأمامنا متسع من الوقت لنفكر..

تألم أصغر لهذا التحفظ من الدكتور، ولكنه كتم ذلك في نفسه وتابع:

ـ أريد أن أتحدث في نفس الموضوع، فقد أعجبني هذا الشيخ الذي لا يوحي مظهره بعلمه.. اللهم إلا هدوء وجهه ونفاذ نظراته.. أما أنا يا دكتور فمقتنع بكل ما قال، وقد تأسفت لأني لم أسجل حديثه.. لقد أصبحت نظرتي إلى الغيب والغيبيات في الإسلام جديدة.. وقد استفدت سياسياً من حديثه أيضاً..

ـ وقد أعجبني أيضاً يا أصغر؛ قلت لك إن فكره غزير ومنساب، لا بأس أن تحضر معك غداً آلة التسجيل، ونستأذن منه في تسجيل حديثه.. إنه جديد وهام وأحب أن يسمعه بعض أصدقائي؛ الذين يتصورون أن الروحانيين لا يقرؤون للغربيين ولا يعرفونهم.

* * *

أنواع العواطف للنبي

دخلا إلى صالة بناية القافلة لتناول طعام الغداء، فرأيا حسيناً العامل واقفاً يضحك مع بعض الحجاج، فرحب بهما وأجلسهما، وتابع بعض الحجاج مطالبته أن يعيد لهم رواية القصة . . فقال:

ـ نعم، كانوا مجموعة مصرية صغيرة، بضعة رجال ونساء، وقد سمعت منهم امرأيتن تخاطبان النبي(ص)،قالت إحداهما:

يا حبيب يا نبي أنا بَسَلّم عليك عني وعن جوزي اللي هوَّدَهْ ـ ووضعت يدها بين كتفيه تريد أن تدفعه إلى الأمام ليراه النبي (ص) ولكن المكان كان مزدحماً ـ وعن بنتي سميحة وزوجها، وعن ابني فؤاد وعبد الحق وسميرة وراغدة وبديعة . . وعن جارنا أبو شكري ومراتو وأولادو، عاوز يزوج بنتو فتحية وبيطلب تساعدو في جهازها . . وعن جارتنا الحاجة أم حسنين وبتقولك عاوزة تيجي لعندك تاني . . وعن كل اللي في البناية، كلهم بيسلموا عليك . . يا نبي الله يخليك إلنا . . ثم أشارت لزوجها بالانصراف وقالت للنبي مشيرة بيدها: باي باي يا نبي . .

روى حسين القصة باللغة العربية وترجمها لهم . . فضحك الحُجاج . . وتابع حسين قائلاً:

ولكن الأخرى كان كلامها مؤثراً حقاً، وكان حديثها قبل صاحبتها، قالت: يا سيدي النبي، يا أبو ستّنا الزهرا . . يا شفيع . . بَسَلّم عليك عني

وعن ابني عبد المعطي اللي في السجن.. أولاد الحرام كتبوا لهم عليه وحطوه في داهيه.. ما عندوش شي يا نبي.. بس لأنّو دَيِّن.. هوَّ مؤمن قَوِي يا نَبِي وبيحبك قوِي، وبيحبُّهُمْش.. عايزه تْخَلِّصْهُولي من إيديهم.. مِنْشَان مراتو وابنو حبيب القلب مصطفى.. يا حرام دوماً بتبكي.. قالت لي يا حماتي سلمي لي عالنبي واطليي عبد المعطي منو..

وعلق حسن قائلاً: الشباب المسلم الثوري في مصر يعيش ظروفاً صعبة من الملاحقة البوليسية والاضطهاد والسجون.. ويقدم الشهداء.. وكذلك كل الشباب الثوري في كل البلاد الإسلامية.. إن هؤلاء الإخوة لهم حق علينا أيها الحجاج.. ينبغي على الأقل أن ندعو لهم ونقول لهم نحن معكم..

وجلس العمال والسيد الطبري يتغدّون مع الحجاج امتثالاً لطلب العالم، وأشار أصغر إلى حسين فجلس إلى جنبه، فكان يستمع إليه تارة ويحدثه أخرى.. وكم كان سروره عندما اطمأن على أجواء الدكتور وعرف بذهابه إلى بعثة الإمام، والتقائه بالعلماء، وأنه بدأ جلساته مع أحدهم للأسئلة والبحث والمناقشة.. ولكنه علق على ذلك قائلاً:

ـ يا أخي أصغر، أيّ بحث ونقاش هذا.. لا تدعه يصرف وقته مع العلماء في النقاش والجدل الفارغ.. إذا كان مسلماً حقاً فيجب أن يسأل العلماء ويطبق.. هل يقبل هو من المريض أن يناقشه ويبحث معه في اختصاصه.. لا تدع أيام الحج تذهب منه دون أن يذوق حلاوة الإيمان ويخشع قلبه للدعاء والزيارة والقرآن..

فشكره أصغر على ملاحظته ووعده بأنه سيعمل لذلك..

* * *

جلسا بعد الغداء قرب العالم مع عدد من الحجاج ومدير القافلة.. كانوا يشربون الشاي، ويناقشون مسألة التبرع للجبهة، فقد أبلغهم أن مندوب الإمام قال «إن تبرع الحجاج للجبهة ليس لازماً نظراً لعدم كفاية المبلغ المخصص للمصارف الشخصية من العملة الصعبة» ولكن حجاج قافلة الطبري من القوافل أصروا على العالمأن يفتح باب التبرع.. وهكذا كان.. وتقرر أن يتولى حسين جمع التبرعات ويسجلها في قائمة، ويقدمها إلى عالم القافلة.. ثم كانت النتيجة أن المبالغ التي وصلت إلى بعثة الإمام من تبرعات القوافل كبيرة.. وأن ما رافقها من قصص الحب والإيثار أكبر..

* * *

حيرة المثقفين

صعدا إلى غرفتهما، فنظر أصغر إلى ساعته وقال:

ـ الساعة الآن الواحدة والنصف؛ يعني لدينا ثلاث ساعات ونصف إلى موعد الحركة إلى الحرم.. فهل علينا شيء غير الراحة يا دكتور؟

ـ أبداً، خذ راحتك يا أصغر.

ـ لقد كلفت حسيناً أن يذهب إلى قافلة العمة، فيتعرف على مكانها ويتفق معها على وقت زيارتنا لها..

ـ شكراً لك يا أصغر، أخشى أن نثقل بذلك عليه، فإني أرى عمله كثيراً.

ـ كان مرتاحاً جداً لذلك، وسألني: أتريد أن أذهب الآن؟ فقلت له: الوقت واسع، اليوم أو غداً أو بعد غد.. إنه شخص عجيب يادكتور، دائم الحركة، يستثمر معرفته باللغة العربية بشكل ذكي.. هل تعرف ماذا عمل أمس واليوم؟.

ـ ماذا؟

ـ قال فكرت أن أوفر على بيت المال، فذهبت إلى السوق وجمعت من التجار عروضاً بأسعار المواد الغذائية التي يشتريها عادة مركز عمليات الحج، ليوزعها على القوافل، وذهبت إلى لجنة المشتريات وقارنّاها مع أسعار ومواصفات مشترياتهم، فكانت بعض المواد أقل سعراً مما اشتروا..

والفرق البسيط طبعاً يكون كبيراً في مثل حالة المركز، الذي يشتري لمئة وخمسين ألف حاج. . يقول حسين: شكروني في المركز، وطلبوا مني أن أتعاون معهم، فأنا أذهب إليهم أو إلى السوق كل يوم ساعة أو ساعتين. . وهو مع هذا يقوم بعمله في القافلة كاملاً، ويقوم بخدمات أخرى للحجاج. .

هل لاحظت اليوم أسلوبه في الحديث يا دكتور؟

ـ نعم إنه أسلوب لطيف جداً وهادف. .

ـ إنه لا يفوّت الفرصة إلا ويقدم الفكرة المناسبة. . وقد لاحظت أن رفقاءنا الحجاج يحبونه ويحترمونه أيضاً. . إنه مهتم بك يادكتور،وقد سألني عنك، وكان سروره كبيراً عندما أخبرته بأجوائك الروحية وزيارتنا لبعثة الإمام. .

ـ أما قلت له لقد بدأنا بمعالجة هذا المريض؟

ـ بالنسبة إلى القرب المطلوب من الله ورسوله كلنا مرضى يا دكتور. . . أعتقد أنه هو الذي أشار على مدير القافلة بكتابة الإعلان الذي في الصالة.

ـ أي إعلان؟

ـ أما رأيت القطعة عند المدخل الى جانب إعلان أوقات الصلاة والطعام وبرنامج القافلة؟ . .

ـ كلا.

ـ كتبوا قطعة: بسمه تعالى. . بناء على طلب الدكتور البروفسور

بهرامي أحد كبار الأطباء الإيرانيين المقيم في بريطانيا فإنه يستقبل المراجعين من الحجاج الكرام يومياً من الساعة الثامنة حتى التاسعة مساء في غرفة العيادة، وفي كل أوقات تواجده في غرفته رقم ٢٦ نهاراً وليلاً، مع شكرنا له . إدارة القافلة . .

ثم أقفل أصغر الستائر ورفع درجة مكيف الهواء واستلقى على سريره وقال:

ـ ينبغي أن ترتاح يا دكتور حتى نذهب إلى الحرم نشيطين إن شاء الله . .

ـ خذ راحتك يا بنيّ، أما أنا فلست بحاجة إلى النوم، سوف أستلقي وأفكر . . إن حديث الشيخ الطبري لا يفتأ يعاودني، وهذا وقت مناسب للتفكير فيه . .

ابتسم أصغر ابتسامة الرضا وقال:

ـ حسناً كما تحب يا دكتور . .

وعاد الدكتور بذهنه وهو مستلق على سريره إلى حديث الشيخ الطبري يعيده من أوله إلى آخره . . وإلى شخصية هذا الشيخ الطالقاني القمي الشاب، وعلمه وقوة منطقه . . . وقرر أنه ينبغي استبعاد مسألة الصفات الشخصية في الرجل مثل سعة علمه واطلاعه وغزارة أفكاره وتحدثه من موقع الخصم المظلوم والمتعالي على فكر الحضارة الغربية . . وينبغي الحذر من عناصر التأثير النفسي في حديثه؛ مثل أخلاقيته العالية، وشكوى مظلومية الثقافة الإسلامية والثورة الإسلامية . .

لا بأس . . الأفكار الأساسية . . هي:

المنهج العلمي أو الإسلامي في معرفة الغيب . . صحيح مئة بالمئة .

معنى الغيب . . صحيح أيضاً فقد قدمه القرآن ، وهو مختص بالقرآن .

القرآن صورة عن الحياة المطلوبة . . فيه أبعادها وخصائصها . .

الأبعاد الدنيا للحياة والأشياء . . والأبعاد العليا ، الغيبية . .

مَثَلُ الشجرة ، وما يرى فيها الغربي . . وما يرى فيها المسلم . .

الغيب كل مشكلتنا مع الغربيين .

الغيب واقع قائم ، قوانينه تعمل ولا يمكن إسقاطه من الحساب . .

الحضارة الإسلامية حضارة المادة والغيب معاً . . حضارة المساحة الكاملة للإنسان والحياة و لأشياء . . والحضارة الغربية حضارة الأبعاد الدنيا فقط . .

أي واحد من هذه الأفكار فيه خطأ . . كلها صحيح . . لله درك أيها الشيخ الطبري على هذه الأفكار الرائعة . . لا بد أنه أخذها من القرآن وأحاديث الرسول . . لقد قرأ أيضاً الثقافة الغربية . . واستوعب كل ذلك على صغر سنه . . إنه يبدو في الثلاثينات ، لكن له ثلاثة أولاد في الجبهة ، لا بد أنه أكبر مما يبدو حتى لو كان أولاده في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة . . إنهم في قم يبدؤون دراستهم مبكرين ويتزوجون مبكرين . . إنهم يعيشون الطهارة الجنسية . . ليس عندهم مرحلة فساد الشباب وانعدام الغيرة وقذارة الغربيين . . إنه شاب طاهر النفس ، شعرت بإشراقة روحه في كلماته . . شعرت وهو يتحدث عن الغيب وعن الملائكة المحيطين بالإنسان ، أنه يعيش معهم ، وأنه آت من بينهم . . إنه روحاني حقاً . .

هـا أنا أجـد نفسي مشدوداً إلى هـذا الشاب المعمم. . لكن لا يصـح أن أقـع تحت تأثيـر شخصيتـه. . إن عليـه أن يقـدم لي أفكـاراً وعليّ أن أقيّمهـا وأناقشها. . فالميزان ليس هو شخصيـة رجل الـدين بل المنـطق العلمي والبحث العلمي. . أنا لي تفكيري واطلاعي أيضاً، بل ومعانـاتي في فهم الناس والمجتمع. . ينبغي أن أناقش ولا أتسرع بالقبول. .

. . . بالنتيجة ما هو موقفي. . هل أناقشه غـداً في هذه الأفكـار وأنا أراها صحيحة. . أم أقول له إني موافق عليها جميعاً ومقتنع بها فزدني يـا سيدي. . فأكون بذلك مثل أصغر يقتنع بكل ما يقوله رجل الدين بمجرد أن يقولوا له في البعثة إنه عالم جيد؟.

ما هو الموقف من الأفكار التي سيطرحها غداً. . هل أناقشها حتى لو كانت مناقشاتي ضعيفة؟. . هل أستمـع ولا أعطي فيهـا رأياً حتى أعيـد التفكير كما فعلت اليوم؟

ما هو الموقف الكلي مما يقدمه العلماء من الأفكار الإسلامية؟

. . . طـالت حيرة الـدكتور في الإجـابة على هـذه التسـاؤلات، ولم يخرج منها. . حتى شعر بباب الغرفة يطرق طرقاً خفيفاً جـداً. . فقال في نفسه لعله مراجع من رفقائنا الحجاج، فنهض وفتح الباب ففوجئ بحسين العامل يقول له بصوت هامس:

ـ أرجو المعذرة يا دكتور أيقظتك من نومك، فقد أردت أصغر. .

ـ أبداً يا حسين لم أكن نائماً. . تفضل ولا تخش أن يستيقظ أصغر من الكلام فنومه ثقيل والحمد لله، وعلى هذا الأساس جعلنا مكان المراجعة في غرفتنا. .

فكر حسين لحظات. . ثم قال: حسناً، ودخل وجلس متابعاً:

ـ إذن أنا أول مراجع يا حضرة الدكتور. .

ـ أنت لست مريضاً يا حسين، وأنا أعني ما أقول. .

فأطرق حسين مفكراً ثم قال:

ـ ما هي الشروط لشفاء المريض يا دكتور؟

ـ أي مريض تقصد يا حسين؟

ـ أقصد المريض بجسده.

ـ يراجع طبيباً ويستعمل الدواء، وإذا لزم الأمر يدخل المستشفى ويخضع للفحوصات اللازمة ويتناول الأدوية اللازمة. . هذه هي الشروط الأساسية طبعاً. .

ـ حسناً يا دكتور، والمريض بالبعد عن الإسلام والأجواء الإسلامية؟

ـ هذا أمره أصعب ياحسين، وشروطه أكثر. .

فقاطعه حسين قائلاً: لماذا أصعب يا دكتور، ولماذا شروطه أكثر، لماذا؟. آه من هنا يبدأ ضياعنا. . ثم تنهد وتابع: ذكرتني بأيام سوداء يا دكتور. . وسكت هنيهة وظل الدكتور ساكتاً متعجباً من كلامه. . فقال حسين:

ـ معذرة يا دكتور فإني مضطر لما قلت، هل تعدني بأن لا تتغير معاملتك لي كعامل في القافلة وأن لا تكشف سري؟

ـ أعدك بذلك يا حسين.

ـ يا دكتور أنا العبد الفقير عندي دكتوراه في الفلسفة وأعمل أستاذاً في جامعة مشهد،وقد صدق ذلك الرجل، فرحيمي مدير شركة النفط في نيشابور هو أخي . . وأرجو أن يوفقني الله لأن آتي للحج كل سنة عاملاً في القوافل . .

يا دكتور، أنا عانيت كثيراً حتى أصبحت متديناً عادياً، وعشت مشكلتنا نحن المثقفين مع الروحانيين . . أقصد طبعاً العلماء المستقيمين منهم، أما الجهلاء والمنحرفون فهم ليسوا من علماء الإسلام وإن لبسوا زيهم . . لقد صرفت من عمري يا دكتور في البحث والنقاش مع علماء الدين في مشهد ونيشابور وطهران وقم والقاهرة مئات الساعات . . وفي المسائل المختلفة . . خاصة وأني أعرف اللغة العربية وأستطيع أن أقرأ القرآن والمصادر الإسلامية . . فهل تعرف النتيجة التي وصلت إليها . .

ـ ما هي ؟

ـ وصلت إلى أن لشفاء أحدنا شرطين لا ثالث لهما: الأول: أن يكون مستعداً للتنازل عن الانحرافات والمعاصي التي يعيش فيها، والدخول في عالم الاستقامة والطهارة ولو بالتدريج . . والثاني: أن يتنازل عن اعتداده وكبريائه الفارغ، ويعترف أن للإسلام خبراءه الذين عايشوه وفهموه، فيأخذ منهم ويطبق . . المسألة اختصاص يا دكتور، والجماعة مختصون ونحن غير مختصين، وغير المختص قدرته على الجدل أكثر من المختص، لأنه غير مستوعب . . ولا تنحل مشكلته إلا بأن يصبح مختصاً، أو بأن يتنازل عن كبريائه وجدله الفارغ ويقبل من المختص . .

إن تقليد المرجع والقبول من علماء الدين يا دكتور ليس تعطيلاً

للتفكير ومصادرة للعقل كما كنا نتصور، وكما يقول لنا الغربيون. . إنه نوع راق من إعمال العقل. . فهل أن المريض عندما يأخذ برأي الطبيب يكون قد صادر عقله، وعندما تأخذ بـرأي الميكانيكي في تصليـح سيارتـك هل تكون صادرت عقلك. ؟ إن المجتمع البشري عبر أجياله وحضاراتـه كلها يـأخذ بمبـدأ الرجـوع إلى أهل الخبـرة والاختصاص. . والعقـل في هذا المجـال يعمل فقط في الإطـارالعام؛ مثـل الثقة بـالطبيب وعـدم مغـايـرة تشخيصه ودوائه للقواعد العامة. . فقط في الإطار العام يا دكتور، أما فيما عداه فيقلد ويأخذ من صاحب الخبرة ويعمل. . لا أدري هل أصبح قصدي واضحاً، أم لا. ؟

قال الدكتور وهو يهز برأسه بالإيجاب:

ـ نعم، نعم، يا دكتور وأشكرك. . أشكرك. .

فنهض حسين مغادراً ولم يستجب لرغبة الدكتورأن يبقى ويفيده أكثر. . وقال له وهو يودعه: أرجو أن تعذرني يا دكتور فقد اقشعر بدني خوفاً عليك عندما أحسست أنك متجه إلى أودية المناقشات. . شكراً لك وأرجو أن لا تشتبه وتناديني إلا حسيناً العامل فقط. .

وعاد الدكتور إلى سريره ولكن ليجلس ويضع رأسه بين يديه وهو يقول في نفسه:

أنت يا حسين، اقشعر بدنك لأنـك أفهم مني وأصدق، أمـا أنا فكنت أعيش الحيرةوالتخبط،وأبحث عن باب لأناقش فيه الشيخ الطبري ولا أقبل منه. . وأخذ يعيد في نفسه كلام حسين:

التنازل عن المعاصي والانحرافات . . ولو بالتدريج . .

التنازل عن الكبرياء والجدل الفارغ . .

التقليد . . القبول من المختصين في الدين . .

غير المختص أقدر على الجدل . . لا تنحل المشكلة . .

دكتور . . وعامل في القافلة . .

اضطر أن يكشف لي نفسه . . ليقول لي : أخطأت ، لا تذهب في الأودية . . ليأخذ بيدي في طريق النبي الصادق . .

. . وفتح أصغر عينيه ، فرأى الدكتور واقفاً إلى الشباك ينظر من الطابق السادس إلى نخيل المدينة من جهة العوالي . . فسلم عليه ونهض :

ـ كأنك لم تنم أبداً يا دكتور . .

ـ كلا يا أصغر فلست بحاجة إلى النوم .

* * *

كان موكب القافلة إلى النبي يسير في ساحة الحرم ، فرأى أصغر حسيناً العامل يمشي مع حجاج مصريين ، ثم ودعهم وانضم إلى القافلة فتقدم إليه أصغر مسلماً وقال :

ـ معذرة يا حسين فقد أخبرني الدكتور أنك جئت إلى غرفتنا وكنت نائماً ، ثم سألت عنك فقالوا خرج .

ـ نعم يا أصغر فتح لي الدكتور ، ولم أشأ أن أخبره فأجرح شعوره . . لقد ذهبت إلى قافلة عمته ، وسألت عنها ، فقالوا نعم هنا ، ورأيتهم يحترمونها ، فهي مديرة النساء في القافلة . . أخبرتها بأن ابن اخيها الدكتور جمشيد يريد زيارتها فقالت :

ـ جمشيد بن خسرو . .

ـ أعـرف أن اسمه الـدكتور جمشيـد بهرامي . . أبيض اللون ممتلىء الجسم، طويل، يسكن في لندن أليس هو ابن أخيك؟

ـ بلى هو ابن أخي . . سبحان الله . . وسكتت المرأة فعاودت السؤال:

ـ ماذا أقول له يا أم؟

ـ الحقيقة يا بني أني متعجبة كيف جاء هذا إلى الحج، إنهم بعيدون عن الدين بعد السماء عن الأرض، ونحن مقاطعوهم منذ زمن بعيد، وقد جاء مرة مع زوجته الإنكليزية وأولادهم إلى طهران، وطلبوا منا أن نزورهم فلم نفعل. . أما الآن وقـد جاء إلى الحـج فلعل وعسى، إن بـركةالإمـام الخميني وصلت إلى آخـر الـدنيـا . . ولكن دعني أستفتي هـل أستقبله، أم لا . . وأجيبك غداً إن شاء الله . . اصبر لا تقل له اليوم شيئاً . .

ـ ألا تستطيعين أن تسألي عالم القافلة وتجيبني اليوم .

ـ عـالم القافلة ذهب اليـوم إلى قافلة أخـرى . . ولكن يأتينـا الشيـخ الطبري من بعثة الإمام وأسأله . .

قال له أصغر:

ـ كـان الدكتـور قد حـدثني عما لاقتـه هذه المرأة من والـده، وعن قـوة شخصيتها، أما الآن فأتعجب لقوة تدينها . . شكراً لك يا أخ حسين وأرجو أن تتفضـل علينا وتـذهب إليها غـداً . . ولكن عليّ أن أذهب إلى الشيـخ الطبري في بعثةالإمام،فهو الذي التقينا به صبـاح اليوم . . متى قـالت إنه سيأتيهم؟

ـ لا عليـك يـا أخ أصغـر، فلو أنهـا سـألت أي روحـاني لقـال لهـا استقبليه . . لأن مقاطعة الرحـم لا تجوز ما دام يوجد أمل بهدايتهم . .

نسيم الإجابة

عند باب جبرئيل قال الدكتور :

ـ ياأصغر،كنت وعدتك أن أزور معك، ولكني أجد نفسي الآن بحاجة أكثر إلى التفكير . . أريد أن أسلم عليه فقط، ثم أجلس في مسجده وأفكر . .

ـ كما تريد يا عم، إذن أذهب معك لتجلس في مكانك، ثم أعود إليك . .

لكنهما وجدا المكان جهة المنبر غاصاً بالناس، فاختارا مكاناً بعيداً من جهة باب السلام، جلس فيه الدكتور . . ثم قام فسلم على النبي (ص) ولم يزد على السلام شيئاً، ثم جلس يفكر . .

كان تفكيره منصباً على حديث حسين، وحديث الشيخ الطبري . . أو بالاحرى على نفسه من خلالهما . .

ولما جاء أصغر ليذهبا إلى حيث تجلس القافلة للزيارة والدعاء، قال له بنبرة فيها هدوء وحزن :

ـ يا أصغر، إني بحاجة إلى الحديث معك، إني أعيش صراعاً لا يصح أن أكتمه . . أرجو أن نجلس ونتحدث في أول فرصة . .

ـ يمكن أن نجلس الآن يا دكتور ، يمكن أن نكتفي بزيارتنا المختصرة للنبي (ص) ولا نقرأ الزيارة والدعاء مع القافلة . .

ـ ما دام يمكن ذلك فهو جيد جداً . .

وجلسا في المسجد بعيداً بحيث يريان رفقاءهما عندما يغادرون . .

تنفس الدكتور الصعداء . . وقال :

ـ لعله لم يمر علي يوم في حياتي أخطر من هذا اليوم يا أصغر . .

ـ خيراً يا دكتور، أبعد الله عنا الخطر . .

ـ الخطر الداخلي يا بني أعظم من كل الأخطار . .

يا أصغر . . نحن نجلس في مسجد سيد الصادقين؛ وأول ما يجب أن أقوله لك إني لم أكن صادقاً معك صباح اليوم عندما سألتني عن رأيي في حديث الشيخ الطبري . . أقسم لك يا بني أن كل ما رأيته وسمعته من هذا العالم الشاب قد أعجبني وأقنعني إلى أبعد الحدود، ولم يكن عندي أي إشكال علمي أو مبرر منطقي لعدم قبول كلامه . . ولكني اتخذت هذا الموقف لسبب وحيد هو أني أحسست بالخطر وأردت كسب الوقت . . أوَ تدري الخطر على ماذا؟ وكسب الوقت لماذا؟

ـ كلا يا دكتور.

ـ الخطر على ما أعيش فيه من مخالفات للدين وانحرافات عنه، والخطر على ما أحمله في شخصيتي من اعتداد وكبرياء غربي . . وكسب الوقت من أجل البحث عن مبررات للمحافظة على ما أنا فيه . .

شعرت يا أصغر بأن هذا العالم الشاب يملك الإجابة على كل تساؤلاتي الفكرية فارتحت لذلك . . ولكني شعرت بأنه سيفقدني كل

مبررات بقائي فيما أنا فيه، ويدعوني إلى الدخول في أجواء الإيمان والثورة والعودة إلى إيران، فأحسست بالخطر. .

لقد بدأ الصراع في داخلي منذ كنت جالساً معه يا أصغر. . ولم يفارقني أبداً إلا ليعود، ولا زلت أعيشه. . أريد مساعدتك يا بني، فأنت تعرف حياتي ووضع عائلتي. . إني أتعذب. . أشعر بأن لقائي بهذا العالم الشاب سيكون آخر نداء لي، فإذا رفضته أكون قد خسرت حياتي . . وإذا قبلته فسوف أخسر زوجتي وأولادي، وتعب عمر قضيته في بريطانيا. . لقد رفضت في حياتي نداء فطرتي، ونداء والدتي رحمها الله. . وقبلت نداء الإمام الخميني منك لأنه كان خفيفاً لا يكلفني الكثير. . ولكني أراه من هذا الشيخ قوياً عميقاً باهظ التكاليف. .

هل تدري يا أصغر ماذا جرى عليّ وأنت نائم؟

ـ ماذا؟

ـ أوشكت أن أخضع لتأثير الكذب الغربي فأتخذ قراراً جهنمياً. . قراراً بالدخول في أودية الجدل الفارغ والمناقشات غير المنطقية. . ولكن الله لطف بي. .

أنا الآن بين نداءين يا أصغر: نداء الدين الذي رأيته صباح اليوم يتفجر من منطق هذا العالم الشاب، عميقاً غزيراً منساباً فيهزني ويدعوني إليه، ويقول لي خذ العلم والصدق وداو به مرضك. . اقبل منه فإنه يغترف لك من القرآن وحديث النبي (ص) واستفهم إذا شئت، ولكن لا تجادله فإنه صاحب خبرة بالدين، وأنت لا خبرة لك، وهو طبيب وأنت مريض. . إنه

أستاذ الفلاح الخراساني الذي تمنيت أن يكون لك قلب مثل قلبه . . إنه من كبار أساتذة المنهج الذي ينتج مثل هذه الشخصيات . .

ونداء آخر يقول لي : احذر أن تفقد المبررات للاحتفاظ بما أنت فيه ، احذر أن تخسر عائلتك ووضعك في لندن . . أنت طبيب كبير ولك خبرتك الاجتماعية وثقافتك . . أنت مفكر ليس فقط في الطب، أنت صاحب أفكار ونظريات في الاجتماع والنفس، فلا تتحول إلى مجرد تابع لرجل دين من عمر أولادك . .

بنيّ أصغر . . لقد قررت أن لا أكتم عنك هذا الصراع ، أن أكشف لك عن عذابي الذي أنا فيه . . فساعدني . .

ـ هون عليك يادكتور؛فالقضية ليست بهذه الخطورة التي تتصور . .

فقاطعه الدكتور:

ـ كيف يا أصغر . . كيف لا تراها بهذه الخطورة ، كيف!؟

ـ أرجو أن تهدئ من انفعالك يا دكتور، أقصد أنها ليست مشكلة واحدة آنية يجب أن نتخذ فيها موقفاً بنعم أوْ لا . . يوجد فيها عدة قضايا يا دكتور: أولاً النقاش غير المنطقي مع العلماء المطلعين مثل الشيخ الطبري نستبعده كلياً . . لأن الجدل والمكابرة لا يليقان بالإنسان العادي ، فكيف بمن هو مثلك يا عم في سنك ومكانتك ومواهبك .؟ ولذلك يجب أن نغتنم الفرصة ونستفيد من علمه ما استطعنا . . وقد فكرت يا دكتور لو تهيأ لنا فيديو لنسجل حديثه وننشره بين الإيرانيين المقيمين في الغرب . .

وفقك الله يا حسين ، فلو تعرف يا دكتور أنك عندما كنت تتحدث عن

اتجاهك إلى الجدل والمناقشة ذكرتني بحسين العامل. . فقاطعه الدكتور بتلهف:

ـ هل قال لك شيئاً. .

ـ نعم قال شيئاً، ولم أر من المناسب قبل الآن أن أقوله لك، فقد أبدى سروره عندما عرف أننا بدأنا اللقاء مع عالم في بعثة الإمام، ولكنه علق على ذلك بقوله: أي بحث ونقاش هذا . . وأكد عليّ أن لا أدعك تصرف وقتك مع العلماء في الجدل والنقاش، فزاد تقديري له ووعدته أن أعمل لذلك. .

ـ وأنا أقدره وأحبه يا أصغر. . أخبرني عما قاله لك بالضبط. .

ـ قال ما ذكرته لك يا دكتور. . وأذكر أنه قال أيضاً: هل يرضى هو من المريض أن يناقشه في اختصاصه. . إذا كان مسلماً حقاً يجب أن يأخذ من العلماء ويطبق. .

ـ صحيح ، صحيح يا أصغر، إن حسيناً العامل أصدق مني وأفهم. . يا ليتني مثله يا أصغر، فكيف تريدني أن أسمع من الشيخ الطبري ولا أطبق. .

ـ معاذ الله أن أريد ذلك يا دكتور، ولكني أريد أن تطبق بالتدريج ،لأنك لا تستطيع التطبيق دفعة واحدة. . إن عقدة الموضوع مسألة عودتك إلى إيران، وما دمت لا تستطيع تنفيذها دفعة واحدة، فيجب أن تمهد لها ـ كما قلت لك سابقاً ـ بالاهتمام بتقوية تدين الأسرة، وتكثير زياراتكم للوطن. .

ـ وإذا احتاج هذا التمهيد إلى سنوات يا أصغر. ؟

ـ على أي حال هو أفضل من العدم. .

ـ وإذا مات جمشيد في هذه السنوات يا أصغر. ؟

ـ حفظك الله يا عم. .

ـ إنك رفيق بمريضك يا بني، وقد يكون الشيخ الطبري أرفق منك، وقد تكونون كلكم يا تلاميذ الخميني رفقاء جداً بالمرضى مثلي. . نحن عندما نعالج تشمّع الكبد عند المدمنين على الكحول، أو أمراضاً مشابهة عند المدمنين على المخدرات، نقول لأحدهم: ما دمت لا تستطيع الترك دفعة واحدة فاترك بالتدريج. . ولكن الذي يترك دفعة واحدة يعاني. . والذي لا يترك أبداً يموت. . أما الذي يترك بالتدريج فقد يشفى، ولكنه قد يموت بالتدريج يا أصغر. .

ثم سكت الدكتور طويلاً، وأصغر يفكر في شيء يخفف به عنه أكثر فلا يجد. . فتابع:

ـ حسناً لقد أديت ما عليك ياعزيزي،وساعدتني كثيراً باستماعك إليّ وباهتمامك أن أربح الإيمان وعائلتي معاً. . أشعر الآن بأن كابوساً انزاح عن رأسي، وأن صفاء ذهني عاد إليّ. . فهل يمكنني أن أبقى في المسجد لأستكمل التفكير ولا أذهب معكم إلى زيارة البقيع؟

ـ لا مانع من ذلك يا عم، ولكن كيف أتركك تعود وحدك، اسمح لي أن أبقى معك، أنتظرك في مكان في المسجد أو خارجه. .

فطمأنه الدكتور ولم يرض أن يتقيد به ويحرم نفسه من الزيارة مع القافلة. . وأوصاه أن يكون في الساعة الثامنة في عيادة القافلة ويسجل أسماء المراجعين وأرقام غرفهم، حتى إذا تأخر عن وقت العيادة ذهب إليهم لمعاينتهم. . ونهض أصغر وذهب إلى مجلس القافلة، وبقي الدكتور

جالساً في أقصى المسجد، وهو ينظر إليه يمشي برفق في خط المشاة الوحيد البطيء،الذي لم تستوعبه صفوف المصلين بعد، ويقول له في نفسه:

- اذهب يا بني والتحق برفقائك الأصحاء، ودع هذا المريض لمرضه.. دعوه يفكر، فإن كان فيه خير التحق بقافلتكم.. وإلا فلا تأسفوا عليه، فما هو منكم..

* * *

لم تطل المرحلة الأولى من تفكير الدكتور حتى انطلق صوت الأذان لصلاة المغرب، فصلى المغرب ولم يصلّ قبلها ولا بعدها كما فعل المصلون حوله، كان التفكير عنده أهم.. والأمور أخذت تتضح شيئاً فشيئاً.. والمعادلات تصل إلى نتائج.. ولم يشعر بالوقت إلا والمؤذن يرفع الأذان لصلاة العشاء، فصلاها أيضاً ولم يزد، فقد كان يطمع أن يصل إلى نتيجة نهائية بعد أن تبلورت جوانب الموضوع، وأخذت النتائج تتسلسل:

.. النبي (ص) صادق.. وما جاء به وحي من عند الله تعالى.. وكله صحيح مئة بالمئة، ويستحيل أن يناقض العقل والحقائق العلمية، بل لا بد أن يؤيدها ويرشد إليها..

.. الوحي مدون في القرآن، والأحاديث.. والعلماء هم الخبراء به..

.. لا يوجد في علماء المسلمين مثل الإمام الخميني وتلاميذه، مستوعبون مخلصون يجيدون التعامل مع العصر بالوحي والإسلام..

.. لا يوجد عندي إشكال حقيقي على الثورة والجمهورية الإسلامية ومسيرتها العامة..

.. إشكالاتي على بعض المسؤولين والمنفذين، يجب فصلها عن تأييد

الجمهورية الإسلامية وخدمتها، ولا يجوز أن تؤثر عليها كما يقول أصغر، والحق معه . .

. . مسألة الغيب والتدخل الإلهي والخوف على الجمهورية الإسلامية أيضاً، يجب فصلها عن واجب التأييد والخدمة لهذه الدولة . . على أني أشعر أن الشيخ الطبري سيقنعني بأن التدخل الغيبي قانون قائم في كل عصر . . لله درك يا أصغر ما أورع كلمتك لي : هب أن قيام الجمهورية الإسلامية إشراقة حدثت في العالم، وأن الناس بظلمهم سوف يقضون عليها بعد سنة أو خمسين سنة . . فلماذا لا نكون مشعلاً في هذه الإشراقة . .

نعم أيها المؤمن الذكي : هبها إشراقة كربلاء ، فهل خسر الذين كانوا مشاعلها مع الإمام الحسين عليه السلام . . وهل ربح الذين تخلفوا عنه وفضلوا المكانة الاجتماعية وحياة الترف مع عوائلهم!؟

. . أجابني الإمام على رسالتي إليه بخطه، نعم بخطه وتوقيعه «يجب مراجعة الجهة المختصة في الحكومة فإن شخصت أنها بحاجة إليك وجب عليك» وقد راجع لي أصغر وزارة الصحة، ثم التقيت ببعثة الأطباء التي جاءت للاتصال بنا، ولكني أخجلتهم بسرد تبريراتي وظروفي الخاصة، فقالوا نحن لا نريد أن نحرج أحداً . .

. . كم أنت طيب يا أصغر . . إنه يعمل بمنطقية ورفق شديد ليقنعني بنقل عملي إلى إيران . . إنه يقنع من صداقتي بتحسني البطيء البطيء من مرضي، وبالخدمات البسيطة التي أقدمها لإيران والإيرانيين . . وهو يطمع بأن تصبح عائلتي أسرة متدينة وتقبل الحياة في إيران . . كم أنت طيب يا أصغر . . إنه يعرف أني أعمل في معالجة تشمع أكباد المخمورين البريطانيين وتلاميذهم، لكنه لا يعرف أن مرتبي وكل إنتاجي يصب في

جيـوب أسرة مـادية منحطة، ليس لي منها إلا مـظهر الحب والاحتـرام . . مسكين والدي لمن تعب كل هذا التعب، وتحمل كل هذه العداوات وهذه الآثام . . أمِن أجل ولدين وثلاث بنات لجمشيد لم يصلوا إلى الآن إلى مستوى الإنسان العادي، الذي يعقـل الأمور ويفكـر فيها . . ولا أدري هـل سيصلون . .

يقول أصغر إن شهريار ومستا فيهما أمل أكثر مـن برويـز وفيداوليدا . . إنهما يتقبلان منه أفكاره السياسية أكثر، وأصبحا يصليان . . لكنه لا يعرف أن مستا تتكلم عليه، فقد اعتذر عن الزواج منها. قال لها أنا لا أصلح لك إلا أخاً . . تقول عنه إنه ذكي ،ولكنه متعصب متكبر، وأن والدته اختارت له فتاة متعصبـة مثله من طهـران . . أنـا أحبكم يـا أولادي وزوجتي، ولكن إلى حدود . . لقد أعطيتكم الكثير الكثير . . أعطيتكم كل عمري . . فاسمحوا لي بما بقي منه . . اسمحوا لي بآخرتي . . فهل تفعلون!؟

ولم يشعـر الدكتـور بالـوقت حتى وصلت حملة العمـال إلى منـطقـة جلوسه، يجمعون السجاد وثلاجات الماء البـارد ويكنسون المسجـد، ثم يخرجون من بقي من الزوار، ويقفلون الحرم كما أخبره أصغـر . . فقال في نفسه: لعلي تأخرت إذن، ونظر إلى ساعته فرآها تقترب من الثامنـة . . لا بأس . . ونهض وتقدم في المسجد فرآه منظراً جديداً موحياً، فقد زال منـه الازدحام، وظهرت معالمه وهدأت فيه الحركة، ما عدا الذين تجمعوا عنـد ضـريح النبي (ص) يغتنمـون آخر فـرصة للسـلام عليه والحـديث معـه، والصلاة لله عنده . .

تقـدم في المسجد القـديم فرأى بـوضوح معـالم الضريـح الشريـف، والمنبـر النبوي والمحـراب، فهـزه المشهـد . . ولكنـه اتجـه تلقـائيـاً إلى

أسطوانته في جهة المنبر، فقد عرفها ورأى ما حولها خالياً فوقف إليها، وأخذ يتذكر زيارته الأولى وخطابه الذي ألقاه أمام النبي(ص)، فشعر بهيبته تملأ المكان بلون جديد، وشعر بالخجل من خطابه وطلبه من النبي أن يقبله في مستشفاه.

ليتني فكرت أكثر قبل أن أتقدم إليه بهذا الطلب.. فهل ينوي الدخول في مستشفى النبي ؛من كان مصراً على الإدمان على مخدرات ترفه وعائلته وجدله الفارغ.. هل أصدّق أنا مريضاً من هذا النوع إذا قال أريد المعالجة عندك بشرط أن أبقى مدمناً!؟

لماذا يا جمشيد لم تكن صادقاً مع سيد الصادقين.. خدعتك نفسك الغربية، وتريد أن تخدع رسول الله!؟ وارتعدت فرائص الدكتور؛ وأخذ بدنه يرتعش، وهو خافض رأسه ينظر أمامه..

ولكني قلت له: ليس فيّ من الصدق إلا التصديق بك.. وارتاحت نفسه قليلاً..

ورأى أمامه خزانة مملوءة من نسخ القرآن فتقدم وتناول منها قرآناً وقبّله، وعاد ووقف مكانه وقد احتضن القرآن بيديه إلى صدره، وأخذ يفكر.. ثم جلس وهو يحتضنه إلى صدره.. هذا الوحي االمقدس؛ عسى أن يشع على قلبي وإن لم أستحق.. عسى أن يهديني ربي سواء السبيل وأنا محتضن وحيه أناجيه بصمت في حرم نبيه..

أنا الذي لا يحق لي أن أتحدث مع النبي، هل يحق لي أن أناجي خالق الكون.. ولكنه عظيم عظيم يعطينا ما لا نستحق..

إلهي.. إلهي.. وفاضت عينا الدكتور بالدموع.. وأعادها فعادت

دموعه. . وأكملها: أنت لا تحتاج إلى شرح ولا كلام. . ولا طلب. . فساعدني لأكون صادقاً. .

أحس الدكتور فجأة بأن صدره قد انشرح. . وأن رؤيته للحياة والأشياء غدت واضحة عميقة، كأنما كانت في الضباب وأشرقت عليها الشمس الآن. . وأحس بنسيم طمأنينة سرى في روحه، فاطمأن، . . . اطمأن بكل شيء. . أتاه اليقين. . فسجد وقال: اللهم شكراً. . شكراً. .

ثم وقف واتجه إلى ضريح النبي (ص) ووقف بطريقته البروتوكولية وقال: السلام عليك يا رسول الله. . ثم انحنى وقال: شكراً. . واستدار. . وغادر المسجد مرتاحاً. .

* * *

دخل مسرعاً إلى غرفة عيادةالقافلة، فرأى فيها أصغر ومراجعين اثنين يتحدثون. . فاستقبله أصغر بفرح، وزاد من سروره أنه رآه مرتاحاً مستبشراً وقال:

ـ الحمد لله أنك لم تتأخر كثيراً يا دكتور، فالساعة لم تبلغ الثامنة والنصف، ولم يأت إلا مراجعواحد، ولم يقبل أن يعطي رقم غرفته لتذهب إلى معاينته، كان عنده سؤال فقط، واتفقت معه أن يراك بعد العشاء على السطح. . وقبل قليل جاء هذان الأخوان. .

* * *

كانا يصعدان إلى غرفتهما مسرورين، فقد أخبر الدكتور أصغر بقراراته الرائعة. . وقد عاين أربعة حجاج. .

ـ ماذا قلت يا أصغر لذلك الحاج حتى قبل أن يرتاح يومين، ولا يذهب لزيارة النبي والأئمة. ؟ فقد شغلت عنكما بالحاج الآخر. .

ـ قلت له ما دام الدكتور يرى ذلك لازماً، فيصبح حكماً شرعياً، واسأل العالِم إذا شئت. . فقال: صحيح ، على عيني.

ـ عجيب . . بهذه البساطة تقبّل ما يشبه المصيبة عليه!؟

ـ نعم، وقد رأيت نقاشه لك يا دكتور، وقد ناقشني أيضاً وقال: كيف يمنعني الدكتور من الزيارة وأنا أرى نفسي أتحمل، وإنما جئت من بلادي من أجل الحج والزيارة. . فلما دخل الحكم الشرعي في القضية تغير الأمر، لأن الحكم الشرعي لا نقاش فيه. .

ـ الحكم الشرعي لا نقاش فيه. . الحكم الشرعي لا نقاش فيه. . وهل هذه القاعدة عامة عند شعبنا الإيراني يا أصغر. .

ـ نعم يا دكتور. . فمن أول شروط التدين القبول بالحكم الشرعي والتسليم له.

ـ حياك الله يا حسين، أعد عليّ ما قاله لك بشأني يا أصغر.

ـ قال : أي بحث ونقاش هذا، لا تدعه يصرف وقته في الجدل والنقاش مع العلماء، إذا كان مسلماً فعليه أن يأخذ من العلماء ويطبق. . هل يرضى هو أن يناقشه المريض في اختصاصه. .

كان الدكتور يستمع إلى كلمات حسين من أصغر بإصغاء، ويهز برأسه قائلاً: نعم. . نعم. . . ومن الغرفة صعدا إلى المطعم النبوي على السطح. . كانت حفلة عشاء الليلة لدى الدكتور وأصغر أروع من سابقتها. . فالنفس كلما أضاءت وارتاحت أحست بالجمال المعنوي

أكثر. . وبالجمال المادي أيضاً. . وكان ختام الحفلة جلسة مع العالم، شارك فيهـا مجموعـة من الحجـاج من بينهم مـديـر القـافلة، يشـربـون الشـاي ويتداولون في أمور القافلة، ويتناقلون الأخبار، وقد دعوا الدكتور وأصغـر وأجلسوهما قرب العالم. .

كان حسين العامل يوزع الشاي بحيويته المعهودة فسأله أحدهم:

ـ أما رأيت امرأة مصرية أخرى اليوم يا حسين؟

ـ لم أر، ولكن أحدهم كان نقل لي قصة لا تقلّ عن السابقة، رآها في الطواف حول الكعبة الشريفة. . رأى رجلاً مصرياً يطوّف مجموعته؛ يمشي أمامهم وبيده الكتاب يقرأ منه الأدعية، وفي بعض المرات يزداد تأثره وخشوعه فيقرأ من عنده. . رآه مرة يرفع رأسه إلى السماء ويقول:

يا رب أنا منافق، ـ ثم أشار إلى جماعته بيـده كلها ـ ودول الجمـاعة كلهم منافقين. . خفف نفاقنا يا رب. .

حكاها حسين بالعربية وترجمها للحجاج فضحكوا. . . ثم تابع:

ـ ما أدري لماذا يطلب صاحبنا تخفيف النفاق ولا يطلب إزالته كلياً. . ثم توجه إلى العالم وقال:

ـ بماذا ينبغي أن يدعو المسلم يا سيدنا في هذا الموضوع؟

ـ نـدعو بمـا علمنا النبي والأئمـة (ع) «اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَـاقْ، وَلِسَانِي مِنَ الْكَذِبْ، وَعَيْنَيَّ مِنَ الْخِيَانَةْ».

* * *

بينما كانا يغادران السطح إلى غرفتهما، جاءهما حسين فسلم ووقف معهما جانباً وقال:

ـ تسلم عليكم العمة يا دكتوروتقول، يسرها أن تستقبلك في أي وقت من نهار غد قبل الظهر أو بعد الظهر إلى الساعة الرابعة. .

ـ شكراً لك يا أخ حسين، لقد أتعبناك بهذاالتكليف. .

ـ أبداً يادكتور، فنحن نفتخر بأطبائنا المتدينين، أرجو أن تكلفني أنت والأخ أصغر بأي خدمة في أي وقت. .

ـ شكراً، شكراً، وأرجو أن تدعو لي. .

ـ بماذا يا دكتور؟

فوجىء الدكتور بالسؤال، ففكر . . وقال:

ـ بالتوفيق للعودة إلى إيران. .

هذا شيء مهم. . سأدعو به يا دكتور، ولكن أنقل لك حديثاً عن الإمام الرضا عليه السلام؛ نتناقله نحن القرويين في خراسان: شكا إليه المأمون يوماً فقال له:

ـ يا بن رسول الله؛ أما عندك دواء لهذه العادة السيئة؟ إني مبتل بأكل التراب من صغري، وقد عجزت عن تركها، أليس لها دواء؟

فقال له الإمام الرضا عليه السلام:

ـ بلى لها دواء.

فقال المأمون : وما هو جعلت فداك؟

فقال الرضا : عزمة من عزمات الملوك.

ففوجئ المأمون، وفكر. . وقال: عزمت يا بن رسول الله. .

وفوجئ الدكتور، ولكنه ظل ينظر في الأرض أمامه. . ولم يقل عزمت. . فودعهما حسين وانصرف. .

النوايا الطيبة

وافق الدكتور على ترتيبات أصغر: أن يناما مبكراً، ويصليا صلاة الصبح في الغرفة، ويذهبا بعد الإفطار إلى جلسة الشيخ الطبري.. ولكن ليس لأنه يحاجة إلى الراحة كما تصور أصغر.. بل لأنه بحاجة لأن يستعرض أحداث هذا اليوم وقراراته، ويستكمل التفكير..

كان شريط اليوم حافلاً:

قبل الظهر : صلاة الفجر عند النبي .. زيارة البقيع..

الإفطار على مائدة الإمام الخميني .. الشيخ الطبري..

التلفون للعائلة .. معرفة عنوان العمة من المركز.. ذهاب حسين إليها وموافقتها.. هل أقنعها حسين باستقبالي؟

بعد الظهر : الأفكار السوداء والاتجاه إلى عدم القبول من العلماء ومجادلتهم..

مجيء حسين في الوقت المناسب.. الملاك الإلهي الدكتور حسين.. المحنة.. ثلاث ساعات في الحرم.... المرحلة الأخيرة قرب محراب النبي.. احتضان القرآن ومناجاة الله تعالى.. نسيم الإجابة..

القرار بإعادة الأموال المغصوبة إلى أبناء عمي وأولادهم..

القرار بإخراج خمس مالي وتزكيته..

القرار بالعودة إلى إيران مع من يطيعني من العائلة.. ولكن لا أدري كيف سيكون التنفيذ.. هل كان كلام أصغر موجهاً إليّ: إن من أول شروط التدين القبول بالحكم الشرعي والتسليم له؟

هل كان كلام الدكتور حسين عن ذلك الرجل الذي يدعو الله بتخفيف نفاقه وليس بازالته موجهاً إليّ؟.

على أي حال فإن كلامه عن الإمام الرضا والمأمون موجه لي.. يريدني أن أتخذ قراراً ثورياً بالعودة إلى إيران.. ولكني يا دكتور لا أملك عزمة من عزمات الملوك كما يملك المأمون..

ألا تعرف يا دكتور أن المادية الغربية اللعينة أفقدت خسرو وجمشيد عزيمة الخانات الإيرانيين .. حتى جاء الخميني وعلّم كل الناس كيف يستمدون من الله عزيمة الأولياء والأئمة والأنبياء، فكنا آخر من يتعلم منه.. لقد شعرت من نسيم الإجابة بعزيمة انبعثت فيّ على العودة، ولكني لا أعرف كيف أنفذ القرار، ومتى.. ولكني مطمئن بأنه تعالى سوف يهديني..

أشكرك يا رب..

يا من أرسلت محمداً بالصدق إلى العالم.. ساعدني لأكون صادقاً..

اجعلني أقبل صدقه من العلماء، وأبني به شخصيتي الجديدة الصادقة..

ارزقني عمقاً في التفكير، وعزماً.. مثل الدكتور حسين..

وقلباً شفافاً.. مثل قلب هذا الفلاح الخراساني، وقلوب كل رفقائي..

وطهارة روحية ، ونفاذاً سياسياً . . مثل أصغر . .

ساعدني على أن أعمل لإنقاذ أبي من العذاب الذي يعيش فيه الآن . .

كيف تعيش الآن يا أبي في الآخرة!؟ لا بد أنك في عذاب، في الكارثة التي أنزلتها بآخرتك . . إني أحبك، وقد أحببتني أكثر، وتحملت الكثير الكثير من أجلي . . أعدك يا أبت أن أبرّئ ذمتك من كل فلس لأحد عليك، وإذا لم يكف ما عندي ولم تساعدني زوجتي وأولادي . . أعدك أن آخذ من إنتاجي القوت الضروري فقط وأعطيك الباقي . . أن أرهن نفسي عند أصحاب الحق عليك ـ إذا قبلوا ـ فأعمل لحسابهم حتى أبرئ ذمتك . .

أعدك بأن أقضي عنك الصلاة والصوم والحج والزكاة . . وأدعو لك ولوالدتي في كل صلاة . . آه يا أماه . . يا حبيبتي الطاهرة . . سامحيني وسامحي أبي . . لقد فزت أيتها المؤمنة الصامدة . . لا بد أنك في نعيم، وأنك محترمة في الآخرة . . مسموعة الكلمة . . فاشفعي لجمشيد، واقبليه فقد جاءك ولو متأخراً . . «ماذا أصنع يا جمشيد؟ لم أستطع أن أمنعك من أكل الحرام، ولكن حليبك يا بني طاهر» وأنا أتأسف يا أماه، ولكن أرجو أن يغلب حليبك الطاهر . .

قرّي عيناً، فها أنا قررت العودة إلى إيران بفتوى مرجعي . . كما امتنعت أنت سنتين عن المجيء إلى لندن ثم جئت ، بفتوى مرجعك . . أنت من الشعب الذي يؤمن بالحكم الشرعي ويقدسه . . لقد قررت أن أكون منكم . . لله در هذه القاعدة كم هي حضارية، وكم تحسم الجدل، وتوجه تفكير الشعب إلى العمل وإلى الأمام . . الجميع يتقيدون بفتوى

مرجع التقليد وينفذونها بتسليم وتقديس . . وهو يتقيد في فتواه كما شرح لي أصغر بآيات القرآن، وأحاديث النبي، وأصول العقل، وإجماع المسلمين . . ويفهم الواقع على ضوئها . . ثم يقول، فيطاع . . بحب وتقديس، من كل الشعب، إلا مني ومن أمثالي فإنّا نناقش ونبرر ونتكبر، مع ثقتنا بنزاهته وعلمه واختصاصه . .

مسكين أيها الشيخ الطبري . . كنت متجهاً اليوم لأن أقتلك . . لأن أكون واحداً من الغربيين الذين تشكو من ظلمهم لثقافة الإسلام والمسلمين . . لأن أدخل معك في أودية الجدل، وأترك الربوات والقمم التي كشفتها لي . . أعِدُك أيها العالم الشاب أن أترك تلك الأفكار الغربية السوداء إلى غير رجعة، وأقبل منكم يا تلامذة الخميني . كما أرشدني الدكتور حسين وأصغر، وأكون مؤدباً معكم كما علمتم المتدينين أن يتأدبوا مع الأطباء ويقبلوا بفتواهم . .

الحمد لله . . ما أطيب النوم على الأفكار الطيبة . . والنوايا الطيبة . .

* * *

الغيب القادم

دخلا غرفة الشيخ الطبري فرحب بهما وأجلسهما. . كان مستعداً في الوقت المحدد، فقد وضع الفاكهة قبل أن يأتيا في متناولهما، ووضع عند مجلس كل منهما صحناً فيه سكين، وهيأ كؤوس الشاي. . وكان الفراش والكتب في الجانب الآخر من الغرفة مرتبة أكثر من الأمس. . يبدو أنها لشخص آخر معه في الغرفة، لم يكن حاضراً بالأمس، وأنه خرج اليوم مبكراً. . لعله عالم يشتغل في أحد أقسام البعثة، أو هو يراعي مواعيد زميله الطبري فيغيب. .

جلس الشيخ الطبري مؤدباً يرحب بهما بأسلوب تمتزج فيه البشاشة بالأدب بالخجل، ثم صب لهما الشاي، وسألهما هل أفطرا فأجابا بالإيجاب وشكراه. . ثم سكت طويلاً فلم يتكلم أحد منهما. . فقال:

ـ في البداية أشكركما على الاهتمام بمسألة الغيب، فقد استفدت من طرحكما للموضوع والحمد لله. . كان بودي قبل شهور أن أراجع الآيات والأحاديث الشريفة المتعلقة بالغيب، وخاصة بالملائكة المرافقين للإنسان، لكي أكوّن صورة واضحة، وأجدد شعوري بالغيب. . إن انشغالنا نحن الطلبة بالأمور الفكرية والعملية؛ يجعل البعض مثلي يقصر في معايشة عوالم الغيب كما ينبغي . . عيناً كما ينشغل الطبيب يا دكتور عن ملاحظة حالته الصحية.

لقد كان طلبك البحث في الموضوع من القرآن والسنة الشريفة سبباً في أن أراجع آيات الموضوع وأحاديثه.. ولكن المشكلة كانت انعدام كتب الحديث الشيعية في المدينة، وطالب العلم بدون مصادر كالطبيب بدون أجهزة، حتى أرشدني بعض الأخوة إلى مكتبة المدينة المنورة العامة، ولحسن الحظ كان فيها بعض مصادرنا في الحديث، وكان تصويرها مسموحاً، فصورت هذه الأوراق ـ وأشار إلى كمية من الأوراق المصورة ـ وعشت معها ساعات في الليلة الماضية.. واخترت لكم منها هذه المجموعة ـ وأشار إلى أوراق أخرى ـ وقد أثارت قراءة الموضوع في نفسي أفكاراً كثيرة حول مسؤوليتنا في تقديم عقيدة الغيب الإسلامية للناس..

والآن يا جناب الدكتور وجناب الأخ، أرى أن الموضوع أوسع من أن تستوعبه جلسة، فهو جدير بجلسات وكتاب. لذلك أفضل أن أقرأ لكما فهرس مفرداته وتختاران ما تريدان منه لنتحدث فيه، ولكن قبل ذلك أحب أن أسمع رأيكما في الفكرة العامة التي قدمتها بالأمس، وهل توجد حولها مناقشة؟..

فأشار الدكتور إلى أصغر أن يتكلم، فأخرج من جيبه ورقة مطوية وقدمها إلى الشيخ الطبري، وقال: ـ نحن نشكر الله تعالى يا سيدي أن وفقنا للتشرف بكم، إن فرحتي لا توصف عندما ألتقي بتلاميذ الإمام وأستفيض من علمهم.. لقد استفدنا من حديثكم بالأمس كثيراً، وقد أصبحت نظرتي لمفهوم الغيب في الإسلام جديدة، واستفدت منه أفكاراً سياسية أساسية أيضاً..

ليس عندي أي مناقشة، بل أنا مقتنع بكل ما تفضلتم به، لأنه يستند إلى

آيات القرآن والأحاديث الشريفة، وأنتم بعد والحمد لله أهل الاختصاص والخبرة؛ الذين يجب علينا أن نأخذ منكم ونطبق كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ نحن حريصون يا سيدي على أن نستفيض من محضركم أكثر فنرجو إذا أمكن أن تتفضلوا علينا بعدة جلسات تشرحون فيها أهم الجوانب التي ترونها ضرورية لنا من مسألة الغيب وغيرها..

ـ وفقك الله أيها الأخ وجعلني عند حسن ظنك.. وفتح الورقة فقرأها، وسأل أصغر:

ـ صاحب هذه الورقة أتعرفه؟

ـ عرفته في القافلة، ورأيت عالم القافلة والمدير يعتمدان عليه.. وقد كلفني أن أعطيكم هذه الورقة.. ثم التفت أصغر إلى الدكتور هامساً: هو حسين العامل..

كانت الورقة تقول: بسمه تعالى: .. سيدي، من البدائه الإسلامية التي لا يعرفها المثقفون؛ حكم الرجوع إلى العلماء والقيمة الشرعية لما يأخذونه منهم.. مخلصكم أحد رفقاء الدكتور بهرامي..

ـ التفت الشيخ الطبري إلى الدكتور وقال:

ـ حسناً، تفضلوا يا دكتور.

ـ أنا موافق يا سيدي على ما قاله الأخ أصغر، وليس عندي زيادة.

ـ إذن نبدأ بمقدمتين هما في نظري ضرويتان للموضوع ثم نذكر فهرست مسائله.

المقدمة الأولى، في حكم الرجوع الى العلماء في هذه المسألة

وأمثالها. . فالمعارف الإسلامية تنقسم بشكل أساسي إلى: عقيدة، وشريعة، وتعليمات إدارية وسياسية تتعلق بتطبيقهما. . وكل مسائل الفكر الإسلامي لا بد أن ترجع إلى هذه الأقسام الثلاثة. .

ولا شك في أن العلماء هم المرجع اليوم في مسائل الإسلام، كما هو الحال في أهل كل اختصاص في هذه الحياة. . ولكن أرجو الالتفات إلى مبدأين هامين وضعهما الإسلام في هذا المجال، ويتعلق الأول منهما بالمسائل التي يرجع فيها الناس إلى العلماء، ويتعلق الثاني بالعلماء الذين يرجع إليهم.

أولاً، يريد الإسلام أن يحقق التوازن بين دفع العقل الإنساني لأن يعمل بأقصى طاقته، وبين احترام اختصاص العلماء والاستفادة منه إلى أقصى حدوده. . فهل تعرفان كيف يجمع بين هذين الهدفين العظيمين ويوزان بينهما؟

قال الدكتور بتلهف:

- كيف يجمع بينهما يا سيدي؟

- يقول للناس: في أساسيات الدين ممنوع التقليد. . ممنوع، وليس غير محبوب مثلاً، فالقرآن يذم هذا التقليد وأهله، وعند فقهاء الإسلام تعبير أصبح كالقاعدة «لا تقليد في أصول الدين» أو «يحرم التقليد في أصول الدين». . إنها قضية كل إنسان وعليه أن يباشرها بنفسه، فهذا عقله وهذا الكون أمامه مليء بوسائل الإثبات. . فإن احتاج إلى شيء منها فعلى العلماء أن يقدموه إليه ولكن ليستعملها هو، كما يكلّف الأستاذ بتقديم مادة

إلى الطالب ليراها الطالب بنفسه في المجهر، ويكون دور الأستاذ مساعدته على الرؤية ، لا أن يرى له.

ويقول لهم: هذا القرآن بين أيديكم، وسيرة النبي (ص) وسيرة الأئمة (ع) وسيرة أصحابهم (رض) وسيرة علماء المسلمين والمتدينين. . فأنتم بها تملكون الخطوط العامة للإسلام، فلا تقبلوا ما يخالفها من أحد، فما يخالفها ليس من الإسلام. . . ومن يخالفها لا قيمة لقوله وإن كان من العلماء أهل الاختصاص. .

وبهذا تكون المساحة التي يريد الإسلام من العقل أن يتحمل مسؤوليته فيها واسعة وحيوية، بل هي أوسع مما ذكرت. . وتكون المساحة التي يريد الرجوع فيها إلى العلماء واسعة أيضاً، فهي تشمل تفاصيل العقائد الإسلامية، وكل الفقه الإسلامي، وكل الأمور الإدارية السياسية. . باستثناء بديهيات الإسلام طبعاً، أي ما يسمى ضروريات الدين.

والإسلام ثانياً ، يريد أن يحفظ أصالة عقيدته وشريعته، ووحدة مسيرة أمته، وهذا يستوجب أن يضع شروطاً للعلماء، وأن ينظم عملية رجوع الأمة إليهم ،ويحدد طريقتها. . وتتمحور طريقة الرجوع في فقه المذاهب السنية حول الخليفة الجامع للشرائط، بينما تتمحور عندنا حول الفقيه الجامع للشرائط. . ولكن لا ينبغي أن يفهم أن الرجوع إلى ولي الأمر يعني تعطيل طاقات العلماء، بل يعني تنظيمها وإعطاءها صفة الشرعية، بل ودفعها إلى الأمام. .

هذه المقدمة ضرورية يا دكتور، لمن يهتم بالفكر الإسلامي وتبادل مسائله مع العلماء، وأحب لمثلك أن يتعرف أولاً على فقه الرجوع إلى العلماء والأخذ منهم. . وضرورية لي أيضاً لكي أكون أميناً معكما، فأوضح القيمة الشرعية لما أقدمه لكما حول الغيب. .

مسألتكما أيها الأخوان من مسائل تفاصيل العقيدة الإسلامية، لأنها ليست من أصل الاعتقاد بالغيب، بل عن تفسيره وتفاصيله.. ولها علاقة كبيرة بقضية الإسلام السياسية الحضارية..

والعبد الفقير الذي تسألانه طالب من قم، كلفه الإخوة في مكتب تبليغات الحوزة وفي البعثة بالإجابة على المراجعات الفكرية.. ومثل هذا التكليف يعني عادة أن أفكاره الإسلامية مقبولة بشكل عام.. وليس بشكل تفصيلي.

أرجو أن تلتفتا أيها الأخوان إلى أن اعتماد المرجع وأجهزته المختصة يختلف في المجال الفكري عنه في المجال الفقهي والسياسي والإداري..

فعندما يراجع الناس عالم دين في مسائل فقهية؛ يكون الأمر محدداً، حيث عليه أن يقدم لهم فتوى المرجع اعتماداً على معرفته بها وفهمه لها من الرسالة العملية أو غيرها.. وتكون القيمة الشرعية لجوابه كاملة، ما دام ثقة مطلعاً أو معتمداً لذلك من قبل المرجع.

وعندما يراجع الناس عالم دين في أمر سياسي أو إداري، في تقييم وضع أو شخص أو إعطاء موقف سياسي أو عملي، فإن الأمر محدد أيضاً، حيث يقدم لهم موقف المرجع أو أجهزته المختصة، أو يقدمه حسب اجتهاده هو، إن كان مخولاً بذلك..

ويكون الأمر محدداً أيضاً عندما يراجعه الناس للمساعدة في فهم موضوع من الموضوعات وتشخصيه وتطبيق الحكم الشرعي عليه.. فيكون دوره دور المساعد الناصح بصفته مسلماً..

ولكن المراجعة في المسائل الفكرية من قبيل مسألتنا هذه وغيرها يختلف أمرها، فالفكر الإسلامي واسع، والقرآن الكريم والسنة المطهرة معين لا ينضب، واجتهادات العلماء في فهمها والاستنباط منهما وإن كانت متقاربة، فهي تصب في خط الإسلام العام، ولكنها تختلف من مدرسة لأخرى، ومن عقلية لأخرى. . لهذا السبب وغيره، يكون اعتماد المرجع وأجهزته على العلماء في الحقل الفكري اعتماداً عاماً كما ذكرت. . فهو يدل على أن أفكارهم الإسلامية مقبولة وذات قيمة شرعية، ولكن بشكل عام. . مثلاً يوجد ممثلون للإمام دام ظله ولآية الله المنتظري حفظه الله في مؤسسات الدولة وفي بلاد المسلمين. . وهم يقومون بتبليغ الأحكام الشرعية والتوجيه السياسي العملي وفق الضوابط التي ذكرتها، وهذا عمل محدد. ويقومون بشرح المفاهيم الإسلامية من القرآن والسنة، ومعالجة مختلف قضايا الفكر الإسلامي، بل قد يكون ذلك هو المهمة الأساسية لبعضهم، وهم معتمدون لذلك دون شك، وهذا الاعتماد يعني القبول العام لما يقدمونه من فكر؛ ما دام ضمن موازين الإسلام وخطوطه العامة. لكن لا يجب أن يعني اعتماد تفاصيل فكرهم، بل حتى لو نص المرجع على قبول النتاج الفكري لبعض العلماء؛ كما نص الإمام على كتب الشهيد مطهري ووصفها بأنها كلها مفيدة، ودعا المسلمين إلى الاستفادة منها، فإن ذلك يجعلها معتمدة بالدرجة الأولى دون شك، ويعني أن الإمام يوافق عليها بشكل عام، ولا يعني بالضرورة أنه يوافق على كل تفاصيلها. .

على هذا الأساس، أرجو أن تلتفتا دائماً إلى أصلين في أخذكما عن العلماء: طبيعة المسألة ومن أي نوع هي. وطبيعة العالم ومدى اعتماده من قبل المرجع ولي الأمر.

والمقدمة الثانية : يمكن تسميتها تصوراً عن عالم الغيب والشهادة. . تصوراً لا أقول إنه نهائي، ولا يتسع المجال لاستعراض الآيات والأحاديث الشريفة التي تؤيد أفكاره:

يبدو أن هناك تسلسلاً في هذا الوجود الذي خلقه القادر عز وجل، ولنفترض أنه يبدأ بأدنى الجمادات، صعوداً إلى أعلاها، أو إلى أدنى النباتات. . . ثم صعوداً إلى أعلاها، أو أدنى الحيوانات كتلك التي يشتبه أمرها بين النبات والحيوان. . ثم صعوداً إلى أعلى الحيوانات أو أدنى الإنسان. . ثم صعوداً إلى أرقى الإنسان. . والروح. . والملائكة. .

ويبدو أن هذا التسلسل يشمل السماوات السبع أيضاً، وأن أرضنا وسماءها الدنيا أدناهن وأقلهن درجة في الوجود، وأن الكثافة المادية للموجود مرتبطة بشكل وآخر بمراتب وجوده الدنيا، كما أن شفافيته ونوارنيته مرتبطة بدرجاته العليا. . وأن نوعية المادة التي تتكون منها السماء الثانية ومخلوقاتها أقل كثافة وأكثر شفافية من المادة المستعملة في خلق دنيانا وأشيائها. . وهكذا في السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة. . وتكون مادة السماء السابعة ومخلوقاتها أرقى أنواع ما خلق الله عز وجل.

ويبدو أن المادة الطينية في الأرض، أو الإنسان المخلوق منها باستطاعته أن يكون استثناء من هذا التسلسل، وأنه كائن مركب من أدنى العوالم وأرقاها معاً، فهو يملك القابلية لأن يكون في أحسن تقويم أو في أسفل سافلين. .

على كل حال، مهما يكن في أمر هذا الوجود العجيب، فإن فيه حركة يبدو أنها أقوى أنواع الحركات الموجودة فيه على الإطلاق، وهي الحركة باتجاه الوحدة بين الشهادة والغيب، وأنها تبلغ ذروتها بالقيامة التي تتحقق

فيها وحدة ساحة الموجودات. . وأن دور السلوك الإنساني في هذه الحركة عظيم جداً. .

ويظهر من قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ. . كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ. . فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ. . كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ أن هذه الحركة منها ما يكون طبيعياً كحركة السيل في الوادي، ومنها ما يكون بفعل الناس كحركة صهر الذهب والمعادن. . وأن نتيجتها تشبه نفي الزبد عن الماء وعن المعدن واستخلاص المادة الصافية. .

ويبدو لي أنها حركة شاملة لكل كائن، وأن الصراع عنصر ثابت فيها لأنها تشبه تولّد الكهرباء من صراع الشحنات الموجبة والسالبة، وتولّد الخير من صراع الفجور والتقوى في نفس الإنسان. . وهي في أمور أخرى تشبه مخاض الحامل لوضع طفلها، أو مخاض الشتاء لولادة الربيع. .

كما أن الرسالة الإلهية في هذه الحركة عنصر ثابت أيضاً، لغرض توجيه الإنسان في حركته وكدحه نحو الغيب؛ ونحو الجنة، ونحو الله تعالى. .

إن صراعنا مع الغربيين يا دكتور عميق عمق حركة هذا الوجود نحو لقاء الله تعالى؛ ومحاولات البشر الجاهلة لإعاقتها. . إننا نريد لسكان الأرض أن ينفتحوا على العالم الأكبر وينسجموا مع حركتهم نحوه وأشواقهم إليه وأشواقه إليهم. . ويريد الماديون لهم أن يَخْلُدوا إلى الأرض ويكفروا بالله وغيبه. .

إن حضارتنا الإسلامية حضارة الوحدة والكمال يا دكتور، وحضارتهم حضارة الانفصام والنقص . . الله تعالى وملائكته وحركة هذا الوجود معنا في مواجهتهم . . بل إن مواجهتهم في الحقيقة مع الله تعالى، ومع طبيعة هذا الوجود، وليس معنا يا دكتور، فما نحن إلا وسائل بسيطة في مخططه الكبير ، يقول عز وجل: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعضٍ﴾ يعني ولكن لتبقى حركة هذا الصراع وتأخذ مداها في الأرض، حتى تنتصر حضارة الدين على حضارة الجاهلية . .

على أي حال هذا الجانب من الغيب الذي يتعلق بالصراع بين أهل الحق وأهل الباطل؛ وإن كان له قوانينه الخاصة وغيبه الخاص، ولكنك تلمسه دائماً وتطل عليه من كل مسائل الفكر الإسلامي، ومن كل مفردات الغيب . .

وتناول الشيخ الطبري ورقة وقال: هذا فهرس بأهم جوانب الغيب التي تقدمها آيات القرآن والأحاديث الشريفة . . وأخذ يقرأ:

أولاً : الاتجاه الأصيل في فهم الغيب ومعايشته والاتجاهات المنحرفة.

ثانياً : قانون النصر الإلهي وأنواع الألطاف الغيبية التي تستعمل فيه.

ثالثاً : ملائكة الوحي للأنبياء (ص) جبرئيل (ع) وغيره.

رابعاً : الملائكة الذين نص القرآن والأحاديث على أنهم يتنزلون في ليلة القدر خاصة، وفي غيرها من أيام السنة، على أنواع من المؤمنين، ولأداء أنواع من المهام . .

خامساً : الملائكة المرافقون للإنسان، كتبة الأعمال، والحفظة، وغيرهم.

سادساً : الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، عزرئيل عليه السلام ومساعدوه.

سابعاً : ملائكة الحساب في القبر والبرزخ.

ثامناً : ملائكة الحشر والحساب في القيامة الكبرى.

تاسعاً : ملائكة الجنة والنار.

عاشراً : ملائكة العرش، والملائكة المقربون. . إلى آخره.

وكما تلاحظان فإن دور الملائكة عليهم السلام أساسي في أكثر عوالم الغيب،إن لم يكن فيها جميعاً، وقد ورد عن أمير المؤمنين (ع) وصفهم بأنهم خلق بديع، وأنهم أكثر خلق الله عدداً، وورد عن زين العابدين (ع) وصفهم بالروحانيين، وإني لأشعر بالخجل لأن الناس يقولون لي روحاني، وأفكر أين هذا العبد المقصر العاصي عن الملائكة الروحانيين صلوات الله عليهم. .

إن مجموعة الخصائص الموجودة فيهم عليهم السلام، تؤهلهم لهذا الانتشار الواسع في الكون، وأداء المهمات الواسعة في كليات أموره وجزئياتها. . وهذا هو السبب في أن الله تعالى أكّد في القرآن على الإيمان بهم،واعتبره أصلاً بذاته،وذكره بعد الإيمان به عز وجل، مع أن الغيب لا يقتصر عليهم. .

تقدم لنا الآيات والأحاديث الشريفة معلومات عديدة وهامة عن الملائكة، من قبيل أنهم مخلوقون من مادة نورانية، وأنهم على صور

مختلفة، وأنهم أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وأنهم قبائل وأنواع، وأنهم يعرجون من الأرض إلى السماء السابعة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وأن لديهم القدرة على تكثيف أجسامهم كما ظهر جبرئيل وغيره بشكل إنسان، وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونْ﴾ وأن في الإنسان القابلية لأن يتحول إلى ملك كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلاَئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونْ﴾.

وكذلك عن مهامهم الكثيرة المتعددة في أرجاء الكون.. عند العرش، وفي السماوات السبع، وفي الفضاء، وفي الأرض.. حتى لا تكاد تخلو منهم منطقة، ولا يتم عمل من الأعمال في حياة الطبيعة والإنسان إلا ولهم فيه دور..

إننا نعيش في كون عامر وهادف أيها الأخَوان.. إن القرآن والسنة يقدمان لنا صورة موجزة عن حياة الإنسان الواحد وما يحيط به، فنراها تملأ العقل وتهز القلب.. إنني أتكلم معكما الآن وأتذكر أن معي أربعة مرافقين من الملائكة يكتبون ما أقول، واحد عن يميني يكتب الحسنات، وآخر عن شمالي يكتب السيئات، وهما يعطيان ما يكتبانه إلى اثنين فوقهما يقومان بفرز الخير والشر فيحفظانه في ملفي، ويلقيان ما عداه من الفضول واللغو الذي لا خير فيه ولا شر..

إننا نعيش في عالم مليء بالملائكة وبالفعل الإلهي بواسطتهم، وقد كشف لنا القرآن أنواعاً منهم، وكشفت السنة أنواعاً أخرى.. ليس مع الإنسان وفي محيطه فقط، بل في حقول حركة الطبيعة وأفعالها كلها.. من ملائكة السحاب والرياح، والمطر، إلى ملائكة الجبال والبحار والأنهار..

إلى ملائكة الأشجار والنبات والثمار. . وملائكة الحياة والأحياء. . الخ. إنك عندما تقرأ الآيات والأحاديث الشريفة عن الملائكة تكاد تجدهم في كل مكان ومع كل فعل، حتى مع قطر المطر، وتفتح البراعم على الأشجار والنبات. .

نعم يا دكتور إننا نؤمن بالقوانين المادية التي تحكم الطبيعة، نؤمن بكل ما كشفه العلم وما سوف يكشفه. . ولكن العلم عندما يكشف لي عن قانون الجاذبية لا ينفي وجود قوى نورانية عاقلة تعمل ضمن هذا القانون، وخارجه، أو يكون لها دور فيه. . وعندما يكشف لي أن موت الإنسان ناتج عن توقف قلبه، لا ينفي لي وجود ملائكة تقبض روح الإنسان وتصعد بها إلى السماء. .

عندما يكشف العلم عن ألوف أو ملايين القوانين الطبيعية العاملة في حياة الطبيعة والإنسان، لا ينفي عمل الملائكة ضمن هذه القوانين، وخارجها، ومعها. .

من أين جاءت فكرة أنه إما أن نؤمن بالقوانين الطبيعية أو بالملائكة، وأنه لا يمكن الجمع بينهما. ؟ نعم جاءت من هجمة الكنيسة على العلم ورجاله بحجة أن نتائجه تعارض دور الملائكة أو تنفيه. . ولكن هل يجب أن يتحمل الإسلام جمود رجال الكنيسة في العصور الوسطى وجهلهم، وخوفهم على سلطتهم. .

إن القوانين المادية جزء من القضية فقط، ولذلك نعجز عن تفسير التاريخ وأحداث الحياة والطبيعة بهاوحدها، ما لم نفترض معهاقوى عاقلة تعمل ضمنها ومعها وخارجها. . . وهذه هي الملائكة يا دكتور. .

نعم حتى في تفسيرنا المادي للمادة ونشاطها لا نستغني عن الغيب يا دكتور، فليست القوانين المادية إلا الجزء الطافي على سطح الماء من كتلة القوانين الضخمة العاملة في الطبيعة والحياة . .

أسألك يا دكتور لو قرأنا على مفكر غربي من أبناء الحضارة المادية بعض نصوص الإسلام عن أدوار الملائكة، فماذا سيقول . . لو قرأنا عليه قوله تعالى : ﴿وَالسَّماءِ والطَّارِق . والنَّجْمِ الثَّاقِب. إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وقوله : ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُستَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ . . لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ .

وقوله : ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ . . إنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

وقول النبي (ص) وقد سئل عن صيامه يوم الإثنين والخميس فقال: «إن الأعمال ترفع في كل إثنين وخميس، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم» وفي حديث آخر أنها ترفع شهرياً أيضاً في آخر خميس من كل شهر.

أو قرأنا عليه بعض خُطَبِ أمير المؤمنين (ع) البليغة الرنانة عن خلق السماوات والأرض ووصف ملائكتها . . أو قوله (ع) يصف صلاة الملائكة على رسول الله : «ولقد وُلِّيتُ غُسْلَهُ ـ صلى الله عليه وآله ـ والملائكة أعواني ، فضجت الدار والأفنية . . ملأ يهبط، وملأ يعرج . . وما فارقت سمعي هينمة منهم، يصلون عليه . . حتى واريناه في ضريحه» .

أو قرأنا له دعاء زين العابدين (ع) في الصلاة على أصناف الملائكة

من حملة الوحي وسكان السماوات، وسكان الهواء والأرض والماء، والموكلين بالرياح والمطر والثلج والبرد . . الخ . .

ولو قلنا لهذاالغربي إن عدد أفراد منظمة الملائكة الموكلين بكتابة أعمال الناس ثلاثون مليارًا: ﴿ثَلَاثُ مِئَةِ أَلْفِ مَلَكٍ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ مِئَةِ أَلْفٍ﴾ وأن مركز إدارتهم في السماء الرابعة، وأن رئيسهم اسمه إسماعيل، وأنه يقدم النتيجة كل سنة إلى صاحب السجل العام فيحفظها أو يطويها بطريقته الخاصة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾

وأن منظمة عزرائيل عليه السلام أخبارها أعظم وأعجب. . فماذا سيكون جوابه. .

ـ جوابه إما أن يكفر بذلك ويرفض قبوله، أو يراه مناقضاً لفهمه المادي فيتعجب ويسأل ويناقش. .

ـ أما نحن فنؤمن بالغيب لأننا نعرف صدق صاحبنا (ص) الذي انفتح عليه الغيب وأخبرنا به. . وقد نتعجب ونسأل، ولكننا لا نكفر ولا نناقش في صحة الأمر؛ ما دام ورد في القرآن أو في حديث معتمد عن النبي (ص).

ونحن لا نرى في الإيمان بالغيب والملائكة اختلافاً مع العلم؛ بل تكميلاً لأجزاء الصورة الباقية الكثيرة الكثيرة، التي لا يتناولها العالم ولا تبلغها وسائله. .

إن أصل مشكلتنا معهم يا دكتور أننا نؤمن بأن الوجود أوسع مما ترى حواسنا، ونريد للحضارة الإنسانية أن تدخل ذلك في حسابها. . وهم يجيبوننا بالكفر والظلم والاستعمار. . ليتهم يناقشوننا بمنطقية كما أشرت يا

دكتور، إذن لوصلنا معهم إلى نتيجة.. ألا تراهم يربّون أجيالهم وأجيالنا على افتراء التناقض بين العلم والغيب، وعلى أن العلم قد انتصر على الدين وانتهى الأمر؟!

* * *

على أي حال،لعلي استرسلت في هذه المقدمة أكثر مما ينبغي وأرجو الآن أن تختارا النقاط الأكثر أهمية لكي نتحدث فيها، وآمل أن تستفيدا من هذه الآيات والأحاديث الشريفة التي تتضمن أفكاراً أساسية عن الملائكة والغيب.. وقدم إليهما مجموعة أوراق مصورة،منها صفحات كاملة ومنها قصاصات ، فتناولها أصغر شاكراً، وقال الدكتور:

ـ إن ما تتفضل به يا سيدي جديد عليّ، ولا أدري أي جانب منه أختار؛ لكن يبدو أن مفتاح الغيب هو فهم الملائكة، فأرجو أن تحدثنا بالمزيد عنهم.

ـ مضافاً إلى ما ذكره الدكتور أقترح يا سيدي إذا لم يتسع وقتكم لجلسات متعددة،أن تعطينا فكرة ولو موجزة عن مواضيع الفهرس الذي قرأتموه، ثم تتفضل علي بإملاء ترجمة معاني الآيات والأحاديث الشريفة التي اخترتها لنا في الموضوع..

فكر الشيخ الطبري هنيهة ثم قال:

ـ حسناً، وأرجو أن يكون هذا الأسلوب أنفع لكما.. بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع ملائكته الروحانيين خاصة المقربين منهم، وعلى جميع أنبيائه خاصة المرسلين منهم، وخاصة أولي العزم الخمسة، وخاتمهم وسيدهم نبينا وحبيبنا أبي

القاسم محمد بن عبد الله، الناطق بالحق، والصادق بالوحي، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . .

ينبغي أن نلتفت أولاً ونحن نتحدث عن الغيب والملائكة أو نقرأ عنهم ونفكر فيهم صلوات الله عليهم، إلى أنه كما يجب أن نحذر من الكفر بالله تعالى وغيبه وملائكته، يجب أن نحذر من الانحراف والضلال في الإيمان بالغيب والتعامل معه . .

إن النبي (ص) والأئمة (ع) لم يبلغونا الإيمان بالغيب فقط، بل جسدوا لنا وعلمونا نمط الإيمان به والتعامل معه . . هذا النمط مهم جداً لأنه يعطينا الكثير من المفاهيم التي لم يقلها النبي (ص) ولكنه جسدها بعمله، واستوعبها منه أهل بيته وحواريوه، ثم استوعبها منهم تلامذتهم من الرواة والفقهاء عبر عصور الإسلام، حتى وصلت إلينا . .

أحب أن أقول هنا إن الأصالة الإسلامية لا تأتي فقط من النصوص ومعايشتها والتعمق فيها، بل لا بد من ملاحظة نمط تطبيق الإسلام وتجسيده الذي توارثته أجيال المسلمين عن النبي (ص) وأهل بيته الطاهرين، وبشكل خاص، ما توارثه الفقهاء الذين هم ورثة الأنبياء والأئمة . . إن هذه المسألة واضحة في فنون الحضارات التي يتوارثها الناس عن الأجيال السابقة، مثل فن البناء وفن صناعة السجاد وأمثالهما، حيث لا يكفي فيها قراءة الكتب والنصوص ، بل لا بد من تلقي الكثير من معلوماتها بالتدرب على يد أستاذ تلقى من أساتذته، لا بد من الاتصال بالسلسلة التي عايشت ومارست هذه الفنون . .

قرأت في قصة لكاتب غربي حواراً بليغاً بين والد وولده، يعملان في صناعة الإطارات الخشبية، لعجلات العربات التي تجرها الخيول.. يقول له: يا بني لقد علمتك اختيار الخشب المناسب، ونشره وتفصيله حسب المقاسات اللازمة، فأنت تتقن ذلك، وتستطيع أن تركبه في عجلة، ولكني عجزت أن أعلمك الأمر الأهم؛ وهو السمت والنمط الذي تركب فيه العجلة.. إنه يا بني سر هذا العمل الذي لا أستطيع أن أصفه لك، والذي إن لم تستطع أن تأخذه أنت مني؛ لا تصبح صانع عجلات..

إن هذا الولد لم يكن موهوباً، فلم يتكون عنده الحس الفني لهذه المهنة، أي أنه لم يرث من والده النمط الخاص بها..

وأكثر العلوم الطبيعية والإنسانية من هذا القبيل أيضاً.. حيث يتكون لدى المختصين بها من خبرتهم النظرية والعملية حس خاص ونمط عملي خاص، لا بد للطالب أن يتلقاه على أيديهم بالممارسة العملية.. وأنت يا دكتور أخبر مني بأهمية تلقي طالب الطب للنمط الموروث عن الأطباء والأساتذة، وأهمية ذلك في تكوين الأصالة لديه..

فإذا كان هذا حال الحس الخاص في الفنون والعلوم الحضارية.. فكيف بحس المنهج الذي أنزله الله تعالى على نبيه(ص)؛ فأقام على أساسه حضارة المسلمين الفريدة، والتي نريد أن نقيمها اليوم، ونستفيد من تجربتها الماضية ونتحاشى الأخطاء التي طرأت عليها..

نعم إن نصوص الإسلام محفوظة والحمدلله، خاصة القرآن الكريم من ألفه إلى يائه.. ولكن لا بد لنا إلى جانب هذه النصوص من الاهتمام بتلقي نمط تطبيقها من المختصين الذين توارثوه..

توجد في علم أصول الفقه قاعدة تسمى «سيرة المتشرعة» أي السلوك العملي والنمط الذي جرت عليه حياة الملتزمين بالشريعة المقدسة، في عصر واحد أو في عدة عصور وصولاً إلى الأئمة والنبي (ص). . . هذه السيرة لها قيمةهامة، لأنها تمثل بشكل عام النمط التطبيقي للإسلام. .

نعم، نحن سلفيون بهذا المعنى ومن أجل هذه الحقيقة. . ونقدس السلفية التي تعني نمط التطبيق الخاص للإسلام، الذي توارثه المتشرعون من علماء الإسلام وأصحابهم جيلاً فجيلاً، حتى نصل إلى النبي الأكرم (ص). .

ولو تعرفون أن الإمام الخميني، الذي قدم للعالم أطروحة ثورية، جعلت أكثر الثوريين تقدمية متخلفين عنا بمسافات. . يعتبر في مقياس المدارس الفقهية من أكثر فقهاء المسلمين تمسكاً بالسلفية وحرصاً عليها.

إنها السلفية العقلانية أو سلفية المضمون والجوهر، في مقابل السلفية الشكلية التي يجمد أصحابها على الأشكال فقط، الأشكال الخاضعة لخصائص السلف الصالح أو عصورهم، ولا يسمحون لعقولهم أن تنفذ إلى مضمون التطبيق وروحه، أو هي تعجز عن هذا النفوذ. .

على أي حال فإن تحري الأصالة الإسلامية في الإيمان بالغيب والملائكة، سواء في نصوص القرآن والسنة أو في تطبيق السلف الصالح، هو الذي يحدد لنا الخط الصحيح الأصيل في الإيمان بالغيب ومعايشته، وفي نفس الوقت يكشف الاتجاهات المنحرفة أو الضالة في هذا المجال. .

من هذه الاتجاهات: اتجاه المتفلسفين على حد تعبير المجلسي رحمه

الله ،الذين يؤولون الآيات والأحاديث الشريفة التي تذكر الملائكة وتتحدث عنهم، بأنها تعني بالملائكة القوى الفلكية والمادية[1]. .

لاحظوا أن هذا الاتجاه القديم الذي يصفه فقهاء الإسلام بأنه اتجاه الشذاذ المتفلسفة، أصبح اليوم بالنسبة إلى المادية الغربية نوعاً من الإيمان، فالذين يكتبون أو يتحدثون حول آيات وأحاديث الغيب في الإسلام ،ويؤولون الملائكة بالقوى الطبيعية، والشياطين بالميكروبات والفيروسات، يعتبرون متدينين بالنسبة إلى جهابذة المدرسة المادية الغربية ،وجهابذة تلامذتهم في بلادنا، الذين هم في الواقع كافرون بالقرآن والسنة ،وبجميع الأنبياء والكتب الإلهية. . لقد أصبح حالنا معهم كما قال الشاعر:

أنست رزيّتكم رزايانا التي سلفت وهوّنت الرزايا الآتية

على أن هناك فرقاً في اعتقادي بين تفسير الملائكة والجن بالقوى الطبيعية، وتفسير الشياطين بالميكروب والفيروس. . فنصوص الإسلام في

(١) يقول رحمه الله «اعلم أنه أجمعت الإمامية بل جميع المسلمين - إلا من شذ منهم من المتفلسفين الذين أدخلوا أنفسهم بين المسلمين، لتخريب أصولهم وتضييع عقائدهم - على وجود الملائكة وأنهم أجسام لطيفة نورانية «أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ» وأكثر، وأنهم قادرون على التشكل بالأشكال المختلفة، وأنه تعالى يورد عليهم بقدرته ما شاء من الأشكال والصور على حسب الحِكَم والمصالح، ولهم حركات صعوداً وهبوطاً، وكان يراهم الأنبياء والأوصياء (ع)، والقول بتجردهم، وتأويلهم بالعقول والنفوس الفلكية والقوى والطبائع، وتأويل الآيات المتظافرة والأحاديث المتواترة تعويلاً على شبهات واهية، واستبعادات وهمية، زيغ عن سبيل الهدى، واتباع لأهل الجهل والعمى. «سفينة البحار» مادة ملك.

وتشبه كلمة المجلسي هذه كلمات فقهاء مذاهب المسلمين في عصورهم المختلفة وصولاً إلى عصرنا. .

الملائكة عليهم السلام وكذلك في الجن، لا تدع مجالاً لتأويلات المتفلسفين القدامى والجدد، فهي تتحدث عن عالمين من مخلوقات الله تعالى الحية العاقلة، أحدهما واسع جداً وهو مخلوق من نور، والثاني محدود ومخلوق من نار.

وكذلك النصوص التي تتحدث عن الشيطان والشياطين، لا تدع مجالاً لإنكار وجود الشيطان الذي كان من الجن، ففسق وشطن عن أمر ربه، وأبلس من رحمته، وأخذ يعمل مع جماعته لإضلال الناس.. فكلما ورد لفظ شيطان في النصوص فالمقصود به إبليس وجنوده، إلا أن توجد قرينة تدل على أن المقصود به شياطين الإنس والميكروبات وأمثالها.. كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ والأحاديث في نهي النبي والأئمة (ع) عن الشرب من الجهة المكسورة من الإبريق والإناء لأنها موطن الشيطان، وعن إبقاء القمامة داخل البيت لأنها موطن الشيطان.. فإنّ هذه النصوص تحتمل تفسير الشيطان بالميكروب، وتحتمل افتراض علاقة بين الميكروب والشيطان.. إلى آخر تفاصيل هذا الموضوع الخارج عن غرضنا..

ومنها أكثر اتجاهات الصوفيين والعرفانيين، التي ليس من الصعب أن نلمس فيها الخطوط الأصلية والفرعية المخالفة للنمط الإسلامي الأصيل، في فهم الغيب والتعامل معه..

وخلاصة القول في هذا الموضوع؛ أن الميزان بالإضافة إلى النصوص هو سيرة الفقهاء المجاهدين المتصلة بالأئمة والنبي (ص) فهي التي تمثل النمط الإسلامي الأصيل لفهم الغيب ومعايشته، بل يمكننا القول إن النمط الأصيل

للتدين بالإسلام هو التدين الفقاهتي ـ الجهادي، وإن الأنماط الأخرى التي تبتعد عنه قليلاً أو كثيراً هي أنمـاط منحرفـة، من دون فرق بين تلك التي تتصفـ بـالماديـة كاتجـاهات المتفلسفـة، أو بالغيبيـة والروحيـة كعدد من اتجاهات الصوفيين والعرفانيين، البعيدة عن الفهم الفقهي أو عن الساحة الجهادية. .

دور الغيب في حركة الصراع

وأما دور الغيب في الصراع بين أهل الحق والباطل، فينبغي أن يكون معلوماً أيها العزيزان أن هذاالصراع أنواع متعددة كما أشرنا . .

فمنه الصراع الطبيعي في حركة المجتمعات والأجيال شبيهاً بحركة السيل في الوادي، لمخض الماء وإخراج الزبد: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً﴾.

ومنه الصراع البارد بين الناس على مستوى المحتوى‌النفسي، أي المستوى المعنوي . . فإن للحق كما للباطل وجوداً في كل جيل من الناس على مستوى ا لمحتوى الباطني المعنوي، وهو يتطور كمياً ونوعياً وفقاً لقوانين.

ومنه الصراع البارد على المستوى الفكري . . فإنه يتطور أيضاً في أجيال الناس‌والشعوب،وتكون له في كل عصر أو جيل قصة . .

ومنه الصراع البارد على المستوى السياسي . . فإن للحق كما للباطل في كل عصر أو جيل وجوداً سياسياً، وهما ينموان ويتطوران ويتصارعان وفقاً لقوانين . .

ومنه الصراع الحار العسكري الدموي . . الذي يتخذ شكل الحرب المعلنة الكاملة، أو أشكالاً أخرى ظاهرة أو خفية، بين كيانات الباطل، وبين الدولة التي تمثل الكيان السياسي للحق . . أو بين كيانات الباطل وكيانات

المسلمين الناهضة، التي تخوض الصراع لتصبح كياناً سياسياً . . كما هو الحال في حربنا معهم في إيران، وأفغانستان، وفلسطين ولبنان، وأكثر أجزاء الوطن الإسلامي . .

إن هذا الصراع كلّ واحد متفاعل يا دكتور، وقوانين الله تعالى من عالمي الغيب والشهادة عاملة فيه وماضية إلى هدفها، ولكن الناس عادة يسألون عن القسم العسكري منه، لوضوحه أكثر من غيره . . حتى إذا اتضح غيره للعيان تساءلوا عنه وتحدثوا فيه، كما يتحدثون اليوم في الغرب عن معنويات المسلمين الخارقة، التي تنتج عن حالة الاستشهاد في سبيل الله، وتنتج رعباً في قلوب الأعداء لا يقر لهم منه قرار . .

وكما يتحدث مفكروهم اليوم عن خطورة الفكر الإسلامي، الذي بدأت تتضح للعيان قوة منطقه، وجذبه للشعوب، وتراجع الفكر المادي في مواجهته . . وسيكثر حديثهم فيه، وسؤالهم عن دور الغيب فيه، ويصبح سؤالاً شاغلاً للناس، كما يشغلهم اليوم السؤال عن دور الغيب في المعارك العسكرية، وفي تكوين الحالة الاستشهادية . .

وسيأتي يوم يا دكتور يسألون عن دور الغيب في نزول المطر في أرضنا، وتكوين الثروات في باطنها، وعن دور البسملة والدعاء الذي يقرؤه فلاحونا عندما يزرعون الأرض فيأتي الإنتاج مضاعفاً . .

المسألة في صراعنا العسكري معهم يا دكتور، تكمن أولاً في نظرتهم السطحية إلى المعركة وعوامل النصر والهزيمة فيها، ونظرتنا العميقة . .

إنهم يرون فيها المعادلة المادية فقط . . كم تملك إيران من الطائرات والدبابات والزوارق الحربية والذخائر وقطع الغيار . . كم عدد الجنود الذين

هم فعلاً في الجبهات، والذين يمكنها أن تعبئهم. . كيف يفكر الإيرانيون عسكرياً. . وكيف يمكن الحصول على أسرارهم. . كم يتحمل وضعهم الاقتصادي. . إلى آخره. .

وهكذا يفكر تلاميذ ثقافتهم المادية في بلادنا الإسلامية، بل وهكذا يفكر مرضى القلوب وضعاف الإيمان في بلادنا، حتى لو كانوا غير متأثرين بالثقافة الغربية، وحتى لو كانوا في زي المتدينين والروحانيين. . فهم يلتقون مع الغربيين في هذه النظرة المادية السطحية. .

نعم لقد بدؤوا يرون العنصر المعنوي الذي ينتج الحالة الاستشهادية في شبابنا في الجبهة، وفي العالم الإسلامي كما ذكرت، ولكنهم يرون منه الجزء الطافي الظاهر للعيان فقط. .

ونحن نرى المعادلة أعمق من ذلك بكثير، وأوسع بكثير يا دكتور. . باختصار، نرى أن الله تعالى شرط علينا شروطاً ووعدنا على أساسها بالنصر، مهما كان عظيماً، وبعيداً، ومستحيلاً بالمعادلات المنظورة. . أفترانا يا دكتور نكون مخطئين إذا كنا على يقين من وعد الله، وعلى يقين من أدائنا للشروط؟

ـ كلا يا سيدي .

ـ هذه نصوص الشروط يادكتور، من القرآن والسنة، صريحة واضحة، وحقك إنه لا يوجد فيها شيء من المعادلات العسكرية المعروفة لا في العدد ولا في العدة، ولا في الإعلام ولا في الاقتصاد بل بالعكس. . إنما تشترط علينا أن نقدم ما لدينا لنصرته، أموالنا وأنفسنا، ونتقي ونتحمل ونصبر ثم نتقي

ونتحمل ونصبر، ولا نجزع ولا نستكين. . فإن فعلنا ذلك فإنه ينصرنا حتما ونحن لا نشك في وعده ولا نرتاب. .

أما كيف ينصرنا. . ومتى. . فهذا عمله وليس عملنا، ولا اختصاصنا. . ولا اطلاع لنا على أسرار حكمته في تأخير النصر أو تعجيله، ولا نستطيع أن تحصي العوامل والأساليب التي يملكها لنصرنا وهزيمة عدوه وعدونا. . فبيده ملكوت كل شيء. .

بيده معنويات جنودنا ومعنويات جنود أعدائنا. .

بيده أن تصيب طلقاتنا وطلقاتهم؛ أو تخطئ أهدافها. .

بيده عقليات وقلوب قيادتنا السياسية والعسكرية، وقلوب أعدائنا. .

بيده على الأقل مئات العوامل المنظورة في ساحة المعركة وخارجها. . وألوف العوامل الغائبة عنا، التي تؤديها قوانينه المادية العاملة بعلمه وأمره، وتؤديها ملايين ملائكته العاملين بإذنه وعلمه وأمره. .

المسألة ليست سطحية يا دكتور، ولا يصح أن ننظر إليها كما ينظر المادي الغربي إلى الشجرة أو إلى الغابة بنظرة مادية سطحية. . إن ما نراه من الغابة هو حصيلة ألف قانون تعمل في حركة حياتها وصراعها. . وكلما اقترب الأمر من الحياة والحيوان والطيور كانت القوانين والعوامل أكثر وأعقد. . فإذا وصل الأمر إلى الإنسان ومجتمعه وأجياله كانت المسألة أدق وأعمق وأعظم. .

هل ترى يا دكتور أن حركة الصراع التاريخي داخل كل شعب، وفيما بين الشعوب والحضارات، كانت خاضعة فقط لميكانيكية العوامل المادية، ولم يكن مع هذه العوامل هيمنة إلهية وتوجيه، وتسبيب لأسباب وإبطال لأسباب أخرى، وتصرف في مئات الأقدار، ليبلغ تعالى أمراً هو قاضية. ؟ أرجو أن

تنظر إلى الخطوط العامة للتاريخ، إلى سلسلة أحداثه الكبرى، كما يعرضها القرآن لترى أن عوامل الهيمنة والإدارة الإلهية فيها أضعاف أضعاف العوامل المادية. . غاية الأمر أنها إدارة لا تفضل اعتماد أسلوبنا المباشر، ولا تفضل أن تمسك بخناق من تديره كما نفعل نحن. . بل لها أسلوبها المتناسب مع حكمة مدبر بيده ملكوت كل شيء. . ملكوت كل شيء لا ملك كل شيء يا دكتور، نعم ملكوت كل شيء من الأزل إلى الأبد، ومن كل الجهات والأعماق والأبعاد والظروف المحيطة. . فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون. . سبحانه عن كل ما لا يناسب من أساليب وأفعال، وله الحمد على كل ما يناسب من إدارة وتصرف لبلوغ أهدافه. .

إن تاريخ الصراع بين الحق والباطل وحاضره على السواء يا دكتور، مليء بالفعل الإلهي بأنواعه المتعددة. . يظهر منه للعيان أقل القليل يجعله تعالى آيات للناس وتثبيتاً للمؤمنين، ويظهر منه بالنظر العميق شيء كثير، ويبقى أكثره غيباً ينكشف عندما يأتي أوانه وتأويله، أولا ينكشف أبداً إلى يوم القيامة. .

يجب أن نميز يا دكتور بين نوعين مما سميته التدخل الإلهي أو المعجزات التي جرت على أيدي الأنبياء(ع)، فمنها معجزات خاصة بهم وبعصرهم، من أجل إثبات نبوتهم وأداء دورهم الخاص بهم صلوات الله عليهم. . ومنها معجزات عامة تتحقق لأتباعهم في كل جيل، وفي طليعتها معجزة النصر، بتسبيب أسبابه وإن لم تكن موجودة بالمعادلة المادية، وإبطال أسباب انتصار العدو ولو كانت موجودة بالمعادلة المادية. .

يقول الإعلام الغربي عنا يا دكتور. . . إننا متعصبون متطرفون وإرهابيون ومجانين. . وقالوا عن نبينا (ص) إنه مجنون، وعن أصحابه «غَرَّ هَٰؤُلَآءِ

دِينُهُمْ» وما غرهم دينهم يا دكتور ولا غرتنا ثورتنا، ولكن اللهوعدهموعداً فآمنوا به، وآمنا نحن بنفس الوعد، فالوعد هو هو لم يتغير ولم يتبدل ولم ينقص منه حرف، ولم يزد من شروطه حرف: ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾.

وهذا الوعد الإلهي لا يختص بنا يا دكتور، فأيّما جماعة من المسلمين قاموا لله تعالى وأدَّوا شروطه التي طلبها فإنه ينصرهم لا محالة..

وخلاصة الشروط يا دكتور: أن يكون القيام لله تعالى. والقائد الكفء.. ووحدة الجماعة. والتضحية. والصبر.. وهي مفصلة في كتاب الله وسنة رسوله، بصراحة ووضوح، ومؤكد على أساسها وعد رب العالمين بالنصر بيقين لا ريب فيه.

هذه خلاصة القضية، وهذه بساطتها وعظمتها.. وسرها.. وهي عندنا بديهية كبداهة ٢+٢=٤ بل أشد.. ما أدري، قد يقول الدكتور في نفسه: هذا الطالب مغال، فكيف يكون نصيب الاعتقاد بمعادلة النصر الإسلامية من اليقين العقلي، أكبر من نصيب الحقائق الرياضية البديهية.. نعم يا دكتور نصيبها في الواقع أكبر، ولا أريد الدخول في تفاصيل منطقية فلسفية، ونصيبها عندنا في إيران أكثر، فلو فرضنا أن أحداً تحدث إلى شعبنا من وسائل الإعلام لغرض تشكيكهم ببديهية رياضية فربما وجد من يهتز يقينه بها، أما لو أراد أن يشككهم في بديهية معادلة النصر الإلهي لما ازدادوا إلا يقيناً، وإلا إيماناً وتسليماً..

قال أصغر وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

ـ أرجو يا سيدي أن تتكلم أكثر في هذه الشروط الخمسة وكيف يطبقها شعبنا في إيران.

ـ حسناً، ولكني أريد أن أسأل الأخ الدكتور. . هل يكفي يا دكتور لإيمانك بمعادلة النصر الإسلامية أن يوجد فيها خمس آيات وخمسة أحاديث تبين الشروط وتعد بالنصر الحتمي على أساسها؟

ـ ما دمت مؤمناً بصدق النبي (ص) فإن آية واحدة يجب أن تكفيني . .

ـ حسناً، فإذا كان يوجد أكثر من خمسين آية وحديث تبين شروط هذه المعادلة، وتؤكد حتميتها، وكنتم جماعة قليلة في بلد إسلامي تتوفر فيكم وفي عملكم شروط الله تعالى، فهل كنتم توقنون بنصره أو تشكون . .

ـ . . . من ناحية نظرية يجب أن لا نشك، ولكنها مسألة صعبة جداً يا سيدي، فهي تشبه أن نقول لجماعة قليلة من الناس ادفعوا هذا الجبل الهائل بأيديكم وثابروا على ذلك أياماً فإنه سوف يزول . .

ـ جميل يا دكتور، تعني أن زوال الجبل يملك المعادلة العلمية، ولكن التصديق به صعب لأنه يخالف المألوف . .

ـ صعب جداً يا سيدي، ومخالفته للمألوف ليست عادية بل كبيرة جداً . .

ـ أنا معك في أن التصديق بمسألة من هذا النوع أمر صعب، ولكن لننظر إلى السند الذي تملكه هذه الصعوبة الكبيرة جداً، إنها تملك سنداً من الألفة للعادة فقط، ولا تملك شيئاً من السند الموضوعي، بينما زوال الجبل يملك السند الموضوعي، وبالنتيجة يزول الجبل يا دكتور. . ويخشع الذين يدفعونه بأيديهم لصدق وعد الله تعالى، ويتابعون سيرهم إلى جبل آخر، ويقف غير المصدقين متفرجين مدهوشين . .

ولو تدري يا دكتور أن موقف المصدقين الخاشعين، وموقف المكذبين المدهوشين، هما خطان في تاريخ الحياة البشرية على الأرض وفي حاضرها

أيضـاً . . إنك تـراهما بـوضوح في معجزات الأنبياء، ومعجزات المؤمنين السائرين على شريعتهم سواء . . هذا نبينا محمد (ص) آمن بوعد الله تعالى وآمن معه المسلمون وصدقوه، فتحقق لهم وعد الله في الجزيرة العربية رغم كل الظروف المعاكسة، وزالت الجبال يا دكتور . . ثم آمن المسلمون بوعد الله لهم أن يـورثهم ملك كسرى وقيصـر، وتحقق لهم وعد الله يـا دكتـور وزالت الجبال . . وولدنا نحن في عصر الاستعمار، وقد سيطر الغـربيون على مقدرات المسلمين، وكان ذلك أيضاً تحقيقاً لتحذير النبي للأمة، ووعدها بالنكسة عندما تبتعد عن الإسلام . . وها نحن نرى تحفز الأمة وبزوغ فجر الإسلام من جديد، أيضاً تحقيقاً لوعد الله ورسوله، وإنه لوعد كبير يا دكتور بأن يعم نور الإسلام العالم، وتزول من طريقه كل الجبال . . نعم كل الجبال يا دكتور . .

رقيّ وتخلّف

أرجو أن تنظرا بنظرة تحليلية . . مـاذا يعني موقف المصـدقين بزوال الجبـل، وموقف المكـذبين، وموقف الـذين هم على الحياد . . إن مثلك الجميل هذا يا دكتور يصلح مثلاً لقضية الدين كلها . .

المصدقون يرون القوانين المادية العادية للوزن والطاقةوالحركة ،ويؤمنون بها كغيرهم، ولكنهم يؤمنون أيضاً بقوانين أخرى فوقها، مؤثرة فيها ومسيطرة عليها . . وعندما يدلهم العقل على الشروط الموضوعية لقانون منها يتعاملون معه، ولا يستجيبون لصراخ الألفة والعادة، بل يتخطون ذلك ويتقدمون إلى الجبل باسم الله ، وبالله وفي سبيل الله، وعلى ملة رسـول الله، ويدفعـونه بأيديهم الخالية، ويـواصلون عملهم . . ويصبـرون أيامـاً وليالي وشهـوراً وسنين . . يسقط منهم من يسقط من الحر والبـرد والتعب والشهادة، ولكنهـم لا يشكّون في وعد ربهم، حتى يتحقق . . ويزول الجبل يا دكتور . .

ألا ترى معي أن هذا مستوى راق من الإدراك العقلي والسلوك، وأن أصحـابه يتميـزون بالشجاعة، لتعـاملهم مع قـوانين أوسع للحيـاة، وعدم جمـودهم على قوانينهـا المألـوفة، وأن المكـذبين هم أهل الجمـود على المألوفات، حتى لو أدركوا ما هو فوقها . ؟

وليتهم يكتفون بموقفهم المتخلف هذا ويتركون المؤمنين وشأنهـم، إذن لكانوا على الحياد، ولكنهـم يـا دكتور يرموننا بكل التهم ؛ ومنها تهمة الجمود

والتخلف، ويعادوننا بكل الأساليب ، ويقيمون في طريقنا الجبال، ويقذفوننا من فوقها بالصخور. . ولكننا على يقين بأن الجبال ستزول وتنهار بمن يلقي الصخور من فوقها. .

المسألة جد لا هزل فيها يا دكتور، والذي أخبرنا بزوال الجبال وجعل ذلك وعداً عليه حقاً في القرآن؛ هو صانع القوانين الثابتة في هذا الكون. . ونحن نتعامل معه يا دكتور ولا نلتفت إلى كلام غيره ، ولا نعير أهمية لمئة قانون مادي مضاد، بعد أن أخبرنا بأنه يوجد قانون فوقها جميعاً. .

أرجو أن لا تتصور بأنك تسمع أفكاراً في التنظير لحتمية النصر الإسلامي من هذا الطالب القمي فقط. . إنها عقيدة يعيشها شعبنا في مدنه وقراه يا دكتور، وإن لم يستطع الكثيرون أن يعبروا عنها أو يبرهنوا عليها. .

نقل لي مدير الأوقاف في زاهدان؛ أنه رأى شاباً في الجبهة كتب على جعبة القتال التي يحملها على ظهره هذه العبارة: «ورود أي شظية بغير إذن الله ممنوع» فما معنى ذلك يا دكتور؟ .

أولاً ، ما معنى إعجاب الذين رأوا هذه العبارة أو سمعوها سوى أنها تعبر عن جانب من عقيدتهم في الغيب والنصر. ؟ إنها تعبر عن إدراك أن قوانين إصابة القذائف لا تعمل إلا باذن الله تعالى، وأنها تخضع لقانون أعلى منها يقوم بتحقيق الإرادة والحكمة الإلهية فيها. .

تعني أن شبابنا يسبحون الله تعالى حتى في حالة إصابتهم بقذائف العدو ورصاصه، ويرون إصابة أحدهم قدراً أذن الله فيه لحكم وأسرار يعلمها. .

يرون الفعل الإلهي جنباً إلى جنب مع القوانين المادية وفوقها، يرونه في إصابة أحدهم وشهادته كما يرونه في النصر. .

إنهم يجسدون قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ ﴿وَمَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ فهل رأيت رقيّاً في فهم الأقدار مثل هذا!؟

أرجو أن تسأل يا دكتور عن قصص جرحى الحرب والشهداء وعوائلهم وتفكر في نماذج منها وتحللها . . فماذا يعني هذا الرضا العميق الخاشع بالبلاء الذي يتحمله شعبنا . . ماذا تعني فرحة الشهادة العميقة التي من حقها أن تضاف إلى لوحات صدر الإسلام، وأن تخلدها شعوب الأمة وتتعلم منها . ؟

أرجو أن تنظر إلى الحالة يادكتور، على أنها حالة شعب يتعامل بهذه الرؤية مع المصائب والخسارات التي تصيبه، فهو يراها عطاء لله تعالى وتزكية وفوزاً وإعداداً لدوره العالمي . . ويتعامل مع النصر على أنه فعل إلهي محض لا يزيد دوره فيه عن دور الأداة البسيطة البسيطة . . ويتعامل مع فعله في مقاومةالأعداء، على أنه فعل إلهي يجري على يده تكرمة من الله تعالى لهذه الأداة البسيطة البسيطة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَىٰ﴾ .

القيام لله

إن هذا الإيمان بحقائق الوحي والغيب،هو أول أركان القيام لله تعالى وأول شروطه . . إن المسألة عند شعبنا قبل كل شيء هي الإسلام يا دكتور، هي إزالة السيطرة الكافرة عن ديار المسلمين،وتطبيق أحكام الإسلام. كان ذلك هو الدافع لجماهيرنا في ثورتها من أول يوم، ثم تبلور وتركز خلال الثورة وبعد انتصارها . . والذين لم يقوموا لله يا دكتور كشفهم الطريق ونفاهم المسلمون من مسيرتهم . . وإذا كنت تسمع سابقاً أو اليوم سلسلة من الدوافع والأهداف السياسية والاقتصادية والثقافية والوطنية والإنسانية ، فلا تظن أنها الدوافع الأصلية لشعبنا، كلا ثم كلا، إني أنزه الرجل والمرأة والشاب اليافع من مدن إيران وقراها، عن أن يكون قيامهم وتضحيتهم بسبب شيء من هذه الدوافع، أو لأجل شيء من هذه الأهداف . .إذن لكنّا مشركين في عملنا والعياذ بالله، وكنا ماديين نعبد الدوافع والأهداف الدنيوية مهما كانت شريفة . . إن تحرير بلدنا وبلاد العالم من الاستعمار لا قيمة له بذاته يادكتور،وإنما يستمد قيمته من أمر الله تعالى به، من وجود تكليف شرعي يدفعنا إليه ويجعل عملنا فيه قربة إلى الله تعالى . . وهكذا كل الدوافع والأهداف التي تسمع بها من هذاالقبيل،ما هي بدوافع شعبنا الحقيقية ولا أهدافه، إلا بمقدار ما يوجد فيها من حكم شرعي . .

أرجو أن تسأل من شئت من الناس الذين عملوا ويعملون وضحوا ويضحون، ما هو الدافع لعملكم وما هو الهدف، وأن تواصل سؤالك إذا

أجابوك بشيء من الأهداف السياسية والاقتصادية، حتى تصل إلى الدوافع والأهداف الأصلية مثل قولهم: من أجل الإسلام، من أجل الله، في سبيل الله، قربة إلى الله، لأداء تكليفنا الشرعي، لإطاعة الحكم الشرعي.. إلى آخره..

وإذا شئت فجرب أن تصرف نظرهم عن الحكم الشرعي والدافع الإسلامي، وتركزه على الدوافع الوطنية أو الاقتصادية والسياسية، لتراهم يرفضون أشد الرفض أن يعطوا لهذه الأهداف قيمة ذاتية، أو قيمة أكثر مما يعطيها الحكم الشرعي.. هذا إذا لم يقل لك أحدهم: أتريدنني أن أعبد تراب إيران وشعب إيران بدل الله تعالى أو أعبد النفط والزراعة.؟ ثم يحدثك عن فكر المنافقين «مجاهدي خلق» وكيف أن الإمام اكتشفهم من أول الطريق وقال عنهم: إن الإسلام الذي يطرحونه ويمارسونه خال من البعد التعبدي الذي هو روح الإسلام.. أو يحدثك عن تقييم الإمام لثورة مصدق، وأنها صورة وطنية من أجل النفط والأهداف الاقتصادية، بينما ثورتنا من أجل الله والإسلام.. أو يحدثك عن جواب الإمام للذين أرادوا إيقاف الحرب بعد أن استرجعنا أرض بلدنا تقريباً، حيث قال لهم: وهل المسألة مسألة أرض وتراب، وهل نقاتل من أجل الأرض والتراب ويستشهد أبناؤنا من أجلها، حتى نوقف الحرب عندما نحصل عليها.. المسألة أيها السادة مسألة إسلام وتكليف شرعي، لا مسألة أرض وتراب..

مسكين أنورالسادات؛كان لا يخفي حيرته وتأزمه من الشعب الإيراني، قال مرة في خطاب له «ماذا نعمل إذا أصبح هؤلاء الإيرانيون مجانين.. انظروا إليهم يقول لهم الخميني قوموا فيقومون، اجلسوا فيجلسون» مسكين لأنه كغيره من الغربيين يتصور أن اختيار شعبنا الإيراني لقيادة الإمام الخميني

وإطاعته له وحبه إياه، قد تم بمقاييس القيادة السياسية المادية، ولا يعرف أن المسألة عند شعبنا هي الإسلام وأحكامه، ووجوب إطاعة الفقيه الجامع للشرائط، وأننا نعبد الله تعالى ونتقرب إليه بذلك . .

أما الآن وقد وصل السادات إلى دار الحق وكشف عنه غطاؤه، فلا بد أنه عرف قضية الإسلام والنبي والوحي والقرآن والسنة، وقضية المسلمين والخميني . .

وسنبقى نتحمل تهمة التطرف والجنون يا دكتور من خصومنا الذين لا يفهموننا، أو لا يريدون أن يفهمونا إلا بعد أن يرحلوا إلى دار الحق . .

مساكين هؤلاء، يحبسون أنفسهم في مقاييس مادية محدودة، يختارون على أساسها قادتهم ويطيعونهم، ولا يريدون أن يعرفوا أن قضيتنا الإسلام وأننا نختار قيادتنا بمقياسه الذي يتسع لعالمي الشهادة والغيب . . وأن فقهاء الإسلام المجاهدين وحدهم، الذين يستطيعون إقامة حضارة الإسلام الفريدة، حضارة الشهادة والغيب . .

دور الغيب في الوحدة والتضحية

يطول بنا الحديث إذا أردنا استعراض شروط الله تعالى التي وعد على أساسها بالنصرالحتمي ،وكيف يطبقها شعبنا فينزل الله عليه النصر، كيف دفع الجبال بأيديه الخالية فانزاحت بإذن الله، وكيف يدفعها اليوم يا دكتور وهو أقوى يقيناً بأنها ستنزاح بإذن الله . .

وعندما نصل إلى تطبيقه لبقية الشروط، إلى بطولاته في تحقيق وحدته والمحافظة عليها . .

وبطولاته في التضحية بالرفاهية والمال والنفس . .

وبطولاته في الصبر على الخسارات والجراح والأذى المعنوي . . يتعاظم إحساسنا بدور الغيب في حياة شعبنا يا دكتور، وبأنه يؤدي الشروط التي شرطها الله تعالى لنصر المجاهدين في سبيله، لا في حدها الأدنى فحسب، بل في مستوياتها العليا، وبسخاء، وشاعرية، وأمثولات تكاد لا تصدق. . فلماذا لا نكون على يقين من النصر!؟

لقد عبرت بالبطولة عن العمل في مجال الوحدة، لكي أقول إن عمل الجماعة لتحقيق وحدتهم وحفظها، لا يقل عن تضحيتهم وصبرهم في الجهاد، فالوحدة هي أول عقبة عملية تواجه الجماعة القليلة والكثيرة لا فرق، في أول طريقها ثم في كل منعطفاته. . فإن انتصرت عليها تمكنت من التضحية والصبر وانتفعت بهما، وإلا عجزت عنهما، وعن الانتفاع بما يحصل منهما . .

يقولون الكثير عن عوامل تكوين الوحدة بين المسلمين في بلد أو أكثر، وينبغي قول الكثير في هذا الموضوع الحيوي الذي جعله الله تعالى شرطاً للنصر الحتمي . . ولكني لا أرى بينها أقوى من عامل اللطف الغيبي، ثم عامل الحكم الشرعي . .

يذكر القرآن المجيد يادكتور، أن وحدة المؤمنين حول النبي (ص) قد نمت بفعل غيبي، فوق القوانين والعوامل التي كانت موجودة في شخصياتهم وحياتهم، بل وعلى الرغم منها: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ . . هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيْمٌ﴾ يعني حتى مع وجود عوامل الوحدة بين المؤمنين، والتي منها حضور النبي (ص) بينهم، والذي هو أقوى عامل في تحقيقها وأقدر إنسان على بنائها . . فإن عوامل الاختلاف والفرقة تبقى أقوى بكثير، وتبقى المسألة بحاجة إلى فعل إلهي غيبي . .

فاذا كانت وحدة المسلمين حول رسول الله (ص) وفي عصره تحتاج إلى فعل بهذا المستوى، فهي على الأقل في عصرنا كذلك حول أي فقيه من فقهاء المسلمين، وفي أي بلد من بلادهم . .

قد يقال : إن تأصّل عوامل الفرقة والاختلاف في عهد النبي (ص) واحتياجها إلى فعل إلهي غير عادي، كان بسبب حياة البداوة والقبلية وصراعاتها الشديدة في الجزيرة العربية . . أما المجتمعات المتمدنة فقد تتحقق فيها الوحدة بالعوامل العادية، دون الحاجة إلى فعل غيبي، كما نرى في المجتمعات ذات العراقة الحضارية القديمة مثل الصين والهند وإيران ومصر، أو العراقة الحديثة مثل اليابان وروسيا وأوروبا . . ويقال على هذا

الأساس إن الشعب الإيراني يملك من عراقة مدنيته وتدينه بالإسلام وتعوده على قيادة المراجع والعلماء، ومن عوامل الظلم الاستعماري الحديث. . ما يكفي لتحقيق وحدته بدون فعل إلهي غيبي . .

ولكن النظرة العميقة لطبيعة النفس البشرية وطبيعة الوحدة المطلوبة، والظروف التي أحاطت وتحيط بشعبنا المسلم الإيراني . . تجعلنا نعتقد أننا لو سلمنا بميزة المجتمعات العريقة في التمدن وإطاعة العلماء، فإن كل العوامل الإيجابية التي هي في مسلمي إيران، لم تكن كافية لتحقيق وحدتهم الفريدة لولا الفعل الإلهي الغيبي، الذي دفع ويدفع عشرات الملايين إلى الالتفاف حول قيادة الإمام وتنفيذ أوامره وتوجيهاته. . ولهذا وصف الإمام هذه الحالة بأنها أمر إلهي غيبي وليس عادياً . .

إني على يقين بأن كل وحدة تتحقق بين المسلمين في ظروف عصرنا على أي نطاق، لا بد أن تكون، وبدرجة كبيرة، ثمرة لفعل إلهي غير عادي يدفع العلماء وغيرهم من الكوادر المؤثرة، ويدفع الجماهير إلى الالتفاف حول قيادة واحدة، والاتجاه إلى هدف واحد . .

إن العوامل العادية لا تكفي لتفسير هذه الروحية المباركة، التي حركت وتحرك شعبنا من أقصاه إلى أقصاه، بفئاته المختلفة وملايينه الكثيرة نحو قيادة الإمام ونحو الأهداف التي حددها . .

إن تدين شعبنا وتربيه على أيدي العلماء والخطباء والمبلغين، على إطاعة الحكم الشرعي من مرجع التقليد، عامل أساسي دون شك . .

وتفاقم الظلم والسيطرة الكافرة عامل أساسي أيضاً . .

وخصائص شخصية الإمام الخميني وظلامته وظلامة أنصاره واضطهادهم عامل ثالث أيضاً. . إلى آخره. .

ولكنها جميعاً علل ناقصة ـ كما يقول المناطقة ـ لا تكفي لتفسير ما حدث ويحدث من وحدة شعبنا وحماسته وتضحيته وصبره. .

كان الحكم الشرعي بوجوب الوحدة وحرمة الفرقة موجوداً في الماضي ومعروفاً لعلمائنا وجماهيرنا المتدينة الواسعة المرتبطة بهم. . وكان الجميع يؤمنون به ويتحدثون عنه، كما هي اليوم حالة العلماء والمتدينين في بقية بلادنا الإسلامية. . ولكن ظلت عوامل اختلاف القناعات في التطبيق، واختلاف الأمزجة، وعوامل الذاتية والخوف من الوحدة، وخطط التفرقه. . إلى آخره، هي المسيطرة، حتى بعث الله تعالى هذه الروح الغيبية المقدسة في شعبنا، فسرت في علمائه ووجهائه وجماهيره، وأثمرت ثمارها المباركة على كل صعيد. .

مناطق الفــراغ في قوانين المــادة

وخلاصة الأمر يا دكتور، ويا أخ أصغر أننا كلما تعمقنا في حركة المادة والحياة على سطح الأرض، كلما رأينا مناطق الفراغ التي لا يمكن تفسيرها بالعوامل المادية، ويتحتم تفسيرها بفعل إلهي من طبيعة أخرى. . إن الجميع فعل الله تعالى بالنتيجة، ولكنه سبحانه جعل فعله في عالمنا على مستويين فمنه ما يتم بقوانين مادية من عالمنا المشهود، ومنه ما يتم بقوانين من عالم الغيب. .

ويبدو لي أن أقل حركة هي حركة الذرة، وأعظمها حركة نفس الإنسان. . إن آيات القرآن والأحاديث الشريفة تسلط الضوء على حياة الإنسان الداخلية وحركته الباطنية، إلى حد يجعلك تشعر أن الإنسان مركز الاهتمام في هذا الكون، ومحور حركة المادة والغيب معاً. . وأن حركة الجماعة الإنسانية في أجيالها، هي المحور الأكبر ومركز الاهتمام الأعظم. . وأن الفعل الغيبي الذي يبدأ من حركة الذرة يبلغ ذروته في الحركة المركزية العظمى، حركة الصراع بين الحق والباطل في حياة الجماعة البشرية، وحركة الصراع بين الحق والباطل داخل النفس، وهما الحركتان المعبر عنهما على لسان النبي (ص) بالجهاد الأصغر والجهاد الأكبر. .

لست مختصاً بالفيزياء حتى أضع يدكما بوضوح على منطقة الفراغ الموجودة في الذرة، والتي لا يمكن تفسيرها بعامل عادي، لكنـي طرحت

تساؤلاً مع أكثر من واحد من الفيزيويين: ترى أين يكمن مخزون الطاقة الذي تتمّون منه الذرة في حركتها الدائبة. ؟

نحن نعرف أن الحركة تستهلك طاقة وتحتاج إلى تموين. . وأن الذرة تتكون من نيوترونات والكترونات وبروتونات ونواة وشحنات، إلى آخره. . فأين يقع «الدينمو» الذي يحركها وأين مخزن التموين. . هل هو في داخلها في الشحنات الكهربية أم النواة. . وأين المصدر الذي تتمون منه النواة والشحنات. . هل هو في داخل الذرة بقدر معلوم يتم استهلاكه يوماً فتقف حركتها. . أم من خارجها ،من مادة أخرى، أم من مصدر غير مادي. . وبأي واسطة يتم التموين. . إلى آخره. ؟

وصلت إلى أن الفيزيويين لا يستطيعون الدفاع عن فرضية أن تكون الذرة جهازاً ذاتي الحركة مقفلاً معزولاً عن خارجه. .بينما يسهل الدفاع عن فرضية تموينها بالطاقة من خارجها.

من خارجها، يعني من الغيب يا دكتور، من مصدر غير مادي. . مثلاً من هذه القوى التي يسميها الله عز وجل الصافات والذاريات والمرسلات والنازعات، ويجعلها عنواناً لأربع سور في كتابه المجيد. . والتي يتناقش المفسرون في أنها ا الملائكة أم غيرهم. . نحن لا نعرف أنواع القوى الغيبية المؤثرة في عالمنا، حتى نحصرها بالملائكة أو بهذه القوى الأربع أو غيرها. . فقد تكون مئة نوع ولكل نوع مستويات وقوانين تبلغ المئات أو الملايين: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ وما أعطانا من القدرة على الإحاطة به كثير، بالنسبة إلينا، ولكنه بالنسبة إلى الحقائق المحيطة بنا نقطة من بحر محيط، وأقل بكثير. .

فإذا كان هذا حال ذرة الرمال والصخور والتراب ونافذتها المفتوحة

على الغيب يا دكتور، فالأمر في الكتلة المادية أكبر، وفي النبات وحياته أكبر، وفي الكائن الحي أكبر. . وهو في حركة نفس الإنسان وفي حركة مجتمعه، يبلغ الأوج والذروة. .

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ لماذا ينفد البحر يا دكتور، وتنفد البحار التي تمده وتفنى الأقلام كما تذكر آية أخرى. ؟ لأن كلمات الله تعالى في حياة الإنسان والطبيعة كثيرة وكثيرة. . وقصة كل كلمة أو مشروع منها عميقة طويلة مفصلة. . وقوانينها عديدة، وتطوراتها، وأهدافها. .

قبل عشرين سنة وأكثر، سمعت خبر خرائط قطع غيار طائرة الميراج الفرنسية، التي قامت المخابرات الإسرائيلية والأمريكية بسرقتها من فرنسا وتهريبها إلى سويسرا ثم إلى إسرائيل وأمريكا . . كانت الخرائط تبلغ خمسة أطنان. .

خمسة أطنان، قصة قطع غيار طائرة حربية، وقد تكون لبعض قطعها لا لجميعها. . فإذا أضفنا إليها بقية خرائط الطائرة وقصة صناعتها، وقصة عملها، وأهدافها. . فقد يصل وزن الملف إلى عشرة أضعاف وزن الطائرة. . فهل تظن يا دكتور أن قصة الكلمة الواحدة من هذا الوجود أقل من قصة طائرة الميراج. . وهل تكفي بحار الأرض لو صارت حبراً لكتابة قصة الكلمات التي في البحار نفسها. . وهل تكفي أشجار الأرض لو صارت أقلاماً لكتابة كلمات الله في النبات والشجر، فما بالك بكلمات الله في العالم الأكبر، الإنسان. . وفي مجتمعه وأجياله وحركتها إلى. . أن تبلغ هدفها في الآخرة. ؟

في الإنسان تتعاظم قصة كلمات الله، يعني خططه ومشاريعه يا دكتور.. وتتعاظم قوانين الغيب العاملة فيها.. وما يبدو لنا عادياً بسيطاً من أحداث وأوضاع قد يكون في علم الله مشروعاً كبيراً، أي كلمة ذات قصة ومسار وهدف..

الإنسان الواحد في أقصى إفريقيا والصين والهند، ليس أقل من طائرة الميراج يا دكتور.. لا في تكوينه الجسدي فحسب، بل في تكوين نفسه وحركتها أيضاً..

الغيب أعمق من الشهادة وأعظم يا دكتور، ودوره في حياتنا أكثر من دور العوامل المادية المعروفة، أو تلك التي ستعرف..

ايران والغيب

نحن نرى دور الغيب في الثورة الإسلامية في معجزة انتصارها، وفي معركة الأمريكيين مع الملائكة في طبس. . وفيما شابه ذلك من الأحداث البارزة الحاسمة . لكن لو تعمقنا في تاريخ إيران الحديث يا دكتور، لرأينا يد الغيب في كل المفردات التي هيأت لانتصار الإسلام. . لرأينا أن نسيجاً من المقومات انتظمت خيوطه وتلاقت عراه لتحقيق هذه الإرادة الإلهية، وإنتاج هذا الحدث، في الوقت والشكل الذي أراده العزيز الحكيم. . ثم في استمراره وتخطيه العقبات والمخاطر، ثم في أوضاع الدولة الإسلامية الداخلية والخارجية. . وفي حركة الإسلام في العالم. .

ولماذا نقتصر في النظرة على تاريخ إيران الحديث، ألا ترى معي يا دكتور أن قراراً إلهياً قد اتخذ بإزالة الكسروية ودخول الإيرانيين في الإسلام يوم رجع رسولُ رسولِ الله (ص) من إيران وأخبر النبي باستقبال كسرى السيئ له وتمزيقه الكتاب، فاغتم صلوات الله عليه لذلك، فنزل الأمين جبرئيل عليه السلام يطمئنه، ويبشره بأن الله تعالى قضى أن يمزق ملك كسرى كما مزق كتاب رسول الله (ص)؟ ألا ترى معي العامل الغيبي في أن كسروية الفرس تمزقت بسيوف المسلمين كلمح البصر، بينما بقيت قيصرية الروم رغم تقلصها قروناً طويلة حتى ورثها الغربيون. . وأن كل المحاولات لإعادة الكسروية قد فشلت على رغم كل العراقة الحضارية والأمجاد القومية والظروف السياسية المواتية، مما اضطر زعماءها إلى التستر بالإسلام خوفاً

من تياره القوي في مواطنيهم، حتى جاء الإمام الخميني معلناً إدانه ٢٥٠٠ سنة من الحكم الكسروي، بما فيها الكسرويات المتسترة بالإسلام . . وإدانة القومية الفارسية الإيرانية، واعتبارها عدوة للإسلام وعالميته المقدسة؟!

ألا ترى معي أن عوالم الجغرافيا والتاريخ والحضارة والسياسة في إيران قد عملت فيها يد الغيب، ليكون لقوم سلمان الفارسي دور طليعي في بزوغ فجر الإسلام في عصرنا، كما عملت ليكون لعرب الجزيرة دور طليعي في بزوغ فجره الأول؟

ثم لماذا نقتصر في النظر على إيران، ألا ترى يد الغيب في ترتيب أوضاع العالم في هذا القرن، وتوزيع القوى السياسية فيه بقانون ﴿دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾؟ . إنه القانون الأكبر المهيمن على مجرى التاريخ يا دكتور، أدركه النّاس أم لم يدركوه . . لأن إدراك الفعل الإلهي الغيبي وقوانينه العالية، يحتاج إلى نظر عميق وأفق واسع، ونحن تعودنا على إدراك الفعل المباشر، وعلى الغفلة عن الفعل غير المباشر، حتى لو كان أعظم وأرقى . .

تعجبني بعض اللقطات الفكرية لفلاسفة غربيين، منهم ليبتنز الألماني الذي يقول: إن مَثَلنا عندما نرى العالم مليئاً بالخطأ والشرور ولا نرى غير ذلك، كمثل الذي يشاهد لقطة من فيلم فيحكم عليه بالخطأ والشر بسببها، مع أنه لو رأى الفيلم من أوله إلى آخره، لعرف أن ما رآه كان صحيحاً وخيراً وضرورياً . .

إن مشكلة الماديين الفكرية يا دكتور، هذا الإخلاد المقيت إلى الأرض كما يعبر عنهم الله تعالى . .

إخلاد إلى الجزئية ومعاداة للكلية . . وإخلاد للآنية ومعاداة لماضي

«الفيلم» ومستقبله وهدفه. . وإخلاد للأسباب الدنيا المباشرة ومعاداة للأسباب العليا غير المباشرة. .

يريد أحدهم أن لا يرى إلا خطواته على الأرض. . يا أخي إنها جزء من خطوات محيطك وعصرك، إنها امتداد لماض ومقدمة لمستقبل. . إنك تسير على قدميك وفي السيارة والطيارة والسفينة، ولكن الأرض تسير بك أيضاً، وبأسرع من سيرك، وأقوى من وسيلتك. . والتاريخ يسير بك أيضاً بأعمق مما تسير أنت فيه. .

تسأل الواحدمنهم؛ما رأيك في حركة الطبيعة وقوانينها، أهادفة هي أم عابثة، فيقول: جميعها هادفة من أصغر قانون إلى أكبره. . لا عبث فيها ولا سدى. . يا أخي هداك الله، فما لك عندما تصل إلى أعمق حركة فيها وأرقاها أقصد حركة الإنسان ومجتمعه، ولا تعرف وجه الحكمة فيها تحسب أنها عبث وسدى؟!: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَىٰ. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ معاذ الله، لا عبث في كلماته ولا سدى، فكما وضع حركة نطفة الإنسان ورعاها حتى تبلغ هدفها. . وضع حركة نفسه ومجتمعه ورعاها ويرعاها حتى تبلغ هدفها. .

معادلة التاريخ

تسألاني، فالمخطط مرسوم لحركة الإنسان وتاريخه إذن، والهدف محدد، وقوانين الغيب فاعلة أكثر من قوانين المادة.. فأين حرية الإنسان ومسؤوليته في صناعة حياته وتاريخه..

نعم، المخطط مرسوم من ألفه إلى يائه، ودور الغيب فيه أكبر، وقوانينه تعمل مع القوانين المادية وفوقها، تبعث المسيرة نحو الهدف برفق وأناة، وأحياناً بعنف خاص جميل ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ والإنسان مع ذلك حر ومسؤول، وما المانع من حريته ومسؤوليته.. فهل يجب أن يكون المخطط الإلهي ميكانيكياً يسلب حرية الإنسان، وهل يجب أن تكون حرية الإنسان مطلقة الحدود بحيث تلغي المخطط الإلهي..؟!

هذه حركة تاريخ الإنسان، وحركة حاضره.. نجد فيها المخطط الإلهي، وفعل الناس وفعل القوانين المادية، وفعل الغيب.. تجتمع ولا تتناقض ولا ينفي بعضها بعضاً.. فلماذا تضيق أذهاننا وصدورنا عن الجمع بينها.. إنها جميعاً وجوه متآخية لحركة التاريخ والحياة.. وبها جميعاً نقرأ هذه الحركة في القرآن، ونلمس من آياته أن معادلة التاريخ هي:

. الهيمنة الإلهية + المخطط الإلهي + فعل الإنسان + قوانين الغيب + القوانين المادية = التاريخ.

هذه المعادلة الراقية كم هي مظلومة من المعادلة الغربية القائلة: الاقتصاد = التاريخ والجنس = التاريخ، وأمثالها من المعادلات التي تأخذ لوناً واحداً أو أكثر من فعل الإنسان ودوافعه، وتستغرق فيها ولا ترفع رأسها منها..

مستقبل الإسلام

وتسألاني، ما هو المخطط الإلهي لمستقبل الإسلام، وكيف ستسير حركة الصراع بين الإسلاميين وأعدائهم في إيران والعالم؟ وأجيبكما ببساطة إني لا أدري . .

بلى، نعلم علم اليقين أن المخطط موجود، ونعلم بالهدف، وبأن المجتمع البشري يسير إليه، وقد نعرف كيف سار المخطط في الماضي، وقد نعرف شيئاً عن مساره في الحاضر . .

أما كيف يسير في المستقبل بعد أربعين سنة أو بعد سنة واحدة فلا علم لنا . . لا علم لنا إلا ما علمنا الله ورسوله . . روحي فداك يا رسول الله، لقد علمنا الموضوعية في كل سلوكه، وفي حادثة طريفة وقعت في مدينته هذه، فقد عاد راعي الإبل ذات مساء وأخبرهم بأن ناقة رسول الله (ص) قد ضاعت، فبحثوا عنها في كل وجه فلم يجدوها، وطال الأمر أياماً فأرجف المنافقون: ما باله يخبرنا بخبر السماء وخبر المستقبل ولا يعرف أين ناقته!؟ فجاءه جبرئيل (ع) وأخبره بمقالتهم وبمكان الناقة، فصعد المنبر روحي فداه وقال ما معناه: ما مقالة قالها بعضكم ما بال محمد يخبرنا بخبر السماء ولا يعرف موضع ناقته. ؟ ألا إني عبد الله ولا علم لي إلا ما علمني ربي، وقد أخبرني أن الناقة في موضع كذا وفي مجمع أشجار، وقد علق خطامها بشجرة منها . . فذهبوا فوجدوها كما قال (ص).

ونحن نعلم من ربنا ونبينا أننا سوف ننتصر ما دمنا نؤدي شروط الله تعالى، وأن المسلمين في مناطق أخرى سوف يؤدون شروطه تعالى وينتصرون، حتى يظهر الإسلام على الدين كله، كله.. الوضعي منه، والمنسوب إلى الله تعالى..

أما متى يكون ذلك، وكيف، فلا علم لنا ولا عيب في ذلك علينا، ولا يؤثر ذلك على عزيمتنا ويقيننا..

قد نتصور شريط الأحداث في نصف القرن القادم مثلاً، بأن المد الإسلامي الذي أحدثته ثورتنا سيحدث ثوارت في بلاد إسلامية أخرى، وأن هذه الدول ستتحد معنا فنشكل دولة إسلامية كبيرة، وأننا سنخوض أنواعاً من الصراع البارد والحار مع الدول الكبرى، ونحقق عليها انتصارت حتى نفرض أنفسنا قوة كبرى في مواجهتها..

ولكن ذلك قد يكون تصوراً ساذجاً جداً أمام شريط المخطط الإلهي الذي قد يكون فيه حدث ما صغير أو كبير سيوجه الأحداث بشكل آخر، في مجال الطبيعة، أو الموت أو الحياة، أو التغيرات النفسية في الشعوب، أو في حركة الصراع بين قوى الباطل، أو بين الإسلام والباطل.. أو في عشرات المجالات ومئات الأحداث غير المحتسبة، التي تبرز فتغير «السيناريو» كله كما يقولون..

إن احتمالات المستقبل السياسي للعالم بحسب المقياس المادي وحده تبلغ العشرات، وبمقياس الغيب تكون أكثر.. ولكن المؤمنين بالغيب أقدر دائماً على الحدس والتقدير السياسي، لأنهم يعرفون معادلة النصر الإسلامية، ويعرفون الهدف الذي تسير إليه الأحداث، ويعرفون كثيراً من ملامح المخطط الإلهي وعلائمه.. ولذلك قال النبي (ص) «اتقوا فراسة المؤمن

فإنه ينظر بنور الله» وقد سمعت أن الإمام الخميني سئل عن مستقبل الجمهورية الإسلامية فقال: لا أخاف عليها السقوط حتى ظهور المهدي الموعود عليه السلام، ولكنهم سيواصلون إثارة المشاكل والعقبات في وجهها وتواصل التغلب عليها. .

إن هذا التقدير من الإمام مبني على خبرته بشعبنا المسلم وثباته على أداء شرائط الله، ومعرفته بوجود المخطط الإلهي وهدفه ومعالمه. . وأنتم تلاحظون أن التقديرات السياسية للإمام وتلاميذه، قبل الثورة وبعدها، كانت أصح من تقديرات كل الخبراء السياسيين في العالم.

قال أصغر:

ـ ألا تعتقد يا سيدي أن الإمام الخميني لديه تصور أوسع عن المستقبل السياسي لإيران والعالم. . ؟

ـ لا شك أن تصور الإمام عن المستقبل أوسع مما ذكرت لكم، بحكم رؤيته الخاصة واطلاعه على الأحاديث الشريفة وفهمه المتميز لها، وبحكم التسديد الإلهي له، الذي تضاعف في اعتقادي بعد تحمله الفعلي مسؤولية مواجهة الكفر العالمي. .

ولكن ذلك ليس علماً بالغيب، بل تقدير ورؤية سياسية للمستقبل، وإن كانت قيمتها عالية جداً، لأنها رؤية فقيه إمام مجاهد ينظر بنور الله تبارك وتعالى. .

والأخبار الشريفة كثيرة ومفصلة، وهي تؤكد أن المخطط الإلهي للإسلام يبلغ هدفه في العالم على يد المهدي المنتظر أرواحنا فداه، وتذكر سلسلة أحداث ظهوره بالتفصيل من مكة إلى إيران والعراق والقدس ثم إلى

الغرب . . وتذكر أحداثاً قبل ظهوره، ومنها ظهور قائد من قم، والتفاف شعبنا حوله، وتضحيته وثباته أمام العواصف والزلازل، وأنه يواصل مقاومته للكفر العالمي حتى يسلم رايته إلى المهدي الموعود عليه السلام، بل وتذكر الأحاديث أوصاف قائدين إيرانيين يسلمان الراية للمهدي عليه السلام أحدهما قائد سياسي تسميه الحسيني الخراساني . . لعله يكون رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء مثلاً، والآخر قائد عسكري تسميه شعيباً بن صالح، لعله يكون قائد الحرس الثوري أو الجيش مثلاً . .

ولكن الحلقة المفقودة في الأحاديث الشريفة في نظري؛ هي المدة الفاصلة بين بداية نهضة المسلمين بقيادة الرجل من قم، أي الإمام الخميني وبين القائد الإيراني الذي يسلم الراية للمهدي عليه السلام، فإنها لا تذكر تحديداً لهذه المدة، بينما تحدد المدة بين ظهور الخراساني مع قائد جيشه شعيب وبين أن يسلم الأمر إلى المهدي باثنين وسبعين شهراً، أي بست سنوات . .

إننا نأمل أن يكون هذان القائدان الموعودان بيننا فعلاً، وأن تكون المدّة التي تفصلنا عن سنواتهما الست الموعودة قصيرة جداً، ولكن العلم عند الله تعالى، فقد يكون المخطط الإلهي كما نأمل، وقد يكون من الضروري أن تمر سنون طويلة وأحداث كثيرة قبل ذلك، لتحقيق أهداف يعلمها العزيز الحكيم تبارك وتعالى . .

قد يكون فهم الإمام الخميني مد ظله للأحاديث الشريفة بشكل آخر يا أخ أصغر ولكني لم أطلع على ذلك . .

- ألا ترى يا سيدي أن الإمام الخميني يلتقي بالإمام المهدي أرواحنا فداه، ويخبره مما علمه الله تعالى عن المستقبل؟

ـ أسئلتك طريفة يا أخ أصغر، أما من ناحية إثباتية: فإن الإمام الخميني مد ظله لا يدعي ذلك، ولعله لا يرتاح لطرح هذا الموضوع حتى على شكل تساؤل بين الناس، ولعله إذا سُئل ينزعج وينفي. . أمامن ناحية إمكانه فهو في نظري ممكن ومحتمل. . أما الحديث الذي يقول: «ومن ادعى المشاهدة قبل الصيحة والسفياني فهو كذاب مفتر» وأمثاله، فهي تقصد السفارة للمهدي عليه السلام قبل هذين الحدثين (النداء من السماء وخروج السفياني في بلاد الشام) ولا تنفي الأحاديث إمكان مشاهدة الإمام المهدي عليه السلام ممن لا يدعي أنه سفيره، أو ممن لا يدعي مشاهدته كلياً. .

على أي حال تبقى مسألة تشرف الإمام الخميني بلقاء المهدي سلام الله عليه مسألة احتمالية، ويبقى الأهم فيما يعلمه إياه إذا التقى به من التوجيهات العملية في قيادته لمسيرة الإسلام، ومواجهة الكفر العالمي. .

أرجو أن تلتفت إلى نقاط مهمة في هذه المسألة يا أخ أصغر، منها الفرق بين الحدس والفراسة والإلهام، الذي يهبه الله تعالى لأوليائه المؤمنين، حسب درجاتهم وحسب المصلحة الضرورية للمسلمين، وبين علم الغيب. .

ومنها، أن هؤلاء الأولياء الملهمين يكونون على درجة كبيرة من التواضع والانضباط؛ فلا يتبجحون بما كشف الله لهم، ولا يقولونه إلا عندما يجب، وقد ينفعون به المسلمين دون أن يكشفوا عنه لأحد. . أما إذا رأيت من يتبجح بذلك ويأنس بنشره عنه بين الناس؛ فشك في صدقه أو في عقله . . إن أولياء الله تعالى يرون أن ما يكشفه لهم ويلهمهم إياه، سر إلهي وأمانة عظيمة يمتحنهم به، حتى لو كان سراً جزئياً يتعلق بشخص ما أو بموضوع صغير، فكيف إذا كان يتعلق بأمر اجتماعي وسياسي، وكان في كشفه ضرر على المجرى الطبيعي الذي يريد الله للأمور أن تجري به. .

والمخطط الإلهي لحركة المجتمع الإنساني، وصراع الحق والباطل يتضمن فيما يبدو لي أنواعاً من الغيب أيها الأخ، منه ما علمنا إياه الله ورسوله كما ذكرت لكم، ومنه غيب مكنون لا ينكشف إلا في وقته، ومنه ما يعلمه الله تعالى لمن يشاء من أوليائه المسلمين، بالجهد العلمي أو بالإلهام والتسديد.. ومنه مودع عند المهدي الموعود أرواحنا فداه، بعهد مكتوب له من جده رسول الله (ص) وبمواريث الأنبياء التي ادخرت له، وبما يلهمه الله تعالى.. وقد يقوم بتعليم أنصاره بلقائه بهم مباشرة، أو يكون له مساعدون يقومون بذلك، إلى آخر تفاصيل هذه المسألة..

ولكن الأهم من هذه التفاصيل يا أخ أصغر، أن لا ننحرف في تعاملنا مع الغيب، فيشغلنا الاهتمام بكرامات أولياء الله تعالى وإلهامهم وتوقعاتهم، وقصص مشاهدات المهدي المنتظر عليه السلام، وقصص أطياف المؤمنين، إلى آخره.. عن واجباتنا في العمل والجهاد وفق الموازين والأحكام الشرعية، التي يحددها الفقيه المرجع..

إن الهدف من حديثنا عن الغيب أن نؤمن به ونثق بأن قوانينه تعمل لمصلحة الإسلام، لا أن ننشغل بتفاصيل الغيب عن عملنا، أو تصبح هي عملنا، كما يحدث لبعض المؤمنين القاعدين.. إن القاعدين عن نصرة الإسلام والجمهورية الإسلامية هم من أضعف الناس إيماناً بالغيب، وأبعدهم بالتالي عن آفاقه ونعمته، ولو بدا أنهم مستغرقون فيه مشغولون في آخر أخباره وقصصه..

أراني مجدداً بحاجة إلى التأكيد على النمط الإسلامي الأصيل في الإيمان بالغيب والتعامل معه، النمط المقبول عند الفقهاء المجاهدين ليس إلا.. ففي المسلمين أوساط متدينة، يقوم تدينها على أساس العادة والوراثة

من الأسرة والالتقاط من البيئة، وبعبارة أوضح يقوم على الأخذ من غير مراجع الفقه، ومثل هذا التدين يكون أرضية لنمو أنماط انحرافية في التعامل مع الغيب، ولا يعيد الأمر إلى نصابه إلا التدين الفقاهتي، الذي يحقق التوازن بين عقائد الغيب وأحكام الشريعة المقدسة. .

وفي المسلمين أوساط متدينة يقوم تدينها على أساس فقاهتي، أي على الالتزام بالحكم الشرعي الذي يحدده الفقيه، ولكنه تدين قاعد لا مجاهد، وهو أيضاً أرضية لنمو التعامل المنحرف مع الغيب، ولا يصححه إلا التدين المجاهد، الذي يحقق التوازن بين إيمان المسلم بالغيب وحركته في الحياة..

يقول لنا الإسلام إن الإيمان بالغيبيات ضرورة، لكن بشرط أن يكون منسجماً مع الأحكام الشرعية، فإذا تنافى معها وقع الانحراف. . وبشرط أن لا يشغلنا عن تنفيذ شيء منها، فإذا حدث ذلك وقع الانحراف أيضاً. .

موجة الغيبيات في ايران

أنا لا أخاف على شعبنا من موجة الإيمان بالغيب يادكتور،التي تزايدت والحمد لله أثناء الثورة وبعدها، لأن تدينه الفقاهتي الجهادي أخذ يتركز بالثورة ويستقر في أصالته . . ومهما رأيت أو سمعت عن تعلق المسلمين بالغيبيات فلا تخف عليهم،ما داموا ينطلقون في تدينهم من أحكام الشريعة ويقيسون الأمور بها ويجاهدون أعداءهم . .

إن الأحكام الشرعية هي التي تحدد تعاملنا مع مفاهيم الغيب وليس العكس . . ولهذا تراني أؤكد على أن علاقتنا بالإمام الخميني فقهية قبل أن تكون غيبية، علاقتنا فيه بالأصل أنه فقيه خبير بأحكام الشريعة المقدسة، يستنبطها من مصادرها ويقدمها لنا بفتاواه وتوجيهاته . . فإذا حافظنا على هذا الأصل، فلا مانع أن نتحدث عن التسديد الإلهي له وإلهامه المواقف والمبادرات،وعن احتمال تشرفه بلقاء المهدي الموعود عليه السلام وتلقيه التوجيهات منه . .

ما دام شعبنا يحافظ على علاقته الفقهية بقيادته وعلمائه، وما دام عاملاً في مسيرة الإسلام التي فجرها الله على يديه . . فلا أخاف من كثرة تعلقه بالغيبيات وشغفه بقصص الكرامات،التي يتناقلها عن الإمام وعن المجاهدين في جبهات القتال وعن العلماء والمتدينين . .

ما هو الضرر في أن تشيع بين المسلمين قصص كرامات أولياء الله، وأن

يتناقلوا الأطياف الصادقة المؤثرة، وأن يحاولوا تفسير الأحاديث الشريفة على أوضاع عصرنا، وأن يشغفوا بأخبار المهدي الموعود وعلامات ظهوره وقصص رؤيته السابقة والحاضرة. . ما دام ذلك لا يخرجهم عن الالتزام بأحكام الشريعة المقدسة، ولا يعيقهم عن العمل والجهاد. .

إن موجة الغيبيات على حد تعبير الأخ الدكتور، أو تيار الإيمان بالغيب الذي يعيشه شعبنا اليوم، يختلف عن ظاهرة التعلق بالغيبيات والأسطورة التي تنمو في المجتمع القاعد الراكد. . التيار الغيبي في شعبنا يادكتور، هو من نوع التيار الذي عم المسلمين في صدر الإسلام، التيار المليء بالإيمان والثقة والتحفز، وليس من نوع تبرير القعود وتمنية النفس بالغيب والأسطورة. . إن الفرق بين الظاهرتين جوهري ونوعي يا دكتور. . انظروا إلى روحية التعلق بالغيب في المجتمعات الراكدة، في عصور الانحطاط أو في عصرنا الحاضر، وقارنوها بروحية الغيب في مجتمعنا المتوثب بالإسلام. . انظروا إلى نماذج من حالة الإيمان بالغيب عند شبابنا ونسائنا وشيبنا، لتروا أنها شبيهة جداً بحالة المسلمين في صدر الإسلام. . وأنها كما كانت عاملاً إيجابياً عظيماً آتى ثماره المباركة يومذاك، فهي كذلك اليوم. .

نظر رسول الله (ص) بعد صلاة الفجر إلى شاب في المصلين كان يخفق برأسه من النعاس، وقد أنحلته العبادة وأضناه السهر، فسأله:

ـ كيف أصبحت يا حارثة بن مالك؟

قال: أصبحت يا رسول الله موقناً.

فقال رسول الله (ص): إن لكل يقين علامة فما علامة يقينك؟

فقال: إن يقيني يا رسول الله هو الذي أرقني وأسهر ليلي وأظمأ

هواجري . . كأني أنظر إلى يوم القيامة وقد حشر الخلائق وأنا من بينهم، وأنظر إلى الميزان وقد وضع، وجيء بالنبيين والشهداء، وبدأ الحساب . . وأنظر إلى الجنة وقد أعدت للمطيعين، وأكاد أرى أنوارها وأشم روحها وريحانها، وأنظر إلى النار وقد أعدت للعاصين، وأكاد اسمع تغيظها وزفيرها . . وقد أخذ أهل الجنة يحاسبون ويوفدون إليها زمراً، وأهل النار يحاسبون ويوفدون إليها زمراً . . وأنا ما بين خوف ورجاء . .

فقال النبي (ص) : هذا عبد نور الله قلبه للإيمان، يا حارثة اثبت على ما أنت عليه . .

فقال حارثة : يا رسول الله ادع لي الله بالشهادة . .

فرفع يديه (ص) وقال : اللهم ارزق حارثة الشهادة . .

فما هو إلا أن جاءت غزوةمؤتة ،وشارك فيهاحارثة ،فكان تاسع أو عاشر شهيد . .

هذا الشاب من تلاميذ النبي (ص) الذي رويت لكم قصته كما أتذكرها، كان استغرق في الغيب وسيطر عليه مشهد من مشاهده فأرقه وأضناه، ولكنه لم يدفعه إلى الرهبانيةوالعزلة ،بل دفعه إلى طلب الشهادة، لأنه تلقى من النبي (ص) التدين الفقاهتيالجهادي، وليس تدين القعود أو التدين بدون شريعة . . وهذا التحفز هو ما يفعله تيار الإيمان بالغيب في شبابنا يا دكتور . . إن مفاهيم الغيب وحقائقه وقصصه وصوره تُنبت اليوم في أبنائنا أنبل المشاعر وتدفعهم إلى الجهاد وطلب الشهادة . .

إن تخيّل أننا بحاجة إلى الحد من هذا التيار المبارك ينطوي على خطأ كبير يا دكتور، فكل ما نحتاج إليه هو تأصيل الإيمان بالغيب والتأكيد على

الضوابط الفقهية الجهادية لا أكثر. . وحتى في أوساط المسلمين الراكدة البعيدة عن الفقه والجهاد؛ لا أرى أن تأصيل الإيمان بالغيبيات يجب أن يكون بالحد منها أو مواجهتها، بل بضبطها بالفقه وتوظيفها للجهاد. .

إن تيار الغيب الذي تشهده إيران يا دكتور هو فعل الإسلام، فعل القرآن والسنة، هو فعل عقيدة المسلمين وفطرتهم، فكيف يراد منا أن نواجهه ونحد منه. . لقد تفضلت بأنك وجدت البعد الغيبي في القرآن أضعاف البعد المادي، فكيف نكون قرآنيين إذا لم نتعايش مع حقائق الغيب بأضعاف ما نتعايش مع حقائق المادة. .

لم أشعر خلال عملي في التبليغ في الشمال وفي الجبهة إلا مرات قليلة أن الأمر يحتاج إلى التوجيه والإلفات إلى الضوابط الفقهية الجهادية، مع أني أسمع الكثير من قصص الكرامات والأطياف وما شابهها من الأمور الغيبية، بل أشعر بإيجابية هذه الظواهر الإيمانية وفائدتها وأتأثر بها. . أشعر بأن علينا ضمن الضوابط الفقهية الجهادية، أن نقدم كل مفاهيم الغيب وحقائقه من القرآن والسنة، ونغني بها إيمان جماهيرنا وجهادهم، أن نروي عطشهم الفطري الإسلامي إلى تعميق إيمانهم بالغيب وبلورة تصورهم لعوالمه وتكريس معايشتهم له. .

رأيت قسماً من فيلم «موت آخر» يصور حالة قائد عسكري طاغوتي، يأتيه ملك الموت وهو في غرفة العمليات، في لحظات حاسمة من قيادته للمعركة، ويجري بينهما حوار وأحداث حتى يقبض روحه. . وقد أنست كثيراً بهذا اللون من الإنتاج السينمائي وإن كانت لي ملاحظات أساسية على عناصر الصورة التي قدمها عن قبض الروح وملك الموت عليه السلام. .

أشعر أننا بحاجة لأن نقدم جوانب الغيب من عقيدة الإسلام بأساليب متعددة، بالكتاب الفكري والقصة، والمسرحية، والفيلم، وكل ما يناسبها ويجسد حقائقها ونصوصها في قلوب المسلمين وحياتهم . .

وعندما يستطيع العلماء والمبلغون والكتاب والفنيون تحقيق ذلك وتعميمه في شعبنا ـ وهو ما يحتاج في ظني إلى سنوات ـ نستطيع القول إننا نقدم إلى العالم نمط الحضارة الإسلامية، التي يتعامل المجتمع فيها مع الشهادة والغيب جميعاً، في تكامل وتناغم جميل . .

أشعر أننا بحاجة لأن نربي أطفالنا على الإحساس الحيوي بالغيب بحيث يكون إحساسهم بالملائكة المرافقين لهم، أو الذين سيرافقونهم، قريباً من إحساسهم برفقائهم وأساتذتهم وأهلهم، وإحساسهم بالحياة الآخرة، قريباً من إحساسهم بالحياة الدنيا، وإحساسهم بمعادلة النصر الإسلامية، أقوى من إحساس الدول النووية بتفوقها الستراتيجي، وإحساسهم بالله تعالى أقوى من كل شيء . . إن في الإنسان القدرة على أن يتعامل مع ما يؤمن به باليقين العقلي والحدس، بدرجات عالية من الشعور والتفاعل، تقرب من درجة تعامله مع ما يؤمن به بالمشاهدة والحس، وحينئذ تتكامل إنسانيته وسلوكه وحضارته . . أما أمير المؤمنين علي عليه السلام فيقول: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» يعني لو تحول الغيب إلى عالم مشهود فسوف لن يزيد درجة يقينه وتفاعله معه عليه السلام، لأنه بنفس درجة يقينه وتفاعله مع المحسوس . . طبعاً هذا المستوى الإيماني الذي تتساوى فيه ساحة الشهادة والغيب في حس المؤمن وعمله مختص بالأنبياء والأئمة عليهم السلام، ولكننا نطمع لأنفسنا برشحات منه ودرجات، ونطمع لجيل أبنائنا بدرجات عالية . . نحن يا دكتور الجيل المخضرم الذين نشأنا في ظل سيطرة الحضارة

المـادية وتخلف أمتنـا، ثم عاصـرنا والحمـد لله طلوع فجر الإسـلام بعد غربته . . ومن الصعب على جيلنا أن يتغلب نهائياً على رواسب الإحساس المـادي المعمق ورواسب تلبد الإحسـاس، أما أولادنـا فلا يعـانون هـذه المشكلة، ومن السهل عليهم أن يعيشوا بالمادة والغيب معاً . .

قال الدكتور : عفواً يا سيدي أرجو أن تعيد هذه الفكرة . .

ـ نعم يا دكتور إن طاقة الإنسان في الإحساس والتفاعل محدودة، شبيهة بطاقته الجسدية ، فإن هو أسرف في صرفها على الأمور المادية، عجز أن يحس بعالم الغيب ويتفاعل معه كما ينبغي . . وإن من أسوأ ما أشاعته المادية الغربية في العالم هذا الإسراف المنهك لمشاعر الناس . . أما أبناؤنا الذين ينشؤون في ظل الإسلام بعيداً عن هذا المرض، فيسهل عليهم أن يـوزعوا إحساسهم بتوازن بين عالمي الشهادة والغيب . . كمـا أن إحساسهم بـالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار . . لم يصب بالتلبد الذي قد يصاب به، حسناً . . نحن سمعنا بهذه الحقائق والعوالم من طفولتنا وتعودنا على أن نعيشها بشكل باهت دونما اكتراث أو باهتمام قليل، كمن يتعود على مشاهدة منظر طبيعي جميل وهو مشغول عنه، فيصاب بتلبد الحس تجاهه . . أما أبناؤنا فإنهم يواجهون عوالم الغيب لأول مرة بحس جديد سليم من مرض الإرهاق والبلادة، ولذا تراهم يعيشونهـا بعمق وحيويـة أكثر من جيلنا . . إنهم طلائع الإنسان الحضاري الذي أخذ يقدمه الإسلام إلى العالم يادكتور، ينقذ على يده الشعوب من حيوانية المادية الغربية . .

الإيمان بالغيب حقيقة بسيطة يا دكتور، ونحن نعقّدها بإفراطنا بالإيمان بالمادة. والانسجام العملي مع الغيب حقيقة بسيطة أيضاً ونحن نعقدها . . أما جيل أبنائنا الخالي من عقدنا؛ فيعيش الإيمان بـالله تعالى وغيبه ببساطة

وينسجم معها ببساطة، ويضحي بشبابه في سبيل الله ومقاومة الطاغوت، فينعم بحياته، أكثر مما ننعم بالإحساس بالله تعالى وغيبه، وبالإحساس بنعمه المادية أيضاً! وينعم بآخرته أعظم مما ننعم، فتراهم كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام: «فَكَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لاَ يَرَىَ النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ مَا لاَ يَسْمَعُونَ. . فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ، وَلَوْلاَ الآجَالُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ لَفَارَقَتْ أَرْوَاحُهُمْ أَجْسَادَهُمْ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ» وتفارق أرواحهم أجسادهم يا دكتور بأروع مما تفارق أرواحنا أجسادنا شهيدة لربها مشتاقة إليه مكرمة منه، ونبقى نحن نجر خطانا ونمضغ أيامنا حرصاً على الحياة الدنيا وغفلة عن الحياة العظمى. .

واغرورقت عينا الشيخ الطبري بالدموع، وقال: آه لو كان تكليفي أن أقاتل في الجبهة حتى ألاقي ربي شهيداً لما تأخرت يوماً واحداً. . اللهم لا تحرمني الشهادة في سبيلك. .

بكى أصغر ودعا لنفسه بالشهادة. . ودمعت عينا الدكتور. .

قال أصغر:

- يا سيدي إني أعاني في معايشة الغيب، فأجدني في أوقات أعيش عوالمه وروحيته بشكل يرضيني، وفي أوقات أعيش ضغط المشاعر المادية وتلبد الإحساس الذي ذكرتم، فبماذا تنصحني وتنصح الذين يعيشون في الغرب أمثالي. .

- إن تفاوت حالات المؤمن في معايشة الغيب أمر طبيعي يا أصغر، وإن للقلوب إقبالاً وإدباراً كما في الحديث الشريف، ولها حالات سامية وحالات

متدنية، والأمر الأساسي أن لا ننجر في حالاتنا المتدنية المنخفضة إلى معصية، وإذا لا سمح الله حدث ذلك، فالمهم أن ننهض ونتوب ولا نبقى في مصارع الذنوب.. وأبشرك يا أخ أصغر بما بشر به رسول الله (ص) الشبان العاملين في سبيل إسلامهم وأمتهم، الذين يعطون من أنفسهم ولا يبخلون، قال (ص) «الشَّابُّ السَّخِيُّ الْمُرْهَقُ بِالذُّنُوبِ أَحَبُّ إِلى اللهِ مِنَ الشَّيْخِ الْعَابِدِ الْبَخِيلْ» إنه التدين الجهادي يا أصغر، الذي يفضل الله به المجاهد على القاعد ولو كان أكثر عبادة، ويوفقه به إلى التوبة والفوز بالعبادة الكبرى فيسخى بروحه في سبيل الله تعالى، بينما يبقى الشيخ القاعد البخيل يأخذ ولا يعطي..

وقد سأل المسلمون رسول الله (ص) عن حالة التفاوت هذه، فقد جاءه بعض الأنصار وشكوا إليه: يا رسول الله ما بالنا إذا كنا عندك وسمعنا منك عن الله تعالى والآخرة والجنة والنار، أحببنا لقاء الله وسخت نفوسنا بالدنيا، فإذا رجعنا إلى هذه الأموال والأولاد والمتاع حليت في أعيننا وسلونا الآخرة... أفنخشى علينا النفاق يا رسول الله..؟

فقال (ص) «لَا، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ ثَبَتُّمْ عَلَىٰ تَلْكُمُ الْحَالِ لَمَشَيْتُمْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءْ».. إنه التفاوت الطبيعي في روحية الإنسان ومعايشته لحقائق الإيمان يا أخي، وهو يختلف عن الازدواجية والنفاق.. ولكن كثيراً من شبابنا يا أصغر ويا دكتور يعيشون مستوى عالياً من الروحية بشكل يكاد يكون دائماً، خاصة في جبهات القتال، ولذلك إذا قيل لي إن أحداً منهم مشى على الماء فلا أستبعد، ولقد سمعت كرامات لبعضهم تشبه المشي على الماء، وقد ورد أن المهدي المنتظر وأصحابه عليهم السلام يتلون اسم الله عز وجل ويمشون على وجه الماء.. ومثل هذا المستوى لا بد أن توجد مقدماته

وأجواؤه وبداياته في المسلمين اليوم، حتى يكون أمراً (طبيعياً) مع المهدي أرواحنا فداه. .

عندما رأى زكريا مائدة الطعام عند مصلى مريم عليهما السلام فسألها «يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا! قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» قالت ذلك وكان الأمر طبيعياً عندها لأنها تعيش الإيمان بالله تعالى وغيبه وبدرجات عالية. . وقد ذكرني بعض شبابنا بجوابها عليهاالسلام،فقد سمعت من السيد صياد شيرازي قصة حدثت في الجبهة، في معركة مضيق فكة والبستان،حيث تنبه أحد قادة جيش صدام إلى ثغرة،فتقدم بلواثه المدرع ليقوم بحركة التفافية فيها، واستطاعت دباباته أن تسلك الطريق الوعر وتصل إليها وأخذت تقصف المجموعة القليلة المرابطة لحمياتها. . قال: كانت الثغرة تعتبر خطاً خلفياً والمجموعة لا تزيد عن خمسين رجلاً بعضهم من الحرس الثوري وأكثرهم من «الجندرمة» والإخوة العراقيين، وكان تجهيزهم خفيفاً ليس معهم إلا البنادق وعدد محدود من قاذفات «الآر بي جي»، وقد فر عدد منهم عندما انصبت عليهم رماية الدبابات واتصل قائدهم يخبرنا بما حدث ويطلب على الفور قذائف «آر بي جي» لأنه لم يبق عندهم منها حتى قذيفة واحدة. . قال شيرازي: اتصلت بنقاط الذخيرة القريبة من منطقة الثغرة فقالوا لا يوجد عندنا قذائف «آر بي جي»، واتصل الأخ قائد الحرس الثوري بنقاطهم في المنطقة فقالوا لا يوجد عندهم. . واستمر اتصال قائد المجموعة بنا وأخذ يبشرنا بشجاعة مجموعته وأنهم قاموا بتدمير الدبابات المتقدمة، وأنهم يطاردون الدبابات الأخرى التي فرت وتراجعت. . قال شيرازي: وفي وقت لاحق وصلت إلى المكان، فأخذ قائد المجموعة يحدثني عما حدث ويشكرني على إرسال القذائف فأجبته أنّا لم نرسل ولعل الأخوة الحرس

أرسلوها، فقال على أي حال وصلت السيارة المحملة بالقذائف في الوقت المناسب والحمد لله، وتقدم السائق إلى هذا الموضع وأفرغ حمولة سيارته تحت رماية الدبابات. . قال شيرازي: احتملت أن يكون في الأمر شيء غير طبيعي، فاستقصيت الأمر فوجدت أن أحداً من الجيش أو الحرس الثوري لم يرسل إلى مجموعة «الرفيّع» قذائف «آر بي جي»، فتأكد لي أن السيارة مدد غيبي من الله تبارك وتعالى. .

قال الشيخ الطبري: كان السيد الشيرازي يتحدث عن الأمر بتعجب وتلقيته أنا بتعجب أيضاً، ولكني مررت بعد ذلك على منطقة الرفيع وسألت عن الشباب الذين قاوموا الدبابات أثناء المعركة فأشاروا إلى بعضهم، فسألتهم عن قصة سيارة القذائف ومن أين جاءت، فقال أحدهم بلهجة جادة جاءت من عند الله يا مولانا، لقد رآنا عز وجل نريد الدفاع عن دينه وليس عندنا ذخيرة فأرسلها لنا. . ثم تابع: حسب ما أرى من إخلاص إخواني فإني لا أتعجب إذا أرسل الله لهم أسلحة وذخيرة ودبابات وأي شيء آخر، فهو عز وجل على كل شيء قدير. . فقال له آخر: يا حسين انقل للشيخ قصة الاستطلاع مع تقي فقال: نعم ذهبنا أنا وتقي مشياً لاستطلاع المواقع العراقية ولم نشعر بشيء حتى فوجئنا بهم وفوجئوا بنا، ففتحوا علينا نيران غزيرة من الدبابات والمواقع وبقينا نحو ثلاث ساعات مختبئين في ساقية ماء، فدعونا الله تعالى وقلنا له: اللهم إنك تعلم أننا نحب الشهادة ولكنا نحب أن نوصل المعلومات التي حصلنا عليها إلى إخواننا الحرس، فما أكملنا دعاءنا حتى هبت عاصفة جعلت الجو مظلماً، فقلنا هيا، وقطعنا المسافة ركضاً في أرض مكشوفة، وكان الرصاص يتناثر من حولنا والقنابل المضيئة تساعدنا في طريقنا، كنا نرى الحصى يتطاير من شدة العاصفة التي استمرت حتى عبرنا منطقة الخطر ولم نصب بأذى والحمد لله. .

ونظر الشيخ الطبري إلى ساعته وكانت قاربت التاسعة فتابع :

أحب أن يقوم كتابنا بجمع قصص شبابنا الأبرار وتقديمها بأسلوب علمي توجيهي إلى شباب أمتنا الإسلامية والعالم . . إنها كرامات الأولياء التي يشملها قوله تعالى عن الأنبياء وأصحابهم ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إنها بوادر معجزة الإسلام وطلائع جيله الجديد، الذي سينقذ به العالم من مهاوي المادية . . لقد نشرت الصحف الكثير من هذه الكرامات ومن وصايا الشهداء، ونشر بعضها في كتيبات، وقدمت منها برامج في الإذاعة خاصة البرنامج الصباحي «ماذا يجري في الجبهة» لكننا بحاجة إلى عمل متكامل منها يخاطب المسلمين والعالم، ويقدمها لهم بوسائل مكتوبة ومسموعة ومرئية .

الغيب للعمل وليس للترف

على أي حال؛ لقد استغرقنا أكثر الوقت في الحديث عن جوانب متنوعة من الغيب، وأكثرها جوانب عملية والحمد لله، وأحب أن أتحدث في الوقت الباقي عن الجوانب الأكثر مساساً بعملنا.. إن الاتجاه العملي في الإسلام أمر ثابت في كل الحقائق التي يقدمها والمواضيع التي يطرحها.. إن القرآن المجيد كتاب عملي من ألفه إلى يائه، وإن كافة أسسه الفكرية العميقة وبناءاته الفوقية العالية موضوعة للحياة الإنسانية على الأرض، فهي جميعاً تنطلق منها وتعود إليها.. لا يشذ عن ذلك مفهوم واحد ولا توجية واحد..

والغيب الذي يقدمه القرآن ويدعونا إلى الإيمان به والتعامل معه؛ جميعه غيب عملي، يرتبط بعملنا الشخصي والاقتصادي والسياسي والحضاري، وأوجه نشاط الجماعة البشرية ومسيرتها.. ليس فيه جنوح نظري ولا رهبانية وعزلة عن ساحة الحياة.. وهذا الأسلوب في فهم الغيب ومعايشته هو ما نعبر عنه بالنمط الفقاهتي الجهادي..

أكبر مسألة يقدمها القرآن عن الغيب مسألة الهيمنة الإلهية على الكون والحياة والمستقبل.. ولكن هل يقدمها كقضايا مستقلة تحت عناوين خلق الله للسماء وهيمنته عليها.. وخلق الله للأرض وهيمنته عليها.. وخلق الله لعوالم الجماد والنبات والإنسان وهيمنته عليها.؟ كلا، إنما يقدمها دائماً لحاجة الإنسان لحركة حياته وحركة مجتمعه وصراع الحق والباطل فيه، فكلها من أجل هذه الحاجة، وبقدرها لا أكثر..

يأخذنا العجب والخشوع عندما نلاحظ دائماً الهدف العملي في القرآن من تقديم حقائق الغيب الكبرى التي تبدو أكبر من الإنسان وعمله . .

والمسألة الثانية في القرآن غيب الآخرة وقوانينها ومشاهدها وأحداثها . . كلها أيضاً لحاجة الإنسان وحركة حياته . .

الإنسان في القرآن هو المحور، وحركته في الأرض هي القضية، وكل الغيب من أجل خدمتها . . والغيب الذي تقدمه السنة الشريفة يسير على نفس المنهج، ويفصّل نفس الخط العملي القرآني ويفسره . . فالغيب في الأحاديث الشريفة من أجل العمل وحركة الحياة، وليس من أجل الترف الفكري والتحليق المعزول عن الحياة . . بل نجد أن النبي (ص) والأئمة (ع) يحدون من فضول المعرفة عندالمسلمين ،عندما يطلبون منهم معرفة ما لا يحتاجون إليه أو لا يطيقونه. أما إذا رأوا من أحد جنوحاً إلى الغيبيات عن العمل والجهاد، فيحكمون بأنه خروج عن السنة ومخالفة للشريعة . .

من أجل ذلك أرجو أن تميزا بين مسائل الغيب العملية التي ينبغي أن تهتما بها، وبين تلك المسائل النظرية التي لا سبيل إلى معرفتها، أوْ لا تنفع المسلمين . .

إن الميزان في ذلك هو الحكم الشرعي، الذي يحكم بأن اهتمامي بهذه المسألة من الغيب واجب أو راجح، أو ترف فكري وبطالة . .

مثلاً ينشغل بعض الناس بغيب الروح ومحاولة استحضار الأرواح لسؤالها عن الأموات والأحياء . . وينشغل بعضهم بأقوال المنجمين والفآلين، أو بعمليات التنويم المغناطيسي ونقل الأفكار «التلباثي» أو بمحاولة التنبؤ بالمستقبل عن طريق الرياضة النفسية أو عن طريق الأحلام، أو عن

طريق علم الحروف والأعداد من القرآن الكريم، وبأعمال أخرى من هذا القبيل. . إن الاهتمام بهذه المسائل ما لم يقم على أساس علمي، وما لم يكن للمسلم منه هدف محدد ينفع المسلمين، فهو على الأقل انشغال بغيبيات غير عملية؛ أما إذا أضر بأحد من المسلمين فهو حرام بفتوى الفقهاء . . وينشغل بعضهم بمسائل فكرية وفلسفية عن غيب خلق الله تعالى للكون وكيفية إدارته له، مما لم نكلف علمه أو لا نستطيعه إذا تكلفناه. .

إن عمر أحدنا لا يكفي لمتابعة بعض مسائل الغيب وحقائقه، فبعض مسائله فلسفية اختصاصية لا يتيسر لعامة المسلمين استيعابها والانشغال بها، وبعض مسائله التي يؤمل نفعهاللمسلمين،مثل الأحلام والتنويم المغناطيسي والتلباثي تحتاج إلى اختصاصيين ومؤسسات. . فكيف يسمح المسلم لنفسه أن ينشغل بها انشغالاً سطحياً غير علمي، ويترك معايشة ما كلفه الله به ودعاه إليه. .

إن فضولنا لمعرفة عوالم الغيب الكثيرة والعظيمة التي تحيط بنا أو تعيش بين أضلعنا أو في رؤوسنا، بل لمعرفة غيب المادة التي نتصرف بها بأيدينا وأجهزتنا. . لا يشبعه إلا أن ننتقل إلى الآخرة حيث يكشف الغطاء عن أبصارنا. .

ستجدان هذه الآيات والأحاديث الشريفة التي اخترتها لكما عن الغيب تتعلق جميعها بسلوك الواحد منا، ابتداء بغيب الملائكة المحيطين به الذين يمثلون جانباً من هيمنة الله عليه ورعايته له ورقابته لعمله. . ثم الغيب الذي يجري له عند موته، وفي القبر، والبرزخ، وعالم الآخرة. .

فالإسلام إذ يكشف للإنسان هذاالغيب المحيط به وبمستقبله ويدعوه إلى معايشته، يقرر أن الإنسان إنما يصلح لحركة الحياة وتصلح به، إذا

انسجم مع هذا الواقع حوله وأمامه، أما إذا لم ينسجم فإنه يفسد، ويُفسد الحياة من حوله . .

ليس المهم لنا أيها العزيزان أن نتلقى آيات الغيب وأحاديثه على أنها معلومات نُثري بها معرفتنا، فما هكذا تلقاها المسلمون من رسول الله (ص)، ولا هكذا تلقوها من الأئمة الطاهرين والفقهاء المجاهدين . . إنما تلقوها حقائق هزت وجدانهم فخشعوا لها وعايشوها، وقدموا بها الإسلام إلى الشعوب إيماناً عميقاً حيوياً بغيب الله تعالى .

أنا الروحاني حسب تعبيرهم، الذي أعرف خمسين آية وحديثاً عن الملائكة المحيطين بالإنسان المرافقين له . . عن الملك الذي يمنع عنه طوارق النجم الثاقب، وعن المعقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، ويدفعون عنه أنواعاً من الأخطار والأقدار والشرور، وعن روح الإيمان الذي يؤيد به المؤمن، ويذوب خجلاً ويبتعد عنه إذا عصى الله، وعن الملائكة الذين يرافقونه ويدعون له إذا سعى في خدمة مؤمن، أو إلى صلاة جماعة أو جمعة، أو يحيون طالب العلم بخفض أجنحتهم، وعن الملكين الذين يكتبان كل قول ينطقه، فيرفعانه إلى ملكين فوقهما يفرزان منه الخير والشر فيحفظانه، ويلقيان ما ليس بخير ولا شر، وعن نظام عملهم، وفرحهم بالقول الطيب والعمل الصالح، ووفائهم لصاحبهم المؤمن بعد موته . . أقول ما قيمة معرفتي بهذا الغيب المحيط بي واستكثاري من تفاصيله إذا لم أستفد منه . . وهل تساوي كلها قيمة كلمة واحدة سمعها مسلم أو قرأها عن وجود ملكين مرافقين له يكتبان حسناته وسيئاته فآمن بغيب الله وعايشه، وأصبح أول ما يستيقظ من نومه يذكر الله تعالى فيقول: الحمد لله الذي بعثني من مرقدي ولو شاء لجعله عليَّ سرمداً . . السلام عليكما أيها الملكان الكريمان ورحمة

الله وبركاته . . أو عندما يؤذيه مؤمن ويغضبه فَيهمّ بشتمه، فيتذكر ملكيه فيقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، الآن أشتمه فيكتبان ذلك في صحيفتي، فيعرض عنه . . أو عندما يخطئ ويعصي الله تعالى، فيبادر إلى التوبة وإصلاح الموقف قبل مضي سبع ساعات، لأن كاتب السيئات مأمور أن يعطي المؤمن مهلة سبع ساعات فلا يكتب سيئته لعله يتوب منها، أو يتبعها بحسنة تمحوها . .

ما قيمة كل معلوماتي عن الملائكة المرافقين لي إذا لم أستفد منها في حفظ سر مؤمن، بينما حافظ عليه مسلم أمي، وقال لمن ألح عليه أن يخبره به: يا أخي لقد سمعت أن الملكين المرافقين إذا خلا المؤمنان يتحادثان سراً يقول أحدهما للآخر تنح بنا فلعل لهما سراً، فإذا كان الملكان الكاتبان لا يحبان الاطلاع على سر المؤمن، فكم هي حرمته وكم هو إثم من يذيعه . ؟

المسألة ليست مسألة معلومات أيها العزيزان، إنما هي مدى الصدق مع النفس ومع الله تعا ى وعباده، مدى الجدية التي نعيش فيها الحياة وحقائقها، أو مدى اللعب والخمول والباطل الذي نستسلم له . .

الحياة في نظر شريعة الله جد كلها، حتى في الفكرة والصورة التي نشغل بها ذهننا، أما إذا وصلت إلى كلمة نقولها فهي الجدية والخطورة والتسجيل والثواب والعقاب . . فكيف إذا تجاوز الأمر الكلام إلى عمل وتعامل ومجتمع وحضارة . .

قد نتمنى أن يكون في المسألة حل وسط لمن لا يريد أن يعيش الحياة بجدية الإسلام فلا يكتب له ثواب ولا يكتب عليه عقاب، ولكن هل يجب أن تكون الحقيقة على ما نتمنى . . إنها مضافاً إلى جديتها خطيرة أيضاً . . فلا وسط بين الحق والباطل، والجنة والنار، والنجاح والرسوب . .

أفكر في بعض الأحيان ؛لماذا كان كلام الإنسان على هذا الجانب العظيم من الجدية والخطورة، التي يكشفها القرآن والسنة. ؟ ملائكة، وتسجيل ، وتقييم، ونظام محاسبة،وأرشيف. . إلى آخره. . ولكن هل تصلح حياة الإنسان إذا لم يصلح كلامه، وهل يصلح كلامه إلاّ بالكشف عن هذا الغيب المحيط بمنطقه، وتوعيته على جدية الأمر وخطورته. .

وأفكر أحياناً؛ كم ترى يبلغ مجموع ما سجله عليّ ملائكتي من سيئات القول فقط منذ أن بلغت سن التكليف إلى يومي هذا. . وما يكون حالي إذا ذهبت إلى ربي فحاسبني به ووضعه في ميزاني. . وهل عندي ما يقابله ويفوقه من حسنات حتى ترجح كفتها وأنجو. . وأنّى لي بعلم ذلك. ؟ إن سيئاتي مؤكدة، ولكن حسناتي مشكوكة القبول. .

أقول لنفسي أحياناً المسألة جدية وخطيرة ، وكلمات الإنسان فضلاً عن أعماله إنما هي خطوات في طريقه إلى الجنة أو النار، فَلأنتبهْ إلى ما أتكلم به في هذا الموضوع، أو في هذه الجلسة التي أقصدها. . ثم أراني أتذكر قليلاً وأغفل كثيراً! وأراني خالفت ما كنت قررته من مجاهدة نفسي وقول الحسن وترك السّيئ . .

المسألة تكمن في هذه اللحظة الخاصة ،العقلية والنفسية التي نتلقى فيها المعلومة من غيب الله المحيط بنا، فتؤثر فينا شعوراً عميقاً مباركاً طوال حياتنا. .

كثيرون هم الذين يقرؤون حقائق كبيرة أو يسمعونها أو يرونها، ثم لا يفيدون منها، وليس العيب في الحقائق، بل في العقول الباردة والقلوب الخاملة. . في الزمن المسطح الذي نعيشه بلا ومض ولا إشراقة ولا لوعة. .

هذه هي الحقائق في مدينة النبي وآله (ص) ، وفي مكة المشرفة، وفي صحراء الحجاز وسمائه، تصرخ في مسامع الحياة والجماد، وتسطع بأشد من نور الشمس. . فهل ترون أن كل من يجيء إليها يفيد منها كما ينبغي . ؟ مع أن هؤلاء الحجاج عموماً من خيرة الأمة الإسلامية، وكلهم تقريباً يغترف بقدر إنائه ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ .

هذه حقائق الإيمان وظواهر الغيب تملأ الكون ، وتزدحم في كل مجال يعيش فيه إنسان، وتنبث آياتها على كل موجة. . أفترون كل الناس يلتقطون موجاتها ويتفاعلون معها. ؟ ليس النقص في البث الإلهي يا دكتور، فهو موجود على كل أصعدة الشهادة والغيب وبأنواع الذبذبات، وإنما النقص في أجهزة التقاطنا نحن عندما نشوش عليها، أو نحدث فيها خللاً، أو نعطلها كلية ، أعاذنا الله من ظاهر الإثم وباطنه . .

كيف نتعاطى المعرفة

لقد جئتما أيها العزيزان من آخر أوروبا إلى حج بيت الله تبارك وتعالى وزيارة قبر نبيه وآله (ص). . وقصدتما بعثة الإمام تطلبان العلم، وتريدان معرفة المزيد عن حكمة الإيمان بالغيب في الإسلام، وعن تفاصيل الغيب. . فاعلما أيها العزيزان أن الأهم من المعرفة، هدف المعرفة، والأهم من طلب العلم، حالتنا عند طلب العلم وتلقي المعلومات. . فربما غلبت على حالتنا عند طلب العلم روح الجدل والنقاش وحبّ المحاكمة والتخطئة والتصويب، وهي حالة تغلب عادة على سن المراهقة والشباب، أو في مرحلة المراهقة الفكرية، أو تكون حالة مستحكمة فتدوم طول العمر. .

وربما غلبت على حالتنا روح الجمع وحب العلم للعلم، يريد أحدنا أن يعرف ثم يعرف، من هذا العالم وذاك؛ ومن هذا الكتاب وذاك، كمن يحب جمع المال وكنزه. .

وربما غلب على حالتنا طلب العلم لله تعالى من أجل العمل به. . وهي وحدها الحالة المباركة التي تتضمن المحاكمة الهادئة العميقة لما نتعلم، وتتضمن تنمية ثروتنا من العلم، دون أن نصاب بأمراض الجدل والمراء والكنز والتخمة، لأن فيها سراً من الوعي والصحو، والرقة والإرهاف، يجعل أنفسنا مشرقة على العلم مشرقة به. .

أعرف طالباً جيد الذكاء كان يدرس ويتعب، تباحثت معه فترة في النحو

والمنطق فأعجبتني قدرته في الإشكالات على المؤلف وعلى رفقاء البحث، ولكن بحثنا معه لم يدم طويلاً، فقد كان الوقت يضيع تقريباً في إشكالاته الكثيرة والجاهزة.. ومرت السنون وجاءت أحداث الثورة، فسمعت اسم صاحبي في الذين لم يتوفقوا للمشاركة فيها بل في المنتقدين، فسألت عن منزله وقصدته، وكانت جلسة ذكرتني بجلسات المباحثة معه في النحو لأنها لم تختلف عنها في شيء، فالروح التي يتعاطى فيها مع الثورة هي الروح التي كان يتعاطى فيها البحث، نقداً وإشكالاً، واحتمالاً للفشل، واحتمالاً للإثم في دماء الشهداء وسجن المسجونين.. إلى آخره.. إنها مصيبة أن تسيطر على أحدنا حالة الجدل في طلب العلم، فلا تسمح له بنصيب يذكر من العلم أو العمل..

وربما نجد طالب علم كالتاجر البخيل الدؤوب في الكسب والجمع، فهو يحضر الدورس والأبحاث، يستمع ويستمع ثم يقرأ ويقرأ.. حتى تحول روحية الجمع والادخار بينه وبين خدمة تذكر للإسلام والمسلمين، فيكون كالذي جمع في رأسه مكتبة أو في بيته وبذل لها عمره ولم يستفد منها غيره حتى ماتت بموته..

أما طلاب العلم لله تعالى، فنراهم في سنوات قليلة يبنون بالعلم شخصيتهم الروحية والعلمية والعملية، ويفيضون نور العلم والعمل على المسلمين في نطاق قليل أو كثير، حسب ما يرزقهم الله تبارك وتعالى..

في الحديث الشريف: «مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ، رَزَقَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وهكذا فالمعلومة الإسلامية شمعة أو سراج، إن وقف بها الإنسان أضاءت حولها أو حوله فقط، وإن مشى بها أضاءت له على حقائق جديدة في الطريق ورزقه الله بها علماً جديداً..

العلم نور، والعمل حركة في النور واستثمار له واكتشاف به . .

«وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلْ» كما ورد أيضاً في الحديث الشريف، فما لم تشرق المعلومة رؤية في عقلي وما لم تجش نبضاً في قلبي وتترجم إلى حياة. . رحلت عني وتركتني فقيراً. .

أقول ذلك أيها الأخوان لأني أحسست فيكما الإقبال على المعرفة الإسلامية، وأحب لمثلكما أن تكونا في أحسن الحالات العقلية والنفسية التي يحبها الله تعالى لعبده المؤمن، عند تلقي المعلومة الإسلامية.

أحب لمثلكما أن تكونا نموذجين للمثقف المسلم المؤمن، أن تكونا سفيرين لنا في بيئتكما الغربية، في مسألة من أعظم مسائل ثقافتنا وحضارتنا التي يفتقر إليها الغرب، وهي مسألة الصدق في تعاطي المعرفة، هي الحالة العقلية والنفسية السليمة عند تلقي المعلومة وإعطائها. وهي حالة لا يمكن أن يحققها إلا الإسلام. .

صحيح أن الإنسان بفطرته صادق في طلب العلم والمعرفة، وأنه يطلبها للعمل، ولكن ثقافة هؤلاء الغربيين شوهت فطرتهم وفطرة من تأثر بهم إلى حد المسخ. .

إن أملي بمثقفيهم ضئيل جداً، لأنهم لا يملكون حالة سليمة عند طلب العلم وتعاطي المعرفة، إنهم فقراء في المعرفة الإنسانية، لأنهم يكافحون لكي لا يعرفوا غير المعرفة المادية. . أقدّر لو أننا التقينا معهم في مؤتمر علمي حول أي مسألة هامة وعظيمة من مسائل ومشاكل الفكر والحضارة التي تئن منها البشرية، لما استطعنا أن ننتصف منهم. . بينما نحن ننصفهم من أنفسنا أول ما نرى وجه الحق عندهم، ووجه الخطأ عندنا. . أحسبني لو حاضرت

فيهم في مسألة التمييزالعنصري، وخطأ الأساس الذي يتبنونه في العلاقات بين الشعوب وصحة الأساس الإسلامي، أو في مسألة الغيب والمادية، أو في مسألة خطأ علاقتهم باليهود والمسلمين، أو في مسألة حاجة أوروبا الشديدة إلى الإسلام.. إلى آخره.. وتكلمت في موضوع منها ساعتين بأسلوب علمي أكاديمي كما يقولون، معزز بالشواهد والأرقام.. لكان تعليقهم على كلامي أنه عالم مطلع أو خطيب متمكن، ولكن ماذا يريد الإيرانيون من هذا الكلام، هل يريدون أن نسمح لهم بالعمل بين الشعوب الإفريقية، أم يريدون أن نخفف عنهم ضغط إسرائيل، أم يريدون أن نسمح لهم بغزونا ثقافياً.؟!!

إن حالتهم النفسية تمنعهم من رؤية المعلومة والتفاعل معها، فهم كالطاغوت الذي يسمع صراخ من يستغيث من ظلمه فيعلق على ذلك قائلاً: إن صوته جميل، أو يسمع نداء من يحذره من خطر فيقول: إن صوته جهوري، ولا يرى في الأمر أكثر من ذلك..

أشعر بأن المثقفين الغربيين شركاء حقيقيون لطواغيتهم السياسيين، وأنهم جميعاً كما يقول عز وجل: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونْ﴾.

إنما أملنا بجمهورهم الشعبي الذين يوجد فيهم بقايا فطرة، والذين يعانون من استضعافهم على أيديهم، فعند هؤلاء تجدون الصدق في تعاطي المعرفة..

كيف يتلقى المسلم معلومة الغيب

وإذا كانت كل معرفة تحتاج إلى حالة عقلية ونفسية سليمة عند مباشرتها؛ فإن معرفة حكمة الغيب وتفاصيله أيها العزيزان أشد حاجة إلى ذلك، لأنها حديث عن عالم أو عوالم تختلف وحداتها القياسية عن عالم المادة والشهادة، مما يجعل المعلومة غريبة على مألوفنا من الأشياء. .

الوحدة الزمنية في عالم الغيب تختلف عما عندنا، والوحدة المكانية أيضاً، وتكوين الملائكة ومخلوقات الله الأخرى، ونظام الحياة عندهم، والغذاء والحركة والعمل، إلى آخره. . هذا ما نفهمه من آيات كتاب الله تعالى وأحاديث نبيه(ص)،الذي آمنا بصدق كل ما أخبرنا به حتى لو كان بمقاييس أخرى ولا نعرف حقيقتها. .

المسلم الذي يعيش الإيمان العقلي والنفسي بنبوة سيد المرسلين محمد (ص) يجب أن يتلقى المعلومة عن الغيب بإيمان عقلي واطمئنان نفسي، فإن لم يجد لديه هذه الحالة فليراجع إيمانه أولاً وليكتشف فيه الخلل: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ التسليم هنا يعني التسليم بما جاء به(ص)،وهو تعبير عن طمأنينة النفس بعد طمأنينة العقل. .

رأيت بعض المثقفين المسلمين مهزوماً أمام الثقافة الغربية،إلى حد أنه يحب أن يفسر الجنة والنار وحساب الحشر والبرزخ والملائكة وكل الغيب

بمعان رمزية . . يتصور أنه بذلك «يعصرن» الإسلام ويحببه ويحبب نبيه إلى الماديين. هداك الله يا هذا، هل يجب أن تعرض جواهر الإسلام في سوق الفحامين فتقول إنها فحم حجري . . إذا كنت تستحي بها فدعها ولا تظلمها؛ ولا تظلم من جاء بها نقية من عند الله عز وجل . .

وبعضهم يشكل على الأحاديث الشريفة التي تذكر عدد الملائكة بألوف الألوف، وأن بعضهم يخترق جسمه السماوات السبع إلى تخوم الأرض، بينما تذكر أن الملكين الكاتبين يكونان على يمين فم الانسان وشماله، وأن بعض الملائكة نصفه نار ونصفه ثلج ،فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار، وأن بعضهم له ألف الف جناح، إلى آخره . .

ولكنك ياأخي ،هل عرفت كل موجات الضوء وموجات الصوت الموجودة في أرضك وكيسها الهوائي، وعرفت أطوالها وخصائصها، حتى تعرف أن أجسام الملائكة النورانية تكون هكذا أو لا تكون . .؟ هل عرفت قوانين الحركة والطيران بين الأرض والسماوات وكم تحتاج إلى أجنحة . .؟

فإذا كانت فيزياء المادة التي تراها وتلمسها تتسع لما لا يخطر لك على بال، فلماذا تريد أن تفصّل العوالم الأخرى على مألوفاتك، وتحبس موادها وقوانينها في حدود ذهنك . .

يا أخي هداك الله، إن عالم الغيب يختلف في قوانينه عما تألف، وهو يحتاج منك إلى أن تطلق ذهنك إليه، لا أن تحاول جره إليك وإخضاعه لظاهر قوانين المادة . .

وبعضهم يقول إن الأحاديث التي تذكر أن الإنسان يملك في الجنة أضعاف مساحة الكرة الأرضية ومئات القصور والحدائق، وعدداً كثيراً من

الحور العين . . لا بد وأن يكون فيها مبالغة من الـرواة . . ولماذا يجب أن يكون فيها مبالغة ، فهل عرفنا نمط الحياة وقوانينها في الآخرة ، والتطور الذي يحدث على تكوين الإنسان وحركته . . لو كنا حدثنا أحداً قبل قرون عن نمط الحياة الذي يوجداليوم ، فقلنا له إن بعض الناس سيكون له قصور في نقاط مختلفة من شرق الأرض وغربها ، ويعيش متنقـلاً بينها ، لتعجب من ذلـك واستكثره ، لأنه لم يكن يتعقل أن يعيش الإنسان في هذا النطاق الواسع . .

نعم إن أحاديث الغيب وتفسير المفسرين لآياته ، لا بد أن تخضع لقواعد البحث العلمي كغيرها من الأحاديث والتفاسير ، وقد يكون فيها مـا لا يصح الاعتماد عليه . . ولكن محاولة إخضاعها لقواعد المادة عمل غير علمي . .

على أن الهدف من إطلاع المسلم على نصوص غيب كتابة الأعمال ، وغيب الموت والبرزخ والحساب والجنة والنار ، هو تكوين تصور ينفعه في مراقبة عمله ، ولا يضر بالصورة أن يكون فيها نقص أو زيادة . .

ما دمتما أيها الأخوان مؤمنين بالإسلام وغيبه والحمد لله ، فليكن همكما من قراءة هذه النصوص المقدسة موعظة نفسيكما وموعظة من تستطيعان . . افتحا ذهنيكما وقلبيكما لآيات الله تعالى وأحاديث رسـوله ، فـالقضية جـد كلها ، وهي تهم كل واحد منا غاية الأهمية لأنها تعني مصيره ، تعني ما يحيط به ويجري عليه . . وإن فيها حقائق وصوراً بليغة عن قصة أحدنا في سلوكه وفي رحلته من عالم الشهادة إلى عوالم الآخرة ، وفي موقفه مع ملايين بني آدم في يوم الحشر الأكبر ، يحيط به ملكاه السائق والشهيد ، ومحاسبتـه ومصيره النهائي إلى جنة أو إلى نار . .

الغيب من حولنا وأمامنا

لقد استفدت البارحة من قراءتي لهذه النصوص المقدسة في تجديد تصوري عن الغيب الذي يرافقني وينتظرني، وأختم حديثي بذكر بعض الملامح أعظ بها نفسي وإخواني. .

يتساءل الإنسان وهو يقرأ آيات وأحاديث كتابة الأعمال عن سبب تركيز الإسلام على الرقابة الإلهية على كلام الإنسان أكثر من الرقابة على أفكاره وأفعاله. . فالنصوص في رقابة الكلام وتفاصيلها أكثر من نصوص رقابة النوايا والأفعال بأضعاف مضاعفة. .

هل يكشف ذلك عن حقيقة واقعية مفادها أن فعل كلامنا في صناعة شخصياتنا وحياتنا ومستقبلنا أهم من فعل أفكارنا وأفعالنا. . شبيهاً بالنظرية القائلة «إن حقيقة المادة إنما هي نوع من الموجات، وإن لموجات كلماتنا تأثيرات عميقة فيها وإن لم نكتشفها بعد»؟

أو يكشف التركيز على كلام الإنسان عن أن قيمة كلامنا في الدلالة أكثر، وأن الملائكة يفهمون من كلام أحدنا كل أفكاره وأعماله وقيمتها، شبيهاً بالنظرية التي كان برتراند رسل مغرماً بها والتي تقول «إن فلسفة الحياة والشعوب والحضارات كامنة في اللغة، فاللغة تحتوي على كل خصائص حياة الإنسان». . ؟

أم يكشف عن حقيقة تربوية مفادها أن صلاح الإنسان يبدأ وينتهي

بإصلاح كلامه، وأن معاناة المسلم في هذا المجال سوف تؤدي إلى تصحيح أفكاره وأعماله تلقائياً. . ؟

على أي حال، لأمر ما كان هذا التركيز على الرقابة الإلهية على الكلام. . وهي رقابة عجيبة يلفتك فيها دقتها ودقة نظامها، حيث يقوم بأدائها جهاز مفصل يتكون من ملايين الملائكة، يتنزلون من السماء الرابعة حيث يوجد مركز إدارتهم، ليرافقوا ملايين الناس ويكتبوا أعمالهم، وكلامهم خاصة. . ويكون نصيب الإنسان الواحد ثمانية منهم على الأقل، يتنزل أربعة منهم مع الفجر لكتابة عمله في النهار، وأربعة لكتابة عمله في الليل. . وكيف يقوم بعضهم بالكتابة والتسجيل بما يعلم الله من وسائل، ويقوم بعضهم بالفرز والتقييم. . وكيف يرفعون عمله أسبوعياً أوشهرياً، ثم يضمونه إلى أرشيفه الذي قد يكون على أنواع متعددة، وقد يكون الكتاب الذي يقدم إلى أحدنا في الآخرة فيقال له: ﴿إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبَاً﴾ أحد أنواع التسجيل أو خلاصة منه. . إلى آخر ما يعلمه الله. .

ويلفتك في نصوص هؤلاء الرقباء العتداء هذا الأدب الملائكي الرفيع مع الإنسان، وهذه العلاقة الحميمة الحنونة التي تشد ملائكة المؤمن إليه، وسرورهم العميق بصلاته وتسبيحه وكلماته الطيبة، ووصف حزنهم عليه عندما يموت، وشكواهم إلى الله تعالى فقده وانقطاع عمله من الدنيا، فيأمرهم الرحيم عز وجل أن يصلوا على قبره إلى أن يبعث، ويجعل ثواب عملهم له.

***

ويلفت الذهن من أحاديث قبض الروح الحديث القائل بأن النبي (ص) رأى في رحلة عروجه فيما رأى من آيات ربه مَلكاً مكباً على لوح من نور ينظر فيه ولما سأل عنه أخبروه أنه عزرائيل عليه السلام يقوم بمهمته. .

ما هذا اللوح من النور، وهل ترتسم عليه الأوامر الإلهية بقبض الأرواح، فإن عزرائيل عليه السلام، لا يملك أن يقبض روح إنسان إلا بأمر من الله، وكيف يصدر عليه السلام أوامره اليومية بقبض الأرواح إلى جهازه الذي يتكون من ملايين الملائكة، ويعين لهم آخر نفس وآخر لحظة من عمر الشخص، وأسلوب التعامل معه، وإلى أين ينقلون روحه . .

ثم الأحاديث الأخرى التي تشرح الصور البليغة التي يقدمها لنا القرآن المجيد عن الأجل المحدد لكل واحد منا، وعن ساعة احتضاره وعملية إخراج روحه من جسده، بدءاً من قدميه، ثم إلى كتفيه، ثم إلى حلقومه، ثم إلى خارج بدنه . . هذه العملية التي يسميها عز وجل استيفاء ليذكرنا بأن وجودنا في هذا الجسد وهذه الحياة وديعة وأمانة، سوف يستوفيها الملائكة ويعيدونها إلى موطنها الأصلي . .

سبحانك اللهم ما حقيقة هذه الروح، وما سر انسجامها وتفاعلها مع هذاالجسد الذي ليس من نوعها، وهل كانا من تراب فصارا غذاء، ثم صارا توأماً في النطفة، ثم أخذ ينمو كل منهما بقوانين تختلف عن صاحبه ؛ فالبدن ينمو بقوانين عالم الشهادة، والروح تنمو بقوانين عالم الغيب، ثم يبقيان متآخيين متفاعلين حتى يتم الفراق . . ثم يعودان نشئاً جديداً فيلتحمان!؟

أم أن أبداننا من تراب هذا الغذاء الذي يتغذاه أبوانا ثم نتغذاه من أمنا في الرحم ،بينما أرواحنا جزء من تلك النفخة من روح أبيناآدم وأمنا حواء ،وصلت إلينا عبر توارث الآباء والأمهات . .

وهذا النزوع الذي نحسه في أرواحنا إلى الغيب والخلود، هل سببه أن روح أحدنا من نوع الملائكة والغيب ،فهي ترفرف دائماً بأشواقها رغم الأثقال والقيود، حتى تنفلت منها . ؟

وكيف نعيش منذ الموت إلى البعث بأرواحنا من دون أجساد، فتكون حياتنا أعمق وأغنى، ومستوى وعينا أعلى، حتى أن نسبته إلى وعينا الحالي كنسبة اليقظة إلى النوم،كما قال الصادق الأمين(ص)«النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا» ثم كيف تكون تلك اليقظة العقلية والنفسية مثل النوم بالنسبة إلى اليقظة الكبرى،يوم نبعث بأرواحنا وأجسادنا من جديد كما قال الصادق الأمين (ص) «واللهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَإِنَّهَا لَلْجَنَّةُ أَبَداً، أَوِ النَّارُ أَبَدَاً» ؟

آمنت بالله، وماذا عرفنا عن أنفسنا في عالم الشهادة، حتى نعرف عنها في عالم الغيب. ؟ يبدو لي أن ولادة أحدنا من جسده أعظم من ولادته الأولى بكثير. . وأن ولادتنا في يوم القيامة هي الولادة الكبرى. .

أجل، إنما الموت ولادة، ونحن بعملنا نحدد خصائص وجودنا الآتي، كل المواصفات التي سنولد فيها، حتى اللون والشكل ودرجة الفهم والذكاء. . فالروح تخرج من البدن كما في بعض الأحاديث وكما يفهم من الآيات،مطبوعة بطابع عملنا..وتعيش في نعيم أو عقاب، في نموذج مصغر عن الجنة والنار. .

ومن عجيب ما يلفتنا في غيب البرزخ،أن الروح تظل تحن إلى الجسد وتبكي عليه وتزور قبره. . أما في أيام الفراق الأولى فقد ورد أنها ترافقه وتعاد إليه ليحاسب الحساب الأوّلي في القبر. .

ما ندري هل هي عودة طويلة، أم تكون مدتها لحظة، أو أنها تحسب بحساب زمن آخر غير زمن الشهادة. . وما ندري هل تستطيع وسائل العلم أن تكتشف عودة الروح هذه أم لا تستطيع. .

سبحان الله، ما هذه العلاقة بين روحنا عندما يكون أحدنا في البرزخ وبين هذه الذرة الجوهرية في جسد كل واحد منا، والتي لا تتحلل ولا تفنى كما تذكر الأحاديث الشريفة، والتي تحمل كل خصائص ولادتنا الجديدة كما تحمل النواة خصائص شجرتها، والتي يجمعها الله تعالى ويأتي بها أينما كانت ولو كانت في حواصل الطيور ولجج البحار، ثم يغرسها في الأرض كما تغرس البذور في المشاتل، حتى تنمو وتكتمل فتعود إليها الروح، وتلتحم معها في شكلها الجديد، ثم نبعث من قبورنا أو مشاتلنا في القيامة الكبرى، ونتوجه إلى ساحة المحشر ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ وتقوم الملائكة بتنظيم صفوفنا للحساب مئة وعشرين صفاً! أربعين منها من الأمم الأولى قبل النبي (ص) وثمانين من الأمة الآخرة بعده (ص).

اللهم ارحمنا في ذلك الموقف المهول الذي وصفته في كتابك بأبلغ الأوصاف، ووفقنا للاستعداد له ونجنا من أهواله..

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

اللهم ارحمني يوم آتيك فرداً شاخصاً إليك بصري، مقلداً عملي، قد تبرأ جميع الخلق مني، وأبي وأمي ومن كان له كدي وسعيي..

كان الشيخ الطبري يقرأ الآيات والدعاء بعمق وهدوء ويترجمها، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فانفجر أصغر بالبكاء، وبكى الدكتور..

ثم تابع الشيخ الطبري: تقرآن في القرآن عن تطورات كثيرة تحدث في السماء والأرض، يمكن أن نسميها قيامة الكون، وهي التي تحدث بعد انتهاء

الحياة على أثر النفخة الأولى في الصور، كما في الآيات والأحاديث الشريفة، بل يبدو أن الكون كله ينشأ إنشاء جديداً ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ . كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينْ﴾ .

ولا يبعد أن تكون فروق الكون الجديد عن الكون الفعلي كثيرة، فالشمس والقمر يجمعان وينتهيان، بينما تعاد الأرض مشرقة بنور ربها، وقد تكون بأضعاف حجمها الفعلي، وقد يشمل التطور والتغيير حتى النظام المحوري الفعلي للكواكب والنجوم . . ومع ذلك يتم الاحتفاظ ببذور الناس لإنشاءتهم في النشأة الآخرة . .

على أي حال ، هذا شأنه وشغله عز وجل، ولم يكلفنا علمه ، وفيما عرفنا منه من لوحات في القرآن كفاية من المعرفة . . المهم أن نعرف ماذا يجب علينا فنتأهب . . فقد ورد أن الحساب خمسون مرحلة أيها الأخوان، والإمام زين العابدين يطلب في دعائه من الله العون عليها . .

ما أدري ما هي الخمسون مادة التي سيجري حسابي عليها، وكيف توزع الدرجات على كل منها، وكيف يؤخذ المعدل النهائي الذي يتقرر بموجبه أن أكون فائزاً أم راسباً . . ولكن لا بد أنها مواد تشمل كل سلوك الإنسان الشخصي والعام، العقائدي والعملي، العبادي والسياسي والمالي والجنسي والعائلي . . إلى آخره . .

وما أدري كم تطول مدة الحساب، وكم يلاقي المقصر مثلي من آلام وأهوال . . هنيئاً للشهداء الذين يدخلون الجنة بغير حساب . . هنيئاً للصابرين الذين يوفون أجرهم بغير حساب . . إنه يوم مهول أيها الأخوان، وإن

آياته وأحاديثه لتقشعر من قراءتها الأبدان، فكيف بمشاهده. . اللهم أعذنا من كل ما يسخطك علينا يوم الحساب. .

ـ آمين. .

ـ ووفقنا إلى ما يرضيك عنا يوم الحساب. .

ـ آمين. .

ـ وارزقنا خوف يوم الحساب، وارزقنا الأمن يوم الحساب.

ـ آمين.

ـ ويبدو من الأحاديث أن الناس في المحشر يرون الجنة والنار، فقد يكون النظام الفلكي للكون مختلفاً كما ذكرت، ونظام البصر والإبصار أيضاً. . أما النار فهي صغيرة كما تدل الأحاديث، فهذا شأن السجن والعقاب أعاذنا الله.

ويبدو أن الصراط جسر ينصب من ساحة المحشر إلى الجنة وأن النار تكون تحته؛ وأن الناس بعد الحساب يؤمرون بالعبور ويحاولون ذلك جميعاً، ولكن أهل النار لا يستطيعون فيتساقطون فيها، جاثين على ركبهم كل في مكانه ومرتبته التي يستحقها، بينما يعبر أهل الجنة وينجون من النار قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا. ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

وللملائكة عليهم السلام في كل هذه المراحل أدوار فعالة واسعة؛ لكنها ربما كانت في الجنة أوسع أدوارهم وأروعها. . ولعل أولها تنظيمهم حفل التعارف العظيم بين ملايين أهل الجنة، ثم توزيعهم كلاً إلى مرتبته ومنطقة ملكه ونعيمه، وإرشاده إلى أصول الحياة الجديدة. .

هل عندكما تصور عن طبيعة الجنة ونظام الحياة فيها. . عن نوعية تربتها وأزهارها وثمارها وهوائها، عن بنية الإنسان الجسدية والروحية ونشاطاته فيها. . أقول هل عندناتصور،لأن غاية ما نصل إليه هو التصور الأولي والساذج أيضاً، فالجنة فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما في الأحاديث الشريفة. . فما تراه عيوننا محدود، وما تسمعه آذاننا محدود، وما يخطر على تصورنا أيضاًمحدود،بحكم أننا بشر نعيش في عالم التراب والبشرية المحدود. . أرجو أن تقرآ بإمعان صور حياة الجنة التي يدعونا إليها القرآن، الحياة العقلية والنفسية والمادية. . أن تفكرا في بعض مفرداتها الصغيرة من نوع قوله تعالى: ﴿**أَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**﴾ ﴿**لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً**﴾ أو قوله تعالى عن نوع من كؤوس الجنة ﴿**قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَاتَقْدِيراً**﴾أو قوله عن نوع من شرابها الراقي ﴿**عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾ أو في ترابها المسكي وحصاها من اللؤلؤ والياقوت والمرجان والأحجار الكريمة، وأنهارها الجارية من تحت القصور، وأشجارها وثمارها، وخدمها ونسائها وحورها. . وفي بعض ما ورد من أنواع التكريم الإلهي لعباده. .

كنت أفكر في أوصاف ثياب أهل الجنة الواردة في القرآن الكريم وأتصور أن إنتاجها يتم مثلاً من قبل الملائكة في مصانع متطورة، حتى رأيت أحاديث متعددة تذكر أنها تنتج نباتياً بواسطة . . . الأشجار. . نعم، ففي الجنة نوع من الأشجار تثمر ثياباً جاهزة بأنواع ومقاسات متعددة . . وقد يكون هذا الأمر العجيب من الأمور العادية البسيطة في الجنة. . آمنا بالله تعالى وبغيبه وإن لم نره. .

نعم، نعجب كثيراً عندما نقرأ عن غيب الآخرة والجنة، ولكن عندما نتفكر

في قدرته تعالى وعجائب صنعه في عالمنـا المشهود يـزول تعجبنا العقلي ويبقى عاطفياً فقط بسبب الإلفة وعدمها . .

بل عندما نتفكر في هـذه النزعـة التي نحسها في فـطرتنا إلى الخلود والحياة العليا نعرف أنها مؤشر على وجود الخلود والحياة العليا، تماماً كما نعرف أن نزعة الجوع مؤشر على وجود الطعام. ولعـل في هذا ا الكـائن الصغير مؤشرات إلى كل عوالم الشهاة والغيب.

عندما أقرأ في إعلام الغربيين سخريتهم من الجنة والآخرة أتذكر ما قاله القرآن عن سخرية أسلافهم، ويتأكد لي أنهم لا يؤمنون بالمسيحية والآخرة كما يدعون . .

ومن طريف أفكارهـم التي ينتقدوننا بها في هذا المجال أنهم يصفوننا بالطمع المادي لأننا نطمع في مقاومتنا لهم بالشهادة والجنة ونعيمها . . إنه نعم الطمع ونعمت المادية أيها السادة . . نتمنى أن يوجد عندكم شيء من هذا الطمع المشروع لعله يخفف طمعكم غيـر المشروع ونهبكم لثـروات شعوب العالم . .

دخل أحد الزهاد على هارون الرشيد ووعظه فاستحسن كلامه، وأراد أن يعطيه هدية أو جائزة فشكره واعتذر عن قبولها، فقال له: حقاً إنك زاهد . . فقال أيها الخليفة أنت أزهد مني ، قال: أنا زهدت في دنيا محدودة المتاع والمدة، أما أنت فقد زهدت في الآخرة ونعيمها الخالد . . وبهذا المقياس يصبح الماديـون زاهدين، ونصبح نحن ماديين طامعين بالجنة وفيما وعدنا الله تعالى . .

على أن هؤلاء الماديين فاتهم أننا إلى جانب طمعنا بالجنة نطمع بما هو

أعظم منها كما علمنا ربنا عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ فنحن لا نرى تنافياً بين الطمع بالنعيم المادي والمعنوي معاً، لا في الآخرة ولا في الدنيا أيضاً في حدود شريعة الله تعالى . .

إن النعيم المعنوي والسعادة الروحية التي تصفها الآيات والأحاديث الشريفة في الجنة أكبر وأعظم من النعيم المادي، وهما فيها كما في الدنيا الحلال يمتزجان وينسجمان ولا يتنافيان . .

من أحاديث أهل الجنة ، أن الله تبارك وتعالى يأذن لهم بزيارة عرشه ليكلمهم، فيؤتى لهم بنجائب من نور فيعرجون بها، فيرون في عروجهم وعند وصولهم إلى المكان المعد لهم من ملكوت الله عز وجل وآياته ما يشاء، فيخرون ساجدين قائلين: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك . . فيخاطبهم عز وجل: عبادي ارفعوا رؤوسكم فأنتم في دار الجزاء وقد انتهى التكليف بالعبادة . . ويأمر ملائكته الخاصين بإكرامهم وضيافتهم، ثم يلقي عليهم من نوره ما شاء، حتى أنهم عندما يرجعون إلى الجنة يتعجب أهلهم وخدمهم من نورهم الجديد، مع أنهم كانوا من قبل يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . .

أي نعيم معنوي من الحب والعشق والإجلال لله تعالى يجيش في قلوب أهل الجنة فيعبرون عنه بالسجود لعظمته سبحانه، فيشرفهم بكلامه وإكرامه ونوره . .

كنت أتساءل عن معنى قول سلمان الفارسي رضوان الله عليه: لولا هذا السجود لتمنيت الآخرة على الدنيا . . حتى عرفت من أحاديث السنة الشريفة أن وضع الجبين على الأرض هو أعمق تعبير عن تفاعل الإنسان مع ملكوت

الله وعظمته، وأنه في الدنيا أفضل منه في الآخرة، وأنه فيهما أعلى تعبير عن الذوبان في المحبوب، وأعلى نعيم.

* * *

على أي حال، إن غيب الله وملكوته واسع أيها العزيزان، فأرجو أن توجها اهتمامكما إلى الغيب العملي النافع الذي وجهنا إليه الله تعالى ورسوله والأئمة (ع) والفقهاء المجاهدون، فهو الذي يفعل العجائب في بناء شخصية الإنسان وحضارته على الأرض..

* * *

وتناول الشيخ الطبري الأوراق من أصغر وأخذ يملي عليه ترجمتها.. ولكن الدكتور لاحظ أن الوقت قد تجاوز العاشرة، فجاءته فكرة أن يكلف حسيناً بترجمتها، فقال:

- لو سمحت لي يا سيدي.. تذكرت أن عندنا من يستطيع ترجمتها، فقد أخذنا من وقتكم وأتعبناكم أكثر مما ينبغي، وقد تجاوزت الساعة العاشرة..

- إذا كان الشخص متمكناً من العربية فلا بأس، وإلا أكملت ترجمتها لكم، ولو تأخرت عن الحضور إلى القاعة بعض الوقت..

- نعم هو متمكن وفهمه جيد.. ومد يده وتناول منه الأوراق.. ثم نهضا مودعين شاكرين بأعمق الشكر..

* * *

عندما اتجها إلى الشارع أمام مبنى البعثة سأله أصغر:

- إلى أين نذهب الآن..

ـ نذهب إلى قافلتنا، فأنا أشعر بالحاجة إلى أن نكون معاً ونراجع حديث الشيخ الطبري.

ولكن الدكتور بقي في السيارة يراجع حديث الطبري مع نفسه.. كان مستغرقاً ينظر أمامه وكأنه لا يرى شيئاً إلا أفكار هذا الشيخ وعوالم غيبها وملائكتها..

كان ينظر إلى فضاء جبل سلع عندما صعدت السيارة في جانبه إلى سماء الحرم النبوي، والمدينة عندما انحدرت نحوه، ويتساءل في نفسه: ترى أي غيب حدث في هذه المدينة على عهد النبي (ص)، بل وأي غيب يحدث الآن..؟

وعندما رأى جماعة من الحجاج يبدو أنهم أتراك، أخذ ينظر إليهم ويتساءل: يعني أنا أؤمن بأن مع هؤلاء أضعاف عددهم من الملائكة.. وأن الملائكة يفهمون اللغة التركية أيضاً، وكل لغات العالم، ولعل لهم لغة واحدة عالمية، أو يعتمدون على وسائل أخرى غير اللغات..

ثم أخذ يفكر: ومعي الآن في السيارة، ومع أصغر، ومع هذا السائق، مجموعة من الملائكة

وحولنا غيب واسع يحيط بنا.. على أي حال إنها حقائق صعبة، ولكني مؤمن بالغيب بحقائقه السهلة والصعبة، ويجب أن أنسجم مع إيماني وأعايش الغيب كما يؤمن به ويعايشه هذاالعالم الشاب. إنه يتحدث عنه كما يتحدث عن قم وإيران وبلاد العالم..

***

واستقر بهما المجلس في غرفتهما وبقي أصغر ساكتاً، فقال الدكتور:

ـ **أشكرك من كل قلبي يا أصغر، وأشعر أن ذلك** لا يعبر عن امتناني لك فأنا مدين لك بالجميل طول عمري . . لقد شعرت اليوم أن معرفتي وثقافتي صفر بالنسبة إلى غنى الثقافة الإسلامية واتساع آفاقها . . كنت أفكر وأنا استمع إلى الشيخ الطبري ؛ ما هذه الغزارة الفكرية التي توجد عند هؤلاء الروحانيين ولا توجد عندنا . . فأقول لنفسي : ولماذا لا نعترف بالحقيقة أنهم يغترفون من مصادر الإسلام الغزيرة، ونحن نجمع من مصادر غيره الشحيحة، وهذا سر غناهم وفقرنا . . وهم يعيشون آفاقها بإيمان وصدق، وهذا سر حيويتهم التي نفتقدها . ؟

أعتبر نفسي بدأت بالإيمان في هذه السفرة، على يد الحاج الخراساني وفي حرم النبي (ص) وعلى يد هذا العالم الشاب ، وأنت السبب في ذلك يا أصغر، فأشكرك وأدعو لك بالتوفيق، وأشكر حسيناً الذي استفدت من كلماته فائدة أساسية . .

نحن المثقفين مؤمنون شكلياً لا حقيقياً، نريد أن نؤمن بالمقدمات من دون نتائجها . . أن نؤمن بالنبي والوحي والقرآن، ولكن من دون تفاصيل ومن دون تفاعل ومعايشة . . ولأول مرة أجد نفسي أمام فكر الإسلام بهذه الغزارة والحرارة يقول لي ماذا تقول . .

إن كنت تريد المنطقية فهل عندك مدرسة أصح، بل هل عندك منطق يستطيع المواجهة . . ؟ وإن كنت تريد الحداثة فأنت ترى أن أحدث النظريات مستوعبة في هذا الفكر ومتخلفة عنه . . نعم وحقك يا أصغر إن هذا الفكر الذي سمعته من هذا الشيخ القمي ليستوعب كل حقائق العلوم الطبيعية عند الغرب مهما تطورت، ويدع فكرهم الإنساني متخلفاً عنه ألوف الأميال . .

لأول مرة أستمع إلى عالم لساعات، ولكني مطمئن أنه يوجد عندنا كثير من العلماء المفكرين أمثال الشيخ الطبري ، فمصادر الإسلام وهذاالصدق في شعبنا ينتجان علماء مفكرين . . ومصادر الثقافة الغربية وكذب المادية الغربية ينتجان المفكرين القلقين، والمتعلمين القلقين من أمثالي . .

لا لن أعود إلى القلق، ولن أسمح للكذب الغربي أن يصادر شخصيتي . . لقد وجدت طريق اليقين . . إنه هذا الطريق الذي فتح آفاقه أمامي هذا العالم الشاب . . وسوف أنسجم معه وأتوغل فيه . .

أشكرك من كل قلبي ياأصغر، وسأدعو لك عندالكعبة، مع أنه لا قيمة لدعائي ، فأرجوأن تساعدني يا بني في هذا الطريق، وتواصل جميلك عليّ .

ـ أستغفر الله يا عم، لقد أخجلتني بكلامك، أنا مقصر معك، ودائماً استغفر ربي من تقصيري في أداء واجبي مع كل من أستطيع أن أؤدي له خدمة بإهداء كتاب أو بحديث أو بإرشاده إلى العلماء . . أرجو أن يكون حديث الشيخ الطبري مفيداً لنا يا دكتور، إنه من أبلغ الأحاديث التي سمعتها من العلماء وأكثرها تأثيراً، وكم أنا مسرور لأني سجلته، وأعتقد أن كل من يسمعه سوف يستفيد ويتأثر . .

ـ الجانب الأهم فيه ياأصغر، أنه يفتح آفاقاً جديدة في فهم الإسلام والحياة . . لقد جعلني أفيق على أهمية نصوص الإسلام وغناها، وأنه يجب أن تكون مصدر ثقافتنا قبل أي شيء . .

وتناول الدكتور الأوراق وأخذ يقلبها وينظر فيها ويجمع بعض قصاصاتها التي سقطت من بينها . .

وتنهد وتابع :

ـ أشعر بأن هذه الآيات والأحاديث كنوز منزلة من السماء يا أصغر، وأن أفكارها أثمن وأحدث من كل ما لدى الغربيين . . وأفكر كيف قطعت سنوات عمري وأنا بعيد عنها . . ولماذا استسلمت في نشأتي للأفكار القائلة إن المسجد والحسينية والعالم والقرآن والحديث أشياء متخلفة يعتقد بها العوام لسذاجتهم، فهي تخصهم،ولا تليق بنا نحن الفئة الراقية من الخانات والشخصيات والمثقفين . . من هنا يبدأ الضياع يا أصغر ،من هذا الانفصال الخطير عن علمائنا ومصادر ثقافتنا، ومن هنا تبدأ العودة . . نعم لا عودة لأحدنا إلى الإسلام بدون العودة إلى علمائه ومصادره . . ترى لو كنت موظفاً في مكتب هذا الشيخ في قم أما كان خيراً لي من مستشفى «رويل فري» . . لو كنت بدل الإنكليزية أعرف العربية وأستطيع الاغتراف من القرآن والحديث أما كان خيراً لي؟؟

ـ قد يتأسف الإنسان على الخيارات التي مضى زمنها يا دكتور . . لكن الخيارات الباقية أمامك كثيرة والحمد لله، وأعتقد أن باستطاعتك أن ترجع إلى ترجمة القرآن والأحاديث وتغترف منها الكثير، وباستطاعتك أن تتعلم اللغة العربية إذا شئت فهي قريبة من الفارسية . .

وظل الدكتور ساكتاً بعد كلام أصغر؛ لم يعلق بشيء، فقد كان يفكر . .

* * *

عهد الخانات في لاهيجان

في طريقهما إلى مسكن قافلة لاهيجان، عرجا على الحرم الشريف وزارا النبي (ص) . كان الدكتور لأول مرة خاشعاً مطمئناً، فقد زالت عن رأسه جبال من القلق وعن قلبه طبقات من الحجب. . كان يتابع أصغر في خطواته في الزيارة والصلاة والدعاء وكأنما زالت غربته. . حقاً لقد قرر العودة إلى رسول الله (ص) وسلوك طريقه، فأصبح جزءاً من هذا الموكب الوافد إليه الذي لا مشكلة عنده في اختيار الطريق. .

* * *

قالوا للدكتور تفضل فقد جاءت العمة إلى الغرفة القريبة، فبقي أصغر يتحدث مع الذين كانوا في غرفة مدير القافلة، وذهب الدكتور مع الدليل فأرشده إلى باب الغرفة وانصرف. .

وقف الدكتور على الباب برهة ثم طرقه فسمع:

- من؟

- أنا جمشيد.

- تفضل .

ودخل ليرى عمته وحدها واقفة في آخر الغرفة، لقد عرفتهما إلى بعضهما بقية الملامح التي لم تغيرها السنون. . فسلم وتقدم نحوها فردت السلام، ومدت يدها فصافحها بيديه جميعاً، وأراد أن يعانقها ولكنها ظلت

معتدلة القامة كأنما تستند إلى الجدار، وهي ترحب به بعبارات عادية . . أراد أن يقبل يدها فانحنى قائلاً : سامحيني يا عمة ، فاستعظمت ذلك وسحبت يدها قائلة :

ـ تفضل يابن أخي ، رحمة الله عليك يا حاجة رضية كم كنت أحبك وتحبينني .

فجلس الدكتور على ركبتيه وقد دمعت عيناه وهو يمسك نفسه عن البكاء :

ـ رحمها الله ، لقد ذكرتني بها ، وذكرتني بظلمي وظلم والدي لها . . لقد جئت لأزورك ياعمة ، وأطلب مسامحتك ومساعدتك لي لكي أرفع الظلم الذي ارتكبه والدي وحده أو شاركته أنا فيه .

ـ وهل تعتقد بأن أباك كان ظالماً يا جمشيد؟

ـ بكل تأكيد وبعيداً عن الدين .

ـ وأنت يا جمشيد؟

ـ أنا شريكه حتى أنفذ آخر حكم شرعي يترتب علي . .

ـ وهل تعترف بالحكم الشرعي ، وهل تنفذه؟

ـ نعم أعتقد بالحكم الشرعي يا عمة ، أما التنفيد فقد قررت ذلك ، وأرجو مساعدتك . .

أحب يا عمة أن تكوني لي مكان والدتي فساعديني ولا تبعديني . .

فدمعت عيناها وقالت :

ـ كسرت قلبي بكلامك يا جمشيد ، والله يا بن أخي ما فرق بيننا إلا الظلم

والبعد عن الدين، ولا يجمع بيننا إلا الدين. . إني أتمنى ذلك من كل قلبي وأنذر من جله النذور، ولكنه ليس بالكلام يا جمشيد، فأراه صعباً عليك، فإني أسمع أنك طبيب كبير لك مكانة في بلاد الإنكليز، وزوجتك منهم، وبناتك وأولادك مثل أمهم لا يختلفون عن الكفار في شيء. . وقد كدت أن لا أصدق عندما سمعت أنك أتيت إلى الحج، وأكاد لا أصدق الآن عندما أسمعك تتكلم بالأحكام الشرعية وتريد مساعدتي لتنفيذها. .

لا أدري يا بن أخي هل أنت صادق في كلامك أم أنك متأثر وقتياً بأجواء الحج. . على كل حال فعسى ولعل، إن الهداية الإلهية لها أسرار لا نعرفها، وبركات الإمام وصلت إلى آخر الدنيا. .

على كل حال إذا كنت صادقاً فحلوا مشلكة هذه المسكينة فاطمة وأولادها، فإني كلما رأيت أحداً منهم انكسر قلبي. .ساعدوهم على الأقل في تسجيل هويتهم، تقول الحكم الشرعي، وأنا أقسم لك بالله العظيم أن يوسف بن فاطمة أكبري أخوك بالحكم الشرعي. .

ـ ماذا تقولين يا عمة. . أسمع كلاماً غريباً. ؟

ـ كأنك لا تعرف قضية والدك مع فاطمة أكبري وكيف أنكر زواجه منها وأنكر ابنها يوسف ولم يسجله على اسمه. .

ـ أقسم لك يا عمتي أني لا أذكر سوى أنه كانت له مشكلة مع السيد أكبري وأقاربه في المحكمة وكل ما في ذهني أنها كانت مشكلة أخلاقية تتعلق بابنتهم.

ـ حاشاها فاطمة من القضايا الأخلاقية، والله يا جمشيد ما كانت القضية إلا أنه خطبها من أهلها وتزوجها زواجاً شرعياً، عقد زواجه الملا عباس رحمه

الله وكتب لها مهراً، وكانت تسكن في بيته في المزرعة، وجاءه منها يوسف وطفلة أخرى عاشت أشهراً، ولكن أصدقاء والدك الطاغوتيين عيروه بأنه تزوج من طبقة الفلاحين وأن أولاده أولاد فلاحة، فأخذ سند مهرها وأخفاه وادعى أنها خادمة في بيته وأنكر الزواج والأولاد، فأقام عليه أهلها دعوى وكتب لهم الملا عباس سند زواج ومهراً جديداً وأشهد عليه الشهود، ولكن والدك أخذ حكماً من المحكمة بأنها ليست زوجته، وسجن أهلها وأراد أن يسجن الملا أيضاً لولا أن أهل القرية طردوا الخيالة وهددوهم إذا هم رجعوا لأخذ الملا مرة ثانية. .

كانت تتكلم والدكتور يصغي إليها مندهشاً وقد وضع يده على جبهته، ولما سكتت سألها:

ـ ثم ماذا جرى عليها وعلى ابنها.

ـ فاطمة أثبتت أنها امرأة نجيبة ،لقد اشتغلت وساعدها أهلها وربت ابنها؟ حتى كبر وتزوج. . والحمد لله أولاده كلهم متدينون، منهم في الجبهة، ومنهم طالب علم في قم، ولكنه إلى الآن مسجل باسم أمه يا جمشيد، ولم يحصلوا على هوية باسم عائلتهم.

وبماذا يمكنني أن أساعدهم يا عمة. ؟

ـ على الأقل أبحث في أوراق والدك عندكم في «انكلستان» أو عند صديقه العزيز صفر خان فهو حي يرزق، فإن أباك لم يبق في المحكمة أو غيرها أي شيء يثبت أنها زوجته، وقد توفي الملا عباس رحمه الله والشهود الذين حضروا عقد الزواج، وقد أقام يوسف دعوى في السنة الماضية وأقام ابن عمك دعوى ضده، ولم تنته إلى الآن. .

ـ عجيب، عجيب، ألا ما أقبح الظلم. . لعن الله الإنكليز وصداقتهم ماذا جرّت علينا. . يا عمة أرجو أن تساعديني لتنفيذ ما يجب عليّ تجاه أعمال والدي. فأنا لا أعرف كل مشاكله، أعرف أنه كانت توجد مشاكل بينه وبين عمي وأبناء عمي وأنه ظلمهم وأخذ منهم أراضي، وأعرف قصة ظلمه لك فقد حدثتني بها والدتي. . أما قضية فاطمة وولدها فلا أعرف عنها إلا ما ذكرته لك، ولم تحدثني بها المرحومة، لأنه على ما يظهر كان أخفى عنها الأمر تماماً. . ساعديني يا عمة حتى أنقذ نفسي، وأعمل على إنقاذ المسكين والدي.

ـ أما أنا فلا أريد منكم شيئاً يا جمشيد، وإذا صرت أنت وأولادك متدينين فإني أضعكم في قلبي وأسامح أباك. . ولكن مشاكله يا جمشيد كثيرة ولا أدري كيف تحلها وأنت في «انكلستان». . أما عمك نواب خان وأولاد عمك برويز فقد ظلمهم أبوك وظلموه، وغصب منهم وغصبوا منه، حتى تقووا عليه واضطروه أن يبيع ويرحل إليكم. . أما أولاد عمك فقد صادروا أكثر أراضيهم، وأعادوا قسماً منها إلى أصحابها، والقسم الأكبر تديره مؤسسة المستضعفين وجهاد الإعمار، ويعمل فيه الفلاحون ولهم سهم في الإنتاج وقد وضع الله لهم البركة وللمستضعفين. . لقد تغيرت لاهيجان عن ذلك العهد يا جمشيد، لو رأيتها اليوم لرأيت فيها الخير والبركة والتقدم، ورأيت أهلها وقد أصبحوا كلهم متدينين والحمد لله، ما عدا عدة قليلة. . لقد شارك اللاهيجانيون في الثورة وقدموا الشهداء، وهم اليوم يقدمون الشهداء من أولادهم في الجبهة ويقدمون المساعدات دائماً. . كل ذلك يا بن أخي بفضل الإمام والعلماء، وقد هرب أكثر أولاد عمك وأكثر الخانات لأنهم كانوا من أعوان الشاه المقبور، وقد قتل الناس بعضهم أيام الثورة، ولكن بعض

أولادهم أصبحوا متدينين مخلصين يا جمشيد، فصار الناس يحبونهم، أما ابن بهرام خان فكان مع الإمام من أول الثورة، وكان يذهب لملاقاته في العراق وباريس،وهو الآن مهندس في وزارة الزراعة يخدم الناس ويحبونه . .

ما أحسن كلمتك يا بن أخي . . نعم ما أقبح الظلم وصداقة الكفار الذين ما رأينا منهم إلا كل شر، ولولا أن الملوك وأعوانهم فتحوا لهم الباب وأدخلوهم إلى بلادنا لكنا الآن أحسن دولة . . وما أحسن الدين يا بن أخي . . إن المتدين يخاف الله تعالى فلا يظلم عباده، بل يحبهم ويخدمهم . .

كم أتمنى أن تصير متديناً أنت وأولادك يا جمشيد وترجعوا إلى وطنكم، وتخدموا بلدكم وأهلكم بدل أن تخدموا الكفار، وترفع ظلم والدك عن زوجته وعن أخيك وأولاده، وتساعدهم . .

إذا كنت ناوياً على الخير يا بن أخي فاجعل لك وكيلاً لينصف أخاك وأولاده. أنا مطمئنة أنه يوجد وثائق تثبت زوجيتها في أوراق والدك، فقد كان من عادته أن يجمع الأوراق والسندات، وقد أودع أكثرها عند صفر خان وأخذ القليل معه.

ـ سمعاً وطاعة يا عمة . . غداً إن شاء الله أوكل شخصاً متديناً. وأوصيه أن يعمل بإرشادك، وأرجو أن تساعديه وتساعديني ،فقد قررت العودة إلى الوطن وأن أضع نفسي في خدمة الجمهورية الإسلامية، وأن أعمل لتبرئة ذمة المسكين والدي ،ولو كلفني ذلك كل ما أملك، ولو كلفني أن أعمل بقية عمري فآخذ القوت الضروري من مرتبي وأدفع الباقي . . أما عائلتي فبعضهم يصلي ؛فادعي لهم أن يتوفقوا للعودة معي، لقد قررت العودة حتى لو كنت وحدي . .

الوكيل الأمين

كانا ينتظران مجيء حسين إلى غرفتهما، فقد اتفقا على أن يجعله الدكتور وكيلاً لتصفية أموره في لاهيجان. . فقال أصغر:

- إني أغبط حسيناً على هذه الثقة من عالم القافلة، هل لاحظت يا دكتور أنه أجاب على الفور: نعم هو محل اعتماد مئة بالمئة في الأمور المالية وغيرها، مع أن الروحانيين لا يعطون ثقتهم بهذه السرعة. . لا بد أنه يعرف تدينه وسلوكه جيداً. .

- وشهادة مدير القافلة ليست أقل منها، فإني أرى الحجاج يحترمونه ويثقون به كما يثقون بالعالم، أسمعهم يذكرون اسميهما معاً فيقولون سألنا العالم وسألنا السيد الطبري. . إن قوله عن حسين نعم أثق به أكثر من نفسي في كل الأمور، يدل على معرفته به عن تجربة. .

ودخل حسين فرحّبا به، وحدثه الدكتور بحديثه وحديث أبيه وحديث عمته. . وطلب منه أن يقبل الوكالة عنه ليتابع قضية يوسف وقضية الأراضي مع أبناء عمه، ويشتري له بيتاً في طهران. .

أنهى الدكتور حديثه وبقي حسين ساكتاً برهة ثم قال:

- وأنت ما رأيك يا أصغر؟

- أنا أرجوك أيضاً أن تقبل هذه الوكالة يا أخ حسين، وتقوم بهذه الخدمة

للدكتور، فإني أشهد لله تعالى بأن الدكتور مخلص وأهل للخدمة، وأرجو أن يوفقه الله للعودة وخدمة بلده وأمته. .

ـ كما تريد يا دكتور، أرجو أن يوفقني الله لخدمتك، ويوفقك لخدمة المسلمين. . ثم فكر حسين قائلاً وتابع:

ـ اكتب وكالة عامة في الأمور الحقوقية لنصدقها من أحد القضاة الذين جاؤوا إلى الحج أو من مندوب الإمام، واكتب رسالتين إلى صديق والدك صفر خان، رسالة عادية تخبره فيها بالواقع، وتطلب منه أن يسلمني الأوراق العائدة إلى والدك، ورسالة أخرى لا يظهر منها أنك أصبحت متديناً، وأرجو المعذرة إذ أقول: لتكن الرسالة من شخص ضد الثورة إلى آخر ضد الثورة. . حتى إذا كان متديناً أعطيته الرسالة الأولى، وإلا أعطيته الثانية. .

وأخذ الدكتور يكتب الوكالة، ثم كتب رسالتين إلى صفر خان، وكان حسين يملي عليه ثم التفت حسين وقال:

ـ أشكر الله أني تنبهت، فلربما وقعت هذه الرسالة بيد أحد فظنها صحيحة. . وتناول منه القلم وكتب شهادة بأنها رسالة مصطنعة، لغرض الحصول على الأسناد والأمانات العائدة إلى أبيه، ووقع على ذلك هو وأصغر، وأعطى الورقة للدكتور. . فشكره الدكتور. . ونهض حسين قائلاً:

ـ أرجو أن يوفقني الله لخدمتك يا دكتور، وأرجو أن تستفيد من الحج جيداً، وأشكرك يا أخ أصغر على هذه الأشرطة، سوف آخذ منها نسخة وأعيدها غداً إن شاء الله، وإذا استطعت أن أترجم الآيات والأحاديث فسوف آتي بها غداً أيضاً. .

وتركهما حسين ليناما. . ولكنه لم ينم تلك الليلة إلا لماماً. . فقد فرش

بطانيته في زاوية من السطح بعيدة عن رفقائه العمال، ووضـع الى جانبـه المسجلة وثبّـت سماعتها في أذنه حتى لا يزعج أحداً! ووضع رأسه على مخدته، ولكن ليستيقظ لا لينام . .

على مدى ثلاث ساعات وأكثر، كان يستمع إلى حديث الشيخ الطبري بشوق وتأثر . . فقد بكى عـدة مرات حتى جـرت دموعـه على عنقه وعلى المخدة، وكان ينظر إلى سماء المدينةونجومها ،فيستشرف منها عوالم الغيب ويتفكر في ملكوت الله الكبير، في السماوات السبع والأرضين والجنة والنار، وفي عرش الله العظيم، وفي الملائكة المحيـطين به . . وفي النبي (ص) والأئمـة (ع) وفي الشيخ الـطبري، والإمـام الخميني ، والدكتـور بهرامي وأصغر . . وقد غلبته اليقظة فكان يقعد . . ثم يستلقي وهو يستمع . . حتى أكمل الشريطين . . ثم قام فصلى صلاة الليل بخشوع هادئ منساب ،كما لم يصلها من قبل . . ثم نقل فراشه إلى قرب المصباح الكهربائي الوحيد المضاء على السطح ،وأخذ يقرأ نور الغيب في أوراق الآيات والأحاديث الشريفة وهو يتمتم ويبكي ويترجمها، حتى أكملها . . ثم آوى إلى فراشه في وقت متأخر من الليل، ليوقظه رفقاؤه وملائكته لصلاة الصبح . .

كتاب الأعمال

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ . بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونْ﴾ الزخرف ـ ٨٠:

﴿إِذْ يَتَلَقَّىٰ الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدْ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدْ﴾ ق ـ ١٧ ـ ١٨.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارْ . لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ الرعد ١٠ ـ ١١.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَاماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونْ﴾ الانفطار ١٠ ـ ١٢.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ . إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظْ﴾ الطارق ١ ـ ٤.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا . . قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونْ﴾ يونس ـ ٢١.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرْ﴾ القمر ٥٢ ـ ٥٣.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَى كِتَابِهَا . الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ

تعْمَلُونَ . . هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية ٢٨ ـ ٢٩ .

* * *

عن النبي (ص) «إِنَّ صاحِبَ الْيَمِينِ أَمِيرٌ عَلَىٰ صَاحِبِ الشِّمَالِ ، فَإِذَا عَمِلَ حَسَنَةً كَتَبَهَا لَهُ صَاحِبُ الْيَمِينِ بِعَشْرٍ، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً فَأَرَادَ صَاحِبُ الشِّمَالِ أَنْ يَكْتُبَهَا لَهُ قَالَ لَهُ صَاحِبُ الْيَمِينِ : أَمْسِكْ، فَيُمْسِكُ سَبْعَ سَاعَاتٍ، فَإِنِ اسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرِ اللهَ كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ» .

* * *

عن أمير المؤمنين (ع) «اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ» .

* * *

سأل زنديق الإمام الصادق (ع): ما علة الملائكة الموكلين بعباده يكتبون عليهم ولهم، والله يعلم السر وما هو أخفى؟ فقال: «اسْتَعْبَدَهُمْ بِذَلِكَ وَجَعَلَهُمْ شُهُوداً عَلَى خَلْقِهِ لِيَكُونَ الْعِبَادُ لِمُلَازَمَتِهِمْ إِيَّاهُمْ أَشَدَّ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ مُوَاظَبَةً، وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ أَشَدَّ انْقِبَاضاً، وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ يَهُمُّ بِمَعْصِيَةٍ فَذَكَرَ مَكَانَهُمَا فَارْعَوَىٰ وَكَفَّ، فَيَقُولُ رَبِّي يَرَانِي وَحَفَظَتِي بِذَلِكَ تَشْهَدُ. . وَإِنَّ اللهَ بِرَأْفَتِهِ وَلُطْفِهِ أَيْضاً وَكَّلَهُمْ بِعِبَادِهِ يَذُبُّونَ عَنْهُمْ مَرَدَةَ الشَّيَاطِينِ وَهَوَامَّ الْأَرْضِ، وَآفَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَ . . بِإِذْنِ اللهِ . . إِلَى أَنْ يَجِيءَ أَمْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» .

* * *

عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله (ع) : أخبرني بأفضل المواقيت في صلاة الفجر، فقال: «مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً» يَعْنِي صَلَاةَ الْفَجْرِ، تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ، فَإِذَا صَلَّىٰ الْعَبْدُ الصُّبْحَ مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أُثْبِتَتْ لَهُ مَرَّتَيْنِ، أَثْبَتَهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ».

* * *

عن أبي جعفر (ع) قال : «إِنَّ فِي الْهَوَاءِ مَلَكاً يُقَالُ لَهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَىٰ ثَلَاثِمِائَةِ أَلْفِ مَلَكٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ، يُحْصُونَ أَعْمَالَ الْعِبَادِ، فَإِذَا كَانَ رَأْسُ السَّنَةِ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ مَلَكاً يُقَالُ لَهُ السِّجِلُّ فَانْتَسَخَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبْ﴾.

* * *

وعن ابن مسعود أنه قال: «الْمَلَكَانِ يَكْتُبَانِ أَعْمَالَ الْعَلَانِيَةِ فِي دِيَوانٍ وَأَعْمَالَ السِّرِّ فِي دِيَوانٍ آخَرْ».

* * *

مر أمير المؤمنين (ع) برجل وهو يتكلم بفضول الكلام فقال: «يَا هَذَا؟ إِنَّكَ تُمْلِي عَلَىٰ كَاتِبَيْكَ كِتَابَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَتَكَلَّمْ بِمَا يَعْنِيكَ وَدَعْ مَا لَا يَعْنِيكْ».

* * *

عن الصادق (ع) قال : قال رسول الله (ص) : «طُوبَىٰ لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَةِ عَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ كُلِّ ذَنْبٍ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ».

***

كان رسول الله (ص) يصوم الإثنين والخميس، فقيل له: لم ذلك؟ فقال (ص) «إِنَّ الْأَعْمَالَ تُرْفَعُ فِي كُلِّ إِثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمْ».

***

عن إسحاق بن عمار قال: لما كثر مالي أجلست على بابي بواباً يرد عني فقراء الشيعة. فخرجت إلى مكة في تلك السنة فسلمت على أبي عبد الله(ع) فرد علي بوجه قاطب مُـزْوَرّ، فقلت له: جعلت فداك ما الـذي غير حـالي عندك؟ قال: «تَغَيُّرُكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ» فقلت: جُعلت فداك والله إني لأعلم أنهم على دين الله ولكن خشيت الشهرة على نفسي ، فقال: «يَا إِسْحَاقُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَيْنِ إِذَا الْتَقَيَا فَتَصَافَحَا أَنْزَلَ اللهُ بَيْنَ إِبْهَامَيْهِمَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، تِسْعَةً وَتِسْعِينَ لِأَشَدِّهِمَا حُبّاً، فَإِذَا اعْتَنَقَا غَمَرَتْهُمَا الرَّحْمَةُ، فَإِذَا لَبِثَا لَا يُرِيدَانِ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ قِيلَ لَهُمَا: غُفِرَ لَكُمَا، فَإِذَا جَلَسَا يَتَسَاءَلَانِ قَالَتْ الْحَفَظَةُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ : اعْتَزِلُوا بِنَا عَنْهُمَا فَلَعَـلَّ لَهُمَا سِـرّاً وَقَدْ سَتَـرَهُ اللهُ عَلَيْهِمَا» قال قلت: جعلت فداك فلا تسمع الحفظة قولهما ولا تكتبه وقد قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: فنكس رأسه طويلاً ثم رفعه وقد فاضت دموعه على لحيته وقال: «إِنْ كَانَتِ الْحَفَظَةُ لَا تَسْمَعُهُ وَلَا تَكْتُبُهُ فَقَدْ سَمِعَـهُ عَالِمُ السِّرِّ وَأَخْفَىٰ ، يَا إِسْحَاقُ خَفِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْتَ

لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، فَإِنْ شَكَكْتَ أَنَّهُ يَرَاكَ فَقَدْ كَفَرْتَ وَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنَّهُ يَرَاكَ ثُمَّ بَارَزْتَهُ بِالْمَعْصِيَةِ فَقَدْ جَعَلْتَهُ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكَ».

* * *

«عن أبي عبد الله (ع) قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَهُمُّ بِالْحَسَنَةِ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا فَتُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَهُمُّ بِالسَّيِّئَةِ أَنْ يَعْمَلَهَا فَلَا يَعْمَلُهَا فَلَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ».

* * *

عن عبد الله بن موسى بن جعفر، عن أبيه قال: سألته عن الملكين: هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يفعله أو الحسنة؟ فقال: «رِيحُ الْكَنِيفِ وَرِيحُ الطِّيبِ سَوَاءٌ»؟ قلت لا، قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا هَمَّ بِالْحَسَنَةِ خَرَجَ نَفَسُهُ طَيِّبَ الرِّيحِ فَقَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ: قُمْ فَإِنَّهُ قَدْ هَمَّ بِالْحَسَنَةِ، فَإِذَا فَعَلَهَا كَانَ لِسَانُهُ قَلَمَهُ، وَرِيقُهُ مِدَادَهُ فَأَثْبَتَهَا لَهُ، وَإِذَا هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ خَرَجَ نَفَسُهُ مُنْتِنَ الرِّيحِ فَيَقُولُ صَاحِبُ الشِّمَالِ لِصَاحِبِ الْيَمِينِ: قِفْ فَإِنَّهُ قَدْ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ، فَإِذَا هُوَ فَعَلَهَا كَانَ لِسَانُهُ قَلَمَهُ، وَرِيقُهُ مِدَادَهُ، فَأَثْبَتَهَا عَلَيْهِ».

* * *

عن رسول الله (ص): «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ لَمْ يَهْلَكْ عَلَى اللهِ بَعْدَهُنَّ إِلَّا هَالِكٌ: يَهُمُّ الْعَبْدُ بِالْحَسَنَةِ فَيَعْمَلُهَا فَإِنْ هُوَ لَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَ اللهُ لَهُ حَسَنَةً بِحُسْنِ نِيَّتِهِ، وَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كَتَبَ اللهُ لَهُ عَشْراً، وَيَهُمُّ بِالسَّيِّئَةِ أَنْ يَعْمَلَهَا فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا أُجِّلَ سَبْعَ سَاعَاتٍ، وَقَالَ صَاحِبُ الْحَسَنَاتِ لِصَاحِبِ السَّيِّئَاتِ وَهُوَ صَاحِبُ الشِّمَالِ: لَا تَعْجَلْ عَسَى أَنْ يُتْبِعَهَا

بِحَسَنَـةٍ تَمْحُوهَـا، فَإِنَّ اللهَ يَقُـولُ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَـاتِ يُـذْهِبْنَ السَّيِّئَـاتِ﴾ أَوِ الاسْتِغْفَارَ فَإِنْ هُوَ قَالَ: خ﴿أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لاَ إِلـهَ إِلاَّ هُوَ، عَـالِمُ ا لْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْـرَامِ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ﴾ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنْ مَضَتْ سَبْعُ سَاعَاتٍ وَلَمْ يُتْبِعْهَا بِحَسَنَةٍ وَلاَ اسْتِغْفَارٍ قَالَ صَاحِبُ الحَسَنَـاتِ لِصَاحِبِ السَّيِّئَاتِ: أُكْتُبْ عَلَىٰ الشَّقِيِّ الْمَحْرُومْ».

* * *

«وفي رواية أنهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساء نسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ فيعطيهما ذلك، فإذا صعدا صباحاً ومساء بديوان العبد قابله إسرافيل بالنسخة التي نسخ لهما حتى يظهر أنه كان كمـا نسخ لهما.

* * *

«كنت عند أبي عبد الله (ع) فذكر عنده المؤمن وما يجب من حقـه، فالتفت إلي أبو عبد الله (ع) فقال لي: «يا أَبَا الْفَضْلِ أَلاَ أُحَدِّثُـكَ بِحَالِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللهِ؟ فَقُلْتُ بَلَىٰ فَحَدِّثْنِي جُعِلْتُ فِدَاكَ، فَقَالَ: إِذَا قَبَضَ اللهُ رُوحَ الْمُؤْمِنِ صَعِدَ مَلَكَاهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالاَ: يَـا رَبِّ عَبْدُكَ وَنِعْمَ الْعَبْـدُ، كَـانَ سَرِيعاً إِلَى طَاعَتِكَ، بَطِيئاً عَنْ مَعْصِيَتِكَ، وَقَدْ قَبَضْتَهُ إِلَيْكَ، فَمَا تَأْمُرُنَا مِنْ بَعْدِهِ؟ فَيَقُولُ الْجَلِيلُ الْجَبَّارُ: اهْبِطَا إِلَى الدُّنْيَا وَكُونَا عِنْدَ قَبْرِ عَبْدِي وَمَجِّدَانِي وَسَبِّحَانِي وَهَلِّلاَنِي وَكَبِّرَانِي وَاكْتُبَا ذَلِكَ لِعَبْدِي حَتَّىٰ أَبْعَثَهُ مِنْ قَبْرِهْ».

* * *

من غيب الموت وحساب القبر

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ الأنعام - ٦١.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا، وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينْ﴾ الأعراف - ٣٧.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿... كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النحل ٢٧ - ٣٢.

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ السجدة - ١١.

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الزمر - ٤٢.

***

«عن النبي (ص) «مَا خُلِقْتُمْ لِلْفَنَاءِ، بَلْ خُلِقْتُمْ لِلْبَقَاءِ، وَإِنَّمَا تُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَىٰ دَارٍ، وَإِنَّهَا فِي الْأَرْضِ غَرِيبَةٌ وَفِي الْأَبْدَانِ مَسْجُونَةٌ».

***

عن أبي معمر السعداني ـ في خبر من أتى أمير المؤمنين (ع) مدعياً التناقض في القرآن ـ قال (ع) «أَمَّا قَوْلُهُ ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ كَيْفَ يَشَاءُ، وَيُوكِّلُ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ يَشَاءُ بِمَا يَشَاءُ، أَمَّا مَلَكُ الْمَوْتِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُوَكِّلُهُ بِخَاصَّةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَيُوَكِّلُ مُرْسَلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِخَاصَّةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَهُمْ بِخَاصَّةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ. إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُدَبِّرُ الأُمُورَ كَيْفَ يَشَاءُ؛ وَلَيْسَ كُلُّ الْعِلْمِ يَسْتَطِيعُ صَاحِبُ الْعِلْمِ أَنْ يُفَسِّرَهُ لِكُلِّ النَّاسِ لِأَنَّ مِنْهُمُ الْقَوِيَّ والضعيف ولأن منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله إلا مَنْ يُسَهِّلُ اللهُ لَهُ حَمْلَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَإِنَّمَا يَكْفِيكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ الْمُحيي الْمُمِيتُ، وَأَنَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ عَلَى يَدَيْ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَغَيْرِهِمْ».

* * *

عن رسول الله (ص): «لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ رَأَيْتُ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِيَدِهِ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ لَا يَلْتَفِتُ يَمِيناً وَلَا شِمَالاً مُقْبِلاً عَلَيْهِ، كَهَيْئَةِ الْحَزِينِ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا يَا جَبْرَئِيلُ؟ قَالَ: هَذَا مَلَكُ الْمَوْتِ، مَشْغُولٌ فِي قَبْضِ الْأَرْوَاحِ، فَقُلْتُ أَدْنِنِي مِنْهُ يَا جَبْرَئِيلُ لِأُكَلِّمَهُ، فَأَدْنَانِي مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ أَكُلُّ مَنْ مَاتَ أَوْ هُوَ مَيِّتٌ فِيمَا أَنْتَ تَقْبِضُ رُوحَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَتَحْضُرُهُمْ بِنَفْسِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا عِنْدِي فِيمَا سَخَّرَهَا اللهُ لِي وَمَكَّنَنِي مِنْهَا إِلَّا كَدِرْهَمٍ فِي كَفِّ الرَّجُلِ يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَمَا مِنْ دَارٍ فِي

الدُّنْيَا إِلَّا وَأَدْخُلُهَا فِـي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَأَقُولُ إِذَا بَكَىٰ أَهْلُ الْبَيْتِ عَلَىٰ مَيِّتِهِمْ: لَا تَبْكُوا عَلَيْهِ فَإِنَّ لِي إِلَيْكُمْ عَوْدَةً وَعَوْدَةً حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مِنْكُمْ أَحَدٌ، قَالَ رَسُولُ اللهِ: كَفَىٰ بِالْمَوْتِ طَامَّةً يَا جَبْرَئِيلُ! فَقَالَ جَبْرَئِيلُ: مَا بَعْدَ الْمَوْتِ أَطَمُّ وَأَعْظَمُ مِنَ الْمَوْتِ!».

* * *

عن حمران قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قَالَ: هُوَ الَّذِي سُمِّيَ لِمَلَكِ الْمَوْتِ (ع) فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ».

* * *

من خطبة لأمير المؤمنين (ع) ذكر فيها ملك الموت: «هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً؟ أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّىٰ أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّىٰ الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ: أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ؟!»

* * *

عن الصادق (ع): «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ لِمَلَكِ الْمَوْتِ أَعْوَاناً مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَقْبِضُونَ الْأَرْوَاحَ بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ لَهُ أَعْوَانٌ مِنَ الْإِنْسِ يَبْعَثُهُمْ فِي حَوَائِجِهِ فَتَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَيَتَوَفَّاهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعَ مَا يَقْبِضُ هُوَ، وَيَتَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَلَكِ الْمَوْتِ».

* * *

عن الصادق (ع): «قِيلَ لِمَلَكِ الْمَوْتِ (ع) كَيْفَ تَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ

وَبَعْضُهَا فِي المَغْرِبِ وَبَعْضُهَا فِي الْمَشْرِقِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ؟ فَقَالَ أُدْعُوهَا فَتُجِيبُنِي. قَالَ: وَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ (ع) إِنَّ الدُّنْيَا بَيْنَ يَدَيَّ كَالْقَصْعَةِ بَيْنَ يَدَيْ أَحَدِكُمْ، يَتَنَاوَلُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ، وَالدُّنْيَا عِنْدِي كَالدِّرْهِمِ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ».

***

قلت لأبي عبد الله (ع): «جعلت فداك يعلم ملك الموت يقبض من يقبض؟ قال: «لاَ إِنَّمَا هِيَ صِكَاكٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ: اقْبِضْ نَفْسَ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنْ».

***

قيل للصادق (ع): صف لنا الموت، قال (ع): «لِلْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ رِيحٍ يَشُمُّهُ فَيَنْعَسُ لِطِيبِهِ وَيَنْقَطِعُ التَّعَبُ وَٱلأَلَمُ كُلُّهُ عَنْهُ، وَلِلْكَافِرِ كَلَسْعِ ٱلأَفَاعِي وَلَدْغِ الْعَقَارِبِ أَوْ أَشَدُّ. قِيلَ: فَإِنَّ قَوْماً يَقُولُونَ: إِنَّه أَشَدُّ مِنْ نَشْرٍ بِالْمَنَاشِيرِ وَقَرْضٍ بِالْمَقَارِيضِ وَرَضْخٍ بِٱلأَحْجَارِ وَتَدْوِيرِ قُطْبِ الأَرْحِيَةِ عَلَىٰ ٱلأَحْدَاقِ، قَالَ: كَذَلِكَ هُوَ عَلَىٰ بَعْضِ الْكَافِرِينَ وَالْفَاجِرِينَ، أَلاَ تَرَوْنَ مِنْهُمْ مَنْ يُعَايِنُ تِلْكَ الشَّدَائِدِ، فَذَلِكُمُ الَّذِي هُوَ أَشدُّ مِنْ هَذَا لاَ مِنْ عَذَابِ ٱلآخِرَةِ فَإِنَّهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، قِيلَ: فَمَا بَالُنَا نَرَىٰ كَافِراً يَسْهُلُ عَلَيْهِ النَّـزْعُ فَيَنْطَفِئُ وَهُوَ يُحَدِّثُ وَيَضْحَكُ وَيَتَكَلَّمُ؛، وَفِي الْمُؤْمِنِينَ أَيْضاً مَنْ يَكُونُ كَـذَلِكَ، وَفِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ مَنْ يُقَاسِي عِنْدَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ هَذِهِ الشَّدَائِدَ؟ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ رَاحَةٍ لِلْمُؤْمِنِ هُنَاكَ فَهُوَ عَاجِلُ ثَوَابِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ شَدِيدَةٍ فَتَمْحِيصُهُ مِنْ ذُنُوبِهِ لِيَرِدَ ٱلآخِرَةَ نَقِيّاً، نَظِيفاً، مُسْتَحِقّاً لِثَوَابِ ٱلأَبَدِ، لاَ مَانِعَ لَهُ دُونَهُ، وَمَا كَانَ مِنْ سُهولَةٍ هُنَاكَ عَلَىٰ الْكَافِرِ فَلِيُوَفَّىٰ أَجْرَ حَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا لِيَرِدَ ٱلآخِرَةَ

وَلَيْسَ لَهُ إِلاَّ مَا يُوجِبُ عَلَيْهِ الْعَذَابَ، وَمَا كَانَ مِنْ شِدَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِ هُنَاكَ فَهُوَ ابْتِدَاءُ عَذَابِ اللهِ لَهُ بَعْدَ نَفَادِ حَسَنَاتِهِ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ عَدْلٌ لاَ يَجُورُ».

* * *

وعن علي بن الحسين (ع): «لَمَّا اشْتَدَّ الأَمْرُ بِالْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (ع) نَظَرَ إِلَيْهِ مَنْ كَانَ مَعَهُ فَإِذَا هُوَ بِخِلاَفِهِمْ لأَنَّهُمْ كُلَّمَا اشْتَدَّ الأَمْرُ تَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهُمْ وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُمْ وَوَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَبَعْضُ مَنْ مَعَهُ مِنْ خَاصَّتِهِ تُشْرِقُ أَلْوَانُهُمْ وَتَهْدَأُ جَوَارِحُهُمْ، وَتَسْكُنُ نُفُوسُهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا لاَ يُبَالِي بِالْمَوْتِ! فَقَالَ لَهُمُ الْحُسَيْنُ (ع): صَبْراً بَنِي الْكِرَامِ، فَمَا الْمَوْتُ إِلاَّ قَنْطَرَةٌ تَعْبُرُ بِكُمْ عَنِ الْبُؤْسِ وَالضَّرَّاءِ إِلَىٰ الْجِنَانِ الْوَاسِعَةِ وَالنَّعِيمِ الدَّائِمَةِ، فَأَيُّكُمْ يَكْرَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ سِجْنٍ إِلَىٰ قَصْرٍ؟ وَمَا هُوَ لأَعْدَائِكُمْ إِلاَّ كَمَنْ يَنْتَقِلُ مِنْ قَصْرٍ إِلَىٰ سِجْنٍ وَعَذَابٍ، إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي عَنْ رَسُولِ اللهِ (ص) أَنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ، وَالْمَوْتَ جِسْرُ هَؤُلاَءِ إِلَىٰ جِنَانِهِمْ وَجِسْرُ هَؤُلاَءِ إِلَىٰ جَحِيمِهِمْ، مَا كَذِبْتُ وَلاَ كُذِّبْتُ».

* * *

قال إبراهيم الخليل (ع) لملك الموت: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرِيَنِي صُورَتَكَ الَّتِي تَقْبِضُ فِيهَا رُوحَ الْفَاجِرِ؟ قَالَ: لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: بَلَىٰ، قَالَ: فَأَعْرِضْ عَنِّي، فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ أَسْوَدَ، قَائِمِ الشَّعْرِ، مُنْتِنِ الرِّيحِ، أَسْوَدَ الثِّيَابِ، يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ وَمَنَاخِرِهِ لَهِيبُ النَّارِ وَالدُّخَانُ، فَغُشِيَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: لَوْ لَمْ يَلْقَ الْفَاجِرُ عِنْدَ مَوْتِهِ إِلاَّ صُورَةَ وَجْهِكَ لَكَانَ حَسْبُهُ».

* * *

عن أبي جعفر عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قالَ ذَاكَ قَوْلُ ابْنِ آدَمَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، قَالَ: هَلْ مِنْ طَبِيبٍ؟ هَلْ مِنْ دَافِعٍ ؟ قَالَ: «وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ» يَعْنِي فِرَاقَ الأَهْلِ وَالأَحِبَّةِ عِنْدَ ذَلِكَ، قَالَ: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قَالَ الْتَفَّتِ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، قَالَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ إِلَىٰ رَبِّ الْعَالِمِينَ يَوْمَئِذٍ الْمَصِيرُ».

* * *

عَنِ النَّبِيِّ (ص) : «إِذَا رَضِيَ اللهُ عَنْ عَبْدٍ قَالَ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ اذْهَبْ إِلَـى فُلاَنٍ فَأْتِنِي بِرُوحِهِ، حَسْبِي مِنْ عَمَلِهِ، قَدْ بَلَوْتُهُ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أُحِبُّ، فَيَنْزِلُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ الْمَلاَئِكَـةِ مَعَهُمْ قُضْبَانُ الـرَّيَاحِينِ وَأُصُولُ الزَّعْفَرَانِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبَشِّرُهُ بِبِشَارَةٍ سِوَىٰ بِشَارَةِ صَاحِبِهِ، وَيَقُومُ الْمَلاَئِكَةُ صَفَّيْنِ لِخُرُوجِ رُوحِهِ، مَعَهُمُ الرَّيْحَانُ فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَخَ، فَيَقُولُ لَهُ جُنُودُهُ: مَالَكَ يَا سَيِّدَنَا؟ فَيَقُولُ: أَمَا تَرَوْنَ مَا أُعْطِيَ هَذَا الْعَبْدُ مِنَ الْكَرَامَةِ؟ أَيْنَ كُنْتُمْ عَنْ هَذَا؟ قَالُوا: جَهِدْنَا بِهِ فَلَمْ يُطِعْنَا».

* * *

عن أبي عبد الله الصادق (ع) : «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ مَلَكَ الْمَوْتِ فَيَرُدُّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ لِيُهَوِّنَ عَلَيْهِ وَيُخْرِجُهَا مِنْ أَحْسَنِ وَجْهِهَا فَيَقُولُ النَّاسُ: لَقَدْ شُدِّدَ عَلَىٰ فُلاَنٍ الْمَوْتُ، وَذَلِكَ تَهْوِينٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ. وَقَالَ: إِذَا كَانَ مِمَّنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ، أَوْ مِمَّنْ أَبْغَضَ اللهُ أَمَرَهُ أَنْ يَجْذِبَ الْجَذْبَةَ الَّتِي بَلَغَتْكُمْ بِمِثْلِ السَّفُّودِ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَقُولُ النَّاسُ: لَقَدْ هُوِّنَ عَلَىٰ فُلاَنٍ الْمَوْتُ».

* * *

سئل رسول الله (ص) : «كيف يتوفى ملك الموت المؤمن؟ فقال: «إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ لَيَقِفُ مِنَ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ مَوْتِهِ مَوْقِفَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ مِنَ الْمَوْلَىٰ فَيَقُومُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ لاَ يَدْنُو مِنْهُ حَتَّى يَبْدَأَ بِالتَّسْلِيمِ وَيُبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةْ».

***

عن أبي عبد الله (ع) قال «دَخَلَ رَسُولُ اللهِ (ص) عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَقَالَ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ارْفِقْ بِصَاحِبِي فَإِنَّهِ مُؤْمِنٌ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنِّي بِكُلِّ مُؤْمِنٍ رَفِيقٌ، وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنِّي أَقْبِضُ رُوحَ ابْنِ آدَمَ فَيَجْزَعُ أَهْلَهُ فَأَقُومُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ دَارِهِمْ فَأَقُولُ: مَا هَذَا الْجَزَعُ فَوَاللهِ مَا تَعَجَّلْنَاهُ قَبْلَ أَجَلِهِ، وَمَا كَانَ لَنَا فِي قَبْضِهِ مِنْ ذَنْبٍ، فَإِنْ تَحْتَسِبُوهُ وَتَصْبِرُوا تُؤْجَرُوا، وَإِنْ تَجْزَعُوا تَأْثَمُوا وَتُوزَرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ لَنَا فِيكُمْ عَوْدَةً ثُمَّ عَوْدَةً، فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ، إِنَّهُ لَيْسَ فِي شَرْقِهَا وَلاَ فِي غَرْبِهَا أَهْلُ بَيْتِ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ وَأَنَا أَتَصَفَّحُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَلأَنَا أَعْلَمُ بِصَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَوْ أَرَدْتُ قَبْضَ رُوحِ بَعُوضَةٍ مَا قَدِرْتُ عَلَيْهَا حَتَّى يَأْمُرَنِي رَبِّي بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ص) إِنَّمَا يَتَصَفَّحُهُمْ فِي مَوَاقِيتِ الصَّلاةِ، فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يُوَاظِبُ عَلَيْهَا عِنْدَ مَوَاقِيتِهَا لَقَّنَهُ شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَنَحَّىٰ عَنْهُ مَلَكُ الْمَوْتِ إِبْلِيسَ».

***

عن أبي عبد الله (ع) قال : «إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ اشْتَكَىٰ عَيْنَهُ فَعَادَهُ النَّبِيُّ (ص) فَإِذَا هُوَ يَصِيحُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (ص): أَجَزَعاً أَمْ وَجَعاً؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا وَجِعْتُ وَجَعاً قَطُّ أَشَدَّ مِنْهُ؟ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِذَا نَزَلَ لِقَبْضِ رُوحِ الْكَافِرِ نَزَلَ مَعَهُ بِسَفُّودٍ مِنْ نَارٍ فَنَزَعَ رُوحَهُ بِهِ

فَتَصِيحُ جَهَنَّمُ، فَاسْتَوىٰ عَلِيٌّ (ع) جَالِساً فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَكَ فَقَدْ أَنْسَانِي وَجَعِي مَا قُلْتَ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ يُصِيبُ ذَلِكَ أَحَداً مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ نَعَمْ حَاكِمٌ جَائِرٌ، وَآكِلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْماً، وَشَاهِدُ زُورٍ».

* * *

عن أبي عبد الله (ع) قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ إِلاَّ وَكَّلَ بِهِ إِبْلِيسُ مِنْ شَيَاطِينِهِ مَنْ يَأْمُرُهُ بِالْكُفْرِ وَيُشَكِّكُهُ فِي دِينِهِ حَتَّى تَخْرُجَ نَفْسُهُ، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَإِذَا حَضَرْتُمْ مَوْتَاكُمْ فَلَقِّنُوهُمْ شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّىٰ يَمُوتَ».

* * *

عن أبي عبد الله (ع) قال: «حَضَرَ رَجُلاً الْمَوْتُ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ فُلاَناً قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَنَهَضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى أَتَاهُ وَهُوَ مُغْمَىً عَلَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ كُفَّ عَنِ الرَّجُلِ حَتَّىٰ أَسْأَلَهُ. فَأَفَاقَ الرَّجُلُ فَقَالَ النَّبِيُّ (ص) مَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ بَيَاضاً كَثِيراً وَسَوَاداً كَثِيراً، فَقَالَ: فَأَيُّهُمَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ السَّوَادُ، فَقَالَ النَّبِيُّ (ص) قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الْكَثِيرَ مِنْ مَعَاصِيكَ، وَاقْبَلْ مِنِّي الْيَسِيرَ مِنْ طَاعَتِكَ، فَقَالَهُ ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ خَفِّفْ عَنْهُ سَاعَةً حَتَّىٰ أَسْأَلَهُ، فَأَفَاقَ الرَّجُلُ فَقَالَ مَا رَأَيْتَ؟ قَالَ رَأَيْتُ بَيَاضاً كَثِيراً وَسَوَاداً كَثِيراً، قَالَ فَأَيُّهُمَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: الْبَيَاضُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ص): غَفَرَ اللهُ لِصَاحِبِكُمْ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ (ع) إِذَا حَضَرْتُمْ مَيِّتاً فَقُولُوا لَهُ هَذَا الْكَلاَمَ لِيَقُولَهُ».

* * *

عن رسول الله (ص) «مَرَّ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ (ع) بِقَبْرٍ يُعَذَّبُ صَاحِبُهُ، ثُمَّ مَرَّ بِهِ مِنْ قَابِلٍ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ يُعَذَّبُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ مَرَرْتُ بِهَذَا الْقَبْرِ عَامَ أَوَّلَ فَكَانَ صَاحِبُهُ يُعَذَّبُ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِهِ الْعَامَ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ يُعَذَّبُ! فَأَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: ﴿يَا رُوحَ اللهِ إِنَّهُ أَدْرَكَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ فَأَصْلَحَ طَرِيقاً وَآوَىٰ يَتِيماً فَغَفَرْتُ لَهُ بِمَا عَمِلَ ابْنُهُ﴾.

* * *

عن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عبد الله (ع) عما يلقى صاحب القبر، فقال: «إِنَّ مَلَكَيْنِ يُقَالُ لَهُمَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ يَأْتِيَانِ صَاحِبَ الْقَبْرِ فَيَسْأَلاَنِهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ (ص) فَيَقُولاَنِ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي خَرَجَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: مَنْ هُوَ؟ فَيَقُولاَنِ: الَّذِي كَانَ يَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ، أَحَقٌّ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَإِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّكِّ قَالَ: مَا أَدْرِي؟ قَدْ سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَلَسْتُ أَدْرِي أَحَقٌّ ذَلِكَ أَمْ كِذْبٌ؟ فَيَضْرِبَانِهِ ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ إِلاَّ الْمُشْرِكُونَ، وَإِذَا كَانَ مُتَيَقِّناً فَإِنَّهُ لاَ يَفْزَعُ فَيَقُولُ: أَعَنْ رَسُولِ اللهِ تَسْأَلاَنِي؟ فَيَقُولاَنِ: أَتَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقّاً، جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ، قَالَ فَيَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُفْسَحُ لَهُ عَنْ قَبْرِهِ، ثُمَّ يَقُولاَنَ لَهُ: نَمْ نَوْمَةً لَيْسَ فِيهَا حُلُمٌ فِي أَطْيَبِ مَا يَكُونَ النَّائِمْ».

* * *

عن سعيد المسيب قال: كان علي بن الحسين صلوات الله عليه يعظ الناس ويزهدهم في الدنيا، ويرغبهم في أعمال الآخرة بهذا الكلام في كل جمعة في مسجد الرسول (ص) وحفظ عنه وكتب، كان يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، فَتَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ فِي هَذِهِ

الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً، وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ، وَيْحَكَ ابْنَ آدَمَ، الْغَافِلُ لَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ؟ ابْنَ آدَمَ إِنَّ أَجَلَكَ أَسْرَعُ شَيْءٍ إِلَيْكَ، قَدْ أَقْبَلَ نَحْوَكَ حَثِيثاً يَطْلُبُكَ، وَيُوشِكُ أَنْ يُدْرِكَكَ، وَكَأَنْ قَدْ أَوْفَيْتَ أَجَلَكَ، وَقَبَضَ الْمَلَكُ رُوحَكَ، وَصِرْتَ إِلَىٰ مَنْزِلٍ وَحِيداً فَرَدَّ إِلَيْكَ فِيهِ رُوحَكَ، وَاقْتَحَمَ عَلَيْكَ فِيهِ مَلَكَاكَ، مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ لِمُسَاءَلَتِكَ وَشَدِيدِ امْتِحَانِكَ. . أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَسْأَلاَنِكَ عَنْ رَبِّكَ الَّذِي كُنْتَ تَعْبُدُهُ، وَعَنْ نَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكَ، وَعَنْ دِينِكَ الَّذِي كُنْتَ تَدِينُ بِهِ، وَعَنْ كِتَابِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتْلُوهُ، وَعَنْ إِمَامِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتَولاَّهُ، ثُمَّ عَنْ عُمْرِكَ فِيمَا أَفْنَيْتَهُ؟ وَمَالِكَ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ وَفِيمَا أَتْلَفْتَهُ؟».

* * *

عن أبي جعفر (ع) قال: «لاَ يُسْأَلُ فِي الْقَبْرِ إِلاَّ مَنْ مُحِضَ الإِيمَانَ مَحْضاً، أَوْ مُحِضَ الْكُفْرَ مَحْضاً، فَقُلْتُ لَهُ: فَسَائِرُ النَّاسِ؟ فَقَالَ: يُلْهَىٰ عَنْهُمْ».

* * *

عن ابن نباتة في حديث طويل يذكر فيه أن أمير المؤمنين (ع) خرج من الكوفة ومر حتى أتى الغريّين فجازه فلحقناه وهو مستلق على الأرض بجسده ليس تحته ثوب، فقال له قنبر يا أمير المؤمنين ألا أبسط ثوبي تحتك؟ قال: «لاَ، هَلْ هِيَ إِلاَّ تُرْبَةُ مُؤْمِنٍ أَوْ مُزَاحَمَتُهُ فِي مَجْلِسِهِ؟» قال الأصبغ: فقلت: يا أمير المؤمنين تربة مؤمن قد عرفناه كانت أو نكون، فما مزاحمته في مجلسه؟ فقال: «يَا بْنَ نُبَاتَةَ لَوْ كُشِفَ لَكُمْ لَرَأَيْتُمْ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الظَّهْرِ حَلَقاً

يَتَزَاوَرُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ، إِنَّ فِي هَذَا الظَّهْرِ رُوحُ كُلِّ مُؤْمِنٍ، وَبوادِي بَـرْهُوتَ نَسْمَةُ كُلِّ كَافِرٍ».

***

عن أبي عبد الله (ع) قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَزُورُ أَهْلَهُ فَيرىٰ مَا يُحِبُّ وَيُسْتَرُ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ لَيَزُورُ أَهْلَهُ فَيَرَىٰ مَا يَكْرَهُ وَيُسْتَرُ عَنْهُ مَا يُحِبُّ، قَالَ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَزُورُ كُلَّ جُمْعَةٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَـزُورُ عَلَىٰ قَدْرِ عَمَلِهِ».

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَا الْعِيدَيْنِ أَمَرَ اللهُ رِضْوَانَ خَـازِنَ الْجِنَانِ أَنْ يُنَادِيَ فِي أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْجِنَانِ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمُ الْجُمْعَةَ بِالزِّيَارَةِ إِلَىٰ أَهَالِيكُمْ وَأَحِبَّائِكُمْ مِنْ أَهْـلِ الدُّنْيَـا، ثُمَّ يَأْمُـرُ اللهُ رِضْوَانَ أَنْ يَأْتِي لِكُلِّ رُوحٍ بِنَاقَةٍ مِنْ نوقِ الْجَنَّةِ عَلَيْهَا قُبَّةٌ مِنْ زَبَرْجَدَةٍ خَضْرَاءَ غِشَاوءُهَا مِنْ يَاقُوتَةٍ رَطْبَةٍ صَفْـرَاءَ، عَلَىٰ النُّوقِ جِـلاَلٌ وَبَرَاقِعُ مِنْ سُنْدُسِ الْجِنَانِ وَإِسْتَبْرَقِهَـا، فَيَرْكَبُـونَ تِلْكَ النُّوقَ، عَلَيْهِمْ حُلَلُ الْجَنَّـةِ، مُتَوَّجُونَ بِتِيجَانِ الدُّرِّ الرَّطْبِ تُضِيءُ كَمَا تَضِيءُ الْكَوَاكِبُ الدُّرِّيَّةُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مِنْ قُرْبِ النَّاظِرِ إِلَيْهَا لاَ مِنَ الْبُعْدِ، فَيَجْتَمِعُونَ فِي الْعَرْصَةِ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ جَبْرَئِيلَ فَمَا دُونَهُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ أَنْ يَسْتَقْبِلُوهُمْ فَتَسْتَقْبِلُهُمْ مَـلاَئِكَةُ كُـلِّ سَمَاءٍ وَتُشَيِّعُهُمْ مَلاَئِكَةُ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ الْأُخْرَىٰ فَيَنْزِلُونَ بِوَادِي السَّلاَمِ وَهُوَ وَادٍ بِظَهْرِ الْكُوفَةِ، ثُمَّ يَتَفَرَّقُونَ فِي الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَـارِ حَتَّى يَزُورُوا أَهَـالِيَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَمَعَهُمْ مَلاَئِكَـةٌ يَصْرِفُـونَ وُجُوهَهُمْ عَمَّـا يَكْرَهُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ إِلَىٰ مَا يُحِبُّونَ، وَيَزُورُونَ حُفَرَ الْأَبْدَانِ حَتَّى إِذَا مَا صَلَّىٰ النَّاسُ وَرَاحَ أَهْلُ الـدُّنْيَا إِلَىٰ مَنَـازِلِهِمْ مِنْ مُصَلاَّهُمْ نَـادَىٰ فِيهِـمْ جَبْرَئِيـلُ بِالرَّحِيلِ إِلَىٰ غُرُفَاتِ الْجِنَانِ فَيَرْحَلُونَ».

***

عن أبي عبد الله عليه السلام: «إِذَا وُضِعَ الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ مُثِّلَ لَهُ شَخْصٌ فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا كُنَّا ثَلاَثَةً:

كَانَ رِزْقُكَ فَانْقَطَعَ بِانْقِطَاعِ أَجَلِكَ، وَكَانَ أَهْلُكَ فَخَلَّفُوكَ وَانْصَرَفُوا عَنْكَ، وَكُنْتُ عَمَلَكَ فَبَقِيتُ مَعَكَ، أَمَا إِنِّي كُنْتُ أَهْوَنَ الثَّلاَثَةِ عَلَيْكَ».

* * *

عن أبي عبد الله (ع) قال: «إِنَّ ٱلأَرْوَاحَ فِي صِفَةِ ٱلأَجْسَادِ فِي الْجَنَّةِ تَعَارَفُ وَتَسَاءَلُ؛ فَإِذَا قَدِمَتِ الرُّوحُ عَلَىٰ ٱلأَرْوَاحِ تَقُولُ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا قَدْ أُفْلِتَتْ مِنْ هَوْلٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ يَسْأَلُونَهَا: مَا فَعَلَ فُلاَنٌ؟ وَمَا فَعَلَ فُلاَنٌ؟ فَإِنْ قَالَتْ لَهُمْ تَرَكْتُهُ حَيّاً ارْتَجَوْهُ، وَإِنْ قَالَتْ لَهُمْ: قَدْ هَلَكَ قَالُوا: قَدْ هَوَىٰ هَوَىٰ».

من غيب القيامة وحساب الحشر

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونْ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمْوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونْ. وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونْ. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونْ﴾ الزمر ٦٧ - ٧٠.

* * *

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبْ. يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجْ. إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرْ. يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرْ﴾ ق ـ ٤١ ـ ٤٤.

* * *

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينْ. مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونْ. فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونْ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونْ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونْ. إِنْ كَانَتْ

إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونْ. فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونْ﴾ ٤٨ - ٥٤ - يس.

* * *

عن هشام بـن الحكم في خبر الزنديق الذي سأل الصادق (ع) عن مسائل إلى أن قال: أيتلاشىٰ الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟ قال: «بَلْ هُوَ بَاقٍ إِلَىٰ وَقْتِ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَبْطُلُ ٱلأَشْيَاءُ وَتَفْنَىٰ، فَلاَ حِسَّ وَلاَ مَحْسُوسَ، ثُمَّ أُعِيدَتْ ٱلأَشْيَاءُ كَمَا بَدَأَهَا مُدَبِّرُهَا، وَذَلِكَ أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ تَسْبُتُ فِيهَا الْخَلْقُ وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنْ».

* * *

عن الإمام الصادق (ع): «أَلاَ فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، فَإِنَّ فِي الْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفاً كُلُّ مَوْقِفٍ مِثْلُ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآية: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةْ﴾.

* * *

وروي عنه (ع): «لَوْ وَلِيَ الْحِسَابَ غَيْرُ اللهِ لَمَكَثُوا فِيهِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْرَغُوا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ فِي سَاعَةٍ».

* * *

عن أبي جعفر (ع) قال: «إِنَّمَا يُدَاقُّ اللهُ الْعِبَادَ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةَ عَلَىٰ قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي الدُّنْيَا».

* * *

عن الإمام الصادق (ع) : «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَشَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رَحْمَتَهُ حَتَّى يَطْمَعَ إِبْلِيسُ فِي رَحْمَتِهِ».

***

عن علي (ع) قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ (ص): ثَلاثَةٌ يَشْفَعُونَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُشَفَّعُونَ: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ».

***

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ص) : لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا وَقَدْ سَأَلَ سُؤالاً، وَقَدْ أَخَبْأْتُ دَعْوَتِي لِشَفَاعَتِي لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

***

عن علي (ع) قال : قال رسول الله (ص) : مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِحَوْضِي فَلاَ أَوْرَدَهُ اللهُ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِشَفَاعَتِي فَلاَ أَنَالَهُ اللهِ شَفَاعَتِي. ثم قال (ص) : إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي، فَأَمَّا الْمُحْسِنُونَ فَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلْ. قال الحسين بن خالد فقلت للرضا (ع): يا بن رسول الله فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾؟ قَالَ: لاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ اللهُ دِينَهُ».

***

وعنه (ص) أنه قال في جواب نفر من اليهود سَأَلُوهُ عن مسائل: «وَأَمَّا شَفَاعَتِي فَفِي أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ مَا خَلاَ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ».

***

من غيب الجنة

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله (ع) جعلت فداك يا بن رسول الله شوقني، فقال: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ الْجَنَّةَ تُوجَدُ رِيحُهَا مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ، وَإِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً لَوْ نَزَلَ بِهِ الثَّقَلَانِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ لَوَسِعَهُمْ طَعَاماً وَشَرَاباً وَلَا يَنْقُصُ مِمَّا عِنْدَهُ شَيْءٌ، وَإِنَّ أَيْسَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيُرْفَعُ لَهُ ثَلَاثُ حَدَائِقَ، فَإِذَا دَخَلَ أَدْنَاهُنَّ رَأَىٰ فِيهَا مِنَ ٱلْأَزْوَاجِ وَالْخَدَمِ وَٱلْأَنْهَارِ وَالثِّمَارِ مَا شَاءَ اللهُ. فَإِذَا شَكَرَ اللهَ وَحَمِدَهُ قِيلَ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ إِلَىٰ الْحَدِيقَةِ الثَّانِيَةِ، فَفِيهَا مَا لَيْسَ فِي ٱلْأُولَىٰ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَعْطِنِي هَذِهِ، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ اَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: رَبِّ هَذِهِ هَذِهِ، فَإِذَا هُوَ دَخَلَهَا وَعَظُمَتْ مَسَرَّتُهُ شَكَرَ اللهَ وَحَمِدَهُ قَالَ: فَيُقَالُ: افْتَحُوا لَهُ بَابَ الْجَنَّةِ، وَيُقَالُ لَهُ: إِرْفَعْ رَأْسَكَ فَإِذَا قَدْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الْخُلْدِ وَيَرَىٰ أَضْعَافَ مَا كَانَ فِيمَا قَبْلُ، فَيَقُولُ عِنْدَ تَضَاعُفِ مَسَرَّاتِهِ: رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ الَّذِي لَا يُحْصَىٰ إِذْ مَنَنْتَ عَلَيَّ بِالْجِنَانِ وَأَنْجَيْتَنِي مِنَ النِّيرَانِ».

* * *

عن ابن عباس قال: قدم يهوديان فسألا أمير المؤمنين (ع) فقالا: أين تكون الجنة؟ وأين تكون النار؟ قال: «أَمَّا الْجَنَّةُ فَفِي السَّمَاءِ، وَأَمَّا النَّارُ فَفِي ٱلْأَرْضِ» قالا: فما السبعة، قال: «سَبْعَةُ أَبْوابِ النَّارِ مُتَطَابِقَاتٌ، قالا: فما الثمانية؟ قال: «ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ».

* * *

عن أبي جعفر (ع) قال: «أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ عَرْضُ كُلِّ بَابٍ مِنْهَا مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

* * *

وعن النبي (ص) «شِبْرٌ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

* * *

قال علي (ع) : «فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصِرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَىٰ الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، وَلَذُهِلَتَ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَىٰ سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلْفِ أَكْمَامِهَا، تُجْنَىٰ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَىٰ مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا، وَيُطَافُ عَلَىٰ نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَىٰ بِهِمْ حَتَّىٰ حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نَقْلَةَ الْأَسْفَارِ. فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَىٰ مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَىٰ مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالاً بِهَا، جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ سَعَىٰ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ».

* * *

وقال (ع) : «وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدُهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلُهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ».

«دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلاَتٌ وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ، لاَ يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا، وَلاَ يَـظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلاَ يَهْرَمُ خَالِدُهَا، وَلاَ يَيْأَسُ سَاكِنُها».

* * *

قال رسول الله (ص) : «مَنْ قَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ» غَرَسَ اللهُ لَهُ بِهَا شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَ «الْحَمْدُ للهِ» غَرَسَ اللهُ لَهُ بِهَا شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَ «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ» غَرَسَ اللهُ لَهُ بِهَا شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَ «اللهُ أَكْبَرُ» غَرَسَ اللهُ لَهُ بِهَا شَجَرَةً فِي الْجَنَّةْ. . فقال رجل من قريش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير؟ قال: «نَعَمْ، وَلَكِنْ إِيَّاكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا عَلَيْهَا نِيرَاناً فَتُحْرِقُوهَا وَذَلِكَ أَنَّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

* * *

عن علي (ع) قال : «جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَىٰ النَّبِيِّ (ص) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَسْتَطِيعُ فِرَاقَكَ، وَإِنِّي لأَدْخُلُ مَنْزِلِي فَأَذْكُرُكَ فَأَتْرُكُ ضَيْعَتِي وَأُقْبِلُ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْكَ حُبّاً لَكَ، فَذَكَرْتُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَأُدْخِلْتَ الْجَنَّةَ فَرُفِعْتَ فِي أَعْلَىٰ عِلِّيِّينَ فَكَيْفَ لِي بِكَ يَا نَبِيَّ اللهْ؟ فَنَزَلَ : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ فَدَعَا النَّبِيُّ (ص) الرَّجُلَ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ وَبَشَّرَهُ بِذَلِكْ».

* * *

عن جابر الأنصاري قال : لما زوج رسول الله (ص) فاطمة من علي (ع) أتاه أناس من قريش فقالوا: إنك زوجت علياً بمهر خسيس، فقال لهم : «مَا

أَنَا زَوَّجْتُ عَلِيّاً وَلَكِنَّ اللهِ تَعَالَىٰ زَوَّجَهُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، فَأَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى السِّدْرَةِ أَنِ انْثُرِي، فَنَثَرَتِ الدُّرَّ وَالْجَوْهَرَ عَلَى الْحُورِ الْعِينِ، فَهُنَّ يَتَهَادَيْنَهُ وَيَتَفَاخَرْنَ بِهِ وَيَقُلْنَ: هَذَا مِنْ نِثَارِ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدْ».

* * *

عن رسول الله (ص) أنه قال لعلي: «يَا عَلِيُّ إِنَّهُ لَمَّا أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ فِي الْجَنَّةِ نَهْراً أَبْيَضَ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدَّ اسْتِقَامَةً مِنَ السَّهْمِ، فِيهِ أَبَارِيقُ عَدَدَ النُّجُومِ، عَلَىٰ شَاطِئِهِ قِبَابُ الْيَاقُوتِ ٱلْأَحْمَرِ وَالدُّرِّ ٱلْأَبْيَضِ، فَضَرَبَ جَبْرَئِيلُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَىٰ جَانِبِهِ فَإِذَا هُوَ مِسْكَةٌ ذَفِرَةٌ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَراً يَتَصَفَّقُ بِالتَّسْبِيحِ بِصَوْتٍ لَمْ يَسْمَعِ ٱلْأَوَّلُونَ وَٱلْآخِرُونَ بِمِثْلِهِ، يُثْمِرُ ثَمَراً كَالرُّمَّانِ، تُلْقَىٰ الثَّمَرَةُ إِلَىٰ الرَّجُلِ فَيَشُقُّهَا عَنْ سَبْعِينَ حُلَّةً».

* * *

عن رسول الله (ص): «لَوْ أَنَّ ثَوْباً مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أُلْقِيَ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا لَمْ تَحْتَمِلْهُ أَبْصَارُهُمْ وَلَمَاتُوا مِنْ شَهْوَةِ النَّظَرِ إِلَيْهِ».

وقد ورد عنهم (ع): «كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ» وفي الوحي القديم: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ بِقَلْبِ بَشَرْ».

* * *

عن العباس بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله (ع) ذات يوم: جعلت فداك ما قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾؟

قال: فقال لي: «إِذَا أَدْخَلَ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ رَسُولاً إِلَىٰ وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، فَيَجِدُ الْحَجَبَةَ عَلَىٰ بَابِهِ، فَيَقُولُونَ لَهُ: قِفْ حَتَّى نَسْتَأْذِنَ لَكَ، فَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِذْنٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾.

* * *

عن أبي جعفر (ع) قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ (ص): إِنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَجْرِي فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ أَشَدَّ بَيَاضاً مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، وَأَلْيَنَ مِنَ الزُّبْدِ، طِينُ النَّهْرِ مِسْكٌ إِذْفِرٍ، وَحَصاهُ الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ. . تَجْرِي عُيُونُهُ وَأَنْهَارُهُ حَيْثُ يَشْتَهِي وَيُرِيدُ فِي جِنَانِهِ وَلِيُّ اللهِ، فَلَوْ أَضَافَ مَنْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لأَوْسَعَهُمْ طَعَاماً وَشَرَاباً وَحِلَلاً وَحُلِيّاً لاَ يُنْقِصُهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ».

* * *

عن رسول الله (ص) «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلاَنِ كَانَا يَعْمَلاَنِ عَمَلاً وَاحِداً فَيَرىٰ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهِ فَوْقَهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ بِمَا أَعْطَيْتَهُ وَكَانِ عَمَلُنَا وَاحِداً؟ فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: سَأَلَنِي وَلَمْ تَسْأَلْنِي، ؛ ثُمَّ قَالَ: سَلُوا اللهَ وَأَجْزِلُوا فَإِنَّهُ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ».

* * *

من غيب النار

عن أمير المؤمنين (ع) «إِنَّ جَهَنَّمَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ أَطْبَاقٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ـ ووضع إحدى يديه على الأخرى فقال: هَكَذَا ـ وَإِنَّ اللهَ وَضَعَ الْجِنَانَ عَلَىٰ الْعَرْضِ وَوَضَعَ النِّيرَانَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَأَسْفَلُهَا جَهَنَّمُ وَفَوْقَهَا لَظَىٰ، وَفَوْقَهَا الْحَاطِمَةُ وَفَوْقَهَا سَقَرُ، وَفَوْقَهَا الْجَحِيمُ، وَفَوْقَهَا السَّعِيرُ، وَفَوْقَهَا الْهَاوِيَةُ».

* * *

عن الهروي قال: قلت للرضا (ع) أخبرني عن الجنة والنار أهما اليوم مخلوقتان؟ فقال: «نَعَمْ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ (ص) قَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَرَأَىٰ النَّارَ لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: فإن قوماً يقولون: إنهما اليوم مقدرتان غير مخلوقتين، فقال (ع) «مَا أُولَئِكَ مِنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْهُمْ، مَنْ أَنْكَرَ خَلْقَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَقَدْ كَذَّبَ النَّبِيَّ (ص) وَكَذَّبَنَا، وَلَيْسَ مِنْ وِلَايَتِنَا فِي شَيْءٍ، وَخُلِّدَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾.

* * *

عن علي (ع) عن النبي (ص) قال: «تُكَلِّمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةً: أَمِيراً، وَقَارِئاً وَذَا ثَرْوَةٍ مِنَ الْمَالِ.. فَتَقُولُ لِلْأَمِيرِ: يَا مَنْ وَهَبَ اللهُ لَهُ سُلْطَاناً فَلَمْ يَعْدِلْ فَتَزْدَرِدُهُ كَمَا يَزْدَرِدُ الطَّيْرُ حَبَّ السِّمْسِمِ.. وَتَقُولُ لِلْقَارِئِ: يَا مَنْ تَزَيَّنَ

لِلنَّاسِ وَبَارَزَ اللهَ بِالْمَعَاصِي، فَتَزْدَرِدُهُ. وَتَقُولُ لِلْغَنِيِّ: يَا مَنْ وَهَبَ اللهُ لَهُ دُنْياً كَثِيرَةً وَاسِعَةً فَيْضاً وَسَأَلَهُ الْحَقِيرَ الْيَسِيرَ قَرْضاً فَأَبَىٰ إِلَّا بُخْلاً، فَتَزْدَرِدُهُ».

* * *

عن أبي جعفر (ع) قال: «إِنَّ مُؤْمِناً كَانَ فِي مَمْلَكَةِ جَبَّارٍ فَوَلَعَ بِهِ فَهَرَبَ مِنْهُ إِلَىٰ دَارِ الشِّرْكِ فَنَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ فَأَظَلَّهُ وَأَرْفَقَهُ وَأَضَافَهُ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَوْ كَانَ لَكَ فِي جَنَّتِي مَسْكَنٌ لَأَسْكَنْتُكَ فِيهَا، وَلَكِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَىٰ مَنْ مَاتَ بِي مُشْرِكاً، وَلَكِنْ يَا نَارُ هِيدِيهِ وَلَا تُؤْذِيهِ، وَيُؤْتَىٰ بِرِزْقِهِ طَرَفِي النَّهَارِ، قُلْتُ: مِنَ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: مِنْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ».

* * *

عن ابن أبي عمير قال: سمعت موسى بن جعفر عليه السلام يقول: «لَا يُخَلِّدُ اللهُ فِي النَّارِ إِلَّا أَهْلَ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ، وَأَهْلَ الضَّلَالِ وَالشِّرْكِ، وَمَنِ اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يُسْأَلْ عَنِ الصَّغَائِرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ قال فقلت له: يا بن رسول الله فالشفاعة لمن تجب من المؤمنين؟ فقال: «حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ عَلِيٍّ (ع) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (ص) يَقُولُ: «إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي، فَأَمَّا الْمُحْسِنُونَ مِنْهُمْ فَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» قال ابن أبي عمير: فقلت له: يا بن رسول الله فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى يقول ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ومن يركب الكبائر لا يكون مرتضى؟ فقال: «يا أَبَا أَحْمَدَ مَا مِنْ

مُؤْمِنٍ يَرْتَكِبُ ذَنْباً إِلَّا سَاءَهُ ذَلِكَ وَنَدِمَ عَلَيْهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ (ص) «كَفَىٰ بِالنَّدَمِ تَوْبَةً، وَقَالَ: مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ» فَمَنْ لَمْ يَنْدَمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَمْ تَجِبْ لَهُ الشَّفَاعَةُ وَكَانَ ظَالِماً وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ وَأَمَّا قَوْلُ اللهِ: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ فَإِنَّهُمْ لاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ اللهُ دِينَهُ، وَالدِّينُ: ٱلإِقْرَارُ بِالْجَزَاءِ عَلَىٰ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَمَنِ ارْتَضَىٰ اللهُ دِينَهُ نَدِمَ عَلَىٰ مَا يَرْتَكِبُهُ مِنَ الذُّنُوبِ لِمَعْرِفَتِهِ بِعَاقِبَتِهِ فِي الْقِيَامَةِ».

* * *

عن أبي عبيدة الحذاء قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ (ص) مَكَّةَ قَامَ عَلَىٰ الصَّفَا فَقَالَ: يَا بَنِي هَاشِمَ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ وَإِنِّي شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ لاَ تَقُولُوا إِنَّ مُحَمَّداً مِنَّا، فَوَاللهِ مَا أَوْلِيَائِي مِنْكُمْ وَلاَ مِنْ غَيْرِكُمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ، أَلاَ فَلاَ أَعْرِفْكُمْ تَأْتُونِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْمِلُونَ الدُّنْيَا عَلَىٰ رِقَابِكُمْ وَيَأْتِي النَّاسُ يَحْمِلُونَ ٱلآخِرَةَ، أَلاَ وَإِنِّي قَدْ أَعْذَرْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَفِيمَا بَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيْنَكُمْ، وَإِنَّ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ».

* * *

عن جابر بن يزيد قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ ٱلأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فَقَالَ يَا جَابِرُ تَأْوِيلُ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَفْنَىٰ هَذَا الْخَلْقَ وَهَذَا الْعَالَمَ وَأَسْكَنَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ جَدَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَالَماً غَيْرَ هَذَا الْعَالَمِ، وَجَدَّدَ خَلْقاً مِنْ غَيْرِ

فُحُولَةٍ وَلا إِنَاثٍ يَعْبُدُونَهُ وَيُوَحِّدُونَهُ، وَخَلَقَ لَهُمْ أَرْضاً غَيْرَ هَذِهِ الْأَرْضِ تَحْمِلُهُمْ، وَسَمَاءً غَيْرَ هَذِهِ السَّمَاءِ تُظِلُّهُمْ. . لَعَلَّكَ تَرَىٰ أَنَّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ الْوَاحِدَ وَتَرَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ بَشَراً غَيْرَكُمْ؟ بَلَىٰ وَاللهِ لَقَدْ خَلَقَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَلْفَ أَلْفِ عَالَمٍ وَأَلْفَ أَلْفِ آدَمٍ، أَنْتَ فِي آخِرِ تِلْكَ الْعَوَالِمِ وَأُولَئِكَ الآدَمِيِّينْ».

* * *

الحج الأكبر

ـ: ها قد مضت الأيام في المدينة بسرعة يا دكتور، وها نحن مغادرون غداً إلى مكة.

قالها أصغر وهما يصعدان إلى السطح لحضور محاضرة عالم القافلة استعداداً للسفر إلى مكة المشرفة.. ولما وصلا وجدا السيد الطبري يعلن برنامج الغد: صلاة الفجر في مسجد النبي، ثم زيارة الوداع، ثم وداع الأئمة وأهل البقيع، والعودة إلى القافلة.. وتعليمات للحجاج حول غسل الإحرام والطعام، وعنوان المسكن في مكة..

وافتتح القارئ الجا[illegible]ة بآيات فَهِمَا أنها تتعلق بالحج.. وختم الحجاج تلاوة القرآن بالصلاة على النبي وآله.. وجلس العالم على كرسي ليقول بعد الحمد والصلاة:

إخواني وأخواتي الأعزاء: لستم كم هي نعمة عظيمة أن نتوفق إلى زيارة النبي وأهل بيته (ص) فمن نحن حتى نستحق هذه النعمة العظيمة؟ والله إني لا أرى نفسي أهلاً لأن أدخل إلى حرم رسول الله (ص) أو أقف في مواجهة الأئمة (ع) في البقيع وأسلم عليهم وأخاطبهم، لا أرى نفسي أهلاً أن ألمس بعيني وأجفاني تراباً تبرك بأقدامهم، وهواء تشرف بأنفاسهم.. فمقام رسول الله (ص) عظيم جداً أيها الأعزاء، عظيم عند الله تعالى وعند ملائكة عرشه وسماواته، وعند رسله وأنبيائه وأوليائه جميعاً.. وهل مقام سيد المرسلين، وسيد الخلق أجمعين، كلمة بسيطة نقولها بلساننا وانتهى الأمر!؟

ومقام الأئمة من أهل بيته هو مقام خلفائه ونوابه وقادة أمته. . فمقـام النائب من مقام المنوب عنه، ومقام الوكيل من مقام الأصيل. . أرواحنا لك الفدا يا رسول الله ولأهل بيتـك الطيبـين الطاهرين، فنحن لسنا شيئـاً حتى نستحق هذه النعمة وهذه الكرامة. .

ولكن هل عرفتم أيهـا الأعزاء أن كـل هذه النعمـة هي مقدمـة لنعمة أعظم. .

الله أكبر. . إن زيارة النبي وآله (ص) على عظمتها مقدمة لما سنبدأ به غداً من حج بيت الله الحرام، فأرجو أن تفكروا في ذلك. .

نعم سندخل بإحرامنا غداً إن شاء الله في نعمة جديدة عظيمة، ويصبح اسمنا وفد الله، وزوار الله، وضيوف الله، وحجاج بيته الحرام. .

سبحانك اللهم، الأرض والناس كلهم لك، وكلنا نسير إليك، الوجود كله يسير بحركته نحو لقائك. . ولكنه تبارك وتعالى أراد أن يذكرنا بحركتنا نحوه ويعلمنا كيف تكون، فاختار منطقة من الأرض عاديـة جداً من حيث الظاهر، منطقة جبال متقاربة جرداء حارة المناخ، وجعل فيها بيتـه المعظم، وأمـر آدم وولده أن يحجـوا إليه، وأمـر الأنبياء أن يـدعوا النـاس من أنحاء الأرض إلى زيارته في كل سنة، في أيام معينة ومراسم معينة، وقـال من زار بيتي فقـد زارني، ومن تعلم كيف يـزور بيتي فقـد تعلم كيف يسعى إلى لقائي. . إنه لأمر عظيم، ونعمة عظيمة والله. .

الحج أيها الأعزاء، نموذج مصغـر عن حركـة حياتنـا على الأرض كيف يجب أن تكـون. . وفيه كـل العناصر والصفـات التي يـريـد الله أن تكـون عليها. .

لعلكم جميعاً رأيتم في «التلفزيون» النموذج الذي صنعوه في طهران لعمليات خيبر وتحرير جزر مجنون. . لا بد أنه كان يشتمل على كل العناصر الأساسية لهذه العملية، وهكذا كل نموذج يكون المقصود منه التعريف بشيء أو التعليم عليه. . مع أن هذا النوع من النماذج الإعلامية التي ترونها في المعارض والأفلام والمسرحيات تختلف عن نموذج الحج، لأنها مقصودة لغيرها، فقيمتها بمقدار ما تنفع في الإعلام فقط، بينما الحج قيمته في نفسه وفي غيره، فهو نفسه جزء حقيقي من الحياة، وهو نموذج مصغر لها. .

بماذا يبدأ الحج أيها الإخوة والأخوات؟ بالتلبية «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكْ» وهذا هو عنصر الولاية. . وبماذا ينتهي؟ برمي الجمار، وهذا عنصر البراءة. . فخطّا الولاية والبراءة هما أول الخطوط والمعالم التي نراها في عملية الحج وهما يرافقاننا في مختلف أعماله. . وهما أول الخطوط الضرورية لحياة الناس على الأرض، فلا حياة إسلامية بلا ولاية وبراءة، بل لا يُقبل إسلام المسلم بلا ولاية وبراءة. .

والولاية لله تعالى لا بد أن يتفرع عنها الولاية للنبي (ص) وآله (ع) والولاية لولي أمر المسلمين النائب عنهم، والولاية للمسلمين. . ولا بد أن يرافقها نفي الشركاء والبراءة منهم، كل الشركاء المعبودين من دون الله، والمُطاعين في معصية الله، من الكفار والمنافقين دون استثناء. .

سوف ندخل غداً بشكل عملي في امتحان الولاية والبراءة، وسيكون بدء عملنا الاستجابة لدعوته تبارك وتعالى. . لاحظوا أيها الأعزاء أن البداية منه سبحانه، فهو أهل البدء والمبادرة دائماً، وقد دعانا إلى حج بيته، ودعانا أبونا إبراهيم (ع) إلى إجابة دعوته، ودعانا نبينا محمد (ص) إلى إجابتها. . ونحن دورنا في الولاية والبراءة وفي كل الأمور يبدأ باستجابة الدعوة، بالرد على

النداء، بامتثال الأمر الإلَهي وإعلان الاستعداد لامتثال كل أوامره المقدسة . .

ولكن إجابة هذه الدعوة والدخول في حرمها تتوقف على مقدمة مهمة لا تصح بدونها، إنها لبس ثياب الإحرام أي: خلع ثيـاب الدنيـا ولبس ثياب الآخرة . .

أنتم ترون شبابنا عندما يسمعون نداء الجهاد في سبيـل الله، النداء إلى ولاية الله تعالى والبراءة من أعدائه . . ترونهم يتركون الأهـل والمال والـدنيا وراءهم ويلبســون ثياب الحـرب ويحملون أسلحتهم، ويلتحقون بـالجبهات قائلين لبيك يا داعي الله . .

حقاً إن هؤلاء الأعزاء ملبون ناجحون في امتحان الولاية والبراءة . .

ولقـد كنتم جزءاً من شعبنـا حـين لبى داعي الله وخـرج بمـلايينـه إلى الشوارع ،تاركاً الدنيا وراءه معلناً ولايته وبراءتـه من أعدائـه، ورأيتم بعض الناس يرمز للتضحية بلبس الأكفان . .

آه . . خلع ثياب الدنيـا، ولبس ثياب الآخـرة . . هذان الشـرطان مـا أصعبهما وما أسهلهما، وما أعظمهما . . فبدونهما لا تصلح حركة حياة المسلم ولا تكون إجابته إلا ادعاء، ولا تكون تلبيته إلا لقلقة لسان . . .

إنهما شرطان في أعمال الحج وامتحاناتها، وشرطـان في حياة المسلمـين وامتحاناتها. آه، لو أحرم المسلمون لله ولبوا لانحلت كل مشاكلهم ومشاكل أهـل الأرض جميعاً . . لـو خلعوا عنهم ثيـاب الدنيـا ولبسوا ثيـاب الآخـرة لنجحوا في امتحان الولايةوالبراءة ،وفي كل الامتحـانات، ولعمـروا الأرض وانفتحت عليهم بركات السماء . .

الحج صورة لحياةالمسلمين،متفاعل معها وفاعل فيها أيها الأعزاء . . فكما

نعيش نحج، وكما نحج نعيش.. كما ترون حياة المسلمين كذلك ترون حجهم، وعندما يحدث تطور فيها يحدث تطور في الحج.. والعكس صحيح إلى حد كبير..

إذا كنا متعودين على إيثار الحياة الدنيا ومدمنين على متاعها فسيكون إحرامنا للحج عملاً شكلياً، وتلبيتنا لله عملاً لفظياً، وإحساسنا بولايته تبارك وتعالى إحساساً باهتاً، وإحساسنا بالبراءة من شركائه وأعدائه إحساساً بارداً..

وهذه هي الحالة الغالبة على المسلمين، فلا عجب أن تكون غالبة على حجهم.

كلما جئت إلى الحج وأردت أن أحرم ورأيت المسلمين يحرمون بكيت لأمرين، ورافقني شعور الألم لهما في أعمال الحج.. لقلة استفادة المسلمين من حجهم يعني من حياتهم، وقلة استفادتي أنا العبد الفقير من حجي وحياتي.. يبدأ هذا الشعور من لبس الإحرام والتلبية.. أرى أن الشكلية في إحرامنا أكثر من الجوهر، وفي تلبيتنا وبراءتنا..

أقول في نفسي، ما ذنب هؤلاء المسلمين أن لا يتثقفوا بثقافة الإسلام، ولا يستفيدوا من حجه لحياتهم..

صحيح أن أعمال الحج ومعانيها صارخة؛ فهي توقظ.. وإن الفطرة تجعل الحجاج يعيشون أجواء روحية مؤثرة، وإن لم يعبروا عنها.. ولكن تبقى نسبة الظاهر من معاني الحج إلى أبعاده وأعماقه قليلة.. وتبقى نسبة ما نعيشه ونستفيده إلى ما نحتاجه ضئيلة..

كم في خلع ثياب الدنيا للإحرام من معنى، وكم يعرف الحجاج منها،

وكم يعيشون. . . فيه معنى خلع الإدمان والعادة، وخلع المميزات والهوية الشخصية، وخلع المتاع والرفاهية، وخلع الكسل والدعة، وخلع الدفء والستر المطمئن. . وفيه البراءة من كل ما يعيق عن الحركة نحو الله. . الحركة الخفيفة المطلقة. .

وتتجمع معاني النفي والبراءة في خلع ثياب الدنيا،فتكون إثباتاً في لبس ثوبي الآخرة كأنَّ أحدنا يقول: لا، لا لمتاع الدنيا، وها أنا يا ربي بين يديك في أكفاني. .

كم معنىً إثباتياً تحمله «ها أنا ألبس أكفاني» إن معاني الموعظة بالموت والمحشر فيها صحيحةوجيدة، ولكن لماذا أصبحت عندنا تفقد معنى «أني مستعد أن أضحي لك بدمي»؟ لماذا أصبحت في حسنا تتعلق بالحركة التكوينية للموت والحياة ولقاء الله، وتجردت عن فعلنا للموت والحياة ولقاء الله. ؟ فهل قال لنا تعالى: اخلعوا ثياب دنياكم والبسوا أكفانكم وأجيبوا دعوتي إلى مكة، من أجل أن يذكرنا بحركة لقائه في الآخرة مفصولة عن حركتنا نحن في الدنيا. . وهل يمكن أن تكون مفصولة. ؟

وهل كان المسلمون مع رسول الله (ص) في صدر الإسلام يعيشون من الإحرام معنى الموعظةبلقاء؛الله مفصولاً عن معنى الاستعداد للتضحية. . أم أننا عندما تركنا الجهاد أعرضنا عن معانيه الصارخة في عبادتنا أيضاً، فأصبحت البراءة من معاني الدنيا لا تعني خلع مستعمرينا وحاكمينا، وأصبحت أكفاننا لا تعني استعدادنا للشهادة ولقاء الله؟!

اللهم مغفرة. . فإن المعاني التي أردتها لنا من خلع ثياب دنيانا معان حيوية ساخنة،ونحن الذين جعلناها باردة،عندما حذفنا منها خلع أعدائك المعاصرين. .

ونحن جعلنا المعاني الساطعة في لبس أكفاننا للقائك معاني باهتة، عندما جردناها من معنى الجهاد وبذل الدم في سبيلك . .

أرجو أيها الإخوان أن نعيش في خلع ثياب دنيانا معاني البراءة التي يعيشها البسيجي - المتطوع - عندما يودع أهله للذهاب إلى الخط الأول من الجبهة، وفي لبس إحرامنا المعاني التي يعيشها وهو يلبس ثيابه ويأخذ سلاحه باسم الله وفي سبيل الله . .

أرجو أن لا ننسى أن البراءة التي تتضمنها أعمال الحج ،ليست هي البراءة من الشركاء وأعداء الله في التاريخ فقط، بل هي البراءة من الكفار العالميين وعملائهم في بلادنا ،فهؤلاء هم الذين يزعمون أنهم شركاء الله تعالى في أرضه وحكمه . .

ماذا يبقى من الحياة في قول المسلم لا إله إلا الله، ولا شريك له، إذا كانت تعني نفي الشركاء في التاريخ وفي الكون، ولا تمس الشركاء الذين يتصرفون في مقدرات الأرض وحياة المسلمين؟

ولو كان كل جيل من المسلمين يريد أن يسكت عن شركاء عصره ويستثنيهم فيقول لا إله إلا الله وإلا آلهة عصري، وحده لا شريك له إلا شركاء عصري، فهل كان يبقى مسلمون وإسلام؟!

وأرجو أن لا ننسى، أن الولاية التي تتضمنها أعمال الحج ليست ولاء في التاريخ، ولا ولاء مشروطاً بعدم بذل الدم . . فلبس الأكفان رمز كامل وإجابتنا لدعوته إجابة كاملة، وتلبيتنا له عز وجل كاملة، شاملة لبذل الدم أيضاً . .

أسألكم أيها الأعزاء، إذا رأيتم أشخاصاً يلبسون أكفانهم ويخرجون في

تظاهرة وهم يقولون «لبيك يا داعي الله يا إمامنا، ولكن بشرط أن لا نتعرض للموت» ألا تقولون لهم: ما هذا التناقض، ولماذا لبستم الأكفان رمزاً للفداء إذن..؟ على الأقل اخجلوا من لباسكم، والبسوا ثيابكم العادية، وكونوا في آخر الناس..

آه من تقصيرنا وخجلتنا من الله أيها الأخوة، إذا استثنينا من البراءة كفار عصرنا والمنافقين، واستثنينا تلبية الله بجهادهم، وجئنا إلى زيارته ولبسنا إحرامنا قائلين لبيك اللهم لبيك.. ألا نخشى أن يقول لنا: لا لبيكم ولا سعديكم؟، تقعدون عن جهاد شركائي وأعدائي، وتبخلون عليّ بأنفسكم، ثم تجيئوني وتقولون لبيك.. أي تلبية هذه يا من زعمتم أنكم مسلمون لي.؟

هل تعرفون أن جواب الله تعالى للحاج الملبي، كما في الأحاديث الشريفة إذا لم يكن مقبولاً أنه يقول له «لا لبيك ولا سعديك» أما إذا كان مقبولاً فيقول له «لبيك عبدي وسعديك»؟

«لبيك عبدي وسعديك» الله أكبر على هذا المقام العظيم الذي يرفع الله إليه عبده المسلم، فيجيبه على تلبيته بالتلبية.. تبارك ربنا وتعالى.

أيها المسلم، أترى أن الله تعالى جعل لك هذا المقام بسبب صلاتك وصومك وسلوكك الشخصي، من دون سلوكك العام.. أتراه من أجل عباداتك الشخصية يقول لك «لبيك عبدي وسعديك» ويسامحك بسكوتك على تسلط الكافرين والمنافقين على عباده، وإماتتهم أحكامه، وإحيائهم أحكام الكفر؟!

أتراه يقبل منك زيارتك له بمراسم شكلية، في أيام قليلة من حياتك،

وأنت في بلدك تحرم لأعدائه،وتلبس لهم ثياب الخوف والمداراة والقعود، وتلبيهم بالسكوت والإطاعة؟!

كلا، كلا، ما أنصفت مع من أحرمت له ولبيته وجئت إلى زيارته، وما هكذا يكون الولاء والحب..

لن تكون محباً له حتى تخرج من قلبك آخر ذرة من الرضا بالسكوت على أعدائه.. وحتى تبيعه المال والنفس في جهادهم.. وحينئذ يكون حبك له الحب الأكبر في حياتك،وتكون صادقاً في لبس الأكفان والتلبية، وأهلاً لأن يخاطبك من أعلى ملكوته «لبيك عبدي وسعديك».

أيها الإخوة، تعلموا الإحرام والتلبية من شبابنا الثوري في إيران والعالم الإسلامي.. من أولئك الأعزاء الخالعين ثياب الدنيا، اللابسين ثياب الآخرة، الملبين الله ببذل أموالهم وأنفسهم في جهادأعدائه،وحفظ دينه وإقامة أحكامه.. فهؤلاء هم زوار الله قبلنا، ومن حبهم إياه يجب أن نتعلم..

*

البـداوة والتمدن

والخط الثاني الذي نراه في أعمال الحج أيها الأعـزاء هو خط التمـدن، فـالحج عمليـة تدريب عـلى التمدن الإسلامي، وعمليـة مكـافحـة للبـداوة والجهل.. وكذلك هي الحياة الإسلامية حرفياً..

طبعاً أصحاب الثقافة الغربية لا يقبلون هذا الكلام، يقولون إن هـذه المناسك التي علمها النبي (ص) لقبائل العرب قبل أربعة عشر قرناً، يمكن أن تكون عامـلاً في تمدينهم وإخـراجهم من البداوة يـومذاك، أمـا اليوم فكيف يمكننا القول بأن هؤلاء الحجاج المسلمين، الذين هم من بـلاد العالم الثـالث المتخلفة، بل أكثرهم من قراها وأريافها، يتدربون في الحج على المدنية لكي ينشروها في شعوبهم وفي شعوب العالم المتدن..؟

هؤلاء المعترضون يقيسون المدنية بالمظهر وينسون الجوهر.. كأنه فاتهم أن المدنية جوهر في شخصية الإنسان، ينتج عنه مـظاهر اجتمـاعية وعمـرانية وثقافية وسياسية.. فاتهم أنها حالة فنية، حالة شاعرية، حالة جمالية في فهم الإنسان للحياة وتعامله معها ومع النـاس ومع الـطبيعة.. وأنها قـد تكون حالة صحيحة أو تكون خاطئة، وقد تكون جزئية أو شاملة.. وأنه قد يتيسر لأصحابها أن يترجموها في مظاهـر تملأ السمـع والبصر، وقد تبقى كـامنة لا يستطيع أصحابها أن يجسدوها، بسبب سيطرة غيرهم عليهم ومنعهم من إقامة مدنيتهم..

أيها السادة، ما دامت المسألة في الجوهر، في الحالة الجمالية في الفكر والشعور والسلوك، فلم لا يكون أهل القرية عندنا في خراسان، أغنى في ذلك من أهل ضاحية في واشنطن. . لا تغرنكم مدنيتهم الخاطئة والناقصة والبائسة. . هل تعرفون كيف يفكرون وكيف يعيشون. .؟ هل تعرفون أنهم فقراء حتى الصفر إلى العلاقات الأسرية والاجتماعية الموجودة عندنا، وأنهم لا غيرة عندهم على أقاربهم وأصدقائهم، إذا وقع أحدهم تحت ضائقة اقتصادية،أو وقعت عليه مصيبة. . وأنهم لا غيرة عندهم على أبنائهم وبناتهم وهم يرون الفساد الأخلاقي والمخدرات تدمر شخصياتهم وأبدانهم.؟

هل تعرفون أن الرقة والحنان، والعواطف الإنسانية والحب الحقيقي والأخوّة في الله، وأمثالها من القيم التي نعيشها في قريتنا، لا يعرفونها في تعاملهم مع بعضهم، وأن الموجود بدلها هو القسوة والجفاف والمادية، والغدر والخيانة.؟

لا تستكثروا أن تكونوا أساتذتهم في المدنية، فإنهم بحاجة إلى أن يتعلموا منا حتى النوم المبكر والاستيقاظ المبكر، وحتى غسل الأطراف والبدن بالماء. . فضلاً عن الإيمان بالله تعالى ورسوله واليوم الآخر. .

لا تغرنكم مدنيتهم الظاهرية في مجال الصناعات والعمران والعلوم الطبيعية، فهي مدنية ناقصة، وتقابلها البداوة في باطنهم، ويقابلها الخراب والتدمير الذي ينشرونه في العالم. .

تذكروا صفات البداوة والجاهلية التي جاء الإسلام لإزالتها فستجدون أكثرها موجوداً فيهم. . إنهم أهل الجاهلية الثانية التي ذكرها الله تعالى بقوله ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ وإنه لا شيء يخرج الإنسان من البداوة

والجاهلية إلا التدين.. التدين بالإسلام هو الوحيد الذي يستطيع أن يفجر في الإنسان الحالة الجمالية الصحيحة والكاملة، يعني حالة التمدن الإنسانية التي يريدها الله تعالى..

لماذا؟ لأن شريعة الإسلام تعلم الإنسان كل شيء، وترافقه في كل شيء.. تقول له إن التفكير بهذا الشكل واجب وبهذا الشكل حرام، أو مكروه أو مستحب أو مباح.. في الكلام، وفي النظر، وفي السمع، وفي كل نشاط وحركة، في كل شيء دون استثناء يجد المسلم الخريطة الإسلامية أمامه تقول له، واجب، حرام، مستحب، مكروه، مباح..

هذه الأحكام تُكوّن عند المتدين الدقة في تعاطي الحياة وإرهاف الحس، أو الحالة الجمالية.. ولهذا قال أئمتنا عليهم السلام «تفقهوا في الدين ولا تكونوا أعراباً» فالمتفقه الذي يعرف ما يحتاجه من أحكام دينه هو المتمدن وغيره هو البدوي الجاهلي، ولو كانت جاهليته حديثة..

هذا أيها الأعزاء باختصار رأي الإسلام في التمدن والبداوة، فكيف يكون الحج عملية تدريب على التمدن ومكافحة للبداوة والجهل..؟

إذا اعتبرنا أن معدل احتكاك المسلم اليومي بالأحكام الشرعية مئة مرة مثلاً، في الكلام والنظر والسمع والبيع والشراء وكل ما يفعل أو يترك.. فإن أعلى معدل لاحتكاكه بالأحكام هو في أيام الحج المعدودة.. فالأحكام الإلهية من عصر الغد أيها الأعزاء ستحيط بالواحد منا من كل جانب: لباس الإحرام فيه كذا شرط وكذا حكم، والنية، والتلبية، والكلام، والنظر، والسمع، وحك الجسد، والنوم، وجغرافية الأرض، والتعامل مع الحيوان والنبات، والطواف والسعي، إلى آخره.. في كل واحد من هذه الأمور عشرات الأحكام، مضافاً إلى الأحكام العادية..

كما أن معدل الأحكام الجزائيـة في الحج أعـلى معدل في حيـاة المسلم، فهذه المخالفـة عليها كفـارة كذا، وهـذه عليها كفـارة أخرى، وهـذه تبطل الطواف أو السعي أو العمرة أو الحج.

هذه الكثافة في الأحكام الشرعية، والحسم في جـزاء مخالفـاتها، تجعـل الإنسان يستنفر عقله وحسه، ويحسب سلوكه بـاللفظة، والنـظرة، وحركـة القدم، وحركـة اليد، وحكـة الرأس. . وتعلمـه من إرهاف الحس والـدقة والمدنية الكثير الكثير. . حتى أصبح المحرم مضرب المثل للإنسان الدقيق في تصرفه وتعامله، والذي يحسب في كل صغيرة وكبيرة حساب إحرامه لله تعالى ومثوله بين يديه. . مضرب المثل في حالة التقوى السلوكية العالية، وهي هي حالة الإرهاف الشاعرية في تعاطي الحياة، أو المدنية. .

يقول أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ما معناه قلت له: يا بن رسول الله مضى عليَّ أربعون سنة وأنا أسألك عن أحكام الحج وما نفدت. . فأجابني: يـا فلان، بيت تعبَّـد اللهُ به خلقَهُ منذ أوجـدهم، تريـد أن تنفد أحكامه في أربعين سنة. . ؟

أرأيتم كيف أن زيارة بيت الله تعالى تدرب المسلمين على أعلى درجات السلوك الفقهي والمدنية. .

مستشفى الكبرياء

والخط الثالث في أعمال فريضة الحج ،أنها تعالج هذه الكبرياء الحمقاء في الإنسان، هذه العلة التي قد تكون أكبر علله على الإطلاق. . فمشكلة الإنسان في الغالب ليست أنه لا يعرف الحق والصواب، ولا أنه يعرف، ولكن يغلبه ضعفه أمام نوازع الدنيا. . بل مشكلته أنه يتكبر على الحق ولا يريده. .

لماذا كان الإنسان أقرب ما يكون إلى الله تعالى وهو ساجد؟ لأنه حينذاك أبعد ما يكون عن التكبر. .

لأنه يكون في أقرب نقطة تشعره بموقعه الحقيقي من الحق المطلق عز وجل، وسلوكه اللازم نحوه. .

ولماذا يمدح الله تعالى الذين ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾؟

لأن علاقتهم بالحق لا يشوبها عدوانية أو تكبر، فهي علاقة حب وخشوع ودموع.

تقرؤون في القرآن قصة تكبر إبليس، وترون التأكيد عليها وتكرارها، إنها ليست قصة للرواية والثقافة فقط، إنها تحذير عملي للناس أن يتكبروا على ما أنزله الله إليهم من الحق، فيتحولوا إلى مستكبرين وأبالسة. . تحذير لنا، لأن في النفس البشرية نوازع التكبر وبذوره، ولأن إبليس وجنوده على اتصال

مباشر بنفس أحدنا، ينفخون فيها روح التكبر والتعصب ويزينون مفاهيمه، أعاذنا الله . .

وهل جر الويلات على أجيال البشرية إلا الملأ الذين استكبروا عن آيات ربهم . ؟

وهل يجر الويلات اليوم على العالم إلا المستكبرون عن آيات ربهم، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون . ؟

وهل مشكلة المستكبرين في عصرنا، في العالم وفي بلادنا، أنهم لا يعرفون الحق . ؟ كلا، إنهم يعرفون، ويعرفون أكثر لو أرادوا . .

أما معالجة الإسلام للذين استحكم فيهم هذا الداء فهي المقاومة والثورة . .

وأما الحج فهو يعالج قابلية التكبر فيزيلها، ويحض المسلم ضدها ويعقم تربتها، فإن كانت بذوراً استخرجها من النفس وألقاها بعيداً، وإن كانت نباتاً اقتلعها من جذورها وطهر مكانها وما حولها . .

يقول لك الحج : هيا، ألق عنك ثياب امتيازك وكن واحداً من الناس ولَبِّ دعوة ربك . . ثم يتابعك بسيل الأوامر والتوجيهات والأعمال، التي تألف القليل منها، ولا تألف أكثرها، وتفهم القليل منها، ولا تفهم أكثرها . . .

أرجو أن تلاحظوا أيها الإخوة والأخوات أعمال الحج وفعلها الذي يشبه الصدمات الكهربائية لتكبر الإنسان، ويشبه العديد من الأدوية والمعالجات . . ابتداءً من المظهر والثياب، إلى حركات البدن في الإقامة والسفر، إلى حركة الدوران في الطواف، والجيئة والذهاب والهرولة في

السعي، إلى السكن في خيام صحراء عرفات، والتحرك في زحام الناس إلى المشعر، وجمع الحصى على ضوء المصابيح اليدوية من جوانب الطرقات وسفوح الجبال، إلى رمي الجمرات في موج من عباد الله، ثم العودة إلى الطواف والسعي . . كيف تعالج هذه الأعمال في أحدنا شعور التكبر على الناس، وتجعله عاملاً من ألوف العمال، ورقماً من آلاف الأرقام . .

وأعظم ما يعالج الحج من تكبر الإنسان تكبره في إخلاده إلى الأرض وحبسه لعقله في قوقعة مادياتها . . يقول له : هذه المنطقة القاحلة من الأرض هي حرم الله، وهذه الغرفة المبنية من أحجارها الداكنة هي بيت الله، وكلها عامرة بغيب الله وملائكته إلى عنان السماء وإلى يوم الدين . . وكل عمل أمرت به هنا له أبعاد عظيمة وإن جهلتها، وكل حركة تقوم بها ذات معنى وتأثير أكثر مما تتصور . . فألقِ عنك كبرياء الاعتداد بفهمك المحدود واخرج من قوقعتك المادية، وانطلق في آفاق غيب الله وحكمته . .

من أعظم خطب أمير المؤمنين (ع) وأطولها في نهج البلاغة الخطبة المسماة «القاصعة» التي يحلل فيها مرض التكبر والتعصب في أجيال البشرية وفي أهل العراق،ويَذْكر دور الحج الأساسي في معالجته، وكيف أن الله تعالى اختبر الناس بأحجار لا تضر ولاتنفع،ولا تبصر ولاتسمع،فجعلها بيته الحرام الذي يجعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض، وأمر الناس أن يحجوا إليه من أطرافها . . وأنه لو شاء لجعله في أحسن بقاعها، ولأقام بناءه من أنواع الجواهر والأحجار الكريمة، ثم يقول عليه السلام **﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلْيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَىٰ فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلَلاً لِعَفْوِهِ﴾**

أرجو أن نستفيد أيها الأعزاء من هذه «الشدائد والمجاهد والمكاره» التي تتضمنها عملية الحج كما يقول أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ونستخرج بها بذور التكبر من قلوبنا. . واحذروا أن يكون صبركم وتحملكم قليلاً، أو نظركم إلى الأمور قصيراً، فيحدث لكم من شيء منها ردة فعل، فتكون النتيجة معكوسة، أعاذنا الله. .

معهد العبودية

ويقابل معالجة التكبر في الحج أيها الاعزاء، التربية على العبودية . .

إذا سألت أي إنسان من شرق الأرض وغربها لقال لـك نعم أنا عبـد الله ، فالجميع ما عدا الشواذ مؤمنون بالله ، يقولون إنّا عباد مخلوقون مملوكون لله تعالى . . ولكنكم لا تجدون مظاهر العبـودية ومحتـواها إلا عنـد المسلمين المتدينين ،وإلا شكليات قليلة عند غيرهم . .

هل سمعتم في قصص التاريخ والملوك عن إطاعة العبد المملوك لسيده وخضوعه له . .

بعض الناس يستنكف أن يقال لـه أنت عبد الله ، يتصـور أن في ذلك إهانة له ونقصاً من كرامته؟

أيها الجاهل، إذا لم تعترف بأنك عبد لله فماذا تكون . . وماذا يتغير من الواقع سوى إنكارك له وتكبرك عليه . . وأي كرامة لك أيها المخلوق الصغير إذا انفصلت عن موكب الكون وعن رحمة خالقه ! ؟

لعلك تتصور أن فائدة عبوديتك لله تعود إليه تعالى . . إذن ما عرفته ولا عرفت قدرته، ما عرفت غناه المطلق وفقرك المطلق . .

وهل رأيتم أيها الأعزاء حب إنسان لإنسان وطاعته وذوبانه فيه . ؟

هل رأيتم عشق العاشقين للمحبوب الأكبر سبحانـه، وهيامهم بـذكره وذوبانهم في سبيله . ؟

يقول الحج لأحدنا: ألقِ عنك رداء الكبرياء والبس ثياب التواضع، كفاك بعداً عن خالقك وسيدك، فتعال إلى بيته، وتعلم كيف تكون له عبداً مؤدباً محباً.. تعال مع هؤلاء الآتين من أنحاء الأرض ليتعبدوا له عند بيته، تعلم معهم أصول العبودية وآدابها وتعلم منهم.. فرب مسلم من القرى النائية أعمق عبودية وحباً منك، وأصدق تعبيراً عنها بالكلمات والحركات والدموع..

تعال إلى حرم الله خاشعاً ناسكاً واستوعب دروسه، فستجد معهداً يعلمك أبلغ دروس العبودية وأرقاها.. فقد تخرَّج من هذا المعهد ملايين التلاميذ الذين عمروا الأرض بعبودية الله وبركاتها، وسوف تجد ذكريات كبارهم صلوات الله عليهم، وتطوف حيث طافوا وتسعى حيث سعوا، وتصلي حيث صلوا، وحيث وقفوا تلاميذ مؤدبين رافعين رؤوسهم والأكف يرمقون السماء، أو حانين رؤوسهم والطرف يتلقون الدروس..

وستجد المعلم الحي القيوم عز وجل ما زال حاضراً يلقي الدروس ويكرم من جاءه متعلماً مؤدباً..

كل أعمال الحج تعلمنا العبودية لله تعالى، أصولها وآدابها، شكلها ومحتواها، عبودية الحاجة وعبودية الحب، وعبودية العقل والقلب.. وتعرفنا كم نحن في حياتنا بعيدون عنها.. فاحرصوا أيها الحجاج إلى بيت المولى أن تكونوا عبيداً خاضعين مؤدبين محبين وأن تغترفوا..

آه لو اغترفنا من نور العبودية له سبحانه، إذن لاستغنينا عن العبودية لسواه، وعن الحاجة إلى سواه، وعن حب ما سواه.. ولحررنا أهل الأرض من تلكم العبودية السوداء التي يرزحون تحتها..

التوحيد والوحدة

والخط الخامس الذي نلمسه في أعمال الحج خط وحدة المسلمين . .

لاحظتم أيها الأعزاء شعور الأُخوَّة والمحبة الذي يفيض من قلوبنا لإخوتنا المسلمين من شعوب الأرض، عندما نراهم في الشوارع، أو ندخل معهم إلى حرم رسول الله (ص) فنقف لزيارته، أو في الصلاة، أو في زيارة البقيع . . فهل تعرفون كم عقبة يقطع المسلم وكم صنماً يحطم حتى يعيش نعمة هذه الأخوَّة والوحدة . . ؟

يحطم على الأقل خمسة أصنام . . صنم الذاتية، والأسرية، والإقليمية، والقومية، والعرقية . .

سبحان الله، فقد جعل السفر القصير إلى الحج سفراً من تلك الآفاق الضيقة إلى أفق الإسلام الفسيح، وأراد أن يكون الحج نموذجاً حياً يقوم في كل عام ليقول للأمة الكثير عن وحدتها . .

يقول لنا الحج : أيها المسلمون، فقط التقوا على عبادة الله لتروا أصالة الوحدة بينكم وزيف الحواجز . . تحركوا نحو الله لتروا أنكم خرجتم من القواقع والسجون والتقيتم على الله متحابين . .

يقول لنا : أرأيتم كيف أن البعد عن الله والقعود يجعل من النعم عقبات وأصناماً . . إن حب الذات نعمة، وحب الإنسان لعائلته، وبلده وقومه . . ولكنها بمجرد انحرافها عن الشرع تتحول إلى عقبات تمنع، وأصنام تعبد . .

فإياكم أن تعبدوها بدل الله تعالى، أو تجعلوها محور وحدتكم بدل وحدانيته، فتمنعكم قوقعتها عن تنفس الأفق الفسيح . .

يكاد المسلمون يصدقون أنهم ليسوا أمة واحدة، فالإعلام التجزيئي يضغط عليهم ليل نهار للتخلي عن محور الإسلام، والالتفاف حول محاور الأوطان والأقوام والعروق . . حتى إذا وجدوا أنفسهم في الحج، لمسوا وحدتهم ولمسوا محورها الحقيقي . . واكتشفوا مؤامرة التجزئة . .

أيها المسلمون: إن حب الذات والعشيرة والوطن والقوم، نعمة فلا تجعلوها نقمة . . إنها أنواع من الحب المقدس، ولكن بشرط أن تكون خادمة لحب الله وتوحيده، لا خارجة عنه ولا بديلة . .

أيها المسلم: أحبب نفسك بحب الله، فستجد نفسك الكبرى أمتك . . وستجد لنفسك وجهاً آخر عدواً فاحذره . . وكذلك الأمر في الأهل والقوم والوطن . .

يقول لنا الحج الكثير عن مفاهيم وحدتنا وعن واقعها، هنا في مدينة نبينا (ص)، وسترونه يقول أكثر عندما تخلع شعوب الأمة ثياب الذات والأقوام والأوطان، وتلبس ثياب الحركة نحو الله، هنا في المدينة وفي مسجد الشجرة وفي الطريق إلى مكة . . وفي طوافها وسعيها وصلاتها . . وأكثر القول وأبلغه عندما تقف شعوب الأمة جميعاً في ساحة عرفات . .

وسيواصل الحج قوله وإصراره كل عام حتى تستجيب له الأمة، وتطيح بأصنام التجزئة الكافرة في حركتها نحو الله . .

ولكن الحج أيها الأعزاء يحتج إلى ناطق ينطق عن لسانه، ويعبر عما فيه من مفاهيم الوحدة وعواطفها . . فقد كان النبي (ص) يعبر عن لسانه، ثم

كان أئمة المسلمين. . أما عندما ضعفت الأمة ومزقها أعداؤها: فقد فقد الحج من يعبر عن لسانه، وظل هو يعبر بصمت ويتلهف. . حتى جئتم أيها الأعزاء ففرح قلبه، ودمعت عيناه. . إنها حقيقة يجب أن تبعث فينا الخشوع والشكر أيها الأعزاء وليس الاغترار.

إننا نتحمل مسؤولية التعبير للأمة عن وحدتها، عن لسان الحج وعن لسان الإسلام. . بالقول والعمل، وبالفكرة والعاطفة، وبالسلام من القلب على أبناء الأمة الآتين من كل فج عميق، وبالعناق والدموع، والسؤال عن أحوالهم، وأخبارهم.إننا نحبكم، وإننا لكم، نبذل أرواحنا في سبيل الإسلام وسبيلكم، فلا تبعدكم عنا دعايات أعداء الإسلام، وإن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، وإن جاءكم كافر بنبأ فلا تصدقوا. .

عبروا عما في قلوبكم لإخوتكم المسلمين أينما كنتم، وبأي وسيلة تعبير، فالقلب أقوى تعبيراً من اللسان. . عبروا عما في فطرتهم من عقيدة الإسلام ووحدة أمته. . شجعوهم على الحركة نحو الله تعالى، وذكروهم بوعده بالنصر. .

قوموا لله تعالى مثنى وفرادى وقوافل عند بيته الذي جعله للناس قياماً، وادعوهم إلى الوحدة تحت راية التوحيد وراية جهاد أعداء الإسلام والمسلمين. . فواجب التبليغ في الحج عام على كل واحد منا بقدر استطاعته وليس مختصاً بالروحانيين. . هكذا أمرنا إمامنا أرواحنا فداه. . احفظوا على الأقل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وشعار «يا أيها المسلمون اتحدوا» الموت لأمريكا. الموت لروسيا. الموت لإسرائيل. . واهتفوا بها في المسلمين، ليلاً نهاراً إخفاتاً وجهراً، فهي نوع من ذكر الله، نسأله أن يتقبل منا ومن جميع المسلمين.

*

وفي الحج خطوط أخرى نلمسها منتظمة في سلسلة مناسكه المقدسة أو مركَّزة في بعضها، ولا يتسع لها المجال، فقد ذكرت لكم أن الحج صورة عن الحياة كلها. . لقد شبه النبي (ص) الصلاة بالنبع المعدني الذي يغتسل فيه المسلم خمس مرات،فيذهب ما يعلق ببدنه من الوسخ، ولكنه وصف من يحج إلىٰ بيت الله الحرام بأنه يخرج من ذنوبه كما ولدته أمه. . فالصلاة تطهر الشخصية من الذنوب، أما الحج فيجددها كلياً، فاغتنموا فرصة العمر يا أعزائي وتعلموا من دورة الحياة في الحج كيف تعيشون حياتكم الجديدة بعد الحج. .

*

أيها الأعزاء، ها نحن نزور رسول الله (ص) ونحج البيت الحرام آمنين مطمئنين، على رغم ما نلاقيه من مضايقات، ولكن هل تعرفون كيف كانت حالة أبي عبد الله الحسين عليه السلام،عندما ودع جده (ص) وغادر المدينة، وكيف كانت حالته في مكة عندما اضطر أن يقطع حجه ويكتفي بالعمرة، ويتوجه إلى عرفات كربلاء، وإلى منىٰ الطفوف، ويقدم نفسه وأهل بيته وأصحابه أضاحي في سبيل الله. .

نحن نحرم ونركب في السيارات ونصل إلى مكة في ليلة واحدة، ونتضايق من نقاط التفتيش في الطريق، ولكن هل تعرفون أن الحسين وأصحابه وأطفاله ذهبوا إلى مكة سراً خائفين حذرين، وسلكوا طريقاً غير الطريق العام لأنه أراد أن يتجنب المواجهة مع النظام في الحرمين، لا يريد أن تهتك حرمتهما بقتله، وقد وعده جده رسول الله (ص) حرم كربلاء. . وبعد مناسك العمرة في مكة كان يجب أن يكمل مناسك الحج، ولكنه رأى تصميم يزيد على قتله في الحرم، فقد وصلت فرق الاغتيال المكلفة بذلك، فأراد أن لا تهتك حرمة

الحرم بدمه، روحي فداكم يا أهل البيت، تحافظون على حرمة بيت الله حتى من دمائكم ودماء أطفالكم الطاهرة. قـال لأصحابه: لا أريـد أن تهتك بي حرمة حرم الله، ونصح ابن الزبير أن يختار مكاناً غير مكة حتى لا تهتك فيه حرمة الحرم، وبعد صلاة الفجر قام خطيباً في الكوكبة المقدسة من أصحابه وقال:

«خُطَّ الْمَوْتُ عَلَىٰ وُلْدِ آدَمَ مَخَطَّ الْقِلاَدَةِ عَلَىٰ جِيدِ الْفَتَاةِ، وَمَا أَوْلَهَنِي إِلَىٰ أَسْلاَفِي اشْتِيَاقَ يَعْقُوبَ إِلَىٰ يُوسُفَ، وَخِيرَ لِي مَصْرَعٌ أَنَا لاَقِيهِ، كَأَنِّي بِأَوْصَالِي تُقَطِّعُهَا عُسْلاَنُ الْفَلَوَاتِ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ وَكَرْبَلاَ فَيَمْلأْنَ مِنِّي أَكْرَاشاً جُوَّفاً وَأَجْرِبَةً سُغْبَا. . لاَ مَحِيصَ عَنْ يَوْمٍ خُطَّ بِالْقَلَمِ، رِضَىٰ اللهِ رِضَانَـا أَهْلَ الْبَيْتِ نَصْبِرُ عَلَىٰ بَلاَئِهِ وَيُوفِّينَا أُجُورَ الصَّابِرِينْ».

*

سذاجة المثقفين

ـ: كنت يا أصغر أنظر إلى عبادات الإسلام وتعاليمه على أنها طقوس وتقاليد.. وأراني كلما تعرفت على شيء منها اكتشفت حقائق عميقة وأشياء مذهلة.. قبل مدة وصلت إلى حقيقة أن الإسلام أعمق من الطب وأكثر آفاقاً، ولكن نظرتي الساذجة التي كنت أحملها في أول حياتي عن جسم الإنسان سرعان ما زالت، بينما نظرتي الساذجة إلى الإسلام تلازمني، فلا أراني أدعها في مسألة حتى أجدها مازالت في مسألة أخرى.. لقد تغيرت نظرتي إلى الوضوء والصلاة، وإلى أشياء عديدة في الإسلام.. ولكن نظرتي للحج إلى اليوم كانت ساذجة، أما نظرتي إلى الغيب فكانت غبية.. وما أدري كم ما زلت أحمل من السذاجة والغباء تجاه مسائل الإسلام..

يبدو أن سذاجة الطفولة في النظر إلى الأمور تزول بسرعة، بعكس سذاجتنا نحن المتعلمين فقد تأصلت فينا النظرة الساذجة إلى الدين..

وتوقف الدكتور عن الكلام وبقي يفكر، كأنما يناقش الموضوع مع نفسه.. وبعد سكوت قصير قال أصغر:

ـ تحليلك جيد يا دكتور فكيف يتخلص المثقف من نظرته الساذجة إلى الإسلام؟

ـ بالمعرفة يا أصغر.. لو تدري أني كنت أفكر في ضرورة اهتمامي

بالثقافة الإسلامية، وأني إذا رجعت إلى إيران يجب أن أجعل أكبر قدر ممكن من وقتي لهذا الهدف.

ـ فهل نقول إن النظرة الساذجة إلى الإسلام لها ما يبررها حتى يطّلع المثقف على مسائل الإسلام اطلاعاً واسعاً يشبه الاختصاص.؟

ـ لا أقول ما يبررها، ولكنها ستبقى موجودة حتى يطّلع على الثقافة الإسلامية..

ـ ولكن تغيير هذه النظرة لا يتوقف على هذا الاطلاع الذي تقصده يا دكتور، والذي لا يتيسر إلا للقليل من المثقفين.. المسألة قبل الاطلاع على التفاصيل مسألة إيمان بالله عز وجل ورسوله.. يبدو لي أنه إذا أصبح إيماننا بأن الإسلام وحي الله عز وجل إلى رسوله إيماناً كاملاً، فلا بد أن تتغير نظرتنا إلى تفاصيله، خاصة بعد أن نطلع على نماذج منها ونرى فيها حقائق مدهشة.. مثلاً أنا ليس لي اطلاع إلا على القليل القليل من الطب، ولكني لا أنظر إلى مسائله بنظرة ساذجة، بل أعتقد أن في جسم الإنسان قوانين وتفاصيل وعوالم كثيرة كثيرة.. وكذلك الأمر في مسائل الإسلام يا دكتور، أليس صانع الإنسان هو هو منزل الإسلام؟

هذا إذا كنت تقصد بالنظرة الساذجة اعتقاد أن أحكام الإسلام وعقائده طقوس وتقاليد، أما إذا كنت تقصد بها الجهل بتفاصيل الإسلام وعوالمه وأسراره فهو أمر آخر.. أعترف لك بأني كنت أجهل أكثر ما سمعته من الشيخ الطبري عن الغيب، وأكثر ما سمعته الليلة من هذا السيد عن الحج.. إنها حقائق جديدة بالنسبة لي، واعتقد أن كل جزء من الإسلام له هندسته الخاصة ودوره الخاص في حياتنا، وأننا سنجد أموراً كثيرة جديدة عندما نتأمل فيه أو نستمع إلى العلماء..

ـ أحسنت يـا أصغر، أحسنت. . كـلامك صحيـح ، فكيف تـرى أن يكون اهتمامي بالثقافة الإسلامية ، .

ـ أرجو أن أكون محباً لك ما أحبه لنفسي، لقد سألت لنفسي عن هـذا الموضوع أكثر من واحد من العلماء فقالوا: اهتم بمعرفة الأحكام الشرعية التي تحتـاج إليها، وبمـا يقوّي العقيـدة والتقوى، وبمسـائـل الإسـلام التي تتعلق باختصاصك وتنفع المسلمين. . وعلى هذا الأساس وضعت لنفسي برنامجاً . .

ـ أحسنت يا أصغر، لقد أفدتني بكلامك كثيراً . . أرجو أن تدعو لي أيها الأخ الصادق غداً في زيارة وداعك لرسول الله (ص) وأهل بيته.

ـ إن شاء الله . .

الوافـدون الى الله

ـ سلام عليكم يا أخ أصغر، أراك وحدك اليوم فأين صاحبك؟

ـ عليكم السلام يا أخ حسين، بقي الدكتور اليوم في الغرفة، فقد أحب أن يستمع إلى أشرطة الشيخ الطبري، والسيد عالم القافلة، ويقرأ القـرآن، استعداداً للحج . .

ـ كيف تراه يا أصغر، هل تأمل أن يستفيـد من الحج ويصبـح متدينـاً جيداً . . ؟

ـ نعم آمل ذلك، وأراه يتقدم بشكل جيد .

ـ يبدو أن عقله لا بأس به، وأن نفسيته صافية غير معقدة، لكن لا أدري جوانبه الأخرى، وبما أني أصبحت وكيله فأرجو أن تعطيني رأيك فيه، فأنـا أثق بك يا أخ أصغر، وقد قبلت الوكالة عنه اعتماداً عليك . .

ـ ولو تعرف يا أخ حسين كم أثق بك وأحبك . . هل أنت ذاهب الآن إلى القافلة حتى أحدثك عن الدكتور في الطريق؟

ـ نعم أصلّي العصر ونذهب معاً إن شاء الله . .

وصليـا العصر، وتوجهـا إلى مسكن القافلة، وأخـذ أصغر يحـدثه عن الدكتور:

ـ الذي حببني بالدكتور بهرامي هو اهتمامه وخدمته لجرحانا ومرضانا في

لندن، الذين يتعالجون في مستشفاه أو في مستشفيات أخرى، فهو يتصل من أجلهم بزملائه الأطباء يوصيهم بهم، ويزروهم، ويتابع رعايتهم. . وقد كان له دور مشرف يا أخ حسين في موضوع جرحى المواد الكيماوية، فقد التقى واتصل بالعديد من الأطباء والمؤسسات الطبية في بريطانيا وغيرها، يتناقش معهم في برنامج المعالجة والأدوية، ويشجعهم على قول الحقيقة وإدانة جريمة النظام العراقي. .

إن إخواننا المتدينين في لندن يقدرون له خدماته وعاطفته القوية تجاه ثورتنا وشعبنا. . ويقول الذين يعرفونه إن موقفه هذا كان من أول الثورة،وأنه تأثر بها وأخذ يقرأ بعض الصحف والكتب الإسلامية، ثم التزم بالصلاة، وبدأ يخرج من تأثير المادية الغربية ومفاهيم المجتمع البريطاني. .

إنه من النوع الصافي الذي يحب الاستقامة والإخلاص، ويحترم نفسه ويحترم الآخرين، ولكن مشكلته الأساسية أسرته التي لا تختلف تقريباً عن الأسرة البريطانية، ولعله لولاهم لأصبح متديناً من أول الثورة. . فزوجته معتدة ببريطانيَّتها إلى حد الغرور، وتقاوم أي توجه لزوجها وأولادها. نحو التدين ونحو إيران، فهي من عائلة إقطاعية معروفة في شمال بريطانيا، وأبوها كان طبيباً كبيراً وكان أستاذ الدكتور بهرامي.

وفي مقابل اعتداد زوجته بنفسها، أعجبني فيه احترامه لنفسه واعتداده بشخصيته، كان يحدثني يوماً عن والده فسألته عن مدىٰ علاقته بالإنكليز عندما كان في إيران وعندما سكن في لندن. . فقال: مع الأسف إن والدي كان يتقرب إلى الإنكليزويعاونهم ،ومع ذلك يقول لي أنا يا جمشيد لست عميلاً للإنكليز ولا أرضى أن يكون لي ارتباط بأجهزتهم، أنا صديق لهم. . ولكن نوع صداقته لا يفرق في نظري عن العمالة بشيء. .

يبدو أن سلامة فطرة الدكتور بهرامي، ونجاحه في الطب، هما السبب في ابتعاده عن العلاقات السياسية، وانصرافه إلى حياة عملية وعائلية هادئة. . أنا مطمئن يا أخ حسين، وكذلك إخواني الذين يعرفونه في لندن إلى سلامته من ناحية سياسية وإلى قابليته الجيدة لأن يكون متديناً نافعاً لبلده. . إنه في لندن وجود نافع فعلاً، ولكن ذلك نفع جزئي طبعاً بالنسبة لوجوده في إيران. . فأرجو أن تهتم بترتيب أموره في لاهيجان، وبشراء مسكن له في طهران، لأن ذلك سيشجعه وقد يشجع عائلته. .

ـ سوف أهتم بذلك إن شاء الله، وأرجو أن ترسلوا لي نسخة من شهاداته، حتى أتقدم له بطلب عمل إلى وزارة الصحة حتى إذا حضر يجد أمر عمله مهيأ إذا استطعت ذلك.

ـ شكراً لك يا عزيزي، توجد نسخة من أوراقه الثبوتية كاملة في منزلنا في طهران، كنت أخذتها معي سابقاً، وهذا رقم الهاتف. . وسوف أتصل بهم ليعطوها لك. .

*

وصلا إلى بناية القافلة التي كان يبدو عليها أمارات الرحيل. . فقد اصطفت سيارة شحن الأسباب وسيارات نقل الحجاج، وبدأ الحجاج يأتون بأسبابهم إلى الصالون ليتولى أمرها حسين وزملاؤه العمال، والمتبرعون بالعمل معهم من الحجاج. .

فتح أصغر باب الغرفة بهدوء، فوجد الدكتور مستلقياً، فاستوى جالساً ورد عليه السلام، فقال أصغر:

ـ يمكنك أن ترتاح يا دكتور، فقد بقي أمامنا ساعتان عن الحركة. .

ـ لقد ارتحت كثيراً اليوم، وكنت الآن في انتظارك لتدلني على ما يجب أن أفعله . .

ـ ليس علينا شيء هنا يا دكتور، إلا الغسل ولبس ثياب الإحرام، ثم نذهب إلى مسجد الشجرة، وهناك نعقد نية الإحرام للحج ،بإشراف عالم القافلة . . ثم تابع أصغر:

ـ أرجو أن تكون قضيت وقتاً ممتعاً هذا اليوم، وأحب أن أستفيد من أفكارك الجديدة.

ـ الواقع يا أصغر،أنه سيطرت عليَّ فكرة في أثناء سماعي للشيخ الطبري وما زالت،وهي أننا لماذا نواجه حقائق الحياة التي يقدمها لنا الدين بهذا البرود وعدم الاكتراث، مع أنها حقائق واضحة وهائلة!؟

كنت أفكر لو أن العالم قرر مثلاً أن يلغي علم الطب، العيادات والمستشفيات والجامعات ومصانع الأدوية، ولا يسمع لشيء من كلام الأطباء . . فماذا سيحدث، وماذا نقول عنه؟ .

إن الدين علم يا أصغر، وهو أعظم من الطب وأكبر تأثيراً . . فلماذا إذا ألغى الناس الطب من حياتهم نقول عنهم مجانين، وإذا ألغوا ما هو أعظم وأعظم لا نقول ذلك؟!

لماذا إذا أغمضت عيني عن الحقائق التي تكشفها العلوم الطبيعية أكون جاهلاً متخلفاً، وإذا أغمضت عيني عن الحقائق التي يكشفها الدين لا أكون جاهلاً متخلفاً!؟

إن الحقائق التي يكشفها الدين يا أصغر تعطي للحياة مفهوماً آخر تماماً، من أصغر شيء فيها إلى أكبر شيء . . لقد تأكد لي أن الدين أضواء تسلط على

الأشياء من أعلى فتُظهر لنا واقعها المنظور وغير المنظور، وتعطينا لها معاني أعمق وآفاقاً أوسع . .

الحياة التي تكشفها العلوم الطبيعية بكل آفاقها، ليست أكثر من قوقعة بالنسبة للحياة التي يكشفها الدين . . ليست أكثر من حانة مقفلة في زاوية من لندن بالنسبة إلى العالم، مهما كانت حانة جميلة ومحبوبة.

وليس الفرق بين الحياتين في ضيق الأفق وسعته فقط، فالحياة بمفهوم الدين يحكمها ترابط منطقي خاص وجمال خاص.

آه يا أصغر، لقد قضيت حياتي في قوقعة، في نظرة ضيقة للحياة، لا ترابط بين أجزائها ولا جمال . . أين كنت عن آفاق الدين الفسيحة وعن جمال الحياة به . .

وكيف أستطيع أن أعيش بقية عمري بهذه الحياة الجديدة الواسعة المنطقية الجميلة، وأسهم في دعوة الناس إليها . . كيف أجعل بقية عمري نداء للناس لأن يفتحوا أعينهم عليها. وسكت الدكتور وترقرقت على خديه دمعتان، فقال أصغر:

- إني لأرجو يا عم أن يحقق الله رغبتك، ويهيِّئ لك حياة مثمرة وسعيدة في آفاق الإسلام . .

وتواصل الحديث بينهما عن قرار العودة إلى الوطن، وعن كيفية حياة الدكتور وعمله في طهران، وعن الإحرام ومناسك الحج.

*

حاول الدكتور أن يحفظ الدعاء المستحب عند غسل الإحرام، ولكن الوقت كان ضيقاً، فقال:

ـ إن معانيه مهمة يا أصغر، ولو كنت أعرف قبل الآن لحفظته. .

ـ على كل هـو مستحب يا دكتـور، وإذا لم يمكن أن نقرأه أثنـاء الغسل نقرؤه قبل الغسل. . وحمل الدكتور ثوبي إحرامه ومنشفة، ووقف عنـد باب الحمام باتجاه القبلة، وقال:

ـ حسناً اقرأ من فضلك.

وأخذ أصغر يقرأ والدكتور يردد بعده:

«بِسْمِ اللهِ وَبِـاللهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ نُوراً وَطَهُـوراً، وَحِرْزاً وَأَمْنـاً مِنْ كُـلِّ خَوْفٍ، وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَسَقَمٍ. . اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي وَطَهِّرْ قَلْبِي، وَاشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَأجْرِ عَلَىٰ لِسَانِي مَحَبَّتَكَ وَمِدْحَتَكَ وَالثَّنَاءَ عَلَيْكَ، فَإنَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ. . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ قَوَامَ دِينِيَ التَّسْلِيمُ لأَمْرِكَ وَالإتِّبَاعُ لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ»

ودخل إلى الحمام ودخل في آفاق الدعاء الذي كان ترجمه له أصغر، وفي معاني خلع ثياب الدنيا ولبس ثياب الآخرة التي شرحها عالم القافلة. .

وظل واقفاً لـدقائق وهـو ينظر إلى ثيـاب إحرامـه ويفكر، ثم إلى ثيـابه ويفكر. .

أكثر ما فكر فيه، هذه الحركة الصغيرة من ثياب إلى ثياب،التي هي نقلة في الشخصية من حال إلى حال، ومن عالم إلى عـالم، وبدايـة للسفر إلى الله وحج بيته. . ؟ ألا ما أدق شريعة الإسلام وأعمقها. .

وهذا الغسل الذي تعودنا عليه، وهذا الماء الذي نغتسل به كل يـوم، هل يمكن أن يكون فيه كل هذه الخواص التي ذكرها الدعاء. . نوراً وطهوراً

وأماناً وشفاءً . . ؟ لو لم يكن ذلك ممكناً لما علّمنا النبي والأئمة أن نطلب من الله أن يجعلها فيه . .

ولم لا ، فأنا مؤمن بالوحي ، مؤمن بـالغيب كله . . والله أعلم ماذا يحيط بمن يحرم للحج من غيب وملائكة . . وكرامة . . حتى لو كان مثلي بعيداً بعيداً قضى عمره في سجن المادية الغربية . .

ورفـع رأسه من إطـراقته وقـال : اللهم إني لست أهلاً لأن أحـرم لك وألبس هذا الزي المخصص لأوليائك ، لست أهلاً لأن أدعي أنني بهذا العمل الدقيق العميق أتبرأ مما يعاديك وممن يعاديك ، وأدخل في عـداد أوليائـك . . ولكنك أنت الكريم العظيم . .

وأحس والماء ينهمل على رأسه وبدنه بمعان جديدة في الماء ، وفي التطهر لله تعالى ، وأخذ يقرأ ما يتذكره من معاني الدعاء بالفارسية . .

ثم خرج من الحمام لابساً ثياب إحرامه كما علمه أصغـر ، وقد سيـطر عليه خشوع جليل . . وظل واقفاً يتأمل من الشباك في أفق المدينة وسمائها . . حتى خرج أصغر من الحمام ، فطلب منه أن يعيد له قراءة الدعاء فردد فقراته معه ، ودمعت عيناه . .

*

لم يرض الدكتور إلا أن يجلس في آخر السيارة ، فقد أحب هـذا المكان الذي عاش فيه أروع المشاعر في مجيئه إلى المدينة . . وما هو إلا أن امتـلأت السيارة بهؤلاء الرفقاء الطيبين ، وانتظمت قافلة الخراسانيين في شـارع قباء ، مودعة رسول الله وآله ، ووافدة إلى الله عز وجل . .

الأمر يختلف عن دخول المدينة ، فالقلوب الآن موزعـة بين لـوعة وداع

النبي وآلـه، وهيبـة الـوفـادة إلى الله تعـالى. . وقـد لخصت ذلـك دمـوع الخراسانيين،عندما أطلت السيارة على الحرم النبوي، فأخذوا يلوحون بأيديهم قائلين: خدا حافظ أي بيغمبر، خدا حافظ أي مادر زهرا، خدا حافظ أي أئمة بقيع. . وقول أحدهم وقد رفع يـديه إلى السماء: أي خدا مـارا قبول كن. . يا الله اقبلنا. .

والأمـر يختلف في المنظر أيضـاً، فقد تـطور وضع الخـراسانيـين وزالت أزيـاؤهم والمميزات، فقـد وحدت بينهم بـدلة الحـج البيضاء. . وبـين كـل الحجاج المتوجهين إلى مكة. .

تطور وضع الحجاج جميعاً، فهذه المجموعات الوافـدة من أنحاء العـالم غسلت قلوبها بنور النبي وآله، فعادت بيضـاء بيضاء تشـع بالحب والإيمـان، ولبست لله ثوب الإحرام، فتحولت إلى حمام أبيض ينتظم أسراباً وقوافل مغادراً حرم الرسول إلى حرم الله. .

المـدينة مـلأى بأسـراب الحمام الملون، تقـدم عـرضهـا وتحيـاتهـا للنبي وزواره. . ولكن الكلمة اليوم لأسراب المحرمين البيضاء، وخفقات قلوبهم والجوانح، مودعين يثرب مرفرفين نحو البيت العتيق. .

الكلمة اليوم لـلإنسانيـة البيضاء تتجـرد من أثقالهـا كما علمهـا النبي، وتتجه إلى ربها بيضاء الفطرة والثياب. .

الكلمة لهذه الأرواح الملائكية الخفاقة في صدور الخراسانيين، وقد غدت ترفرف إلى ربها بأجنحتها البيضاء. .

السيارات تسير ببطء أو بسرعة، لا فرق. . فأرواح الخراسانيين مشغولة

في رفرفتها ووجيبها وتحليقها حول حرم الرسول الحبيب، ونحو حرم المولى الحبيب. .

وشاعرهم اختار أن يرسم لهم وداع الحسين لجده محرماً إلى مكة، ثم إلى كربلاء. .

رسم لهم كيف استدعاه حاكم المدينة وأبلغه أن يزيداً أرسل يريد منه البيعة ،وهدده إن لم يبايع ، فأجابه قائلاً «يَا هَذَا إنَّ يَزِيداً رَجُلٌ فَاسِقٌ فَاجِرٌ لاَ يَحِلُّ أَنْ يَلِيَ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، وَمِثْلِي لاَ يُبَايِعُ مِثْلَهُ، وَلَكِنْ نُصْبِحُ وَتُصْبِحُونَ وَنَرَىٰ وَتَرَوْنْ» فأمهله الحاكم مكرها إلى صبيحة الغد. . ثم كيف ودع جده (ص) وخاطبه، وكيف خرج بقافلته للإحرام ليلاً كما خرج موسى (ع) خائفاً يترقب. . ولم يسلك الطريق العام خشية أن يلحقه جنود يزيد. .

أكمل القارئ الأبيات، وتابع يخاطب الحسين (ع):

يا أبا عبد الله: منعوك أن تسكن في مدينة جدك. . منعوك أن تكمل حجك في مكة. . منعوك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. . يا مظلوم كربلاء، تنادي هل من ناصر. . لبيك داعي الله. . إنهم يظلموننا اليوم كما ظلموك. . إيرانك اليوم كربلاء يا أبا عبد الله. . ويزيد والدول الكبرى يقتلون شبابنا كما قتلوا شبابك. .

* *

خراسانيون عند آبار علي

لم يطل مسير القافلة، فما إن قطعت عن المدينة بضعة كيلو مترات حتى وصلت إلى منطقة آبار علي، واستدارت شمالاً إلى مسجد الشجرة.. فهنا تتجمع أسراب الحمام وأفواج الملائكة،لتبدأ رحلتها إلى بيت الله.. هنا المطار إلى الله..

نزلوا من السيارات بعيداً عن المسجد الذي امتلأ ما حوله بالناس زرافات ووحدانا.. وتوزع حجاج القافلة الرجال حول السيارات ونحو المسجد، فالموعد بعد نحو ساعة، بعد أن يكملوا مراسم إحرام النساء، والوقت يكفي لأن يعقد الجميع نية الإحرام قبل صلاة المغرب، ثم يتحركوا إلى مكة بعد الصلاة..

شمس الحجاز رغم حدتها تلقي أشعتها هادئة عند الأصيل على ربوات آبار علي ومسجدها، وأفواج المحرمين.. ولكنها أشعة خافتة أمام هذه الشمس المشرقة في قلوبهم وفي طريقهم باتجاه مكة..

الزمن هنا جديد، يبدأ حركته من «لبيك اللهم لبيك» وهو زمن فوق حركة الحياة، وحركة الشمس والأرض.. زمن فيه كل الشموس والأقمار، ولكن لا ليل فيه ولا سبات، ولا شمس تخفت فتغيب..

هناك في حياتنا يبدأ الزمن بأحدنا عندما يولد وهو يبكي ويصرخ، فيلفه بعجلة أيامه وسنيّه.. أما هنا فيبدأ المحرم بالزمن يقظة وأشواقاً وجمالاً ما

عليه من مزيد. . يقظةً من الفقر إلى الغنى، وأشواقاً إلى الملأ الأعلى وأنوار قدسه، وجمالاً من هذا النور المنساب على الروح والثياب، وكل شيء. .

وقف أصغر والدكتور يتأملان المنطقة، وأفواج الناس آتية لتبدأ إحرامها من مسجد الشجرة أو خارجاًمنه ،متجهة إلى مكة هاتفة ملبية. .

ـ بماذا تشعر يا دكتور؟

ـ أشعر لو أستطيع أن أحسب عمري من الآن. . فكأني أولد من جديد. .

ـ بل تستطيع أن تحسبه من بعد إكمال الحج إن شاء الله، أما سمعت العالم يقول،يخرج الحاج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. .

ـ كيوم ولدته أمه حتى في صفاء الفطرة والبراءة يا أصغر. ؟

ـ لا أعرف يا دكتور جواب هذا السؤال. . وسوف أسأل عالم القافلة. .

ـ لماذا سميت المنطقة آبار علي يا أصغر. ؟

ـ لأنه عليه السلام حفر آبارها ليستفيد منها الحجاج. .

ـ هل كان لديه وقت لحفر الآبار.

ـ كانت فترة الـ ٢٥ سنة التي قضاها منذ وفاة النبي (ص) إلى أن تسلم الخلافة، متفاوتة سياسياً، ففي أكثرها كان يفسح له المجال للمشاركة في إدارة الدولة وقيادة حركة الفتوحات. . وفي بعض الأوقات لا يجد مجالاً للعمل، أو يشعر بأن وجوده ثقيل على الخليفة كما في زمن عثمان، فكان يستغل الوقت في أعمال من هذا القبيل، فقد حفر هنا سبع آبار، واستصلح أرضاً في المدينة وفي ينبع على بعد مئة كيلو متر من هنا على ساحل البحر

الأحمر، وحفر فيها آباراً وغرسها بساتين جعلها وقفاً. . أرادها أن تكون مصدراً مالياً لعمل الأئمة من بعده. .

ـ إنها حيوية عجيبة، وهل ما زالت الآبار إلى اليوم.

ـ سمعت أنها مازالت، وأن ماء مسجد الشجرة من أحدها، وبقيتها تسقي البساتين والخضروات بالمضخات. . فهي تشبه الآبار الارتوازية أو العيون. .

ـ وبساتين ينبع؟

ـ لا أعرف عنها، ولعل هؤلاء صادروها، وفي التاريخ الإسلامي أصبحت أوقاف علي (ع) مسألة سياسية، فقد كانت الحكومات تصادرها وكان الأئمة عليهم السلام يستعيدونها أحياناً. .

ـ وهذا المسجد لم سمي مسجد الشجرة. .

ـ يمكن أن يكون أقيم أساساً بقرب شجرة كبيرة فقد سمعت أن هذا اسمه منذ عهد النبي (ص)، فهو الذي حدد مكانه ميقاتاً للإحرام. .

ـ حسناً، كنت أريد أن أسألك يا أصغر عندما شرحت لي عن مواقيت الإحرام: ما معنى ميقات،؟

ـ معناه مكان بدء الإحرام للذاهب إلى مكة. .

ـ أقصد لفظه من أين جاء في اللغة العربية.؟

ـ من الوقت.

ـ متأكد من ذلك؟

ـ نعم.

ـ عجيب، جعل الوقت اسماً لأمكنة. . ماذا يريد النبي أن يقول لنا بذلك، أشعر بوجود علاقة جديدة بين المكان والزمان هنا، ولم أعرف ما هي. .

ثم تابع: ـ فكرت يا أصغر في هذه الدوائر الثلاث التي جعلها الله تعالى حول الكعبة: دائرة المسجد المنتظمة. . ثم دائرة الحرم التي تشمل محيط مكة وربواتها، والتي تبدو غير منتظمة. . ثم دائرة المواقيت التي تبدو أيضاً غير منتظمة. .

أريد منك يا أصغر خريطة تبين دائرة الحرم، ودائرة المواقيت. . فقد لفت نظري أن ميقات أهل المشرق أبعد المواقيت عن مكة، يعني أن أهل المشرق يجب أن يقطعوا وهم محرمون خمسة أضعاف ما يقطعه غيرهم من أهل الغرب والشمال والجنوب. . أظن أن لذلك علاقة بطبيعة شعوب المشرق أو مهمتهم. .

تبسم أصغر وقال:

ـ فكرة لطيفة يا دكتور، ولكني لا أستطيع أن أقول فيها شيئاً، وإذا أردت نسأل عنها عالم القافلة. .

ـ أنا لا أقول حتماً يا أصغر، ولا أريد أن أجتهد في أمور الدين، ولكني أرى الدين يفتح للتفكير أبواباً لم تكن تخطر على البال. . إن كلمتك أمس «إن كل جزء من الإسلام له هندسته الخاصة في الحياة» فكرة معبرة، وقد قررت أن أكافح بها نظرتي الساذجة للوحي وأمور الدين. . وكلما فكرت في الحج، وفي دروس المناسك، أشعر بأن المسألة أعظم من مجرد زيارة الكعبة المشرفة في الحجاز، وأنه يجب أن نفكر في الكعبة والحرم والمواقيت وشؤون الحج، جغرافياً واجتماعياً وحضارياً ومن كل جهة. .

ـ إنه ليسرني يا عم أن توجه اهتمامك الفكري إلى الإسلام، وأن أسمع منك أفكاراً جديدة، لكن أحب لك كما أحب لنفسي أن نعرض نتيجة تأملاتنا على العلماء، لأنهم أهل الاختصاص . .

ـ لا بأس، أنا معك في ذلك، ولكن هناك أشياء واضحة يا أصغر لا أظن العلماء لا يوافقون عليها، ألا تشعر معي بأن أمور الحج فيها الكثير من الرموز.؟ فالإحرام رمز، والمواقيت رمز، والحرم رمز، والكعبة والطواف، إلى آخره. . كلها مليئة بالرمز إلى أشياء في الحياة وفي العالم وفي الكون . .

ـ نعم مسألة الرمز في الحج واضحة في أصلها يا دكتور، ففي أعمال الحج وجغرافيته معانٍ كبيرة وكثيرة، ولكني أشعر بالعجز عن معرفتها . . في المرة الماضية رأيت مع أحد العلماء كتاباً كان يقرأ منه أحاديث عن الكعبة، فسألته عنه فقال: يوجد مجلدان آخران غير هذا، وكلها من الأحاديث الشريفة عن الحج، ولا بد أنها تتضمن الكثير الكثير عن فلسفة الحج . . أنا لا أقول إن نتائج تفكيرنا ليست صحيحة، ولكني أحب أن نعرضها دائماً على العلماء المختصين . . وفي نفس الوقت أشهد يا دكتور بأن قدرتك على التعمق والاستنتاج أكثر من قدرتي، وأفكارك تعجبني وأحب أن أستمع إليها . .

ثم تابع : ـ ما رأيك أن نتمشى نحو المسجد . ؟

ـ أحب أن نتفرج على ما حوله أولاً ، ثم ندخل . .

*

ـ انتبه يا أصغر . . قالها الدكتور وهما يهمان بالدخول من باب المسجد، قالها وتراجع إلى الوراء، فرجع أصغر فوجد أن الدكتور يريد منه أن يفسح المجال لمجموعة إفريقية جاءت مندفعة، ودخلت إلى ساحة المسجد فدخلا

بعدها. . نظر أصغر إلى داخل المسجد فوجده ممتلئاً بمجموعات الناس يعقدون نية الإحرام ويلبون، فقال:

- يمكن أن نصلي الركعتين هنا في الساحة، إذا أحببت. .

-كلا يا أصغر،نصليها داخل المسجد، وإنما وقفت لأتأمل إحرام هؤلاء الأفارقة ثم ندخل.

كانوا جماعة كبيرة رجالاً ونساء، فوقفوا مجموعتين كلًّا على حدة، وقد تراصّ الرجال وراءبعضهم،ووضع الواحد منهم يده على كتف الذي أمامه، وهكذا فعلت النساء، ومد الجميع أعناقهم نحو عالم القافلة أو المرشد الذي أخذ يكلمهم بمكبر صوت في يده. .

قال الدكتور: لاحظ تفاعلهم مع كلامه.

كان المرشد يتلو عليهم موعظة وتعليمات، فكانت تظهر على ملامحهم آثار الدهشة، والوجوم والفرح. . وفجأة علا ضحكهم جميعاً، ثم عادوا إلى الجد، وأخذ يقرأ لهم من كتاب بالعربية وهم يقرأون خلفه بصوت مرتفع، ثم ارتفع هتافهم معه «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكْ» ثم تفسحوا قليلاً وصلوا ركعتين خفيفتين. . ثم ناداهم المعرف فتجمعوا واندفعوا خارجين من باب ساحة المسجد وهم يلبون. .

*

كانا يغادران المسجد نحو السيارات بعد أن صليا فيه ركعتين، وتأملا في مجموعات المحرمين. . فقال أصغر:

- يعجبني يا دكتور أنك لا تتضايق من الزحام أبداً. . لقد كنت أحمل همًّا لمشكلة الزحام في الطواف والمناسك، وكنت أخشى أن تسبب لك

الإزعاج . . إن الفوضى أمر مزعج حقًّا خاصة في عبادة مقدسة مثل الحج ، ولكني اطمأننت لأنك تنظر إلى ما هو أعمق من الظاهر . . والواقع أني أتعلم منك يا عم الرفق بالحجاج في الازدحام . .

ـ شكراً لحسن ظنك يا أصغر، فكرت في المدينة كم كان جيداً لو نظموا مرور الحجاج في الشوارع ، ودخولهم إلى زيارة النبي (ص) والصلاة، وخصصوا مثلاً أبواباً للدخول وأخرى للخروج ، ومسارات داخل المسجد، هذا للداخل إلى الزيارة، وهذا إلى المسجد . . وكذلك الأمر هنا فلو أنهم نظموا الدخول لعقد الإحرام والصلاة، لما حدث الازدحام في هذا المسجد الصغير . . ولكن هذا الوضع على مافيه ،يتيح للإنسان أن يلاحظ مستوى المدنية في شعوب المسلمين وتأثير الإسلام فيهم .

لو تعرف يا أصغر كم صرت أحب هؤلاء الأفارقة ويفرح بهم قلبي ، أما ترى أن الإنسانية والطيبة تطفح من قلوبهم بشكل لا يوصف . . يظهر أنهم كانوا من الأرياف الإفريقية التي لا مدنية فيها ، ولكن هل رأيت تأثير الحضارة الإسلامية فيهم . .

لكي نعرف ذلك يجب أن نفكر كيف كانوا يعيشون لولا الإسلام ، وكيف أنهم بثقافتهم الإسلامية القليلة تطوروا إلى هذا الحد . .

كان الدكتور وأصغر واقفين قرب السيارات ،وهو يحدثه عن صفاء الفطرة الإنسانية في الأفارقة وتعقيدها في الغربيين ، وإذا بحسين العامل يسلم عليهما فسلما عليه ورحبا به . .

ـ كنا نتحدث عن الأفارقة فما رأيك فيهم يا حسين؟

ـ آه يا دكتور، أتمنى أن يكون قلبي أبيض مثل قلوبهم ، وأن تكون

مسؤوليتي يوم القيامة مثل مسؤولية أحدهم.. هؤلاء قوم أعطاهم الله رأس مال قليلاً هو الفطرة، وأشياء قليلة من الإسلام فحافظوا عليها.. أما أنا المسكين فلم أحافظ على فطرتي وعلى ما تعلمت من الإسلام.. وما المانع أن يكونوا مقبولين عند الله في إحرامهم وحجهم وأكون أنا غير مقبول.. وما المانع أن يحشروا يوم القيامة بألوان بيضاء مثل قلوبهم، وأحشر أنا بلون أسود مثل قلبي!؟

وسكت حسين، فساد جو من السكون خيمت فيه الخشية والتفكير، حتى جاء صوت المنادي يدعو الحجاج إلى عقد نية الإحرام، فمشوا نحو المسجد يتقدمهم عالم القافلة، أما الدكتور فشعر بأنه يخطو إلى أمر خطير، فهو يريد أن يحرم لله تعالى ويلبيه، وما يدري هل يقبله أم لا..

استعاد معاناته في حرم النبي (ص) واستعاد نسيم الإجابة الذي أحس به، فسأل أصغر:

- هل أنت خائف من الإحرام والتلبية يا أصغر؟

- المؤمن بين خوف ورجاء يا دكتور.

- والذي هو مثلي في ألف باء الإيمان؟

- قد يأتي المسلم إلى الإيمان متأخراً فيختم حروفه كلها، وقد يبقى المسكين مثلي كل عمره في الألف باء.. إذا كنت يا عم عازماً على تنفيذ ما قررت حقاً فينبغي أن تكون راجياً مطمئناً، فالله يقبل التائبين وهو أرحم الراحمين.

- نعم إني عازم يا أصغر، ولكن كما قلت فهو أرحم الراحمين..

*

قال لهم عالم القافلة: يستحب أن نصلي قبل الإحرام ست ركعات، يعني ثلاث مرات مثل صلاة الصبح، نقرأ في الركعة الأولى سورة الحمد والتوحيد، وفي الثانية الحمد وقل يا أيها الكافرون، ومن لم يحفظ سورة «الكافرون» يقرأ بدلها سورة التوحيد..

وبعد أن أكملوا الصلاة، قال لهم:

نحن في موقف عظيم أيها الأعزاء، وأكبر مصيبة على أحدنا أن لا يقبله الله تعالى.. في هذا المكان وقف الإمام الصادق عليه السلام، يريد أن ينوي الإحرام ويلبي، فتغير لونه وأخذ يرتجف، فسأله بعضهم: ما بالنا نراك ترتجف يا بن رسول الله، فقال: ويحك إني أخاف أن أقول لبيك اللهم لبيك، فيجيبني لا لبيك ولا سعديك..

هذه حال الأئمة والأولياء من خشية الله، فكيف يكون حالنا نحن.. نحن لا شيء.. نحن ليس عندنا من الأعمال ما نستحق به أن يقبلنا الله، ولكنا نطمع برحمته تبارك وتعالى.. وأهم ما نرجو به القبول بعد رحمته سبحانه، هو أننا نوحده ونوالي أولياءه، النبي وأهل بيته(ص)وأولياءه في عصرنا صاحب الزمان أرواحنا فداه، ونائبه إمامنا، وجنوده الباذلين أرواحهم في نصرة الإسلام في إيران وغير إيران.. وأننا نعادي أعداءه وأعداءنا ونتبرأ منهم، وهم في عصرنا جميع الكفار والمنافقين وما يعبدون..

أسألكم أيها الإخوان:

هل أنتم موالون لله تعالى وأوليائه..؟

- إن شاء الله.

- هل أنتم معادون لأعدائه وآلهتهم في كل العصور وفي عصرنا خاصة..؟

- بلى

- إذا دعـاكم الله تعـالى إلى بـذل دمـائكم في نصـرة دينـه فهـل أنتم مستعدون . . ؟

- إن شاء الله . .

إذن أنتم أهل للتلبية والقبول إن شاء الله، فجددوا التوبة والاستغفار، وانووا لبس ثوبي الإحرام . .

وقرأ لهم نية لبس الثوبين، ثم نية الإحرام، والدعاء بعدها . . ثم قال: والآن استعدوا لإجابة أعظم نداء من أعظم مناد تبارك وتعالى، فعندما تلبون ينعقد الإحرام كما تنعقد الصلاة بالتكبيرة . . صححوا نيتكم وتوجهوا إلى الله تبارك وتعالى، واعرفوا من تلبون، وبيت من تزورون . .

واتجه العالم إلى القبلة وسكت لحظات، فانهمرت الدموع على الخدود، ورفع صوته قائلاً «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكْ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ» فارتفعت الأصوات بعده ملبية، وأجهش بعضهم بالبكاء ملبين أول مرة بالدموع، وأعادها السيد مرات ثم أكملها «إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكْ» وأكملوها، فأحسوا بخشوع لا يوصف . . لقد دخلوا في حرم المولى العظيم، فألقى عليهم طمأنينة عمتهم وما حولهم . .

حبيبٌ هذا السكون الرباني، فكأنما كانت الروح تبحث عنه حتى أنزل عليها فاطمأنت . . وارتاح القلب إلى ظله . . وتنفست فيه خلايا الجسد فتنهنهت . .

سكون أحبه الجميع، فلا يتكلم أحدهم مع صاحبه إلا لضرورة وإلا بهدوء، حتى لا يصرفه عن نعيم هذه السكينة، والتزود منها . .

حبيبٌ هذا السكون الذي هدأ لـه كل شيء، فهـو السيد عـلى مسجد الشجرة ومن فيه وما حوله. . حتى على التلبية والدموع، وحتى وجيب القلب ورفرفة الروح. .

*

وظلت الطمأنينة الربانية سيدة الموقف، وصـلى الخراسـانيون في ظلهـا فكان للصلاة طعم جديد. .

وتحركت القافلة في رحابها، فلا كلام إلا التلبية، التي تتجدد بها السكينة ونسيمها. .

عشرات الأمور كانت تثير التفكير، وتجعل الدكتور وأصغر يتحدثـان، ولكن السكون الرباني قال للعقل: دع عنك الصخب وانعم بالهدوء وانـظر إلى ملكوت الله. .

كانت السيارات تنسـاب بين الـربوات والجبـال، تغذ السـير نحو بيت الحبيب، وقد صارت الأمكنة والأفق من حولهـا مسجد الشجـرة، وصارت الشجرة أشجاراً من النور تملأ الربوات إلى مكة، وآبار علي تسقيها وتجـري جداول وسواقي. .

السيارات بين الربوات. . تنساب في نور الذين سلكوا هذا الطريق إلى مكـة. . فذاك النبي عـلى ناقتـه يسعى نوره بـين يـديـه، والأنبيـاء حـولـه والمسلمون. . محرمين ملبين، في موكبهم إلى سيدهم العـظيم. . وهذا عـليّ على جواده يسقيهم بكؤوس لا تنضب، وقد لبس سيفه على إحرامه. .

السيارة تنساب بين الروابي. . وأصغر والدكتور ينعمان مـع حجاجهـا بهذه السكينة. . ونسيم الصحراء الليلي يكتسب عذوبة حلوة منها. . وثياب

الإحرام البيضاء تتوهج بنورها. . والأرواح المطمئنة لهؤلاء الرفقاء تتفسح في الروابي، وترف نحو مصدر النور، تكاد تنسى بشريتها، لولا أن صوت الملبي يذكرها بين الحين والحين بأنها أرواح بشرية أحرمت لربها. .

والنعيم الأكبر في هذه السكينة هذا الصحو العقلي الذي يرينا الأشياء واضحة على واقعها وعلى أحجامها. .

فهناك أمور تَكْبُر وتكبر. . مثل وجود الله تعالى وأنواع فعله في ملكوته، وفي هذا الإنسان الملبِّي لسيده. . تكبر حتى تكون كل شيء، ويكون ما سواها ظلالاً لها وخدماً. . وهل الوجود إلا خالق وإنسان مستجيب أو غير مستجيب. .

الأرض كلها صغيرة بقاراتها الأربع، وإنما تكبر بأن فيها عباداً ملبين لسيدهم. . أما الآخرون فصغار صغار، وحضارتهم وقوتهم، هم خارج الضوء، خارج هذا الموكب، خارج هذا الزمن الإلهي المطلق. . تلفّهم عجلة زمن الأعداد، كما يلف دودة القز نسيجها، بل كما يلف العنكبوت. .

وإنما الأرض إنسان وكعبة. . يسعى إليها فيرى الطريق والهدف. . أو يسعى عنها فلا نور ولا هدف، ولا ريَّ لظمئه ولو رأى ألف نهر وساقية، فمتى كان يروي السراب. .

أجل، أجل. . كل ما هو خارج عن هذه السكينة صخب. . وكل ما لا يكبّر في هذا الصحو ضباب. .

هل كان هذا الوضوح بحاجة إلى نصف قرن من التركاض. . وهل كان الطريق من لا هيجان إلى مكة يجب أن يمر في أوروبا ويوغل في شعابها وضبابها. .

لا تذكرني بالغرب وشعابه، فقد خلعته كما خلعت ثيابي.. لا مكان للندن وزيفها هنا، لا مكان في هذا الصحو والسكينة إلا لما يكبر ويضيء ويبقى.. ها أنا أرى الله والكعبة، وكل كبير.. وأرى نفسي انفلتت من القوقعة والصخب والضباب وأحرمت لربها، ودخلت في نعيم الصحو والسكينة..

وانطلق صوت حسين العامل يلبي للحجاج بخشوعه الجاد الرخيم فيلبون بعده، ويكررها فيكررونها، ويناوله أحدهم كتاباً فيقرأ منه ويقرؤون معه، فقرة فقرة. إنها تفاصيل للتلبية أو تنويع فيها.. كلها عن المولى وعظمته، وعن العبد وافتقاره، ووفادته إلى سيده..

إنه حسين الدكتور، أستاذ الفلسفة، الذي يعمل ليل نهار خادماً في القافلة بشوق وفرح.. أصبح الآن أشبه بملاك روحاني يقف في مقدمة السيارة، يتوجه نحو مكة رافعاً يديه إلى رب الكون كله، يرفع إليه تلبيته وتلبية هذه الأرواح الملائكية الوافدة إليه.. إنهم يحبون أن يلبي لهم، ويقدمون له الكتاب والمكبرة، لأنه بنبرات روحه يعبر عن أرواحهم، لأنه يخاطب الله العظيم مواجهة، فتصعد كلماته إلى الملأ الأعلى، وتسري موجاتها في أرواحهم، فيلبون بعده بنفس الأسلوب والنبرات.. يقولون له بذلك أعد جعلنا فداك، نريد أن تلبي لنا فنلبي مثلك..

ثم يعود الملاك، الدكتور حسين العامل، يسقي الماء ويوزع الطعام، ويجلس إلى جانب السائق يحدثه ويراقب معه الطريق، ويساعده عند نقاط التفتيش..

*

كانت ليلة إلى مكة أين منها النهار.. فيها نقاط التفتيش، وفيها طعام

المحرمين، وفيها بعض الأحاديث والأسئلة عن أحكام الإحرام، ولكنها جميعاً اكتست بجلال الخشوع ونور السكينة.. حتى ذكرهم للحسين عليه السلام صار من جو التلبية والإحرام، فقد عاشوا معه محرماً في طريقه إلى مكة، ثم محرماً في كربلاء يلبي فيقول:

تركت الخلق طراً في هواكا ... وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطّعتني في الحب إربا ... لما مال الفؤاد إلى سواكا

وحتى إغفاءات الحجاج في آخر الليل كانت هادئة ناعمة، تقول الروح للجسد فيها: خذ راحتك، نم في هذه الطمأنينة الإلهية فأنا وملائكتك يقظىٰ.. فيغفو الجسد مطمئناً حتى إذا سمع التلبية أفاق، ولبى مع روحه ورفقائه والملائكة..

*

هنا أول مكة.. ونظر الحجاج فرأوا شارعاً ممتداً وأمامه جبال ينبعث من ورائها بهاء نور.. فرفعوا أصواتهم بالصلاة على النبي وآله.. ووقفت سيارات القافلة للتشاور.. وعاد حسين العامل ليقول للحجاج:

- ما رأيكم في أن نؤدي المناسك رأساً قبل الذهاب إلى المنزل.. حسب تجربتي فهو أفضل بكثير من تأخيرها إلى الغد..

هل توافقون.؟ ورفع حسين يده بالموافقة، فرفع الجميع تقريباً أيديهم وقالوا: نعم.

وسارت القافلة، وهدأت الأصوات حتى عن التلبية، فقد وصلوا إلى حرم المولى، وتطلعت إليه الأنظار والقلوب.. تريد أن ترى كل شيء في مكة وتتحسسه، حتى المباني والشوارع والجبال والهواء..

حول بيت المولى

قالوا للمتوضئين: انتظرونا أول ما تدخلون من جهة مقام إبراهيم عليه السلام، ريثما يتوضأ الحجاج فنطوف جميعاً. .

ومشىٰ أصغر والدكتور مع المتوضئين وقد أحنى رأسه فلا يكاد يرى إلا خطواته، وتلا مع القارئ عند باب السلام دعاء الدخول:

«بِسْمِ اللهِ وَبِاللهِ، وَمِنَ اللهِ وَإِلَى اللهِ، وَمَا شَاءَ اللهُ، وَعَلَىٰ مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَخَيْرُ الأَسْمَاءِ للهِ، وَالْحَمْدُ للهِ. .

السَّلاَمُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ. . السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهْ. .

السَّلاَمُ عَلَىٰ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهْ. .
السَّلاَمُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَانْ. .
السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينْ. .

. . . اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَاسْتَعْمِلْنِي فِي طَاعَتِكَ وَمَرْضَاتِكْ، وَاحْفَظْنِي بِحِفْظِ الإِيمَانِ أَبَداً مَا أَبْقَيْتَنِي، جَلَّ ثَنَاءُ وَجْهِكْ. .

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنِي مِنْ وَفْدِهِ وَزُوَّارِهِ، وَجَعَلَنِي مِمَّنْ يَعْمُرُ مَسَاجِدَهُ، وَجَعَلَنِي مِمَّنْ يُنَاجِيهْ. . اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَزَائِرُكَ فِي بَيْتِكَ، وَعَلَىٰ كُلِّ مَأْتِيٍّ حَقٌّ لِمَنْ أَتَاهُ وَزَارَهُ، وَأَنْتَ خَيْرُ مَأْتِيٍّ وَأَكْرَمُ مَزُورْ. . فَأَسْأَلُكَ يَا اللهُ يَا رَحْمَانُ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكْ،

وَبِأَنَّكَ وَاحِدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ تَلِدْ وَلَمْ تُولَـدْ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُؤاً أَحَـدْ. . وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ. . يَا جَوَادُ يَا كَرِيمُ أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ تُحْفَتَكَ إِيَّايَ بِزِيَـارَتِي إِيَّاكَ أَوَّلَ شَيْءٍ تُعْـطِينِي. . فَكَاكَ رَقَبَتِي مِنَ النَّارْ. .

فهم الـدكتور الكثيـر من معانيـه فقد كـان قرأ تـرجمته. . وتقـدم مع الحجاج في القسم المسقوف من الحرم، فنظر لأول مرة إلى الكعبة الشريفة تقوم في وسط ساحة المسجد، ويموج من حولها نهر الطائفين المقدس. . . فقرأ لهم القارئ دعاء النظر إلى الكعبـة وترجمـه لهم «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّـذِي عَظَّمَكِ وَشَرَّفَكِ وَكَرَّمَكِ وَجَعَلَكِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً مُبَارَكاً وَهُدَىً لِلْعَالَمِينْ»

وقال لهم اجلسوا، فجلسوا. . ثم قال ارفعوا أيديكم، وقرأ لهم:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِي مَقَامِي هَذَا فِي أَوَّلِ مَنَاسِكِي أَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتِي، وَأَنْ تَتَجَاوَزَ عَنْ خَطِيئَتِي وَأَنْ تَضَعَ عَنِّي وِزْرِي. .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَلَّغَنِي بَيْتَهُ الْحَرَامْ. .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا بَيْتُكَ الْحَرَامُ الَّذِي جَعَلْتَهُ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينْ. .

اللَّهُمَّ الْعَبْـدُ عَبْـدُكْ، وَالْبَلَدُ بَلَدُكْ، وَالْبَيْتُ بَيْتُـكْ. . جِئْتُ أَطْلُبُ رَحْمَتَكْ وَأَؤُمُّ طَاعَتَكْ، مُطِيعاً لأَمْرِكْ، رَاضِياً بِقَدَرِكْ. . أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْفَقِيرِ إِلَيْكَ الْخَائِفِ مِنْ عُقُوبَتِكْ. .

اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكْ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِطَاعَتِكَ وَمَرْضَاتِكْ. . »

بكى الحجاج لهذا الدعاء بنسب من البكاء، ثم قاموا لصلاة ركعتي تحية المسجد. . أما الدكتور فقد اتصل بكاؤه وهو جـاث على ركبتيـه وقد نكس

رأسه، وبقي أصغر إلى جانبه ينتظره فطال بكاؤه. . قام أصغر يصلي، وبقي الدكتور جالساً مطرقاً، ينظر حيناً إلى الكعبة والطائفين والمسجد، ثم يـأوي إلى صمته الطويل. . ودموعه. .

أكمل أصغر صلاته ودعاءه، والدكتور ما زال على حاله. . فذهب وجاء بأربعة أكواب ماء، قدم للدكتور واحداً منها وقال:

ـ هذا من ماء زمزم يا دكتور.

ـ شكراً لك يا أصغر، وهل يصح أن نشرب هنا؟

ـ نعم بل يستحب، ولكن اسمح لي قبل أن تشرب أن أقرأ لك الدعاء المستحب، وقرأ له:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عِلْماً نَافِعاً، وَرِزْقاً وَاسِعاً، وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَسُقْمٍ»

فقرأ الدكتور الدعاء وشرب وحمد الله، فقال له أصغر:

ـ ونحن في بيت الله، أحب أن أهدي لك هدية يا دكتور.

ـ شكراً يا أصغر ما هي؟

وأخرج أصغر من محفظته ورقة وقال:

ـ خطبة أمير المؤمنين عليه السلام حول الكعبة التي استشهد عالم القافلة بجزء منها. . طلبتها منه فأعطاني نصها وترجمتها، وكنت أريد أن أقرأها لك في المدينة أو في الطريق فلم أتذكر، حتى رأيت الكعبة الشريفة، فهل تحب أن تقرأها ريثما يأتي الرفقاء. . ؟

ـ شكراً، تفضل اقرأ. .

وقرأ أصغر: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ

اللهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ الآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمْ، بِأَحْجَارٍ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعْ وَلاَ تُبْصِرُ وَلاَ تَسْمَعْ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الأَرْضِ مَدَراً، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الأَوْدِيَةِ قُطْرَا. . بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةْ، ورمالٍ دَمِثَةْ، وَعُيُونٍ وَشلَةْ، وَقُرىً مُنْقَطِعَةْ، لاَ يَزْكُو بِهَا خُفّ وَلاَ حَافِرٌ وَلاَ ظِلْفْ. . ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَوُلْدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهْ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ وَغَايَةً لِمَلْقَىٰ رِحَالِهِمْ، تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةْ، مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةْ، وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةْ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةْ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ للهِ حَوْلَهْ، وَيَرْمِلُونَ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهْ، قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ. . إِبْتِلاَءً عَظِيماً، وَامْتِحَاناً شَدِيداً، واخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَىٰ جَنَّتِهْ. .

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَه أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارْ، وَسَهْلٍ وَقَرَارْ، جَمِّ الأَشْجَارْ، دَانِي الثِّمَارْ، مُلْتَفِّ الْبُنَىٰ مُتَّصِلِ الْقُرَىٰ، بَيْنَ بَرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَرِيَافٍ مُحْدِقَةْ وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةْ، وَ طُرُقٍ عَامِرَةْ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ الْجَزَاءُ عَلَىٰ حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاَءْ. .

وَلَوْ كَانَ الأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءْ وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءْ، وَنُورٍ وَضِيَاءْ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مِنْ مُسَارَعَةِ الشَّكِّ فِي الصُّدُورْ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبْ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ. .

وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدْ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدْ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهْ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ

فِي نُفُـوسِهِمْ. . وَلِيَجْعَلَ ذَلِـكَ أَبْوَابـاً فُتُحـاً إِلَىٰ فَضْلِهِ، وَأَسْبَـابـاً ذُلُـلاً لِعَفْوِهْ. . »

أكمل أصغر قـراءة النص والترجمة،والدكتـور يستمع بـإصغاء، فقـال بصوت منخفض وهو يهز رأسه:

ـ أين كنا عن هذا الفكر، حقاً إن الثقافة الإسلامية مظلومة،كـما يقول الشيخ الطبري. .

يا أصغر لقد تأكد لي أن أحدنا لا يكون إنساناً حتى يكون عبداً ذليلاً لله تعالى، متواضعاً للطيبين من عباده، وأن أكبر الأدوات التي يستعملها إبليس لمنعه من ذلك هي ثقافة الغربيين المادية. .

ساعدني يا أصغر لكي أخرج التكبر من قلبي وأكـون عبداً لله ذليـلاً، نعم ذليلاً. . برغم إبليس، فقد حاول بوساوسه عندما دخلنا إلى مكة والحرم أن يشغلني عن ربي سبحانه بجغرافية مكة وشوارعها وبنائها، وجدران الحرم وبنائه. . فقلت له: هذه الغـرفة المـربعة هي بيت الله في الأرض، وسـواء كانت في أقصى الشرق أو الغـرب أو في مضيق جبلي يتسـع لنفر واحـد، أو جعلوها في سرداب تحت الأرض. . فالأمر لا يتغير منه شيء. . إنها بيت الله ومركز هذه الأرض، وأريد أن أطوف حولها وأتبرك بها، وأصنع كل ما أمرني به رسول الله (ص).

أشكـرك يا أصغـر، فكأنـك عـرفت أني بحـاجـة إلى هـذه الكلمـات العظيمة. . لقد قررت أن لا أشغل نفسي بشيء إلا بالأعمال المحددة الواجبة علي. . أريد يا أصغر أن أكون واحداً منكم أتوجه إلى الله تعالى وأطوف حول بيته وأصلي، كما تفعلون. .

ـ نعم القرار يا عم، وأسأل الله أن يتقبل منك، فالوقت الآن لأداء المناسك،وعندنا عدة أيام لزيارة المسجد ومعالم مكة والتفكير والأحاديث . .

*

والتزم الدكتوربقراره،ودخل مع الموكب الخراساني في سيل الطائفين من شعوب العالم، ولم يسمح للأفكار الطارئة أن تشغله. كان يقول في نفسه أنا الآن أطوف حول بيت الله . . إنها حقيقة عظيمة، يجب أن أعيشها . . كل شيء هنا غني بالمعاني والأفكار، ولكني أنا فقير لأن أطوف حول بيت ربي وأناجيه . .

*

هل يمكن لإنسان أن يمشي في سوق مزدحم بالناس وهو يرتجل قصيدة وجدانية . . ؟ أما إذا كان عاشقاً فنعم . . والخراسانيون عاشقون . .

دخلوا في خضم الطائفين حول البيت،وكانوا قسّموهم إلى مجموعات مع كل واحدة منها مطوف . . ولكن الفراشة العاشقة تعرف كيف تحوم حول السراج، والخراساني يعرف متى يتابع دعاء المطوف،ومتى يدعو من ظهر قلبه بل من قلب قلبه، بكلمات بالعربية، وقصائد بالفارسية، ودموع فوق اللغات . .

الخراساني يزور قبر الشهيد فيلقي له القصيدة . . وللإمام المعصوم يرتجل الشعر وينثر الدموع . . وللنبي يحمل المعلقة في يد والقلب في يد . . أما وقد وصل إلى بيت المولى العظيم وبدأ طوافه، فهنا وقت كل القصائد ونثار الروح . .

حتى لو قصر حكام مكة في واجبهم فلم ينظموا المطاف، أو تعمدوا،

وحتى لـو ازدحم الناس بمئـات الألوف، أو ليسـوا يسمحون لـه بأن يضـع خطواته معهم، فشكراً لهم. .

وإذا دفعه الإفريقي واليماني والبدوي، فغفر الله لهم. . كلهم ضيوف المولى طائفون حول بيته. . كل الأمور الأخرى ثانوية أمام قضية الخراسـاني عند الكعبة. .

القضية أنه الآن حيث كل شيء. . حيث آدم وحواء يطوفان ويتوبان. . وحيث نوح يطوف بسفينته. . وحيث إبراهيم وإسمـاعيل يجـددان البناء. . وحيث موسى وعيسى يحجان. . وحيث محمـد (ص) يولـد وينشأ، ويبعث، ويظلم، ويهاجر، ثم يعود فاتحاً. . وحيث خديجة والـزهراء. . وعـليّ يكسر الأصنام. . والحسين يشـد الرحـال إلى كربـلاء. . وكل الأئمـة والصحابـة والعلماء. . وحيث المهدي يحج كل عام، وينتظر ذلك العام ليطلق ثورته من هنا، من عند هذا الركن، من عند باب الكعبة. .

هنا يوجد الجميع، لأنه بيت رب الجميع. .

وهنا كل شيء من الماضي والحاضر والآتي. . لأنه بيت رب الكل. .

الخطوة هنا بـوزنها ذهباً. . والهـواء بالمثـاقيل، لأنـه أصلاً للروح قبـل الرئتين. . والكلمة لا تقدر بثمن، لأنها تـولد في الضـوء ويتلقاهـا ملائكـة الكعبة حارة طازجة،فيصعدون بها إلى أعلى. . ألا ترىٰ عروجهم ونزولهم من عنـد أركان الكعبـة الأربعة، بمحـاذاة أعمـدة النـور الصـاعـدة إلى السـماء السابعة، تصعد أفواجهم بكلماتنا وطلباتنا،وتعود محملة بالهدايا والبشائر. . أمَا تراهم يجمعون دموع الطائفين في قوارير ليسقوا بها وروداً في حدائق عند العـرش. . وعلى نغم وجيب قلوبنـا ينظمون هينمتهم . . وعـلى نمط خفق أرواحنا يخفقون أجنحتهم. .

وانتظمت قافلة الخراسانيين في نهر الطائفين.. تغتسل بالنور، وتستمطر النور، وتفجر قلوبها بالنور والدموع..

كل منهم قرأ مع المطوف، وقرأ من قصائده هو..

وماذا أجمل في أدب الشعوب من شعر المحرمين الطائفين حول بيت ربهم، ومن إلقائهم.. وحدهم ملائكة الله جمعوا ديوانهم في مجلدات، ولم توزع نسخه على أهل الأرض، ولم يصلنا منه إلا القليل من كلمات آدم، ودعاء إبراهيم وتلبية موسى وعيسى، ومناجاة النبي وأهل بيته (ص) وكبار الصحابة والفقهاء والعارفين..

في كل يوم للمسلمين مناجاة وأدعية عند الكعبة، ولكن موسم الحج هو موسم القصائد الحارة تحمل ذوب الروح وعبيرها..

بدأ أحدهم بمناجاة زين العابدين عليه السلام «إلَهِي عُبَيْدُكَ بِبَابِكْ، سَائِلُكَ بِبَابِكْ، فَقِيرُكَ بِبَابِكْ، مِسْكِينُكَ بِبَابِكْ.. اللَّهُمَّ الْبَيْتُ بَيْتُكْ، وَالْحَرَمُ حَرَمُكَ، وَالْعَبْدُ عَبْدُكْ.. » فلم يستطع قراءته بالعربية فانتقل إلى الفارسية ونظم قصيدة من معانيه..

وتتابعت الأشواط السبعة وانتهت، وتواصلت فيها من الخراسانيين المناجاة والدعوات، لأنفسهم وللإمام وللمقاتلين، وللمهدي وإيران والمسلمين.. ولكن أحداً منهم لم يشعر بريّ ظمئه، فالقضية مع الله عند الكعبة لا يكفي لها طواف يذهب نصفه في الزحام، وبعضه في الانبهار بجلال المشهد لأول مرة.. فلا بد من العودة، ولا بد من ساعات طوال للطواف والدعاء والصلاة..

مواكب الساعين

قالوا لهم: يستحب الجلوس على الصفا والنظر إلى الكعبة الشريفة، فجلسوا يستريحون. . قال أصغر:

ـ كيف يمكن مشاهدة الكعبة من هنا وقد حجبوها بغابة من الأعمدة. . لو تعرف يا دكتور أنه بالرغم من ضخامة بناء الحرم الشريف وسعته؛ فإني لا أشعر أنه يتناسب مع روحانية الكعبة الشريفة، بل أشك في أمر المهندسين الذين وضعوا تصميمه، أشك حتى ببعض الزخرفات التي يوجد لها شبيه في كنائس روما. . لقد جعلوه غابة من الرخام تحجب الكعبة، أما الجدران الرخامية العالية من جهة باب إبراهيم عليه السلام، وأرض الطابق الأول التي رفعوها إلى أعلى من أرض المسجد الحرام، فهي تزعج حقاً. . ما هو الداعي لبناء الطوابق العالية، أما كان الأفضل أن يتسع الحرم أفقياً حتى لو شمل وادي مكة كلها وجبالها. . وأكثر ما يزعج هو البنايات العالية في مكة التي تحجب الحرم. . مسكين جبل أبي قيس، لقد شوهوا جماله، والجبال المجاورة. . يقول بعض الذين حجوا قديماً إن معالم مكة كانت أجمل بكثير وروحانيتها أكثر. . ولعل الشيء الوحيد الموفق عندهم بناء هذا المسعىٰ. .

أرجو أن لا تؤثر عليك هذه الأمور يا دكتور، كما لم يؤثر عليك ازدحام الناس والحمد لله، وأبشرك بما سمعته من أحد العلماء، فقد عرضت عليه فكرتي هذه، فوافق عليها وقال: إن الأحاديث الشريفة تذكر أن المهدي الموعود روحنا فداه، يجدد بناء الكعبة الشريفة والحرم من الأساس، ويطبق أحكام

الشريعة على مكة وسكانها. . فسألته ما هي فقال: منها، أنه كل مـا احتاج إليـه الحرم فهـو أولى فيه، وأنـه لا يجوز لأهـل مكة أن يقفلوا أبـوابهم عن الحجاج. . فالأصل هو البيت والمسجد وحاجة الحجاج والمعتمرين. . وكل شيء يجب أن يخضع لذلك. .

ـ شريعة الإسلام عظيمة، وأحسنت يا أصغر عـلى هذا التـوضيح. . ادع لي أن لا يمنعني أي عـائق عن أداء المناسـك بخشوع. . وفي طـوافي يا أصغر دعوت لك ضمن ثلاثة أشخاص لهم فضل عليّ في الهـداية: الإمـام الخميني وأنت ووالدتي. .

ـ شكراً يا دكتور، وأرجو أن تدعو للإمام والمقاتلين وليس مهمًّا أن تدعو لي. .

ـ كلا يا أصغر، فمن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق، سأدعو لك ولهم في السعي. .

*

وانتظمت قافلة الخـراسانيـين في نهر الساعـين. . في مواكب الشعـوب تسعى غادية رائحة. . ما بين ربوتين عند الكعبة ذكرهما الله تعالى في كتابه. .

مـا قصة الصفـا والمروة والسعي بينهـما، أو الطواف بهـما كـما عبـر الله تعالى. ؟

ولماذا الطواف هنا بحركـة طوليـة لا دائريـة. . وبين شيئين، لا حول شيء. ؟

ولماذا أحكام السعي أخف من أحكام الطواف. ؟

وأدعيته تكثر فيها طلباتنا من الرزق والعفو والسعادة، وكأنا أتينا من عند الكعبة بحوالة وقيل لنا هنا المخازن فاطلبوا. ؟

ولماذا السبعة ثابتة في الطواف والسعي. . هل هي رقم كوني، أو هي معدل عمر الإنسان في الحياة. . أو هي رمز لتركيب بروتين الحياة. ؟

ولماذا نقطة البدء دائماً من جهة الشرق، من ركن الكعبة والصفا. . ونقطة الانتهاء تختلف. . والمسافة ما بين الصفا والمروة. . كم تبلغ بالامتار وبالخطوات. ؟

وهذا الموكب السائر ذهاباً وإياباً. . هل يرمز إلى حركة الحياة. ؟

. . كانت هذه الأسئلة وغيرها تراود ذهن الدكتور وهو يسعى، ولكنه كان يقول لا أدري، ولكني أدري أنه وحي، وأن كل شيء هنا مليء بالغيب مليء بالرمز. . وأدري أن علي الآن أن أسعى لله كما أمرني. . أن أمشي وأن أدعو مع رفقائي وأطلب ما أريد من الله كما قال العالم. .

كان يدعو ثم يعود إلى أفكاره، حتى إذا وصلوا إلى مكان الهرولة، تذكر تفسير أمير المؤمنين للسعي: بأنه لإخراج التكبر من الشخصية وإسكان التذلل فيها، وأخذ يهرول ويقول: اللهم ها أنا مطيع لك ذليل بين يديك. . تقول لي امش على مهل أمش. . وتقول هرول أهرول. . اللهم فألق عني بهرولتي كل التكبر. . ثم يعود يفكر: ترى كم تبلغ خطوات الهرولة في الأشواط السبعة، وما علاقة كميتها بمعالجة التكبر، وهل هي رمز لمعالجات أخرى في حياتنا. ؟

من المؤكد أنها تعني عدم الجمود على الحركة الرتيبة للحياة، وأن الإنسان قد يحتاج في أول الشوط أو في آخره إلى كسر رتابة حياته. .

آه، أنا في آخر الشوط، فهل أكسر رتـابة حيـاتي في لندن وأهـرول إلى طهران. .

ويرفع رأسه إلى السماء، ويقول في نفسه: اللهم أعنِّي لكي أكسر صنم حياتي الرتيبة، أو أتركه لعائلتي، وأهرول إلى مرضاتك في إيران. .

ويقترب من أصغر ويقول له:

ـ لقد دعوت لك يا أصغر فادع لي. . ادع لي أن أربح آخرتي، والدنيا ليست مهمة، فقد أخذت نصيباً كبيراً منها. .

ـ أدعـو لك بكلتيهـما يا دكتـور، وهل يكـثر على كـرم الله شيء. . أما سمعت قول العالم على الصفا: اطمعوا، اطلبوا كـل ما أردتم ممـا لا حرام فيه. . أما سمعت رفقاءنا من حولك يطلبون أنواع الطلبات. .

فدمعت عينا الدكتور وقال:

ـ هؤلاء قريبون منه يا أصغر ومطيعون. . أما أنا فلا أستحق شيئاً. .

ـ لا تنظر إلى استحقاقنا يا دكتور، ولكن إلى كرمه. . إلى كرمه. .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العقل يخشع في مكة

وأمضى الدكتور في مكة أياماً غنية في مسجدها الحرام، وفي بعثه الإمام، ونصف يوم في زيارة جبل النور، وزيارتين لمقبرة المعلَّى حيث أبو طالب وخديجة، وأمسيات طيبة في القافلة، فقد أحبهم وأحبوه، وخدمهم بخبرته في الطب، ولكنهم خدموه أكثر بروحيتهم العالية وإيمانهم الحار، وكانوا له أساتذة وإن لم يشعروا . .

أعجبته كثيراً أفكار عالم القافلة عن فلسفة الحج فقد استفاد من شرحه، وعرض عليه تأملاته فوافقه على أكثرها . . وافقه على أن الرمز أيضاً خط في مجمل مناسك الحج، وأن تعويد العقل على قبول الغيب والتعامل معه خط آخر، ولكنه قال له: هذا يمكن أن نسميه معالجة التكبر العقلي وتدريب العقل على العبودية . . فعقل أحدنا يعتقد أنه محدود الإدراك والقدرة، ولكنه فضولي أمام ربه عز وجل، يريد أن يفهم كل شيء، وأن لا يطيع إلا بشرط أن يفهم . . ومناسك الحج تقول له: دع عنك هذا التعنت، فكم فهمت من حقائق الأمور حتى تريد أن تفهم حقيقة المناسك . ؟ إنما أنت طفل صغير، وكل إدراكك وآفاقك لا تبلغ أن تكون ذرة من علم الله تعالى . . فاعرف حدك واعرف قدر ربك وأطع . .

اتفق معه على أن الحج يجب أن يُشرحْ، وتقدم فلسفته إلى المسلمين والعالم فهو من أركان الإسلام ومعالم حضارته . . وقال له: على ما ألاحظ من اهتمامك الفكري وتأملاتك يا دكتور، فإنك تستطيع أن تكتب عن فلسفة

الحج ، ولكن ذلك يحتاج إلى أن تحج أكثر من مرة ،وتعايش الآيات والأحاديث الشريفة عن الحج . . وعندما سأله : لماذا لا تكتب أنت يا سيدي ، قال : بضاعتي قليلة ومشاغلي كثيرة يا دكتور، ولا بد أن يتصدى لذلك أهل الفكر من العلماء والكتاب . . إن النهضة الفكرية في إيران قائمة على قدم وساق والحمد لله .

*

من أروع الساعات التي قضاها في مكة ساعات العبادة الفكرية في الحرم، ومع الشيخ الطبري، ومع حسين العامل ـ الدكتور، فقد جلسا طويلاً في الحرم واستعرضا الأفكار حول الحج ، وحول الإيرانيين في الحج وفي إيران، وحول عودته إلى إيران . . ولكن حسيناً لم يوافقه على اتجاهه إلى التوغل الفكري في كل شيء ،

قال له : التفكير والتأمل أمر جيد، ولكن المسائل الإسلامية لها مصادر ومختصون . . فإذا أراد أحدنا أن يشتغل فيها على الأصول فلا بد أن يفهم المصادر ونتاج العلماء، وفي هذه الحالة يصبح هو منهم . . أما إذا أراد أن يصل فيها إلى نتائج من تفكيره ومن ثقافته ؛فلا بد أن يخطئ كثيراً ويضيع . .

قال له : يا دكتور، اهتمامك في أن تفهم صورة عن الغيب في الإسلام جيد وفي محله ،وأرجو أن تعرف قيمة حديث الشيخ الطبري ، وتوزع أشرطته ، وتترجمها إلى الإنكليزية . . ولكن اهتمامك بفلسفة الحج يذكرني بأيام مرت عليَّ ونجوت فيها والحمد لله : كنت أريد أن أفلسف كل شيء بثقافتي وذهني . .

يا دكتور، ما قولك إذا جلست معك جلسات وفلسفنا الكعبة والطواف

والسعي والمناسك في عرفات والمشعر ومنىٰ . . ثم قرأنا نصوص الحج التي تبلغ مجلدات من الآيات والأحاديث وتفسيرها ، فوجدنا فيها تفسيرات أخرى وفلسفة أخرى . .

ما قولك لو جلسنا أنا وأصغر جلسات نفلسف فيها مسائل طبية ،ووصلنا منها إلى نتائج ، ثم عرضناها عليك فقلت لنا إنها خطأ مئة بالمئة . .

صحيح أن نسبة الخطأ هنا أكثر منها في تفسيرنا مناسك الحج ،ولكنها فيها موجودة أيضاً . .

وحقك يا أخي إني تعبت كثيراً في هذا الطريق ، وأتعبت عدداً من العلماء ، كنت أريد بفلسفتي الغربية أن أفلسف الإسلام ، وما أزددت بذلك إلا بعداً وضياعاً ، حتى أسلمت لله وآمنت بوحيه فأنقذني من ذلك المنهج الغربي ، وأصبح نص الوحي عندي هو الأصل ، هو كل شيء ، وأصبحت أرى أن أعظم الفلاسفة هو أكثرهم معايشة لنصوص الوحي وانطلاقاً منها . .

استفد من تجربتي يا دكتور واختصر الطريق . . وأرجو أن لاتقول :حسين اختصاصه فلسفة ولا يعرف في مسائل الاجتماع والنفس ، فخادمك الذي أمامك يحمل دكتوراه علم اجتماع من كمبردج ،وقد سجل على دكتوراه في علم النفس في أمريكا ولم يكملها . .

معاذ الله أن أريد فخراً بشيء يا دكتور، فما أنا وما ثقافتي وشهاداتي ، إنما أنا عبد ضعيف مقصر أذن له سيده بالمجيء إلى بيته وحرمه لأعبده كما أمر لا كما أحب ، ولِلحِكَم التي أرادها لا التي أتصورها . . والله يا دكتور لا أعلم لماذا أمرني بالسعي ، وأستطيع أن أفلسفه بوجوه عديدة ، ولكني أرتجف إذا أردت أن أقول إن سيدي أمرني بالسعي بسبب كذا ، أو لهدف كذا ، إذا لم أسمعه من عالم أو لم أره في القرآن والسنة . .

يا دكتور إن عالم قافلتنا وأمثاله يستطيعون أن يقدموا تفسيراً للحج، لأنهم اطلعوا على نصوص الإسلام فيه، فنتائج تفكيرهم تكون علمية أو ظنية. . أما أنا وأنت؛فغاية ما تكونه النتائج التي نتوصل إليها بدون المصادر أن تكون احتمالية. . نعم هي احتمالات معقولة ونافعة. . ولكن الخطورة يا دكتور في اتباع منهج الاحتمال وتفسير الإسلام به. .

قال الدكتور: فهل تنصحني إذن أن لا أفكر في مناسك الحج؟

فقال حسين: التفكير عبادة يا دكتور، وإنما أريد لك أن تفكر جيداً وأن لا تنشغل بمسائل الفكر الإسلامي بطريقة غربية، أريد لك يا أخي أن تعمل، بمفهوم الإسلام للعمل. . هنا، الطواف عمل. . الصلاة عمل. . النظر إلى الكعبة عمل. . قراءة القرآن عمل. . الدعاء عمل. . معالجة الحجاج عمل. . المشاركة بالتظاهرة عمل. . لقاء الحجاج من بلاد المسلمين والسلام عليهم ومصافحتهم ومعانقتهم عمل. . تعريفهم بدولة الإسلام في إيران عمل. . التعرف على أحوالهم عمل. . حثهم على العمل عمل. . والتفكير عمل، ولكن بالمنهج الإسلامي يا دكتور، أما أن تقضي ساعات في التفكير في فلسفة المناسك وتصرف لذلك وقتك ووقت أصغر، وتأخذ ساعات من وقت العلماء في عرض أفكارك عليهم ومناقشتها. . فلا أراه عملاً يا دكتور. .

وما زالت آخر كلمات حسين ترن في أذنيه:

يا دكتور، إني على ثقة بأنك إذا تقدمت في إيمانك وعرفت الله تعالى أكثر. . فسوف تعتدل اهتماماتك الفكرية، وتتضاعف اهتماماتك العملية. .

الأصالة في فلسفة أحكام الإسلام

دخلا إلى غرفة عالم القافلة فرحب بهما واحتفى بالدكتور وشكره على خدمته للحجاج، فقال الدكتور:

ـ أرجو المعذرة يا سيدي فقد أخذت من وقتكم سابقاً والآن أكثر مما استحق، ولكني أردت أن أعرف ما هي الحدود التي يجوز لي أن أفسر فيها مناسك الحج. . قال لي أحدهم لا بأس أن تفكر وتفسر، ولكن اعرض نتيجة تفكيرك على العلماء، وقال آخر إنك تشغل نفسك بدون طائل، وما تصل إليه ليس أكثر من احتمالات، ولا يستطيع تفسير الحج وفلسفة أحكامه إلا المختصون المطلعون على نصوص الإسلام فيه. .

ـ في الحديث الشريف يا دكتور عن الإمام الكاظم عليه السلام «إِنَّ للهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ حُجَّتَيْنِ، حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَحُجَّةٌ بَاطِنَةٌ، أَمَّا الْحُجَّةُ الْبَاطِنَةُ فَهِيَ الْعُقُولْ» فالعقل نعمة كبرى إذن، وحجة من الله تعالى، ولكن متى يكون حجة، وعلى من يكون حجة. .؟ يكون حجة إذا كانت نتيجة استنباطه وإدراكه جازمة قطعية، لا ظنية أو احتمالية. . ويكون حجة على صاحبه، وعلى من جعله الله حجة، مثلاً عقل المرجع ولي الأمر حجة على المسلمين، فيما يستنبطه من أحكام وما يقدره من مصالح ومفاسد، طبعاً أقصد ما يستنبطه بشكل قطعي. .

إن التفكير عبادة يادكتور، ففي الحديث الشريف عن الإمام الرضا عليه السلام «لَيْسَتِ الْعِبَادَةُ كَثْرَةَ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ وَإِنَّمَا الْعِبَادَةُ التَّفَكُّرُ فِي أَمْرِ اللهِ

عَزَّ وَجَلّ» فالإسلام يريد لجميع الناس أن يفكروا، وأن يستثمروا هذه النعمة وهذه الحجة وأن يتوصلوا إلى نتائج . . ولقد أنست باهتمامك في تفسير أحكام المناسك وتأملاتك فيها . . أما التفكير يا دكتور ففكر ما شئت، واستفد من النتائج التي تتوصل إليها وأفدنا، ولكن اعتبارها تفسيراً أو فلسفة لأحكام الحج وتقديمها للمسلمين بهذا العنوان فهذا أمر آخر . . نعم إنها تأملات مسلم في حكمة الحج وأهدافه . .

أحكام الإسلام يا دكتور لهَا علل وتوجد لها حكم، يعني أسباب للتشريع وأهداف . . وبتعبير فقهائنا رضوان الله عليهم «الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد النوعية والشخصية»وما يدركه العقل بشكل قاطع إنما هو الخطوط العامة للأسباب والأهداف، وإن كان إدراكه في الأهداف أوسع، أما التفاصيل غالبيتها أو كلها فإن العقل لا يصل فيها عادة إلى أكثر من الظن والترجيح والاحتمال . . لذلك فهو بحاجة إلى هداية الشرع، أو يبقى الأمر ظناً وترجيحاً . .

ومن هنا يحتاج الأمر فيما يسمى فلسفة الأحكام إلى اطلاع على الكتاب والسنة في الموضوع، لأتمكن من القول إن هذا التفسير أو هذه الحِكَم والأهداف قد استنبطتها من مصادر الإسلام أو من تفكيري بهداية مصادر الإسلام، ويبقى أمر قيمتها أيضاً موكولاً إلى الفقهاء . .

كان الحسين بن روح رضوان الله عليه، وهو السفير الثالث للإمام المهدي أرواحنا فداه، يحدث أحد أصحابه عن السبب أو الحكمة في أن الله تعالى سمح باستضعاف الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وذكر من هذه الأسباب أنه لولا ذلك لعبدهم الناس من دون الله، فحجبوهم عنه تعالى؛ فقال له: أتقول

هذا من عندك؟ فقال رضي الله عنه «والله لأن أخرّ من شاهق أحبّ إلي من أن أقول في دين الله برأيي، ولكني سمعته من الأئمة عليهم السلام».

هذه القصة وغيرها من الأحاديث الشريفة يا دكتور، تدلنا على ضرورة الدقة والتقوى في تقديم فلسفة الدين وأحكامه للناس..

سأضرب لك مثلاً من فلسفة الحج: معنى الحج هو زيارة البيت المعظم طبعاً.. وعلى هذا الأساس يبدو أن إحرامنا من مسجد الشجرة ووصولنا إلى البيت وطوافنا هو الأساس، بينما يعتبر الإسلام ذلك مقدمة للحج فقط، ويسميها عمرة إلى الحج، ويعتبر أن الحج يبدأ بإحرامنا ومغادرتنا مكة إلى عرفة التي تبعد خمسة وعشرين كيلو متراً، ثم بعودتنا إلى مكة عبر المشعر ومنى، فيسمى طوافنا بعد هذه المناسك طواف الحج وسعينا سعي الحج، وكأنا لم نحج البيت ولم نره من قبل..

العقل هنا يرجح أن الوصول الأول هو الحج، والشرع يقول لا.

والعقل يرجح مثلاً أن المحرم يتجه إلى الكعبة باعتبارها المركز والمقصد، وهذا صحيح في العمرة، ولكن المحرم بالحج يتجه من مكة إلى عرفة فهو يغادر المركز، ثم في طريق عودته يحل من إحرامه في منى، قبل أن يصل إلى المركز..

والعقل يرجح أن من ذروة الحج الطواف، أو الحلق والتضحية، ولكن الشرع يقول:

«الحج عرفة».

لا أريد بذلك أن أسد الباب أمام العقل يا دكتور، وإنما أؤكد أن العقل يحتاج في معرفة أهداف الأحكام الشرعية، خاصة العبادات، إلى هداية الشرع،

ودراسة الآيات والأحاديث الشريفة. . وفي نفس الوقت فإن هناك نتائج مهمة يتوصل إليها العقل، فإن وجد عليها دليلاً من الشرع اطمأن. فعندما يرجح العقل أن ذبح الضحية في منى رمز لتقديم المسلم نفسه قرباناً إلى الله. . أو عندما يرجح أن رمي الجمار يرمز إلى رمي مصادر الشر الثلاثة في الأرض: شر النفس وشر الشيطان وشر الناس. . وعندما يرجح أن السفر من مكة إلى عرفات يعني السفر إلى الله، وأن موقف عرفات يعني تلقي الرحمة، أو المسؤولية والحساب، أو وحدة الأمة. . وأن السفر من عرفات إلى المشعر ومنى يمثل الدنيا وزحامها وضيقها، كضيق تلك الأودية، ويمثل صراع الخير والشر فيها. . إلى آخره. . إن هذه الترجيحات العقلية إذا وجدت عليها أدلة أو مؤيدات من آيات وأحاديث الحج فهي مفيدة للمسلمين كثيراً. .

والنتيجة يا دكتور أني أحب لك أن تتأمل وتفكر في فلسفة الحج ومناسكه العظيمة، ولكن أحب لك أن تقول: أحتمل، أو أرجح، أو يبدو لي، وما شابه ذلك من التعابير التي تنسب الفكرة إلى صاحبها، لكي يتحمل هو خطأها إن كان، ولا يحمله للإسلام وأحكامه العظيمة المقدسة. .

*

كان يصغي إلى حديث العالم ويهز برأسه، ويتذكر في نفسه حديث حسين ويشكره. . وعندما أكمل العالم كلامه قال:

ـ شكراً، شكراً يا سيدي، لقد استفدت كثيراً. .

ثم نهضا مودعين. . ولما دخلا إلى الغرفة قال لأصغر:

ـ لماذا كنت تشجعني على تفسير الكعبة ومناسك الحج يا أصغر، ألم تكن تعرف الخطورة في ذلك فتنبهني إليها. ؟

ـ والآن أشجعك أيضاً يا دكتور، وقد قلت لك أحب أن تعرض نتائج تفكيرك على العلماء. . ولكني لم أكن أعرف هذه المفاهيم البليغة التي شرحها السيد عن العلل والأهداف، وإدراك العقل القطعي وغير القطعي. . حقاً يا عم إنها أصالة في التعامل مع الأحكام الشرعية.

*

الاستعداد ليوم عرفة

الثامن من ذي الحجة، يوم التروية . .

لم يغادر الدكتور مسكن القافلة . . أحب أن يبقى في الغرفة ويستعد للتحرك عصراً، فالحجاج كل الحجاج، يجب أن يكونوا غداً في موقف عرفة، وهم يذهبون من اليوم استعداداً للموقف العظيم . .

جعل برنامجه: سماع شريط محاضرة عالم القافلة التي ألقاها البارحة . .

التأمل في خريطة مكة والمناسك والحرم . .

حفظ الدعاء المستحب عند غسل الإحرام . .

قراءة آيات الحج وترجمتها . . فقد آثره أحد الحجاج بنسخته من القرآن المترجمة إلى الفارسية، والتي استطاع أن يخفيها في المطار عن أعين الحكومة السعودية . .

ومن برنامجه كالعادة أن يستقبل المراجعين من الحجاج في أي وقت . .

*

أعجبه أسلوب العالم في تفسير مناسك الحج . . إنه يذكر ما يراه من فلسفتها، ويستشهد على بعضه بالآيات والأحاديث، ثم يقول للحجاج إنها تفسيرات تبدو لنظره القاصر على حد تعبيره، وإن هذه المعاني لا بأس أن تكون في أذهاننا عندما نؤدي المناسك، ولكننا لا نؤديها من أجلها، وإنما نؤديها

لأن الله تعالى أمر بها، وأوامره سبحانه لها أهداف وأسرار لا يعلمها إلا هـو والراسخون في العلم . .

أعجبه هذا التقسيم للحج إلى ثلاث مراحل فـأعاد استمـاعه . . قـال العالم الخراساني: يبدو لنظري القاصر أن الحج ثلاث مراحل: العمـرة التي هي مراسم الدخـول إلى بيت الله تبارك وتعـالى، أو مراسم القبـول للرحمة الإلهية والحج .

والمرحلة الثانيـة: السفر إلى عـرفات الـذي هو سفـر إلى تلقي الرحمـة والولادة من جديد . .

والمرحلة الثالثة: حركة العودة من عرفات عبر المزدلفة ومنى إلى البيت، والتي تمثل حياة الإنسان وكدحه فيها حتى يصل إلى ربه تبارك وتعالى . .

لاحظوا أيها الأعزاء اسم جبل الرحمة في عرفات، إن الأحاديث الشريفة تتحدث عن الرحمة الغامرة في عرفـات، وتقول إن عمـدة الحج المـوقف في عرفات . . فاستعدوا وتوجهوا إلى ربكم وأبشروا بالغفران والرحمة . .

لاحظوا أننا نُفيض من عرفات بعد غروب الشمس، ونتجه إلى واد ضيق تتفرع منه أودية ضيقة أيضاً، إنها تذكرنا بـأودية الحيـاة . . وظلام الليـل في المشعر الحرام يذكرنا بظلام الحياة .

عندما نفيض من عرفات يكـون الضوء لا زال مـوجوداً من بقـايا يـوم عرفة، وهذه الفترة من الغروب حتى يعم الظلام؛ كأنها رمز للفطرة التي يولد عليها أحدنا، ثم يأتينا الظلام من الذنوب والشيطان والناس .

إن المشعر الحرام يمثل خضم الحياة . . فمن الناس من ينامـون، ومنهم من يقول «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَـلَاقٍ» ومنهم من يقول

«رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارْ» هذا النوع من الناس هو المطلوب وهو المقبول عند الله، وهؤلاء هم الذين يذكرون الله تعالى في المشعر ويعبدونه على رغم التعب، ويهتدون إليه على رغم الظلام، والأهم من ذلك أنهم يستعدون لمحاربة الشر الأكبر، فيجمعون ذخيرتهم من المشعر. . حتى إذا طلعت الشمس توجهوا إلى أكبر عقبة ورموها وانتصروا عليها، وحينئذ يقبل منهم القربان ويحلون من الإحرام. .

يبدو أنها عقبة النفس أيها الأعزاء، فالله تعالى يقول ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. . يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةْ﴾ إن عقبة النفس أهم عقبة أمام الإنسان، فاذا انتصر على العقبة، ورمى جمرة العقبة، وأطفأ جمرة العقبة، فإنه يستطيع أن يرمز إلى ربه بالتضحية عن نفسه، ويستطيع أن يذهب إلى بيت ربه ليطوف ويسعى، ويستطيع أن ينتصر في اليوم الثاني والثالث على جمرة العقبة، وعلى الجمرة الوسطى، والصغرى. .

*

أخرج الدكتور خريطتين وأخذ يتأمل ويفكر: يبدو أن هذه المنطقة الجبلية مهندسة جغرافياً للكعبة والحج. .

ما معنى أن منطقة الحج كلها تقع شرقي الكعبة. . وأن أولها من جهة الشرق صحراء عرفة الواسعة، وآخرها من جهة الغرب جمرة العقبة الكبرى، حيث تبلغ أشد الضيق. ؟

ما معنى أن تقع الكعبة في منطقة جبلية قرب صحراء وبحر. ؟

وأن تكون بين إفريقيا وآسيا. ؟

كيف يجب أن ننظر إلى مسألة الازدحام في مكة، ومنطقة الحج التي يبدو أن قدرة استيعابها نصف مليون حاج براحة، ومليون بازدحام، ومليونان بازدحام شديد. . هل أن الازدحام والضيق مسألة مقصودة لله تعالى لأهداف تربوية، مهما زاد عدد المسلمين، ومهما زاد عدد الحجاج، وحينئذ فغاية ما يمكن عمله هو التخفيف من الازدحام بالتنظيم، وبإعطاء الأولوية للحجاج لأول مرة. ؟

وكيف سيقوم الإمام المهدي عليه السلام بتنظيم الحج عندما يشمل الإسلام والتدين كل الشعوب. . أم أن الحروب العالمية سوف تقتل أكثر سكان العالم كما يقول أصغر، وأن هذا الانفجار السكاني لن يعود مرة أخرى. ؟

وهل هناك علاقة بين قدرة استيعاب مكة ومنطقة الحج، وبين المسألة السكانية في العالم. ؟ على أن أشد منطقة في الازدحام والضيق هي وادي منى. . كل الحجاج يجب أن يكونوا في هذا الوادي الصغير يوم العيد، وأن يتواجدوا فيه يومين أو ثلاثة. .

أم يجوز توسيع المنطقة عند الضرورة لتشمل ما حولها. ؟ يقول عالم القافلة إن منطقة الحج محددة على يد النبي (ص) ويستبعد أن يوجد أحد من الفقهاء يفتي بتوسيعها عند الضرورة. .

على أي حال، مسألة الازدحام والضيق تبدو مقصودة قصداً، فقد كان باستطاعته تعالى أن يجعلها كلها مثل عرفات. . أصلاً قد تعمد سبحانه أن يخلق وادي مكة الضيق ويجعله مكاناً للكعبة. . وأن يخلق هذه المنطقة ويجعلها للحج. .

سمعت أن بعض الناس يضيق صدره بهذه المنطقة وبزحامها، فلا يأتي إلى الحج لهذا السبب، أو يأتي ويتأفف من كل شيء.. هل هم نماذج للذين يضيقون بالحياة وزحامها فيهربون منه؟.؟

*

قبّل القرآنَ، وفتح على سورة الحج.. فقد ألفته أن يكون في القرآن سورة خاصة باسم الحج، فبدأ بها..

وجد أن قبلها سورة الأنبياء فتساءل، هل توجد علاقة بين الأنبياء والحج.. وأنها نزلت بعد سورة النور، فهل توجد بينهما علاقة.؟

قرأ ترجمة السورة أول مرة، والثانية، والثالثة، فأحس أن عقله تلقى ضخاً أكثر من قدرته على الاستيعاب.. أراد أن يعرف محور السورة ويكتشف هذا الترابط الذي يومض بين آياتها، فلم يستطع..

تبدأ السورة بخطاب الناس، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وتختم بعد ٧٧ آية بخطاب المسلمين بأنهم شهداء على الناس، وتذكر الناس خمس عشرة مرة.. فهل أن موضوعها الناس، بمناسبة أن البيت للناس، والحج على الناس.؟

وتتحدث السورة عن المجادلين والمخاصمين والصادين عن سبيل الله والمسجد الحرام، وعن دفع الناس بعضهم ببعض.. فهل أن حركة الجدال والصراع هي المحور، وأن هدف المسلمين أن يرشدوا الناس إلى البيت، وهدف الكافرين أن يصدوهم..

وفي السورة حركة أخرى تبدأ عنيفة بالبعث، ثم تتواصل بالهجرة

والقتال وإهلاك الحضارات الظالمة، وفي وسطها تأتي حركة الحج.. فهل أن حركة المجتمعات والناس نحو الله هي المحور..

وجد الدكتور أن أكثر من موضوع وحركة يمكن أن تكون محور السورة، فترك البحث عن محورها أو محاورها، وقرأ ترجمة آيات الحج وحدها، ثم أعاد قراءتها، فوجد أموراً كثيرة جديدة في الحج تحتاج إلى تفكير، وإلى سؤال العلماء..

أولاً: ما معنى هذا التسلسل في أهداف الحج:

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ.
يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتْ
لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ..
لِيُوفُوا نُذُورَهُمْ..
لْيَطَّوَّفُوا..

ولماذا اعتبر الله المنافع هدفاً أول، وجعلها في مقابل الأهداف الأخرى.؟

ثانياً: مسألة بهيمة الأنعام أساسية في آيات الحج، فالمناسك مجعولة لذكر الله وشكره عليها، يعني يصح أن نقول إننا أتينا لكي نحج إلى بيت الله ونذكره في أيام الأضحى على نعمة الحيوانات، لحومها وألبانها ومنافعها الأخرى.. حقاً إنها نعمة كبرى، فلو فقدت اللحوم والألبان لاضطربت حياة العالم.. ولكن ما المقصود من التركيز على نعمة الحيوان.؟

ولماذا قال عز وجل ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ فما هو ذلك

الأجل الذي تنتهي المنافع عنده. . فهل سيستغني العالم عن الغذاء الحيواني. ؟

وهل يمكن أن نفهم من التعبير بمنافع الحيوانات معنى منافع الحج، فكما أن منافع الأنعام من جميع الجهات فكذلك منافع الحج. ؟

ثالثاً: ما هو السر في جعل التكبير بالخصوص شكراً على الهداية للإسلام، بينما جعل ذكر الله مطلقاً شكراً على نعمة بهيمة الأنعام. ؟

رابعاً: يوجد في آيات الحج كلمات تبدو أنها مصطلحات مثل: حرمات الله. شعائر الله. مناسك. . وما هي قصة المناسك في الشرائع الإلهية التي يقول عنها عز وجل ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسِكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾؟

*

قال الدكتور في نفسه لعلي أستطيع أن أفهم أكثر من الآيات الأخرى، فقرأ ترجمة آيات الحج في سورة البقرة، وأعاد قراءتها، فوجد أيضاً أموراً جديدة عن الحج تحتاج إلى تفكير وسؤال:

أولاً: لماذا جاءت آيات الحج ضمن آيات القتال. . هل يريد الله تعالى أن يثبّت في القرآن مسألة تاريخية هي قتال المسلمين للمشركين في صدر الإسلام، أم أن هناك علاقة بين حركة المسلمين إلى الحج وحركة قتالهم لأعداء الحج. ؟

ثانياً: الأهِلَّة مواقيت للناس والحج، والأشهر الحُرم، والحج أشهر معلومات، وذكر الله في أيام معدودات. . هذه الآيات تطرح مسألة التوقيت بحركة القمر، وأن الحج هدف أساس فيها. . يبدو أن هناك علاقة عميقة

جداً بين الحج وظرفه الزمني، ولا نعلم عنها شيئاً، وبين توقيت الحج وبقية المناسبات الإسلامية على مدار السنة . .

ثالثاً: الأحكام الشرعية للحج كثيرة تبلغ كتاباً، فما الهدف من اختيار عدد منها وذكره في القرآن دون غيره، مثل أحكام الحلق، والهدي، والرفث والفسوق والجدال، والإفاضة من عرفات، ومدة البقاء في منى . . ما هو وجه الأهمية الخاصة لهذه الأحكام، هل هو أهمية موضوعاتها، أم أهمية وحدتها بين المسلمين وعدم الاختلاف فيها . .

*

قال في نفسه: ذكرك الله بالخير يا حسين، المسألة أعمق مما نتصور، فهي اختصاص، ونصوص قرآن وأحاديث، قال أصغر إنها تبلغ ثلاثة مجلدات . . على أي، لقد أخذت فكرة ولو مجملة عن آيات الحج، ولمست أن الدين علم أعمق من الطب وألذ للعقل.

الموقف العظيم

القافلة الخراسانية في سيارات مكشوفة تتجه إلى عرفات. . حقاً إن الإحرام للحج يختلف عن الإحرام للعمرة. .

ذاك يبدأ من الصفر، في طريقنا من بلادنا، من مسجد الشجرة لكي ندخل إلى بلد المولى. . وهذا يبدأ من داخل بلد المولى في دعوة إلى ضواحيها، عرفة والمناسك، حيث الضيافة الأساسية والمراسم الأساسية لحج البيت. .

العمرة إلى الحج دعوة للبعيد أن يأتي إلى الدار. . والإحرام للحج دعوة للقريب إلى جولة في بساتين الدار ليجني وينعم بالإكرام. .

إحرام العمرة يقول للمسلم اخرج من بداوة البعد واقترب. . وإحرام الحج يقول أيها المتحضر القريب أدّ المراسم والآداب. .

في إحرام العمرة يتوافد المسلمون إلى بيت ربهم زرافات ووحداناً، رجالاً وعلى كل ضامر. . وفي إحرام الحج يقدمون جميعاً مراسم الولاية والبراءة. .

لو يقاس العالم الباطني للناس بالأجهزة، لدلت على أن إحرام العمرة وعطاءاته، كانت للتمهيد الضروري لكل هذا النعيم وهذه الشفافية التي يعيشها الذاهبون إلى عرفات. . ولم الحاجة إلى الأجهزة، فهؤلاء هم مئات الألوف من أبناء إفريقيا وآسيا وأوروبا محرمون للحج ذاهبون إلى عرفات، وقد أشرقت وجوههم بالصحو والشفافية. .

مع أناشيد مواكبهم تتجاوب جبال فاران تمجد المولى وحده، وتقول لا للشركاء والطواغيت. . وقسماتهم تقرأ فيها فرح الروح. .

على كل نوع من السيارات بدل خيول أجدادهم الضامرة والجمال، يقصدون ساحة الرحمة ليقدسوا الرب العظيم هناك ويعطيهم. . وبعضهم ذاهبون إليه مشاة، فأبناء الريف الإفريقي وأبناء القبائل اليمانية وأهل النذور من الحضر، يحبون المشي إلى الله من مكة إلى عرفات. .

أَوِّبي معهم يا جبال فاران كما حكت عنك التوراة والإنجيل، فهؤلاء هم أتباع النبي الراكب على جمل أحمر، بيده شريعة نارية. .

وحوّمي فوقهم يا ملائكة مكة، واملئي معهم الطرق إلى عرفات، وانثري عليهم الرياحين والورود، فحدائق المولى ملأى يانعة. .

كان الدكتور ينظر إلى أفواج الحجاج المندفعة من كل نوع داخل السيارات وعلى ظهورها. . وقد حولت المنطقة إلى طرق إلى عرفات. . فيشعر بما يؤكد هذا المعنى الذي حل في نفسه منذ أحرم، هذا المعنى الذي يصفه تارة بالصحو، وتارة بالشفافية، وثالثة بالخشوع، ورابعة بالفرح. . فهو مركب منها جميعاً ولكن تركيباً يجعلها شيئاً واحداً. . ويجعل التلبية من أبناء خراسان وتركيا وأندونيسيا وإفريقيا وكل البلاد، أنشودة تثير هذا المعنى الموحد، وتملأ به الأرواح والآفاق. .

شعبية مواكب المسلمين إلى ضيافة الله، وروعتها في شعبيتها. . أما أصحاب المواكب «الرسمية» فهم عن السمع والبصر معزولون. . مر موكب أحدهم تزعق أمامه دراجات الشرطة ويصرخ عن جانبيه شرطة آخرون يضربون بالعصي سيارات الحجاج، فكانوا كالزبانية يسوقون صاحبهم إلى ربه

ويسوقون الناس من حوله، وكان هـو في داخلهم لا يعرف مـا الصحو ومـا الخشوع وما الفرح . .

السيارات تسير أو تقف من الازدحام، لا فرق عند الخراسانيين، فهم مطمئنون إلى الوصول، وهذا المسير في طريق عرفات جزء من الوصول، فهم ينظمون القصائد، ويحومون بأرواحهم على مواكب الحجاج، ويقرؤون معهم نشيد الإنشاد «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكْ»

الطرق إلى عرفات تمر في أودية بين هضاب وربوات، ولكنك في مكة وما حولها لا تشعر بأودية، تشعر دائماً أنك في مرتفع من الأرض، كأن المنطقة كلها على متن هضبة عالية، أو كأن السماء انخفضت إليها فهي تكاد تلامسها . .

ولا تشعر هناك بجبال تحجب عنك شيئاً، فقد أشرق عليها النور الإلٓهي كما على الأودية، فهي كالحجاج خاشعة أو ترمق بطرفها إلى الأعلىٰ . .

حتى إذا وصلت إلى عرفات، وجدتها منطقة لا علاقة لشمسها بالجبال، فشمسها مشرقة من العرش، وشمسنا فيها محرمة ملبية . .

الجبال كلها خاشعة نائية عن حرم عرفات، واحد منها كان أكثرها إيمـاناً وتواضعاً، فأجرى الله عليه ما شاء من آياته، وقال له تقدم، فتقدم إلى أول عرفات فهو فيها محرم حاسر، يكاد يذوب تواضعاً وخشوعاً . . بوركت يا جبل الرحمة .

وأطلَّ الخراسانيون على دنيا الخيام تملأ عرفات فكبروا ولبوا . . واغرورقت العيون بالدموع أن يكون لهم شرف ضيـافة الـرحمان، وأن يكـون لأحدهم سجد جبين على هذه الأرض الممزوجة بنور العرش . .

وانسابت قافلتهم في أحياء الخيام تسعى نحو خيام الإيرانيين، فقد تسللت لميمات الغربية إلى عرفات، فجعلوا حجاج كل بلد من بلاد الإسـلام في

مكان معين، لكي تسهل السيطرة عليهم، ولئلا يختلطوا فتسري بينهم روح الجهاد والثورة.. والمتهم الأكبر في ذلك هم الإيرانيون، الذين تكثر حول خيامهم الشرطة، وتكثر فوقها الملائكة..

ولكن لا بأس، فعرفات كفيلة بإزالة الحدود، لأن إشراقة التوحيد فيها بلا حدود..

مشوا بين خيام الإيرانيين في مدن إيران وقراها، حتى وصلوا إلى خيامهم فتلقاهم حسين والعمال بوجوه يملؤها السرور، وقد فرشوا الخيم وأعدوا الشاي..

وصل حسين وهو يوزع الشاي إلى الجهة التي فيها أصغر والدكتور فسلم، فقال له أصغر:

ـ شكراً كثيراً، كيف حالك يا أخ حسين؟

فأجابه والسرور يطفح من وجهه وتكاد الدمعة أن تطفح:

أنا سعيد جداً يا أخ أصغر بأني أخدم الحجاج في عرفات، فهذه نعمة عظيمة لا يستحقها مذنب مثلي..

فأجابه أحد الحجاج: ـ أنت مخلص يا حسين وإن شاء الله حجك مقبول..

فقال الدكتور: ـ أنا أتمنى من الله يا أخ حسين، أن يعطيني مثل إخلاصك وتواضعك، وأرجو أن تدعو لي، فأنا أشعر أنك من ملائكة عرفات...

ـ أستغفر الله يا دكتور، أين أنا من الملائكة المطهرين من الذنوب ومن عبادة الدنيا..

كانت هذه الكلمات مدخلاً للحجاج أن يسألوا، ولعالم القافلة أن يتحدث إليهم عن عرفات، وملائكتها وفيض الرحمة فيها، ومواقف الأنبياء والأئمة (ص) والصالحين في ساحتها.. ثم ختم حديثه قائلاً:

- استفيدوا من هذا الوقت من الآن حتى ظهر الغد، كل بما أحب، بتلاوة القرآن والصلاة والدعاء داخل الخيمة أو بين الخيم، أو بزيارة المؤمنين، أو التجول في عرفات والنظر في آيات الله تعالى..

*

قالوا لهما: احفظا الشارع والمكان جيداً فالضياع في عرفة مشكل.. فقال أصغر لا تخافوا..

كان الوقت عصراً قبل الغروب بنحو ساعة، وهما يتجهان نحو مسجد عرفة، ثم إلى جبل الرحمة..

- انظر يا دكتور - وأشار أصغر إلى الشارع الطويل الممتد في وسط الخيام - لقد تحولت صحراء عرفات إلى مدينة من الخيام، يسكنها مليون أو مليون ونصف مسلم من أنحاء العالم، كلها على هذا النسق شوارع وحقول من الخيام.. أليست هذه المدينة العالمية ابتكاراً إسلامياً رائعاً..

وأشار الدكتور برأسه مؤيداً، وواصل نظره إلى مدينة عرفات يفكر فيها من كل ناحية.. ثم يركز نظره على الحجاج في الشارع ذاهبين جائين.. يبدو أن نسبة الحجاج الأفارقة كثيرة.. أنّى تحركت في المدينة أو في الحج تجد أمامك الأفارقة والإيرانيين والمصريين، ثم الأندونيسيين والعرب والهنود.. فهؤلاء هم الثقل السكاني للعالم الإسلامي، أما الثقل الحضاري فهو آسيا قبل غيرها..

أهل الريف في العالم الإسلامي هم الغالبية العظمى، وأهل المدن

قليلون . . فالصفاء إذن أكثر والتدين أكثر، والتأثر بالمادية الغربية أقل . . أليس خيراً لي لو كنت إنساناً من هؤلاء أحمل صفاءهم وإيمانهم، وأعيش الحج كما يعيشون . ؟

الحمد لله ، أنا الآن محرم في عرفة . . وغداً من الظهر إلى المغرب يكون الموقف الحاسم، فهل يكون أن يغفر لي ربي كل ذنوبي ويقول لي ابدأ من جديد . .

هل يعتبرني من جملة هذه الأنفس الطاهرة، الذين أخلصوا له في حياتهم وجاؤوه بقلوب سليمة . . آه، الدكتور حسين لا يرى نفسه أهلاً لأن يكون خادماً لهم ، فماذا عساك تكون يا جمشيد . ؟

وتذكر أصغر إلى جانبه فقال في نفسه : هذا الملاك الطاهر بماذا يفكر الآن ، لقد وجدني منصرفاً عن الحديث فتركني وعاش مع أفكاره، لا بد أنها سياسية وروحية، فهذا عالمه المفضل، وأفكاره دائماً رائعة . .

ـ بماذا تفكر يا أصغر؟

ـ فكرت لو أن مليوناً أو مليوني شخص من الغربيين أرادوا أن يحجوا إلى روما أو بيت لحم ،ويمضوا يوماً أو يومين في منطقة صحراوية مثل عرفة، فماذا سيحدث . .

ـ فكرة طريفة يا أصغر لم تخطر على بالي . . أنا أخبرك بما سيحدث ، أولاً لن يستطيعوا أن يعيشوا هذه الروحية وهذا الصفاء أبداً، لأنهم لا يؤمنون بشيء غير المادة . . وثانياً ستكون أرقام المشاكل والجرائم الناشئة عن السكر والفساد الأخلاقي والاعتداءات بالآلاف، وكثيرون منهم سيتركون المكان قبل الوقت المحدد . .

ـ والأهم من ذلك يادكتور؛ الصراعات التي ستكون بينهم على استغلال الحج للأغراض السياسية . . لا بد أن الدول الغربية ستهتم بهذا الموسم إلى حد بعيد، والشركات التجارية طبعاً . .

فكرت لماذا لا تهتم حكومات بلادنا الإسلامية باستغلال الحج؟

السبب أنها لا تستطيع، فهو حج الشعوب ولا خبز للأنظمة فيه . . لذلك لا يعنيها منه إلا الجانب الأمني فقط، فعندما تجتمع الشعوب يكون أمن الأنظمة غير الشعبية هو القضية . . ألا تلاحظ يا دكتور، أن الدولة المضيفة التي هي أقدر الدول على استثمار الحج، يسيطر عليها هاجس الأمن من الحجاج، ولا يعنيها من أمرهم شيء آخر أبداً . . وأن الحج يهم الأنظمة سلبياً بينما يهم الشعوب ويهم دولتنا الإسلامية إيجابياً . .

ـ إنهم يرسلون بعثات طبية، ولا بد أنهم يستفيدون من موسم الحج في وسائل الإعلام . .

ـ مسألة الحج أكبر من هذا يا دكتور، مسألة الحج لها عمقها العقائدي والسياسي في كل بلد، وعلى صعيد الأمة الإسلامية، ولها قضاياها الكثيرة، ولكن الأنظمة لا تستطيع استغلالها لأنها في واقعها غير إسلامية، لذلك تتعامل مع الحج بخوف، وترسل مع حجاجها جواسيس يراقبون اتصالاتهم وكلماتهم . . الحج مصيبة على الحكومات، فهي لا تستطيع أن تمنعه ولا تستطيع أن تستغله . . وهذا أمر يبشر بالخير . .

واصلا حديثهما عن الحجاج وعرفات حتى وصلا إلى المسجد، فسأله الدكتور

ـ ما معنى مسجد نمرة؟

ـ قالوا اسم للمكان ولا أعرف إذا كان له معنى .

ـ وفي مكان محرابه صلى النبي (ص)؟

ـ نعم .

ـ كان المسجد خالياً تقريباً، ولكن أصغر دخله خاشعاً كأنما يشق صفوف المسلمين ليصل إلى محراب رسول الله (ص)، فصلى فيه ركعتين ودعا، بينما صلى الدكتور خلف المحراب، ولم يرض أن يصلي فيه إلا بعد أن أصر عليه أصغر . .

لم يطيلا زيارة المسجد، واتجها إلى جبل الرحمة، ولكن أصغر ما زال يفكر في النبي (ص): صلىٰ الله عليك يا رسول الله، حضورك في هذا المكان يفرض نفسه . . حجك بالمسلمين . . وخطبتك التاريخية للأجيال، ودعاؤك وضراعتك إلى الله وأنت محرم بين يديه في عرفة . .

نحن اليوم أكثر عدداً يا رسول الله، ولكن ليس لنا خطيب في عرفات نقف تحت رايته، فيخطب بنا ويحدد الموقف الداخلي والخارجي . . ليس لنا قائد يقف في عرفات ويقول نحن المسلمين أمة واحدة، وأعداؤنا أمة واحدة، وموقفنا منهم الجهاد الشامل حتى يحكم الله بيننا وبينهم . . وإذا أراد أحد أن يقول هذا الكلام ويدل المسلمين على طريقك، يمنعونه بكل وسيلة، ويتهمونه بكل عظيمة . .

ـ تصور يا دكتور كم هو الفرق بين حج المسلمين مع رسول الله وفي صدر الإسلام، وبين حجهم اليوم . . هل تدري أنهم كانوا يحجون مسلحين . . وكان موقفهم من أعدائهم واضحاً، وطريقهم في الجهاد واضحاً . . فمتى يأتي ذلك اليوم الذي يقف فيه قائد المسلمين في عرفات، يحدث المسلمين عن وحدتهم وعن جهاد عدوهم كما وقف رسول الله (ص) وكما وقف الأئمة من أهل بيته، والصالحون من أمته . ؟

متى يحج المسلمون مع قائد يعرفهم علىٰ الله تعالى، ويقف في عرفات ساعات متواصلة إلى الله داعياً باكياً كما وقف الحسين عليه السلام؟

أليس من الظلم للإسلام والمسلمين أن لا تقال كلمة الإسلام في هذا الاجتماع العالمي العظيم، ولا تستثمر هذه الفرصة لتوعية هذه الجماهير المؤمنة الطيبة.. ما ذنب هذه الجماهير من أمة رسول الله أن لا نعرفهم طريق الجهاد والشهادة!؟

قال أصغر ذلك، وانفجر بالبكاء وهو يدعو على أعداء الإسلام من الغربيين والشرقيين، والغربيين خاصة.. وظل الدكتور صامتاً يفكر في بكاء أصغر لحالة المسلمين، وفي أفكاره..

*

وصلا إلى جبل الرحمة وظهر لهما من قرب.. إنه يختلف عن كل جبال المنطقة، فهي صخرية داكنة تضرب إلى السواد، كان الجبل منها صخرة واحدة من قاعدته إلى قمته أو قممه المسننة.. وجبل الرحمة من بينها يضرب لونه إلى البياض وهو مجموعة صخور كروية ضخمة استقرت على بعضها فكانت جبلاً، كأنما جيء بها من مجاري أنهار العالم، وأقيمت منبراً لملائكة عرفات، ولمن يريد أن يشرف على ساحتها جميعاً..

مباركة أرضك يا عرفات، وسماؤك.. وهذا النسيم الرباني فيك فوق جبل الرحمة، وفوق حقول الخيام ينساب على قلوب الذين حطوا فيك الرحال. مت الناظر إلى عرفات من جبل الرحمة.. في امتداد سهلها نحو المشعر، وإلى يمينها الذي تحرسه جبال بعيدة.. وإلى يسارها المفتوح باتجاه الكعبة.. ويجب أن يطيل الصمت والتأمل، فجلال عرفات بليغ، وهو

يخاطبك بلغة تستعذب معها الصمت والإصغاء. . حديث الماضي منه عذب كحديث الحاضر والمستقبل، فهو جلال يشرف على مراحل الزمن، وهي جميعاً محرمة في ساحته. .

أيها الذين لا تعرفون جلال الإيمان، تعالوا انظروا إلى عرفات. .

إن كنتم لا تستطيعون التجرد من أثقال الطين وقيوده، فارفعوا رؤوسكم قليلاً وانظروا ماذا يحدث لمن يتجرد. .

تعالوا انظروا إلى ربوات آدم وإبراهيم، تهفو إليها شعوب الأرض وتملأ رحابها، تاركة وراءها الأهل والمال والوطن، ساعية إليها بثوبين أبيضين وقلوب أشد بياضاً. .

انظروا إلى أمة رسول الله في عرفات، تزاحم ملائكة السماء في إيمانها وإشراقها، جاءت إلى ربها ملبية خاشعة، وحطت رحالها في فنائه، تخفق قلوبها بذكره ملء السهل والجبل، آناء الليل وأطراف النهار، همها الأول والأخير أن يقبلها الرب الرحيم، أن يقبل إحرامها وسجودها والدعاء. . وماذا أعظم عند القلوب الواعية من أن ينظر إليها ربها نظرة رحيمة. .

الناسُ يُخْلِدون إلى الأرض ويرسفون في قيود الطين، وأهل عرفات ترف أرواحهم مع ملائكة السماء، وكل الجمال في السماء، وكل الخير من السماء. .

*

قال الدكتور:

ـ الحج أمر عظيم يا أصغر. . وهذا الاجتماع الهائل أو المدينة العالمية حسب تعبيرك؛ من أي ناحية فكرت فيها وجدتها غنية. .

كل الخطوط التي ذكرها عالم القافلة موجودة في عرفات، وأكثر منها. .

مظاهر الولاية لله تعالى ومعانيها . . ومظاهر البراءة ممن سواها ومعانيها . . حتى الخيام ياأصغر، نوع من الإحرام والبراءة من بيوتنا . . وحتى منطقة مكة جعلها الله عمداً بعيدة عن مباهج الدنيا، في نوع من الإحرام . .

ومسألة التدريب على القانونية والتمدن واضحة أيضاً في عرفات، فكل شيء له أحكام شرعية، حتى الأمور الصغيرة والعادية، مثل حك الجسد ووضع اليد على الرأس . . وكل الحجاج يتعاملون مع هذه القوانين الدقيقة بتقوى عالية، حتى أبناء القرى والأرياف، بل قد يكونون أدق تعاملاً وأرهف إحساساً كما يقول عالم القافلة . .

ومسألة معالجة الكبرياء وغرس التواضع والعبودية لله تعالى، واضحتان في عرفات وقاصديها . .

ومسألة وحدة المسلمين في الزي والخيام والعبادة، والتوجه إلى الرب الواحد عز وجل . . وقد لاحظت مسألة الرمز في عرفات أيضاً يا أصغر . . فعرفات ترمز إلى موقف الإنسان للحساب في الآخرة، وترمز إلى تلقيه رحمة الوجود، ودخوله في الحياة كما يقول العالم، وترمز إلى أمور أخرى كثيرة، حتى اسمها حسب ما أفهم يرمز إلى معرفة الله تعالى، وتعارف الناس فيما بينهم . .

معان عظيمة وكثيرة من كل ناحية في هذا المشهد يا أصغر.

ـ ومعاني الغيب يا دكتور، وهذا النور الرباني الذي يجلل السماء والجبال والخيام والناس، وما لا يعلمه إلا الله مما يجري اليوم وغداً في عرفات . .

ـ نعم هو كذلك . .

ـ والمعنى العسكري يا دكتور . . ألا ترى أن عرفات معسكر إلهي، وأن

المسلمين أجابوا نداء الحج إلى النفير، وتوافدت قواتهم إليها من كل فج عميق معلنين البراءة من أعداء الله وأعدائهم . ؟

كل المعاني التي تفضلت بها يا دكتور مهمة ، ولكن ألست معي في أن أبرز معاني هذا الاجتماع العظيم، هي المعاني العبادية السياسية التي تمس واقع المسلمين في العالم . . ماذا يريد الله تبارك وتعالى أن يقول للمسلمين في الحج وفي ساحة عرفات . ؟ أشعر والله يا دكتور أن هذا المشهد يصرخ في المسلمين قائلاً : هذا ربكم عز وجل وهذا عطاؤه بغير حساب . . وهذا نبيكم وأئمتكم وموقفهم في عرفات . . وها أنتم خير أمة أخرجت للناس، فانهضوا ووحدوا صفكم ، وجاهدوا عدوكم ، وأقيموا حكم الله في الأرض . .

أليس مما يبكي ويدمي القلب يا دكتور، أن المسلمين يجتمعون هذا الاجتماع العظيم وفيه كل مقومات الوحدة والجهاد، ثم لا يخرجون بنتيجة مباشرة ترهب عدوهم . . والله لو أدير الحج إدارة إسلامية لهز الغرب والشرق، ولكن المصيبة في الحكام المنافقين، الذين لا يريدون أن يسلكوا طريق الإسلام ، ولا يسمحون لشعوب المسلمين أن تسلكه . .

ـ أفكارك رائعة يا أصغر، وقد استفدت منها . . إنك تنحو دائماً المنحى العملي في الأمور، ونظراتك نافذة وصافية . .

وتواصل الحديث بينهما حتى غربت الشمس، وانطلقت أصوات المكبرين في سماء عرفات ، يرفعون الأذان من فوق جبل الرحمة ومن على سفوحه ، ومن أمام الخيام ، ومن مآذن مسجد النمرة . . كل اللهجات من أبناء شعوب الأمة تصدع بالحقيقة الواحدة الخالدة «الله أكبر» .

صليا المغرب والعشاء مع المصلين على قمة جبل عرفات . . كانت صلاة

ذات معان جديدة، أحب الدكتور لو أنها طالت لينعم فيها بهذا الشعور الحبيب بأنه واحد من مليون أومليونين، يقفون الآن بين يدي الله في عرفات محرمين مصلين، فتتنزل عليهم ملائكته بالرحمة الغامرة، الغامرة . .

وانصرف المصلون عن الجبل ولم يبق إلا أفراد، ولكن أصغر ما زال جالساً بعد صلاته يتمتم ويرمق السماء ودموعه تنهمل . . انتظره الدكتور، ثم قال له :

ـ أرجو أن ترفع صوتك بالدعاء حتى أدعو معك . .

فرفع أصغر صوته قليلاً، وكان دعاؤه شكوى إلى الله بالفارسية والزفرات والدموع . . إلهي، إنهم يريدون أن يحجبوا نورك عن المسلمين، لقد اتفقوا مع أعدائك الكفار على أن يقفوا في وجه حركة الإسلام في كل بلد، ويقضوا على كل من يدعو أمة نبيك إلى مجاهدة أعدائها . . سجونهم منهم مليئة، وأيديهم بدمائهم ملوثة، وشرطتهم تطاردهم ليل نهار، وترعب عوائلهم وأطفالهم . .

إلهي، إنك تعلم أن أكثر الناس مظلومية في الأرض، هؤلاء الذين يريدون إقامة حكمك في بلادهم، فهذا ذنبهم وهذه جريمتهم، ومن أجل هذا يصبون عليهم أنواع الظلم والاضطهاد . .

إلهي، إن ذنبنا عندهم أننا أقمنا دولة إسلامية، وأننا نمنع نفوذهم في شؤون بلدنا، ونريد للمسلمين أن يفعلوا مثلنا . . وها هم يتألبون علينا كما تألبت الأحزاب على رسولك في المدينة . . إنهم يقتلون شبابنا ونساءنا والطفل الرضيع، ويحاربوننا بكل وسيلة، ويشوهون سمعتنا في العالم، وعند المسلمين . .

سبحانك يا إلهي ما أعظمك وأحلمك . . فانصرنا على أعدائك، وانتقم لنا منهم . . يا من تنزل على عبادك الرحمة في عرفات، أنزل علينا رحمتك، واكتب

لنا النصر . . وأنزل على قلوب عبادك المسلمين في عرفات نوراً يرون فيه الأمور رؤية صحيحة، وأعطهم قوة على قول الحق والعمل به، واجعلهم يعودون إلى بلادهم ويعملون بهذا النور وهذه القوة، وينشرون النهضة في أقوامهم . .

إلهي إن الظالمين يمنعوننا أن نقول للمسلمين كلمة الحق، وأن نرفع أصواتنا بالبراءة من أعدائك . . يمنعوننا أن نقف بين المسلمين ونحدثهم، أو نعطيهم كتاباً أو ورقة، ويؤذون من يتصل بنا منهم . . بالأمس اعتقلوا أشخاصاً لا ذنب لهم إلا أنهم زاروا بعثة الإمام، ولا بد أنهم يكتبون عنهم إلى حكوماتهم . .

إلهي يا نصير المظلومين ويا منتقماً من الظالمين، انصرنا على طواغيت الشرق والغرب وانتقم منهم . .

. . وطالت دعوات أصغر ونفثات صدره وأنات قلبه، والدكتور يتابعه تارة، ويفكر فيه وفي دعائه تارة . .

خيم على جبل الرحمة السكون، وعلى حقول الخيام الشاسعة، وبدا للدكتور أن لا حركة في عرفات إلا صوت أصغر، يقرأ صفحات شكواه ويرفع معها الأنين والدعوات . . وإلا حفيف شجرة جبل الرحمة تؤمّن على دعائه . . وقال في نفسه إن هذا الملاك الطاهر يقدم إلى ربه تقريراً عن أوضاع المسلمين يستحق أن يكون باسم كل الحجاج، وأن ترفعه الملائكة في موكب إلى السماء . .

وختم أصغر شكواه بالعربية، ففاضت معه دموعه، كأنما كان يعبر عن خلاصة زفراته:

«اللَّهُمَّ إنَّا نَرْغَبُ إلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ تُعِزُّ بِهَا الإِسْلاَمَ وَأَهْلَهُ، وَتُذِلُّ بِهَا الْكُفْرَ وَالنِّفَاقَ وَأَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنَا فِيهَا مِنَ الدُّعَاةِ إلَىٰ طَاعَتِكَ وَالْقَادَةِ إلَىٰ سَبِيلِكَ، وَتَرْزُقُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . .»

وخرَّ ساجداً وأطال السجود، ثم نهض،وانحدرا عن جبل الرحمة صامتين في سكون عرفات وجلالها . .

*

في طريق عودتهما سألا شرطياً عن الشارع رقم ثمانية فأرشدهما، فمشيا طويلاً حتى تبين لهما أن إرشاده كان خاطئاً، فأخذا يسألان ويمشيان ولكن بدون نتيجة، فقررا أن لا يسألا هؤلاء الشرطة أبداً . . وبينما كان أصغر يتكلم بعربيته الضعيفة مع أحد الحجاج يسأله عن الشارع وعن خيام الإيرانيين إذ قال له بتلهف: نعم أنا أعرفها وأدلك عليها ولكن اصبر لحظة من فضلك، وذهب مسرعاً إلى خيمة في جانب الطريق ،وعاد ومعه شخص آخر فسلم عليهما، ومشوا جميعاً . .

قال لأصغر هامساً ـ نحن يمانيون من صنعاء، وهذا صاحبي له اطلاع على أمور الدين ويحب الإيرانيين كثيراً، ويريد أن يلتقي بهم ويسألهم عن الأحاديث الشريفة ،التي تقول إنه يخرج قائد من اليمن ويدعو المسلمين إلى الإسلام . . كنا نريد أن نذهب إلى مركزكم في مكة، ولكن الظروف كما تعرف، لذلك اغتنمنا هذه الفرصة لنمشي معكم ونسألكم . . فرحب بهما أصغر وشكرهما وقال:

ـ لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل، ولكن أدعوكما إلى قافلتنا ،لتلتقيا بعالم له اطلاع على الموضوع . .

فشكره اليماني وقال:

ـ نحن نمشي أمامكما حتى إذا وصلنا إلى خيام الإيرانيين مشيتم أمامنا؟

ومشى اليمانيان يتبعهما أصغر والدكتور وهما يتعجبان من أمرهما.

قال أصغر: ـ إن زيارتها لقافلة إيرانية عمل يحتاج إلى شجاعة يا دكتور، إنه يعرضهما للاعتقال هنا أو في بلدهما . .

*

دخلوا إلى خيام القافلة، فوجدوهم يتناولون طعام العشاء، فرحبوا بهم وأجلسوهم قرب عالم القافلة، لتناول طعام عرفة الخراساني . .

*

كان أحمد اليماني طالب علوم دينية يدرس الفقه والحديث عند العلماء، وقد ارتاح عالم القافلة لأسئلته واطلاعه على الحديث الشريف . . وكان حسين يترجم خلاصة الحوار بينهما لمجموعة الحجاج الذين جلسوا حول العالم . .

قال له: ـ نعم إن أحاديث خروج اليماني عندنا متواترة، ورايته راية هدى، وهو يتعاون مع الخراساني في نصرة المهدي المنتظر أرواحنا فداه . .

ـ فلماذا لا نجد أحاديثه في الصحاح الستة . ؟

ـ وهل الصحاح الستة فيها كل شيء!؟ إن حديث رسول الله (ص) كثير، وقد قام هؤلاء المؤلفون بتأليف مجموعات منه، وأفتوا بأنها أحاديث صحيحة، ولم يقل أحد منهم أو من غيرهم إن ما عداها غير صحيح . .

البخاري مثلاً أخذ من مصنفات شيوخه، وقد وصل إلينا بعضها، مثل مصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة، ولعل كل واحد منهما أكبر من صحيح البخاري . . فهل نترك كل ما لم يرد في هذه المصادر لأن مؤلفيها لم يوردوه . .

ـ أنتم عندكم سنّتان، سنة رسول الله (ص) وسنة الأئمة الاثني عشر، وكل منهما صحيحة؟

ـ عندنا سنة واحدة هي سنة رسول الله (ص) وأحاديث الأئمة من أهل بيته عليهم السلام حجة لأنها سنة النبي(ص)، ولأنهم صادقون مطهرون، لا يقولون حرفاً من عند أنفسهم . .

ـ وأحاديث اليماني وردت عندكم مسندة إلى الأئمة أو إلى النبي (ص)؟

ـ منها ما ذكر سنده إلى النبي (ص) ومنها ما ذكر إلى أحد الأئمة عليهم السلام، وكل أحاديثهم كما ذكرت لك تنتهي إلى جدهم رسول الله(ص)،وقد وردت أحاديث اليماني أيضاً من طرقكم أيها الأخ في الصحاح الستة، وفي مصنفات شيوخهم مثل عبد الرزاق وابن أبي شيبة . . وابن حماد وغيرهم . .

ـ ماذا تقول هذه الأحاديث . ؟

ـ تقول إنه رجل يخرج في صنعاء ويحكم اليمن،ويكون له دور في سياسة المنطقة، ويدخل بجيشه إلى العراق والشام، ويتعاون مع رايات خراسان في تمهيدا المنطقة لحكم الإمام المهدي أرواحنا فداه . .

فشكره الطالب،واتفق معه على أن يرسل له بعض مصادر الحديث، فقال له العالم:

ـ نحن نحبكم أيها اليمانيون،ونأمل أن تتحقق هذه الأحاديث الشريفة في وقت قريب،وأن نتعاون معكم في إنهاض المسلمين وجهاد عدوهم . .

ـ إن شاء الله . . ونحن نحبكم كثيراً يا قوم سلمان الفارسي، فادعوا لنا الله . .

ودارت بينهما وبين أصغر والحجاج أحاديث متنوعة، وارتاح اليمانيان لروحهم الإسلامية،وقررا أن يبقيا لاستماع محاضرة العالم، على أن يترجمها لهم حسين . .

في عرفات مع الأنبياء والأئمة

بدأ عالم القافلة بآيات عن الحج ، وشرح لهم نعمة وجودهم في هذه المنطقة المقدسة ،التي جعلها الله مناسك لحج بيته منذ خلق الأرض ،ومنذ أسكن فيها آدم وذريته . . وذكر لهم حج أبوينا آدم وحواء وموقفهما في عرفات والمناسك وطوافهما حول البيت . . وأنه ما من نبي إلا وحج هذا البيت وأدى هذه المناسك ،ولكن كانت تمر فترات يكاد ينسى فيها البيت ،حتى جاء إبراهيم عليه السلام ، ورفع قواعده وجدد بناءه وأذّن في الناس بالحج ،وحج هو وإسماعيل وهاجر ،ووقفوا في عرفات كما نحج نحن اليوم . . وأن النبي(ص) أعاد الحج إلى ملة جده إبراهيم ، وأزال ما كانت أحدثته فيه الجاهلية . .

ولكن حديث العالم تركز على وصف حج إبراهيم (ع) وحج النبي (ص) وحج المهدي المنتظر (ع) فرسم ذلك بأسلوب مؤثر جعل الحجاج يعيشون معهم مواقفهم وإخلاصهم لله تعالى . .

قال :

تصوروا إبراهيم عليه السلام . . شيخ بهي الطلعة قوي البنية قارب المئة عام ، يمشي من مكة محرماً ومعه ولده إسماعيل وأمه هاجر ، وربما كان معهم أفراد قلائل ، وقد وصلوا إلى عرفات ليبدأوا منها مناسك حج البيت . .

كان هذا الحديث قبل حوالي أربعة آلاف سنة ، ولكن الله تعالى جعله حياً خالداً كأنما هو بالأمس ، لأنه جعل إبراهيم إماماً للشعوب والأجيال . .

إبراهيم عليه الصلاة والسلام مؤسس. . فهو الذي أرسىٰ التوحيد في الأرض. . وأسس أمماً ونبوات. . وأسس الحج إلى بيت الله. . وأسس أمة خاتم الرسل (ص) واختار لنا اسم الأمة المسلمة. .

إبراهيم أبو الأنبياء والأمم. . وصاحب الملة الحنيفية التي دعا إليها الأنبياء وخاتمهم نبينا (ص) فاعرفوا علاقتكم به أيها الأعزاء. .

روحي لك الفدا يا خليل الله، كأني بك في خيمتك المتواضعة في عرفات وقد جلس خلفك ولدك وزوجتك، وأنت تنظر تجاه الكعبة وترمق إلى السماء وتدعو الله تعالى للأمة الخاتمة «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمْ. . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمْ»

لقد كنت على موعد من الله بهذه الأمة ورسولها. . وقد أنجز لك وعده وأخرجها للناس، وها هي اليوم تملأ عرفات وبلدان العالم، ولكن ادع لها يا خليل الرحمان أن يوفقها الله وينجز لها وعده فيظهر دينها على الدين كله، ويجعلها الشاهدة على أمم العالم. .

نحن أيها الأعزاء الأمة الموعودة من الله تعالى لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأولى الناس به وبمكة التي جددها وبالقدس التي أسسها، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ واللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» ولكن بشرط أن ننهض لله ونخلص.

ينبغي أن نتعلم من أبينا إبراهيم عليه‌السلام ،أن نصدع بالحق كما صدع في بابل وكسر أصنامهم، وأن نتعلم منه الصبر على أذى الطواغيت والتشريد

والغربة كما تحمل في نفيه من العراق وهجرته إلى مصر وفلسطين . . والأهم من ذلك أن نتعلم منه ومن إسماعيل وهاجر، التضحية بالنفس والولد في سبيل الله . .

حسب ما أرى أيها الأعزاء، إنكم من هذا الشعب المسلم المضحي والمستعد للتضحية والحمد لله، فهنيئاً لكم . . أرجو أن تفكروا جيداً في تضحية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأن تحرصوا على الصلاة في مسجده المقدس، مسجد الخيف بمنى، ولا تنسوا الدعاء للشهداء المضحين، ولآبائهم وأمهاتهم وعوائلهم . . أيها الآباء والأمهات الأعزاء، إنكم على سنة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام، في تضحيتكم بشبابكم في جبهات الحق، فاشكروا الله على هذه النعمة وادعوا لنا .

وتابع عالم القافلة :

هل تعلمون أين وقف رسول الله (ص) في عرفة . . ها هنا في نمرة، في المكان الذي أقيم فيه المسجد . . خرج من المدينة روحي له الفدا قبل يوم عرفة بنحو أسبوعين، ومعه عشرات الألوف من المسلمين، وقطعوا الطريق في نحو عشرة أيام، وفي مثل هذا اليوم أحرموا للحج من مكة، وباتوا ليلتهم في منى في طريقهم إلى عرفات . .

في ضحى الغد، دخل روحي له الفدا إلى عرفات ومعه جموع المسلمين ملبين، وخطب فيهم خطبته الشهيرة، وهو راكب على ناقته القصواء، وكان بعض المسلمين يردد كلماته المقدسة من بعده، يرفع بها صوته حتى تسمعها جموع المسلمين . .

ليست هذه هي الخطبة الوحيدة في حجة الوداع، فقد خطب صلى الله

عليه وآله خمس خطب غيرها أيضاً: الأولى في السابع من ذي الحجة في مكة، والثانية خطبة عرفات هذه، والثالثة يوم عيد الأضحى في منى، والرابعة في ثاني العيد بمنى، والخامسة يوم النفر الأول بمنى، والسادسة يوم الثامن عشر من ذي الحجة في غدير خم، في طريقهم إلى المدينة، وهي خطبة عيد الغدير بولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

كانت حجة الوداع مباركة مليئة بتشريعات مناسك الحج، وكل ما هو ضروري للمسلمين في علاقاتهم الداخلية وقيادتهم السياسية.. وقد روى المسلمون مئات الأحاديث الشريفة عن النبي (ص) في حجة الوداع..

كان روحي له الفداء يودع المسلمين ويوصيهم، وكان يودع الدنيا وحياته المباركة فيها، وكان يتودع من عبادة ربه، من الطواف حول بيته، والصلاة والدعاء بين يديه.. وقد حفظ المسلمون كثيراً من أدعيته خاصة في المناسك وعند الكعبة..

هنا في عرفات علّم المسلمين ذكر الله تعالى والدعاء فقال فيما قال: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ فِي عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا والنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرْ..

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ كَمَا تَقُولُ وَخَيْرُ مَا يَقُولُ الْقَائِلُونْ..

اللَّهُمَّ لَكَ صَلَاتِي وَدِينِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي، وَلَكَ تُرَاثِي، وَبِكَ حَوْلِي وَقُوَّتِي..

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلَامِي وَتَرَىٰ مَكَانِي، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي وَلَا يَخْفَىٰ

عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي . . أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ، الْوَجِلُ الْمُشْفِقُ، الْمُقِرُّ الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ . .

أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ، وأبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيعِ ، دُعَاءَ مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ ، وَفَاضَتْ عَبْرَتُهُ ، وَذَلَّ لَكَ جَسَدُهُ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ . .

اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي بِدُعَائِـكَ شَقِياً، وَكُنْ بِي رَؤُوفـاً رَحِيمَـاً . . يَـا خَيْرَ المَسْؤُولِينَ وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِين . . »

وحفظ لنا المسلمون الكثير من خطبته التي خطبها قبل صلاة الظهر، والتي قال فيها :

«رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ، وَبَلَّغَهَا إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ . .

ثَلاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ : الإِخْلاَصُ للهِ تَعَالَىٰ ، والنُّصْحُ لِلْمُسْلِمِينَ وَاللُّزُومُ لِجَمَاعَتِهِمْ . .

أَلاَ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا . . أَلاَ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ ، وَإِنَّ رِبَـا الْجَاهِلِيَّـةِ مَـوْضُـوعٌ ، وَأَوَّلُ رِبـاً أَضَـعُ رِبَـا عَمِّيَ الْعَبَّـاسِ بْنِ عَبْـدِ الْمُطَّلِب . . » .

روحي لك الفداء يا رسول الله ، لقد شهدت منك عرفات مشهداً ما زال خالداً ولن يـزال إلى يوم القيـامة ، تحفـظه عنك أرضهـا وجبالها وسماؤهـا وملائكتها وقلوب المؤمنين بك من أجيال أمتك . .

كل من رآك من المئة ألف مسلم وأكثر، من الذين حجوا معك ، وكل من قرأ

عن حجة الوداع التي ودعت المسلمين فيها، يشعر بأن لك همّين اثنين عملت جاهداً لتحقيقهما. . الهم الأول، أن ترسي أسس وحدة هذه الأمة واستمرارها. . والهم الثاني، أن تعمق فيها علاقتها بربها عز وجل، وتعلمها عبادته والخشوع بين يديه. . فكل عملك منذ أن دعوت المسلمين من أنحاء الجزيرة، ليحجوا معك حجة الوداع، وفي مسيرك بهم إلى مكة، وفي أدائك المناسك ورجوعك. . كان من أجل هذين الهدفين العظيمين. .

أيها الأعزاء: هذا رسول الله (ص) واقف في عرفات، ينزل عليه جبرئيل بالوحي وأفواج الملائكة. . وها هو على ناقته يخطب في المسلمين يقول لهم احفظوا وحدتكم، أطيعوا أمري ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ويتسلط عليكم عدوكم. . ثم يصلي بهم صلاة الظهر والعصر جمعاً وقصراً بأذان واحد، يخفف بالصلاة من أجل الدعاء، لأن يوم عرفة يوم دعاء ومسألة. . ثم يدعو الله تعالى معهم، ثم يدعوه في خيمته دعاء الخاشع السائل، ودموعه تجري على خديه، حتى تغيب الشمس، فيفيض من عرفات وهو يدعو رب العالمين ويبكي من خشيته. .

هذا الهواء الذي تتنفسونه في عرفات أيها الأعزاء، مفعم بروح رسول الله وعطره. . فاستنشقوا بأرواحكم عبير خاتم الرسل. . وهذه أنواره تملأ عرفات فنوروا نواظركم وقلوبكم. . وهذه كلماته تدوي في جنباتها، وفي بلاد المسلمين. . وهذه ملائكته التي تنزلت عليه وشهدت على تبليغه الرسالة، وصعدت بأعماله ودعواته إلى الله، ما زالت تنزل في عرفات، تصلي حيث صلى وتبارك على أمته. .

روحي لك الفداء يا رسول الله، أشعر بأنك من مقامك المحمود عند ربك

تشرف كل عام على المسلمين في عرفات، وتخاطبهم عن وحدتهم وعن التوجه إلى ربهم عز وجل.

أنا أجيبك يا سيدي عن مسلمي إيران، فقد نهضوا بعد انتكاسة الأمة وضياعها قائلين لبيك يا رسول الله.. وها هم يحفظون وحدتهم كما أمرت، ويدعون المسلمين إلى توحيد أنفسهم في مواجهة الكفر العالمي.. وها هم يتوجهون إلى الله تعالى ويقيمون له الصلاة، ويؤدون الزكاة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويضحون بأنفسهم في سبيله.. وهذا وفدهم في عرفات يا نبي الرحمة يشم عطرك، ويستضيء بأنوارك، ويتعلم منك الخشوع والدعاء..

إني لآمل لكم أيها الأعزاء، أن تكونوا مرضيين عند الله تعالى وعند رسوله وحبيبه محمد (ص) وعند رسوله وخليله إبراهيم (ع)، وأرجو أن يفكر الواحد منكم في هذه الليلة وغداً بأنه واقف في عرفات بين يدي الله العظيم تبارك وتعالى، في موقف آبائه وأنبيائه وأئمته صلوات الله عليهم. في موقف آدم وحواء ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وأهل بيته الطاهرين، ولكن هل تعرفون مَن مِن الحجاج في هذه الليلة ونهار غد يعرف الله تعالى حق معرفته، ويعيش هذه المعاني في عرفات كما يجب، ويدعو الله لكم وللمسلمين.؟

هل تعرفون أن لله في الأرض ولياً يشرق قلبه بنوره ونور رسوله، وأنه يعيش في الأرض بين الناس، عيشة متواضعة ولا يعرفونه.؟

هل تعرفون أن لله تعالى ولياً من عترة نبيه ادخره لكي يصلح به الأرض في الوقت المناسب، ويظهر به نوره في كل أرجائها.. وأنه في كل عام يحضر الموسم ويحج لله تعالى، وأن كثيراً من الناس عندما يظهر يقولون هذا الشخص نعرفه، لقد رأيناه من قبل.؟

أيها المولى الغائب. . أيها النور المضيء. . أيها المصلح الذي ينتظر أمر ربه. . أيها المحرم في عرفات في خيمة متواضعة يجهلها أهل الأرض ويعرفها أهل السماء. . سيدي، عرفات في انتظارك. . منبر جدك في عرفات ومنى والمسجد الحرام في انتظارك. .

معرفتنا يا سيدي لا تبلغ قطرة من معرفتك، ولكنا نرى أن الوقت قد حان لظهورك. . نعم نعرف أن الكفر في العالم سيقف وقفة واحدة في مواجهتك، وأن أمة جدك (ص) مجزأة مشتتة، وأن المنافقين الذين يحكمونها سيقفون مع الكفر العالمي ضدك. . ولكن لك من جماهير المسلمين أنصاراً كثيرين يحبونك ويؤيدونك، ويضحون بأنفسهم دونك. . لك في بلدنا على الأقل عشرون مليوناً يفرحون بالشهادة بين يديك. .

روحي لك الفداء، لا نعترض على حكمة الله وإرادته، فهو يعلم عز وجل متىٰ يجب أن تبدأ رحمته على أهل الأرض ونقمته من طغاتها، متىٰ يهيئ لك الأسباب ويلهمك أن تبدأ العمل. . ولكنا نتلهف إلى ظهورك يا بن رسول الله، وندعو بذلك، ونريد منك في عرفات أن تدعو الله أن يعجل فرج العالم على يدك، وأن يكثر أنصارك ويجعلنا في أولهم. .

الذين يأتون منا إلى الحج وإلى عرفات، تنبض قلوبهم أكثر بحبك والتلهف إليك يا بشارة رسول الله، لمعرفتهم أنك تكون في الحج كل عام. . نحن لا نعرف يا سيدي ما هي الأعمال التي تقوم بها في غيبتك، في بلاد المسلمين وفي أنحاء العالم وفي موسم الحج، فأمثال هذه الحكم والأسرار الإلهية يصعب استيعابها حتى تنكشف. .

الخضر عليه السلام كان يقوم بمهماته الكبيرة في الأرض، ولم نكن نعرفها حتى كشف الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام جزءاً منها. . ومهمتك يا بقية الله

أعظم من مهمة الخضر . . لا بد أن أعمالك كبيرة وكثيرة أيها المولى، أنت وأصحابك من أولياء الله، الغائبين مثلك عن أنظار الظالمين . .

ولكنا نعرف يا سيدي أنك في عرفات، تعيش مع الله تعالى ومع أنبيائه . . مع جدك إبراهيم خليل الله، ومع جدك محمد حبيب الله، ومع جدك الحسين الشهيد المظلوم . . تقتدي بهم وتدعو الله وتناجيه في عرفات، وبخشوع وإخلاص لا مثيل له في الأرض . . وأن كل دعواتك من أجل أمة جدك (ص) .

*

آوى الدكتور إلى فراشه وهو يفكر في أمور عرفات الجديدة . . في جولته مع أصغر، وفي تفاعل الحجاج مع حديث عالم القافلة عن حج الأنبياء والأئمة، وكيف حمل كل منهم سجادته بعد الدعاء وتوزعوا بين الخيام يصلون لله صلاة الليل ويدعونه، وبعضهم ما زال يصلي ويدعو هنا في الخيمة، دون أن تسمع لهم حساً أو حركة . . لقد خفت أرواحهم والأجساد . .

كان ينظر إلى سقف الخيمة ويفكر في هذه السعادة، التي تملأ أنفس الجميع وأجواء عرفات، ويقول في نفسه آه أين كنت عن هذه السعادة الحقيقية، إني لم أشعر بالسعادة في مبيت وفراش طول حياتي، كما أشعر في المبيت على فراشي هذا، على هذه البطانية والحصير، على رمال عرفات . . أشعر بأني في مكان يوجد فيه كل شيء . . فأنا في عرفات مع مئات الألوف المحرمين لله فيها، الساكنين في خيامها أو تحت سمائها . . وما يجري الليلة في غيب الله وسماواته فيه الكثير الكثير من أجل أهل عرفات . . وغداً في الموقف يقبل الله التوبة ويعطي بلا حدود . . اللهم يا رب سماء عرفات ونجومها وملائكتها وخيامها، اقبل توبتي وأعطني بلا حدود . . إن رجائي لك هذه الأيام أعظم من خوفي، وأنا مطمئن إلى ذلك وسعيد به . .

*

مع الحسين في عرفات

للجسم حالات ازدهار تطول أوتقصر، يشعر أحدنا فيها بحيوية خاصة تملؤه وتسري في عروقه. . وللروح حالات ازدهارأيضاً، نشعر فيها بأننا نعيش الحياة والوجود بأعمق ما يكون وأوضح ما يكون. .

وفي يوم عرفة يجتمع للإنسان ازدهار الجسم والروح معاً، أو يكون له ازدهار الروح فتحمل بأشواقها الجسم وتنسيه التعب. .

ظروف السكن في عرفات غير مؤاتية، وحر الحجاز لا يسمح لك أن تقف على رماله، ولا أن تطيل الوقوف تحت شمسه حاسراً. . ولكن من يلتفت إلى ذلك في عرفات. ؟ فالروح ترفل في نعمة الإحرام والخشوع، وتتوثب إلى نعم المولى بلا حدود. .

منذ حلوا في عرفات شفت منهم الأرواح وخفت الحاجات، والخراساني بالأصل خفيف المؤونة مرهف الروح، وها هو يتهيأ بالصلاة والقرآن والحنين، لأذان الظهر وإعلان الملائكة عن بدء الموقف العظيم، حيث تفتح أبواب السماء على مصاريعها بالرحمة النازلة، والدعوات الصاعدة. .

كانوا قدموا لهم الغداء قبل الظهر فتغذت الأجسام وشربت، حتى لا تشغل الروح عن غذائها. . وكانوا حولوا الخيام إلى خيمة كبيرة، أدى فيها الجميع الصلاة وجلسوا للدعاء، فيوم عرفة يوم دعاء ومسألة، كما قال رسول الله

(ص) وهم يستعدون أن يعطيهم العالم التوجيهات لكي يعيشوا مع أدعية النبي (ص) ودعاء ولده الحسين عليه السلام . .

جاؤوا للعالم بمكبر الصوت، ولكنه بقي متوجهاً نحو القبلة، وقال بصوت متهدج : بسم الله الرحمن الرحيم . ماذا أقول أيهاالأعزاء،ها نحن في عرفات بين يدي الله العظيم سبحانه، وحيث وقف بين يديه الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وحيث يقف معنا اليوم بقيتهم المهدي الموعود أرواحنا فداه . . وسنقرأ أدعية رسول الله (ص) ودعاء أبي عبد الله الحسين عليه السلام . .

فكروا كيف وقف الأنبياء هنا بين يدي الله، خاصة أبونا إبراهيم ونبينا محمد (ص) وكيف دعوا وتضرعوا . . فكروا كيف يقف اليوم صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف وهو يدعو ويتضرع . . فكروا قبل أن تقرؤوا دعاء الحسين عليه السلام وأنتم تقرؤونه ، كيف وقف أبو عبد الله خاشعاً ضارعاً، ها هنا إلى يسار جبل الرحمة وتوجه إلى القبلة، ووقف خلفه أهل بيته وأصحابه، وأخذ يدعو الله تبارك وتعالى ويناجيه، ودموعه الشريفة تنحدر على خديه، وكيف تجمع المسلمون خلفه يدعون بدعائه ويبكون ببكائه، وظل على هذه الحالة حتى غربت الشمس . . جزى الله خيراً أولئك الرواة الذين حفظوا لنا من أدعية النبي وآله (ص).

جزى الله خيراً الذين حفظوا لنا دعاء أبي عبد الله الحسين . .

السلام عليك يا أبا عبد الله، ها نحن يا سيدي نقرأ دعاءك في عرفات، وأبناؤنا في الجبهات يقرؤون دعاءك في كربلاء . . إنهم خير منا، وأقرب إليك وإلى جدك وإلى الله تعالى . .

أنت يا سيدي عرفت الله حق معرفته ودعوته في عرفات فأعطاك من نوره وجلاله . . ودعوته في كربلاء فتقبلك إليه وجعلك نوراً للأجيال . .

أنت علمتنا يا سيدي أن حب الله وعبادته عندما تكون صادقة تصبح حباً للمسلمين وخدمة لهم، ومواجهة للظالمين والمتسلطين عليهم، وتضحية بكل الدماءالطاهرة،حتى دم الطفل الرضيع . .

أنتم يا أهل بيت النبي تعرفون الله العظيم . . وتعرفون كيف تحرمون له وكيف تقفون في عرفات . . ، وكيف تؤدون المناسك، وتزورون بيت الله . . وتعرفون أن أعظم عمل عند الله هو إزالةالطواغيت،الذين يحجبون الناس عن الله تعالى وأنبيائه . .

أما نحن فنريد أن نعبد الله ، ونريد أن يعطينا خير الدنيا والآخرة، من دون أن نحرك ساكناً في مواجهة أعدائه، من دون أن نطلق في وجههم صوتاً، أو يصل إلينا منهم أذى . . نريد أن نكون مسلمين لله ونتعايش مع أعدائه . .

يا أبا عبد الله ، حب الدنيا قتلنا يا سيدي ، ها نحن أكثر من مليون مسلم فيعرفات،نخاف أن نرفع أصواتنا ضد الطواغيت، ونريد من الله أن يعطينا كل شيء . .

نحن بحاجة إلى نفحة من روحك يا سيدي ، من شجاعتك وتضحيتك، وحبك لله تعالى ورسوله . .

إخواني، نحن في موقف عظيم، ولا يليق بنا أن نخدع أنفسنا . . كيف أقول يا رب ها أنا أدعوك بدعاء الإمام الحسين عليه‌السلام،بينما لا يوجد عندي شيء من تضحيته!؟ أما أخاف أن يقول لي ربي: عبدي لماذا تدعي هذا المقام . . الحسين يعرفني وأنت تجهلني، الحسين يعبدني وأنت تعبد الدنيا، الحسين بذل دمه في سبيلي وأنت تخاف أن تبذل أي شيء . . عبدي، ادع بدعاء يناسب أمثالك، ولا تدّع أنك من أتباع الحسين . .

على الأقل يجب أن يكون عندنا رشحة من حب الحسين وأصحابه لله ورسوله، ورشحة من تضحيتهم، حتى نكون أهلاً لأن نقتدي بالحسين ونخاطب الله تعالى بدعائه في عرفات. .

ومع ذلك فنحن الآن بين يدي مولى عظيم، عفوه عظيم، وكرمه عظيم، ورحمته عظيمة، وسعت كل شيء. . واليوم يوم الرحمة ويوم العطاء، فلو أن ذنوبنا كانت كالجبال فإن رحمته أعظم، ولو أن طلباتنا كانت تبدو مستحيلة فان قدرته وكرمه أعظم. . ورد في الحديث الشريف أنه «مَا يَقِفُ عَلَىٰ تِلْكَ الْجِبَالِ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ، فَأَمَّا الْبَرُّ فَيُسْتَجَابُ لَهُ فِي آخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَيُسْتَجَابُ لَهُ فِي دُنْيَاهُ» وقد سمع الإمام زين العابدين (ع) سائلاً يسأل الناس يوم عرفة فقال له «وَيْحَكَ أَغَيْرَ اللهِ تَسْأَلُ فِي هَذَا الْيَوْمِ . . إنَّهُ لَيُرْجَىٰ لِمَا فِي بُطُونِ الْحَبَالَىٰ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يَكُونَ سَعِيداً».

وأفضل الدعاء أيها الأعزاء ما كان لعامة المسلمين ولإخوانكم من المؤمنين. . فقد كان النبي والأئمة عليهم السلام، يدعون في هذا اليوم للمسلمين والمؤمنين، وكان أصحابهم يقتدون بهم في ذلك. . يقول محمد بن أبي عمير: كان عيسى بن أعين إذا حج فصار إلى الموقف أقبل على الدعاء لإخوانه حتى يفيض الناس، فقلت له: تنفق مالك وتتعب بدنك حتى إذا صرت إلى الموضع الذي تبث فيه الحوائج إلى الله عز وجل أقبلت على الدعاء لإخوانك وتركت لنفسك. . ؟ فقال: إني على ثقة من دعوة المَلَكِ لي وفي شك من الدعاء لنفسي. . يشير بذلك إلى الحديث الشريف «مَنْ دَعَا لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكاً يَقُولُ وَلَكَ مِثْلَاهُ».

هنيئاً لمن ينسى نفسه في هذا اليوم ويدعو لأمة رسول الله (ص) وبشكل خاص للمؤمنين العاملين في سبيل الله، وللمعذبين والمضطهدين في سبيل الله،

وللمجاهدين المقاتلين في سبيل الله . . ولقادتهم علماء الإسلام . . هنيئاً لمن ينسى وجوده الصغير، ويعيش أمام الله وجوده الكبير، في أمته ونهضتها وصراعها مع أعدائها . . إخواننا المؤمنون المجاهدون في لبنان وفلسطين وأفغانستان وإيران وبقية بلاد المسلمين هم أنفسنا أيها الأعزاء، وهم أولى منا بالدعاء، فهنيئاً لمن آثرهم على نفسه وبكى إلى الله تعالى من أجلهم . .

*

وحدا الحادي بموكب الخراسانيين في عرفات جلوساً، ووقوفاً، وأحياناً وهم ساجدون . .

مع أدعية النبي (ص) ودعاء الحسين (ع) ومقاطع بالفارسية، فيها الدعاء والزيارة والتعزية . . وفي جميعها خفق القلوب ورفرفة الأرواح والدموع، ثم يعود الموكب إلىٰ النعيم الهادئ يسير إلى الله الهوينا بالحنين، ثم يتفجر خشوعه والرجاء موجة جديدة، تملأ الخيمة من دوي الصدور والضجيج إلى المولى الرحيم . .

كان الدكتور يتابع مع القارئ بالعربية والفارسية، ولكن الأبلغ من ذلك متابعة هؤلاء الرفقاء . . لقد تحول منهم إلى روح ضارعة إلى الله لا تشعر بشيء غيره، ولا تمل من مناجاته والبكاء له . . معنى جديد للدعاء لم يعرفه من قبل، لقد شعر اليوم بحقائق جديدة كبيرة عن الله تعالى والحياة . . وأكثر ما استصغر نفسه عندما وصل القارئ إلى مقطع فقال لهم: اسجدوا واطلبوا حوائجكم، فسجد الدكتور وقال سبحان ربي الأعلى وبحمده ثم سكت . . كان يسمع الحجاج من حوله يطلبون من الله تعالى للإمام وعوائل الشهداء والمقاتلين والمسلمين، فهذه حوائجهم الأهم . . ولكنه لم يشعر بأنها حوائج تخصه إلى هذا الحد، فقال اللهم إني أطلب منك كما يطلب هؤلاء الحجاج الساجدون بين

يديك، فاجعلني مثلهم أشعر بالحاجات العظيمة قبل حاجاتي الشخصية. .

كانت عيناه تدمعان وهو يرى أن القارئ والحجاج يعيشون الحضور بين يدي الله تعالى، وأن مناجاتهم تصعد مع ذوب أرواحهم في سماء عرفات. . ولكن لم يخطر بباله أن الأمر يبلغ أن يغمى على بعضهم من خشية الله، حتى رأى ذلك في عرفات، وكان أول المغشي عليهم الدكتور حسين. . جاء أحدهم من خلفه وقال له: من فضلك يا دكتور، حسين العامل لم يفق معنا، فلو ألقيت عليه نظرة، فنهض مسرعاً إلى طرف الخيمة، ولكن حسيناً لم يحتج إلى إسعافه وأفاق، وظل يبكي ويتكلم عن الله تعالى حتى أبكى رفقاءه والدكتور، وعاد معهم إلى أماكنهم. .

قال في نفسه، إذا قلنا إن حسيناً يعرف العربية ويفهم معاني دعاء الإمام الحسين عليه السلام، فإن الآخرين الذين غشي عليهما لا يعرفان العربية. . المسألة ليست بالفكر واللغة، وإنما حالة عالية من تفاعل الروح لا تتحملها فيزيوية بعض الأجساد. . وأخذ يفكر فيما قرأه في القرآن عن قصة موسى عليه السلام، عندما تجلى ربه للجبل فجعله دكاً، وخر موسى صعقاً مغشياً عليه، أما أصحابه فكانت طاقة تحملهم أقل فماتوا من الصعقة ثم أحياهم الله تعالى. . وأخذ يتساءل عن تجلي الله تعالى في عرفات وإشراقه على قلوب الحجاج، فأحس بوجوده عز وجل يقوى في عقله ووجدانه، وبوجود غيره يضعف حتى يكاد يتلاشى. . أحس بحضوره عز وجل ينبض في ذرات الأرض والسماء والطبيعة، وبأنها جميعاً ظلال له وأشباح حول سراجه ..وقال في نفسه، حقاً ما قاله الشيخ الطبري، فالفيزياء تقول إن الذرة بالنتيجة نوع من الموجات الكهربائية أو الشبيهة بها، ولا بد أنها جميعاً تحوم حول موجة إشراق الخالق ورحمته وتجليه. .

سبحانك اللهم ما الوجود إلا أنت، وما نحن إلا ظلال لوجـودك وإن جهلناك، وإن ابتعدنـا عنك، وإن عصينـاك. . وأحس الدكتـور بأن ذرات وجوده وما حوله تهتز وتشرق بالله تعالى، فبكى بكاء صامتاً وانهملت دموعه ولكنه لم يغش عليه. . ثم عاد يتابع الدعاء مع موكب الخراسانيين. . حتى كان أصيل عرفات فقالوا لهم هذه الفترة لكل واحد بمفرده يدعو هنا أو بين الخيام، حتى تدنو الشمس من المغيب فيقرأ العالم دعاء الإفاضة. .

*

وقف عالم القافلة أمام الخيمة تحت السماء يقرأ دعـاء رسول الله (ص) وأحاطوا به واقفين، والأكف مرفوعة إلى الله، والأرواح ترف إلى الملأ الأعلى مع ملائكة عرفات، وهو يقرأ بالعربية ثم بالفارسية ثم يعيد الدعـاء كما أعـاده الرسول (ص).

«اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَمِنْ تَشَتُّتِ الأَمْرِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَحْدُثُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارْ. . أَمْسَىٰ ظُلْمِي مُسْتَجِيراً بِعَفْوِكَ، وَأَمْسَىٰ خَوْفِي مُسْتَجِيـراً بِأَمَانِكَ، وَأَمْسَىٰ ذُلِّي مُسْتَجِيراً بِعِزِّكَ، وَأَمْسَىٰ وَجْهِيَ الْفَانِي مُسْتَجِيراً بِوَجْهِكَ الْبَاقِي. . يَا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ وَيَا أَجْوَدَ مَنْ أَعْطَىٰ، وَيَا أَرْحَمَ مَنِ اسْتُرْحِمْ، جَلِّلْنِي بِرَحْمَتِكَ وَأَلْبِسْنِي عَافِيَتَكَ، وَاصْرِفْ عَنِّي شَرَّ جَمِيعِ خَلْقِكْ»

كانو يقرؤون دعاء الختام والشمس تهم بالمغيب وتـرسل أشعتهـا هادئـة كدموع الحجاج، تحيي هذا الجلال الخاشع في عرفات، وتفيض أمام الحجاج إلى المشعر ومنى. .

وختموا الدعاء بالمصافحة. . وبدأ التهيؤ للإفاضة من عرفات، إلى مرحلة جديدة.

*

الشمس آذنت بالمغيب، ولكن الحجاج أشرقوا من الخيام، وأشرق الرضا العميق على قسمات وجوههم. . فسرعان ما قوض العمال الخيام وظهرت في أماكنها مجموعات الحجاج، وأخذت عرفات تتحول إلى حقل من الناس، بيض الثياب والقلوب. .

الجميع يودعون ساحة الرحمة، يغادرونها ريَّانين من رحمتها، مواكب من المشاة، وأرتالاً من السيارات، تنساب نحو أودية هاتيك الجبال. .

عرفات هادئة الآن، على رغم السيول البشرية المزدلفة منها إلى مزدلفة. . يجلل سماءها وأرضها السكون، ونورها هادئ كالقلوب، فلا يعلم إلا الله ماذا حدث فيها اليوم. .

ماذا جرى في عالم الواحد من هؤلاء الذين كانوا تحت خيامها، وماذا جرى في عوالم غيبها وسمائها. . إن ما ظهر لنا من فعل الله وجلاله لكثير، ولكن ما غاب عنا لا بد أن يكون أكثر وأعظم. .

عرفات كلها طرق إلى المزدلفة ومنى. . الطريق الأساسي هو مضيق المأزمين، ولكن سيول الحجاج تقصد كل منفذ وتدور من خلف الجبال. .

المسافة إلى المزدلفة بضعة عشر كيلو متراً، ولكنك في خضم السيارات وأمواج المشاة قد تصل بعد منتصف الليل. . وقد تصل في ساعة إذا أسعفك الحظ. .

ولكن هل من الحظ أن لا تمضي الساعة أو الساعتين تتفرج على إفاضة الحجيج وأمواجهم من عرفات، تصب أمامك في الأودية بين الجبال. .

قد تقول عن المشهد إنه يشبه اندفاعة الناس إلى الحياة بعد أن ولدوا في

عرفات. . ولكنه أكثر شبهاً باندفاعة الناس إلى المحشر يوم ينادي المنادي ﴿فَيَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونْ﴾. .

صورة المحشر هي الحاكمة الآن على حس الخراسانيين، وهم ينظرون إلى مئات الألوف بالأكفان يسيرون إلى الله تعالى. .

أجل، هذا المشهد لا يبلغ أن يكون جزءاً صغيراً من حشر مئات المليارات يوم القيامة، ولا هو في ظروفه وأنظمته. . ولكنه يبقى ماثلاً في الحس يشير إلى مشهد المحشر الأكبر. . . اللهم لطفك ورحمتك. .

في وادي المشعر الحرام

في نحو العاشرة ليلاً تمكنوا أن يصلوا إلى وادي المشعر أو وادي المزدلفة، ولكن المسألة كانت تحتاج إلى حكمة حسين وحركته.. فشرطة السير تدفع بالسيارات إلى منى ولا تسمح بالوقوف في المشعر، فالمسألة عندهم تنفيذ أوامر مسؤوليهم بتخفيف الضغط على الشوارع والوادي، حتى لو كان أمر الله تعالى بالمبيت والوقوف هنا.

والمشكلة الأخرى أن يجدوا مكاناً في المشعر يفرشون فيه بساطاً للمبيت، بل للجلوس والصلاة..

والمشكلة الثالثة أن يجدوا السيارة الضائعة ويضموا ركابها إلى القافلة..

ولكن الله تعالى يسر، واستطاع حسين أن يجد مكاناً للسيارات، وشبه مكان للجلوس، ثم يجد بقية الحجاج ويأتي بهم مشاة ويلحقهم بالقافلة..

فرشوا أبسطتهم على سفح ترابي يمكن الجلوس على نصفه الأعلى، أما النصف الآخر فشديد الانحدار... وصلّوا صلاة المغرب والعشاء جماعة، فقد قال عالم القافلة إن الصلاة في المشعر أفضل، حتى لو تأخرت ساعات عن أول وقتها..

وتوجه إليهم بعد الصلاة وقال:

جلت حكمة الله، انظروا كيف تعبد خلقه بالحشر في هذا الوادي الضيق لا يكادون يجدون متسعاً للجلوس والصلاة والمبيت، وبعضهم يخالفون الحكم

الشرعي ويواصلون سيرهم إلى منى، مع أن موقف المشعر من أركان الحج إلا للنساء والضعفة ذوي الأعذار . .

لعل أهم امتحان في هـذا الوادي المبـارك هو امتحـان التحمـل عنـد الإنسان . . هل يتحمل الضيق، هل يتحمل التعب، هل يتحمل الآخرين من الناس . . هل يذكر الله تبارك وتعالى هذه الظروف والمزعجات، أم تشغله نفسه عن ذكر الله العظيم . .

والتفت إلى الدكتور قائلاً :

ـ كيف تراك هنا يا دكتور بهرامي؟

ـ كما تفضلت يا سيدي أرجو أن يوفقني الله تعالى لأن أتحمل ولا أنسى ذكره . .

ـ كلنا سنتحمل بعون الله يا دكتور، حتى لو كان الامتحان بأن نبقى أياماً في منحدر أصعب من مكاننا هذا وفي ظروف أشد . . وكلنا سوف نذكره إن شاء الله ولا نهتم بأنفسنا، فنحن وإن كنا في الظاهر في تعب ولكنا في الـواقع في نعيم . . انظروا بعقولكم إلى رحمته تعالى وأنواره في هذا الـوادي المقدس . . يكفي أنه تبارك وتعالى ذكر هذا الوادي في كلامه المقدس، وأنزل فيه وحياً من فوق سبع سماوات فقال عز وجل «فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ» وهل هو أمر بسيط أن يشرّف الله تعالى مكاناً بذكره في قرآنه ويصفه بأنه حرام ويأمرنا مرتين بذكره فيه . .

انظروا إلى مئات الألوف من عباد الله من أنحاء بلاد الله، كيف يطيعون أمره، ويقضون ليلهم في هذا الوادي في ظروف صعبة، ويذكرون ربهم في جوف

هذا الليل وعند مطلع الفجر. . هؤلاء جيراننا يبدو أنهم من القارة الهندية، وأولئك من العرب، وإلى جانبنا هناك رأيت أتراكاً. . والكثير منهم لا بد أنهم من شخصيات بلادهم، وهم هنا عباد مطيعون متذللون لله تعالى. .

تعشوا عشاءً خفيفاً أيها الأعزاء، ثم اذهبوا إلى سفح هذا الجبل أو غيره واجمعوا الحصىٰ للرمي، اجمعوا ذخيرتكم الرمزية لحرب أعداء الله في الأيام الآتية. . ومن وجد نفسه متعباً فلينم، ومن استطاع أن يحيي الليلة أو أكثرها بذكر الله تعالى فهو من الموفقين، ولعل أهم شيء هنا أن ننظر دائماً إلى النعم المعنوية العظيمة وأنوار الرحمة الإلٓهية في هذه الليلة، ولا نشغل أنفسنا بالمزعجات والسلبيات، ونستفيد من هذا الدرس في التحمل والتعامل مع الجوانب العالية في حياتنا. .

وقرأ لهم السيد دعاءي المشعر الصغيرين:

«اللَّهُمَّ هَذِهِ جُمْعٌ، اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْمَعَ لِي فِيهَا جَوَامِعَ الْخَيْرِ. . اللَّهُمَّ لاَ تُؤْيِسْنِي مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي سَأَلْتُكَ أَنْ تَجْمَعَهُ فِي قَلْبِي، وَأَطلُبُ إِلَيْكَ أَنْ تُعَرِّفَنِي مَا عَرَّفْتَ أَوْلِيَاءَكَ فِي مَنْزِلِي هَذَا، وَأَنْ تَقِيَنِي جَوَامِعَ الشَّرْ»

«اللَّهُمَّ رَبَّ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ فُكَّ رَقَبَتِي مِنَ النَّارْ، وَأَوْسِعْ عَلَيَّ مِنْ رِزْقِكَ الحَلاَلِ، وَادْرَأْ عَنِّي شَرَّ فَسَقَةِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ. . اللَّهُمَّ أَنْتَ خَيْرُ مَطْلُوبٍ وَخَيْرُ مَدْعُوٍّ وَخَيْرُ مَسْؤُولْ، وَلِكُلِّ وَفْدٍ جَائِزَةٌ فَاجْعَلْ جَائِزَتِي فِي مَوْطِنِي هَـذَا أَنْ تُقِيلَنِي عَثْرَتِي وَتَقْبَلَ مَعْذِرتِي، وَأَنْ تَتَجَاوَزَ عَنْ خَطِيئَتِي. . ثُمَّ اجْعَلْ تَقْوَاكَ مِنَ الدُّنْيا زَادِي»

وتعشى الحجاج ما تيسر، وانطلقوا مجموعات صغيرة نحو سفح الجبل، مع كل مجموعة منهم مصباح يدوي أو أكثر، ووسيلة حادة ليحفروا بها الأرض عند

اللزوم، وكل منهم يحمل كيساً ليضع فيه تسعاً وأربعين حصاة، ومثلها معها للاحتياط، كل حصاة بمقدار عقدة الإصبع تقريباً، رقطاء، منطقة، ليست من النوع الصلب، ولا مكسورة من الأحجار والصخور. .

كان سفح الجبل بعيداً نسبياً، يسمح لمن يقصده أن يرى أنواع الحجاج المكتظين في هذا الوادي، لكل قافلة منهم موضع بساط أو بساطين أو ثلاثة، وبعضهم على الإسفلت أو الرمال بدون أبسطة، وبعضهم على منحدرات الشوارع الترابية كقافلة الخراسانيين، وآخرين على سفوح الجبال بين الصخور أو فوقها. .

مزدحم وادي المزدلفة أو المشعر أو جُمُع، كما هو الحال في حياتنا على الأرض. .

وموقف الحجاج من هذا الازدحام ليس واحداً، كما هو الحال في الناس. . بعضهم استعجلوا الوصول إلى منى، كالذي يستعجل منا الوصول قبل الأوان وقبل استيفاء الطريق. . وبعضهم أضناهم التعب فناموا. . وبعضهم يعيش هذه الليلة بالضيق والتبرم مع لمحات من ذكر الله والخشوع. . وبعضهم يصب لعناته على حكومة الحجاز التي لم تهيئ لحجاج بيت الله ماء ومرافق على الأقل. . وبعضهم يبلغ به الضيق والتبرم أن ينسىٰ كل المعاني العليا في الحج، وينوي أن لا يعود أبداً. . أما الأكثر وعياً وصبراً كالخراسانيين، فهم مشغولون بعالمهم الأعلى عن المزعجات، عالم الامتحان الإلٓهي في الحج، وعالم الرحمة الإلٓهية التي تتنزل على المحرمين الذاكرين الله في كل الظروف. .

إفاضة العيد

وتمت ليلة العيد على الخراسانيين بالصبر وصلاة الليل وذكر الله تعالى، وعمليات جمع الحصى، وقصصها الطريفة، وبعضهم نام لماما وهـو مستيقظ القلب، وبعضهم بقي مستيقظ القلب والبدن يعيش مع الله تعالى في الصلاة والتسبيح والتفكير، والحديث مع الرفقاء، أو مع الحجاج من بلاد المسلمين . .

*

وانتظمت قافلة الخراسانيين هذه المرة مشاة إلى منى، وهذه المرة مع طلوع الشمس لا مع غروبها، يتقدمهم عالم القافلة ومن حوله، وعامل يرفع علماً، وفي آخرهم علم آخر، والعاملان يديران مسير القافلة بالعلمين، وبمكبرات الصوت عند اللزوم . .

أكثر الحجاج يفيضون إلى منى مشياً على الأقدام . . فمدخل منى لا يتسع لازدحام المشاة والسيارات . . ومشهد سيول المشاة في هذه الإفاضـة يذكـر بالمحشر أيضاً، ولكن فيه معان من طلوع الشمس وصلاة العيد ورمي الجمار، تجعله أقرب إلى الإفاضة نحو الحياة والجهاد . . وهتاف المسلمين في العيد يعطي الإفاضة حيوية الشكر على الهداية والنعم . .

من كل قافلة في هذا الموج البشري يتصاعد الهتاف بشعار تكبيرات العيد فتتجاوب به القوافل مع بعضها، ويتجاوب به وادي المشعر ومنى والجبال . . وملائكة الله الفرحى بالمسلمين وعيدهم . .

الله أكبر الله أكبر الله أكبر.

الله أكبر لا إله إلا الله.

الله أكبر ولله الحمد،

الله أكبر على ما هدانا

الله أكبر على ما أولانا.

ما أحلى هذا النشيد تطلقه حناجر شعوب الأمة على اختلاف أنغامها ولهجاتها إلى عنان السماء.. وهي محرمة لربها ساعية إليه في مسيرةواحدة وهدف واحد..

ويظل المشككون في وحدة الأمة ينشغلون عن الأصول بالفروع، وعما يجمع بما يفرق، والأمة تقول لهم حيثما التقى أبناؤها نحن أمة واحدة.. وتقول حيثما واجهت عدوًّا نحن أمة واحدة في الطرح السياسي والهدف السياسي والقرار..

كان الخراسانيون يمزجون تكبيرات العيد أحياناً بهتاف «يا أيها المسلمون، اتحدوا اتحدوا» فتظهر على وجوه بعض الأشخاص أمارات عدم الرضا، يتخيل أن هذا الشعار السياسي يتنافى مع قداسة الحج والتكبير.. ولكن جماهير المسلمين كانت تظهر على وجوههم علائم السروروالموافقة،فيبتسمون ويرفعون قبضاتهم مع القافلة الخراسانية بالتأييد..

وبعض الحجاج تدمع عيونهم ويقولون إن هتاف الإيرانيين يثير في نفوسنا أمجاد أمة «الله أكبر» وحماسة هؤلاء الإيرانيين لتجديدها..

أحب أصغر والدكتور أن يتحدثا في مسيرة الساعين من المشعر إلى جمرة العقبة، ولكن شعارات التكبير والشعارات الأخرى تمنع الكلام الطويل،

وتجعلهما يواكبان حامل الراية والمكبرة، ويواكبان في نفسيهما عطاءات الله في منى وفي الحجاج . .

قال أصغر عقب هتافهم بشعار الموت لأمريكا وإسرائيل وروسيا:

ـ الحمد لله يا دكتور أن أول مشاركتك لشعبنا في شعارات الثورة كان في المشعر ومنى . . فأراد الدكتور أن يذكره بتظاهرة مكة، ولكنه تذكر أنه كان فيها صامتاً فقال:

ـ في تظاهرة مكة كنت كالغريب عنكم، أهتف معكم بقلبي فقط، وأرجو أن أكون أصبحت الآن واحداً منكم . .

ـ أنت من مفاخرنا إن شاء الله يا عم . .

كان بإمكان القافلة أن تسير بسرعة أكبر، ولكن من السنّة في الإفاضة المشي باعتدال واتزان . . وعليهم أن يكونوا رفيقين بقوافل الحجاج، فلا يزاحموا منهم أحداً ويفسحوا المجال لمن هم في عجلة من أمرهم . .

ظهرت منى كلها تقريباً من أولها من جهة المشعر إلى آخرها من جهة مكة، وادياً بين جبال، يبلغ طولها نحو أربعة كيلومترات، وتتسع في أولها بنحو طولها، ثم تضيق وترتفع كلما تقدمت نحو آخرها، حتى تكاد جبالها أن تلتقي عند جمرة العقبة . . وفي سطحها عند سفح الجبل من جهة مكة يربض المسجد الخنيف، مسجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . .

ومع أنهم أقاموا فيها شبكة جسور، وشبكة طرقات، وبعض الأنفاق . . ولكن الازدحام في منى يبقى سيد الموقف وسيد الامتحانات . .

ارتفعت حرارة الشمس وتضاعف الازدحام في أول وادي منى ووسطها، وخف هتاف الحجاج بالتكبير وزاد اهتمامهم بالتعب والازدحام . . والقافلة

الخراسانية على نفس الوتيرة في اعتدال مشيها وإطلاق شعارتها . . كانوا يتكيفون مع الطريق وموجات الازدحام ، ولكن ما إن يعبروها حتى يعودوا إلى تكتلهم وتكبيرهم وشعاراتهم . .

الشعارات الإسلامية عند الخراسانيين عبادة لها أصولها أيضاً ، ومن أصولها الصبر عليها ومواصلتها والهتاف بها في آذان الناس في كل مناسبة ، وأن لا يمنعك من ذلك التعب ، ولا عدم ارتياح البعض أو عدم اهتمام آخرين ، وأن لا تيأس من تأثير الشعار ، فهو لا بد أن يؤثر ولو بعد حين . .

وعندما اقتربت القافلة من جمرة العقبة غلب على شعاراتها «الموت لأمريكا . الموت لإسرائيل . الموت لروسيا»

كل القوافل الإيرانية تفعل ذلك عندما تقترب من جمرة العقبة ، وعندما تصل إلى ساحتها تتجاوب في هتافاتها ، ويزيد الحماس ورفع القبضات ، ففي حس الإيرانيين أن الرمي هنا رميان : رمي أعداء الإسلام بالهتاف والقبضات ، ورمي الجمرة بالحصىٰ . .

كانت القافلة تستريح في ساحة الجمرة استعداداً للرمي ، والدكتور يفكر في هذا الربط عند الإيرانيين بين شعار الموت للقوى الكبرى والصهيونية ، وبين رمي الجمرة . . ويفكر فيما قاله عالم القافلة عن بدء الحج بالولاية والتلبية ، وختامه بالبراءة برمي الجمرات . . وينظر إلى المسلمين من كل الشعوب يزدحمون على رمي عمود مبني من الأحجار . . ترى هل يعرفون معنى هذا العمل الرمزي الدقيق . . ؟

بلى ، يعرفون أنهم يرمون الشيطان ، والشيطان هو العدو والمحرك للأعداء . . ولا بد أنهم يوافقون على هذا التفسير الإيراني للشيطان . .

ترى ما هو نوع علاقة الشيطان بالنفس، يقول أصغر إنه يوجد بينهما خط مباشر يشبه الخط الحار المباشر بين البيت الأبيض والكرملين. . أصغر ذكي ينفذ من المفاهيم الإسلامية إلى الأمور السياسية. . أو أن المفاهيم الإسلامية هي كذلك. . هذا الرمي والبراءة أليسا عبادة سياسية. ؟

ثم يعاود النظر إلى جمرة العقبة، إلى هذه الأسطوانة المبنية من الأحجار. . والحصىٰ ينهال عليها ويتناثر عنها كالمطر أو كالرصاص، والناس في زحام حولها لا ترى منهم إلا الرؤوس وغابة الأيدي ترمي بالحصىٰ. .

الأفكار في ذهن الدكتور مزدحمة من كل نوع عن منى، والجمرات، وشعوب المسلمين، والرمي، والازدحام. . ولكنه ركز منها على ما يتعلق به، فقد مشى نحو ساعتين في الشمس والزحام لكي يصل إلى عقبة النفس ويرميها. . هل يعني ذلك أن مقدمات الانتصار على جمرة النفس أطول من عملية إطفائها. . وهل أنا حقاً قاصد أن أجتاز عقبة نفسي وأطفئ جمرتها. . اليوم نرمي جمرة العقبة هذه، وغداً وبعد غد نرمي الجمرات الثلاث. .

تفسير عالم القافلة لهذه الجمرات بأنها رمز لمصادر الشر تفسير منطقي وبليغ. . واسمها بالعربية «العقبة» والجمرات كما شرحه لنا أيضاً. . يعني أن الشر نار، والنفس نار وعقبة. . والبراءة منها ومواجهتها تحتاج إلى استعداد وعمل ثلاثة أيام. .

ووضع الدكتور رأسه بين يديه وهو يفكر: بعد قليل سأقتحم عقبة نفسي وأرميها بسبع حصيات، وأعلن حريتي وبراءتي من شرها. . وغداً، وبعد غد. . إنه عمل عظيم. . اللهم عونك، فقد قضيت عمري مستعمَراً لهذه النفس الشريرة وشياطين المادية. . فساعدني على تحرير نفسي. .

أعطوهم التعليمات أن يذهبوا واحداً أو أكثر، وأن يدخلوا بين الناس برفق حتى يصلوا إلى قرب الجمرة، فيخفضوا رؤوسهم عن الأيدي والحصىٰ فيكون الواحد نصف واقف، فهذا أنسب وضع للزحام، ثم يتأكدوا من إصابة الحصيات، وأوصوهم أن ينزع صاحب النظارة نظارته، وإذا فقد نعاله أو رداءه فلا ينحني لأخذه . .

قال الدكتور في نفسه وهو ينظر إلى موج الناس والأيدي الذي عليه أن يقتحمه: لماذا لا ينظمون رمي الجمرات، ألا يمكنهم أن يجعلوا حولها مداراً كهربائياً يكون للإنسان فيه مكان محدد يدور فيه دورة حول الجمرة، فيرميها وينصرف . .

مليون ونصف إنسان يريدون رمي الجمرة اليوم، إنها مشكلة . .

على أي، هذا الوضع الرهيب فيه فائدة وهي أن على الإنسان أن يقتحم عقبة الناس أولاً حتى يصل إلى عقبة نفسه . .

. . وتقدم أصغر أمامه وهو يمسك بيده بقوة،وأسلما نفسيهما لموجات الناس تأخذهم نحو الجمرة ثم تعيدهم بعيدا عنها، حتى وصلوا إلى قربها، فقعد الدكتور كما علمه أصغر، وناوله الحصيات وأخذ يمسك الواحدة منها ويرمي بها الجمرة قائلاً: الله أكبر، اللهم ادحر عني الشيطان . . حتى أكملا الرمي، والانسحاب . .

*

أمضوا في مكة ومنى يوم العيد، واليوم الثاني ونصف الثالث، ولكنهم اتخذوا مركزهم مسكن القافلة في مكة، وكانوا يأتون إلى منى صباحاً لرمي الجمار، ومساء من غروب الشمس إلى منتصف الليل . . فالسكن في منى لا

يطاق، فقد تحقق ما قاله أصغر، وتحولت منى المباركة إلى منطقة مضى فيها شهر على إضراب عمال بلديتها . .

كان الحجاج يتساءلون عن هـذاالإهمال، فيقـول لهم أصغر ليس الأمـر إهمالاً ، ولكنه قرار ينفذونه كل سنة بأن لا يدخل منى عمال نظافة أبداً . . وأكثر من ذلك فقد كانوا بنوا عدداً كبيراً من دورات المياة، ولكنهم عـادوا وقرروا هدمها وهدموها؟ قالوا إن أحد علماء الدين أفتى بذلك، ولكن الذي يفتي هنا هو الملك وليس علماء الدين.

كان الدكتور ينظر إلى الحالة المزرية في شـوارع منى،وحتى أمام مسجـد الخِيف المقدس، ويفكر في مضاعفاتها الصحية، وأثرها النفسي السيّىء على الحجاج فيقول في نفسه : على أي حال ، سواءكان هذا الوضع بسبب الإهمال أو بسبب قرار سيئ من الحكومة، فإن النتيجة واحدة، والضحية هم الحجاج، ومنى المقدسة . .

الحنين الى مكة

سقياً لأيامك يا مكة، فكلك حبيبة . . كعبتك وحرمك وروابيك وجبالك . ، وكل حجر ومدر وحبة رمل فيك . . أنت من الأرض قلبها ومركزها ومعراجها . . وأنت من القلب قبلته ومجمع أشواقه . .

الأيام تمضي فيك بسرعة، لأن الزمن فيك طائف زائر، وأنت ثابتة في زمنك الخالد . .نريد أن نمسك أيامنا فيك بأيدينا وقلوبنا حتى لا تفلت منا . . ولكنها تفلت، فنتلهف وندعو أن تعود . .

غناك باذخ يا مركز العطاء، ولكن فقرنا مدقع لا يسده إلا أيام كثيرة فيك . .

ندعو أن يكتب الله لنا العودة إليك في الحج ،وفي عمرة نمضي فيها أسبوعاً في مسجدك الحرام وكعبته الحبيبة، وأسبوعاً لمسجد الخِيف وجبل النور والمشاعر . . وفي أثنائها نزور كل ربوة فيك وواد، نشم عطرها، ونتلمس فيها خطى أحبابنا وأنوارهم، أرواحنا فداهم . . .

دمعت عينا الدكتور والسيارة تقطع شوارع مكة متجهة إلى مطار جدة . . فقد أحس أنه يودع مكة، ويودع رحلة الأسابيع الثلاثة التي فتحت عليه هذه الرؤية الجديدة للحياة . .

أهم الأمور عنده الآن أن يحتفظ بهذه الرؤية وينسجم معها . . أن يحتفظ

بنفسه في هذا العالم المنطقي الروحي الجميل، الذي كشفه له الحج . . وأعاد قراره في نفسه :

لا ، لن أعـود إلى عالمي المـادي الغبي ، لن أفرط بهـذا العـالم الجميـل العزيز . . لن أطيع أحداً من عائلتي في ذلك . .

ـ هل تريد أن تفكر يا عم ، أم نتحدث؟

ـ بل نتحدث .

ـ هذه الأيام الأخيرة كانت متعبة ، أليس كذلك . ؟

ـ أجواؤها الروحية كانت جميلة ، على رغم المزعجات في منى ، ولقد أثر في نفسي طواف الوداع معك ، وخروج السيارة بنا من مكة . .

لن أنسى جميلك مدى حياتي يا أصغر ، وقد أصبحت الآن أحمل همك ، فعائلتي سوف لا يعودون معي ، وسوف يحملونك مسؤولية ذهابي إلى إيران ، وقد ينالـك الأذى بسببي ولكني سوف أوضـح لهم أني وحدي المسؤول عن قراري . .

ـ لا تفكر فيّ ياعم ، فلا يكون إلا ما شاء الله ، ولكن هل أنت عازم على العودة في وقت قريب . ؟

ـ نعم قررت العودة بمجرد أن يأخذ حسين المسكن في طهران .

ـ أليس من الأفضل لو حاولت إقناعهم ليعودوا معك ، ولو تأخـر ذلك بعض الوقت؟

ـ طبعاً سأحاول إقناعهم ولو بالسفر معي في زيارة ، ولكني أعرف أنهم لا يوافقون .

ـ هل يناسب أن أتحدث أنا مع أحد منهم؟

ـ بل المناسب أن لا تفتح هذا الموضوع مع أحد منهم أبداً. . دعهم يا أصغر فهم في عالم آخر. . لعن الله المادية الغربيةلقد أخذت مني أولادي، ولا أظن أنهم قادرون على التحرر منها في وقت قريب. .

ودمعت عينا الدكتور وتابع :

ـ طبعاً هذا أمر مهم، ولكن الأمر الأهم أن أحافظ على حريتي التي كسبتها ولا أعود إلى عبودية هذه المادية السوداء. .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، إني أشعر بمدى محنتك يا عم.

ـ لا تقلق علي يا بنيّ،فقد أحسست في حرم النبي (ص) وفي حرم الله تعالى بوضوح وطمأنينة كاملة. . إني واثق أنه تعالى سوف يساعدني ولكن لا أدري كيف. . أرجو أن تتحمل منهم ولا تتركهم، فلعل الله أن يهديهم، وسوف أتصل بك وبهم مرتين في الأسبوع من طهران إن شاء الله. .

ـ تتحدث يا عم كأنك على وشك السفر.

ـ والأمر كذلك يا أصغر، فقد أكد لي حسين أنه سيشتري المنزل خلال شهر، وسيتابع الأمور في لا هيجان في أول فرصة. . والآن أستطيع أن أخبرك عن حسين يا أصغر، إنه الدكتور حسين رحيمي أستاذ فلسفة في جامعة مشهد وعنده دكتوراه اجتماع من كمبردج، وقد أتى إلى الحج عاملاً مع القافلة لأنه لم تشمله قوائم الحجاج الرسمية. . وقد طلبت منه أن أخبرك بأمره فقال إذا كنت ترى ذلك مفيداً لتعاوننا فليكن بعد الحج. .

ـ عجيب أمرك يا حسين، كتب الله لك الخير وكثر أمثالك. . وهل جرت بينكما أحاديث كثيرة يا عم. ؟

ـ لم تكن كثيرة ولكنها كانت مفيدة جداً يا أصغر. . فالدكتور حسين رجل عملي وذكي إلى حد كبير، وهو يتحرك دائماً كما رأيته، ولا يصرف وقته إلا فيما هو ضروري ومفيد. . لقد حدثني عن تجربة ضياعه وجدله مع العلماء، وعن ضياع المثقفين، وأكد علي أن أعود إلى إيران بدون تأخير. لقد أعجبتني كل أفكاره، فكلها عميقة وواضحة. .

ـ الحمد لله، هذا من تيسيرات الله لك يا عم. .

ـ الحمد لله.

*

العودة الى السجن

حطت الطائرة في مطار لندن . . وخرجا إلى قاعة المستقبلين ليجدا في استقبالهما عائلة الدكتور بكاملها، وبعض أصدقاء أصغر . .

طلبوا من أصغر أن يذهب معهم، ولكنه اعتذر وذهب مع أصدقائه . . بينما ذهب الدكتور في حفاوة العائلة، إلى المنزل، ليجد أنهم أعدوا له حفاوة أكبر . .

دخل إلى غرفته ليصلي، فوجدها منظمة على أحسن وجه . . ثم جلس إلى مائدة الطعام فجلسوا حوله يجددون ترحيبهم ويسألونه عن صحته وراحته، ويقدمون له من هذا الطعام وذاك . . لقد اهتمت زوجته وبناته بتحضير أكلات يحبها . . فشكرهن . .

وكانت جلسة السهرة حافلة بهداياهم، وعواطفهم وأخبارهم . .

أخبرته زوجته عن أخويها وأختها، وأنهم سيزورونهم غداً بمناسبة قدومه، وأخبرته بما فعلت في البيت، فقد أعادت تنظيمه وجددت الستائر وأشياء أخرى . .

شهريار: ـ وأنا يا بابا تكفلت بالحديقة، أتيت بالحدائقي فنظمها وأصلح تربتها، وأتيت بالكهربائي فنظم إضاءتها . . إنها جميلة يا بابا أليس كذلك . ؟

نظر الدكتور إلى الحديقة التي جددوا فيها حتى الكراسي، وقال:

ـ نعم جميلة.

ـ لقد دفعت تكاليفها مني هدية لك يا بابا..

ـ شكراً يا شهريار.

فيدا: ـ وأنا وليدا اشترينا لك هدية تحبها يا بابا.. وجاءتا له بلوحتين لمنظرين من شمال إيران فشكرهما..

وقدم له برويز مجموعة جميلة من ربطات العنق.. بينما قدمت له مستا مجموعة جوارب.. وقدم لهم هو هداياه ففرحوا بها كثيراً..

كانت العائلة تتحدث عن المنزل والهدايا، وتتحديث مطولاً عن سفرتهم إلى ويلز والأيام الجميلة التي أمضوها عند أخوالهم، وكان يستمع إليهم ويأنس بهم، ولكنه كان يفكر في هذا الاهتمام والحفاوة التي لم يعهدها منهم، تذكر أن زوجته كانت تعارض سفره إلى الحج خشية أن يصبح متديناً متعصباً، فقال في نفسه: لعلهم يدارونني إذن حتى لا أصبح متعصباً.. على أي حال شكراً لهم..

ولكن الشيء الذي أزعجه فيهم عدم اكتراثهم بالحج، وعدم سؤالهم عن شيء سوى صحته وراحته، فقرر أن يحدثهم بشيء خارج نطاق الماديات..

ـ أنا سعيد بكم يا أليس ويا أولادي، وأشكركم على عواطفكم نحوي، ولكن هل تعرفون متى تتم سعادتي بكم؟

مستا: ـ بالتأكيد عندما نصبح جميعاً نصلي.. أنا وشهريار نصلي، يا بابا، ولا بد أن سعادتك بنا أكثر..

شهريار: ـ عندما نلتزم بالصلاة ونتزوج، أليس كذلك يا بابا؟

ـ هذه مظاهر جيدة لأمر أهم يا أولادي.. إن سعادتي تتم بكم عندما

تقررون أن تعيشوا الحياة وأشياءها بالمقاييس المعنوية الإسلامية، وليس بمقاييس المادية الغربية . . إن الإسلام فيه حياة عليا ومقاييس عليا يا أولادي ، وهي حياة منطقية وجميلة إلى أبعد الحدود . . أنا متأسف جداً لأني لم أتعرف عليها أو على شيء منها إلا متأخراً ، وأني لم أدلكم من طفولتكم على أجوائها الرائعة . . متأسف يا أولادي أني لم أكن صادقاً في حياتي ، وكنت بعيداً بعيداً عن النبي والأئمة وعن الله تعالى . .

واندفع الدكتور يحدثهم عن الفلاح الخراساني ، وعن مشاعره من زيارة النبي وأهل البيت (ص) وعن مكة وعرفات . . وأطال في حديثه وبكى . . فتأثر الجميع وبكى بعضهم ، وختم حديثه قائلاً :

ـ تعرفون أني وأمكم عملنا الكثير من أجلكم يا أعزائي ، ولعلي لم أطلب منكم شيئاً في حياتي ، وها أنا قد تقدم بي العمر ، وأحب قبل أن أموت أن تتم سعادتي بكم . . أن يفكر كل واحد منكم تفكيراً أساسياً في حياته ومستقبله ، كلنا ذاهبون يا أولادي ، ومستقبلنا في الآخرة وليس هنا . . وما الذي يمنع أن نكون جميعاً عائلة متدينة إلى أبعد حد وسعيدة إلى أبعد حد . إن السعادة التي لا يقرها الإسلام ليست سعادة يا أولادي ، ومهما بدت حلوة أول الأمر فإن نتائجها مدمرة ، أما نتائجها في الآخرة فمهولة . . أرجوكم يا أولادي أن يجلس كل واحد منكم مع نفسه ويفكر طويلاً حتى يصل إلى نتيجة منطقية . . وأرجو أن تسمعوا هذه الأشرطة التي أعتبرها أثمن الهدايا التي جئت بها لكم . .

*

بداية المؤامرة

رتبت أليس زوجة الدكتور هذه الجلسة بدون علمه، فقد استدعت أخاها من ويلز لكي تتشاور معه هي وأولادها في أمر الدكتور، وما أن جلسوا حتى بادرت بالكلام:

ـ يا أخي نكاد نجن من وضع جمشيد.. لقد تحول بعد الحج إلى رجل صامت مبهم.. طلب من الأولاد أن يفكروا هل سيكونون متدينين أم لا، وأعطاهم أشرطة محاضرات جاء بها معه من الحج، وعندما أجابوه بأن يترك لهم المجال لكي يفكروا أكثر لم يكن مرتاحاً، خاصة عندما عرف أنهم لم يسمعوا تسجيل المحاضرات.. قال لهم إنكم لا تريدون الحياة بصدق، فماذا أصنع لكم.؟ ولم يزد على ذلك كلمة واحدة، ومن ذلك اليوم أصيب بالصمت.. منذ أن رجع من الحج تغير برنامجه، فهو ينام مبكراً ويستيقظ قبل الفجر يصلي ويقرأ القرآن حتى تطلع الشمس، ويذهب إلى رياضته، ثم يفطر معنا، وعند المساء يجلس ويتعشى معنا أيضاً، ولكنه صامت لا يتكلم إلا بمقدار الضرورة..

والذي يحيرنا أكثر، أن طبعه أصبح أكثر هدوءاً وبشاشة، ومعاملته لنا أصبحت أحسن، حتى أننا لا نطلب منه شيئاً ويقول لا.. ولكنه لا ينطلق معنا بالكلام أبداً..

ساعدنا ياديفيد، أنا أفكر أنه بهذا الأسلوب يعلن احتجاجه علينا، ويريد أن يضغط على الأولاد حتى يجبرهم على الصلاة والدين.. ولكن برويز يقول إن

حالته النفسيةتغيرت،فهو يعيش بسبب الحج في عالم روحي معين، وأنه يحتاج إلى ثلاثة أشهر حتى يعود إلى وضعه الطبيعي . .

كان خالهم ديفيد يصغي إلى كلام شقيقتـه، وبعض تعليقات أولادهـا الموافقة، وهو مستلق على مقعده كالجالس على ظهره . . ولكنه انفعل واعتدل عندما أخبرته بقصة سحب الأموال من المصرف، وقال:

ـ ماذا تقولين، سحب جميع حسابه نقداً . .

ونهضت أليس وجاءت بصورة عن حسابه في المصرف، قائلة:

ـ هذه حصلت عليها من موظف في المصرف . . انظر المبلغ المسحوب قبل أسبوع ٤٨٠ ألف «باوند»، والمبلغ الباقي فقط ثلاثون ألف «باوند» . . إنها أول مرة يتصرف فيها بدون أن يخبرنا، فإذا كان يريد نقل حسابه إلى مصرف آخر، فما الموجب لأن يسحب المبلغ نقداً . ؟

ـ هل له أصدقاء مؤيدون للخميني؟

ـ أعز أصدقائه أصغر، الشاب الذي حدثناك عنه، إنه يحبه ويثق به إلى حد كبير . .

ـ هل سبق أن تبرع بأموال للحكومة الإيرانية . ؟

ـ تبرع مرتين أو أكثر بأدوية بقيمة خمس مئة أو ألف «باوند» فقط . .

ـ هل حدثكم بعد عودته من الحج عن إيران والخميني . ؟

ـ حدثنا في الليلة الأولى فقط عن الإيمان والله، وعن فلاح إيـراني كان معجباً به، وكان حديثـه يا ديفيـد مؤثراً، كـان يتكلم ويبكي، حتى أن مستا وشهريار بكيا أيضاً .

ـ نعم يا خال كان حديثه مؤثراً وجميلاً . .

فكر ديفيد طويلاً وأعاد إشعال غليونه، ثم قال لهم بلهجة حاسمة:

ـ جمشيد واقع تحت عملية غسل مخ، وقد تبرع بكل ما يملك لحكومة الخميني، ويجب أن نراقب هذه الناحية.. نخشى أن يصبح مجنوناً بالخميني ويبيع أملاككم. ويتبرع بثمنها.. والأعظم من ذلك أن يتورط في مساعدة الإرهاب الخميني هنا أو في مكان آخر.. يجب أن نراقب تصرفاته لكي نتأكد منها..

ـ أرجوك ساعدنا يا ديفيد.

ـ يجب أن نتقدم بطلب إلى «الانتلجنس سرفيس» لمراقبة تصرفاته وعلاقاته..

ـ اكتب الطلب يا ديفيد لكي نوقعه.. إني أخاف أن يبيع كل الأشياء المسجلة باسمه ولا يبقي لنا شيئاً، وفوق هذا أن يجر علينا مصيبة كبيرة.

والتفتت إلى أولادها قائلة:

ـ أصغر هذا، لم يعجبني أبداً من أول يوم رأيته، إنه أصل البلاء والشر..

وكتب ديفيد الطلب ووقعته إليس، ثم وقعه الأولاد بعد توقف وتردد..

*

الغريب الصامت

كان السبب في صمت الدكتور أنه كان يفكر في طريقة يقنع بها زوجته وأولاده بالإيمان فلا يجد . . لقد قرروا أن لا يستمعوا إليه ولا إلى أشرطة الشيخ الطبري وعالم القافلة . . أما حديثه ليلة عاد من الحج فهو الحديث الوحيد الذي استمعوا إليه وتأثروا به ، ولكنهم ندموا ، لا بد أن أمهم حذرتهم من الجنون والسير في طريق التدين . .

وكان يفكر في أسلوب يخبرهم فيه بعزمه على العودة إلى إيران فلا يجد . . إنهم سوف يرونه مجنوناً أو مجرماً بحقهم ، وليس أباً . .

تذكر في صمته مع عائلته صمت والدته ، وقال يوماً في نفسه ، عندما تعيش عالماً ويعيش رفقاؤك عالماً مناقضاً له ، ولا تجد وسيلة للتخاطب معهم ، فما عليك إلا الصمت . . لعلك بالصمت تقول لهم أكثر مما تقوله بالكلام . .

كان يتوقع أن يعاودوا سؤالهم عن صمته فيدعوهم إلى جلسة ويحدثهم ، ولكنهم لم يصبروا على صمته طويلاً ، وائتمروا عليه مع خالهم . .

*

جاءه أصغر يوماً إلى المستشفى ، وانتظره حتى خرج من غرفة العمليات وطلب منه أن يتمشيا في الردهة :

- هل عرفت العائلة بقرارك بالعودة يا دكتور؟

- كلا .

ـ هل عرفوا بأنك حولت أموالاً إلى إيران؟

ـ كلا، فقد سحبتها نقداً بيدي وسلمتها لك . . هل هناك شيء . ؟

ـ لم ألمس شيئاً ولكني حدست حدساً . . فقد سألني عنك أحد الأشخاص وهو من الإيرانيين المشكوك بهم . . وبالأمس جاءني شهريار ومستا وكانا يريدان معرفة ما يجب على الإنسان أن يفعله حتى يكون متديناً مؤيداً للإمام الخميني مئة بالمئة . . كان من ضمن أسئلتهما هل يجب عليه أن يذهب إلى الحج، وأن يعطي للحكومة الإسلامية مبالغ كبيرة . . شعرت بأن حديثهما غير عادي، وأن أحداً قد دفعهما إلى هذه الأسئلة . .

ـ إذا كنت تعتبرها أسئلة ملفتة؛ فأنا أواجه في هذه المدة عدداً من الأسئلة المشابهة من بعض الأطباء والموظفين في القسم . . ولكنها أسئلة طبيعية يا أصغر، فالجميع عرفوا أني كنت في الحج .

استطاع الدكتور أن يقنع أصغر إلى حد كبير بأن الأمر اعتيادي، واتفقا على أن يخطو مع العائلة خطوات أخرى نحو المصارحة، وإخبارهم بعزمه على العودة . .

*

قـــدرة الأم

اتصلت أليس بأولادها في عملهم وأخبرتهم بطلب والدهم أن لا يغيبوا مساء اليوم عن المنزل، لأنه يريد أن يتحدث معهم، واتصلت أيضاً بأخيها ديفيد، وبالمخبر هيرد الذي عينته المخابرات لمراقبة الدكتور، الذي أكد عليها أن تسجل لهم حديثه كاملاً، وشكرها . .

*

تأخر الدكتور في صلاة المغرب والعشاء،وهم ينتظرونه في غرفة الطعام، ويتحدثون فيما بينهم بصوت منخفض فيما يمكن أن يطلبه منهم، ويعدون لذلك الإجابات . .

وجاء أبوهم فتعشى معهم عشاء خفيفاً، ثم جلسوا في الحديقة وبدأ معهم حديثه بلهجة مليئة بالهدوء والحنان والجد . .

حدثهم عن أبيه خسرو وعن ظروفه ومشاكله، وحدثهم عن نشأته هو وتعرفه بوالدتهم، وحدثهم عن والدته القديسة كما سماها، وأخيراً عن عمته ولقائه بها في الحج، وعن أخيه الجديد يوسف ووالدته فاطمة وأولاده المظلومين . . وقال:

ـ يا أولادي ،أنا لا أتحمل أن يكون إنسان يتعذب بسببي . . وقد قررت أن أرفع ظلم والدي عن أخي يوسف وأولاده، ووكلت وكيلاً لمتابعة الموضوع قانونياً. إنه يستحق مثلي في كل أموال والدي، وأولاده يستحقون مثلكم . . ففكروا ماذا ستفعلون . . أما أنا فأنتظر النتيجة من الوكيل ،وسوف أعطي لأخي

وأولاده كل حقوقهم، وأحب أن أزورهم وأزور قبر المرحومة والدتي. . وأحب أن نزور إيران كل عام، وأن يكون لنا بيت في طهران أو لاهيجان. . وقد أرسلت كل ما أملك من نقد إلى الوكيل، وكلفته أن يشتري لنا منزلاً صغيراً في طهران لنستعمله في زيارتنا، ولكن بشرط أن يسمح بذلك أخي الجديد يوسف. .

خيم الصمت والتعجب على الجميع وهم يسمعون هذا الحديث المفاجأة. . وتأثر بعضهم وهمّ بإعطاء موقف إيجابي، لولا أن والدتهم بادرت إلى مناقشة الموضوع بانفعال. . وتمكنت أن تحقق هدفها في التشكيك بأصل الموضوع، والتشكيك بنوايا عمته، وأخرت اتخاذ أي قرار من الأولاد، كما خطأت الدكتور بتحويل المال للوكيل. .

ـ حسناً يا أليس، لو كان الموضوع معك فماذا كنت تفعلين. . ألا تعيّنين وكيلاً لكي يتحقق من الأمر بشكل قانوني؟

ـ كنت لا أفعل شيئاً حتى يأتيني هو، ويأتي معه بحكم من المحكمة يثبت أنه أخي، ويطالبني بحصته من أموال أبي. . وفي هذه الحالة أيضاً أوكل محامياً بإقامة دعوى مضادة، لأن أبي لم يعترف به وورثني كل أمواله، على اعتبار أني ولده الوحيد. .

ـ ويكون ضميرك مرتاحاً إذا استطاع محاميك أن يكسب الدعوى لمصلحتك؟

ـ بالطبع.

ـ حتى لو علمت بينك وبين نفسك بأنه أخوك. ؟

ـ حتى لو علمت، ولكن من أين أعلم، لا يمكن أن أعلم، ولا يمكن أن أصدق كلام عمتي مهما كانت متدينة أو راهبة. .

وتأمل الدكتور في وجه أبنائه وبناته فوجدهم ساكتين . . إنها عادتهم عندما يكونون موافقين على كلام والدتهم . . فنهض من بينهم إلى غرفته قائلاً :

ـ رحمك الله يا أماه، كنت غريبة بيننا، وأنا الآن غريب بين أولادي . .

*

ظلت الأم متغيرة الوجه تهز بنفسها على كرسيها بهدوء، وتشعر بالرضا لأنها كسبت موقف أولادها إلى جانبها، وتفكر في أي عمل من شأنه أن يمنعه من التصرف كما يشاء، وتتحدث في ذلك مع الأولاد . . ولكن مستا كانت تضع رأسها بين يديها منكبة على الطاولة، وما هو إلا أن رفعت رأسها وانفجرت بالبكاء قائلة :

ـ مسكين بابا فهو مظلوم . . إنكم جميعاً تتآمرون عليه . . أنا لا أوافقكم، أنا لا أخون بابا . . إنه مهذب وصادق . . وأصغر الذي تسبونه أحسن منا جميعاً . .

قالت ذلك بصوت مرتفع، فبادرت إليها أمها واحتضنتها، وطلبت منها أن لا ترفع صوتها . . وخرج الدكتور يسأل عن هذا الصراخ فقالت زوجته :

ـ لا شيء يا جمشيد، خذ راحتك، فقط مستا أصابتها حالة انفعال . .

ولكن مستا انفلتت من بين يدي أمها وركضت إلى أبيها واحتضنته باكية :

ـ بابا، أنا معك، خذ حصتي وتصرف كما تريد، أنت صاحب ضمير . .

ـ شكراً يا أبت، ولكن لماذا هذا الصراخ . ؟

الأم : ـ مستا عصبية كما تعرف وقد انفعلت من مناقشتي لك، وتقدمت إليها واحتضنتها وهي في حضن أبيها وقالت :

ـ لا تنفعلي يا مستا، كلنا نحب بابا ونعرف أنه طيب وصاحب ضمير. . تصرفي بحريتك،ولكن لا داعي لهذا الانفعال والصراخ.

ـ بابا يجب أن يتصرف بحريته أيضاً، أنا ضد كل من يمنعه من ممارسة حريته. .

ـ كما تريدين يا مستا. .

وأمسكت أمها بيدها ويد الدكتور، ودعتهما إلى الجلوس في الحديقة. . ولكنهم جلسوا جميعاً صامتين. ، يفكر كل منهم في ما حدث. . ولكن أليس التي تمر في حالة صعبة وتغلي في داخلها من قرنها إلىقدمها،خشيت من حدوث مفاجأة أخرى فيالجلسة،فنهضت وقالت:

ـ يجب أن نغير هذا الجو المزعج، هيا انهضوا لنرى فيلم السهرة، أو لننام هذه الليلة مبكرين مثل بابا. .

وذهب الجميع إلى غرفهم، وذهب الدكتور إلى غرفته التي يسمونها المسجد، بينما انتظرت أليس في غرفتها طويلاً، تريد أن تتأكد من أنهم ناموا لتتصل بديفيد. . ولكنها أخيراً قامت وقطعت الهاتف إلا عن غرفتها، وتكلمت مع أخيها بصوت منخفض ولكن بعصبية. . قالت في آخر مكالمتها:

ـ ديفيد أرجوك ساعدني،فقد أصبحت أشك في كل تصرفات جمشيد. .

ـ كوني هادئة تماماً معه ومع الأولاد، وسوف أحضر إليك غداً. . انتبهي فالمسألة خطيرة. . تصرفك كان جيداً جداً، ولكن يجب أن تحتفظي بهدوئك. .

ـ حسناً، شكراً لك يا أخي.

*

الصندوق غير المقدس

اختار الدكتور حسين أن ينزل عند صديقه السيد الحجازي الطالب الخراساني الذي يعمل في التبليغ والخطابة في لاهيجان . . وأن يطلعه على قصة الدكتور بهرامي وصفرخان، ويطلب مساعدته في ذلك .

كان يلبس بدلة على آخر طراز عندما يذهب إلى مقابلة العجوز صفرخان الذي يسكن في منزله الفخم، هو وزوجته فقط، وخادمهم الحدائقي . . أما الأولاد فهم في أمريكا وأوروبا مع شاهبور بختيار وأمثاله . .

ظل يتردد عليه ثلاثة أيام، حتى عاد إلى منزل السيد الحجازي ذات مساء يتأبط صندوقاً حديدياً، هو كل ما أودعه عنده خسرو بهرامي كما قال صفر خان .

قال للسيد الحجازي :

ـ تفضل لنفتح الصندوق أولا، وننظر في أوراقه، وبعد ذلك نتعشى . . لقد أتعبني هذا الرجل العجوز، ولم يسلمني إياه حتى اطمأن أني ضد الثورة، وأني معجب بالغربيين . .

وكسرا قفل الصندوق، وأخذا يستخرجان أوراقه، مجموعات مرتبة، هذه لسندات الأراضي، وهذه للقضايا والدعاوى، وهذه رسائل بالإنكليزية والفارسية . . وهذا خنجر قديم مرصع، وساعة قديمة لا تعمل . . . .

وفتح الدكتور مجموعة أوراق الدعـاوى وأخذ يتصفحهـا . . حتى تبسم قائلاً :

ـ الحمد لله ، الحمد لله . .

ـ هل وجدت عقد الزواج .

ـ وجدت العقدين معاً ، وكلاهما بتوقيع الملا عباس رحمه الله ، وبشهادة آخرين . . انظر إن صفرخان من الشهود أيضاً . .

ثم فتح الحجازي سندات الأراضي ، بينما أخـذ الدكتـور حسين يقـرأ الرسائل الإنكليزية والفارسية ، حتى أكملها وقال :

ـ أكثرها رسائل تافهة بينه وبين رجال ونساء إنكليز ، ولعل الفائدة الوحيدة فيها أنها نموذج لتفاهة الخانات وخضوعهم للأجنبي . .

*

بعد ساعة من الوقت ، كان الدكتـور حسين والسيـد الحجازي في منـزل الحاجة رقية خانم عمة الدكتور بهرامي . . رحب بهما ابنها ، ثم جاءت ورحبت بهما ، فقال لها حسين :

ـ يا حاجة أنا حسين رحيمي وكيل ابن أخيك الدكتور جمشيد ، وقد يسر الله وحصلت على أوراق أخيك خسرو المودعة عند صفر خان ، والحمد لله أنَّا وجدنا فيها عقد زواجه من فاطمة أكبـري . . وأخرج ورقتـين قديمتـين . . ففرحت الحاجة رقية كثيراً وقالت :

ـ وفقك الله ، وكيف حصلت عليها . ؟

ـ لا عليك ، وأرجو أن لا تذكروا هذا الأمر أمام أحد . .

وأخرج سندات الأراضي، وأخذ يسألها عنها إن كـانت تعرف مـواقعها فأخبرتهم أنها تظن أن بعض القطع لم تخرج عن ملكية أخيها خسرو، وأنها الآن بيد مؤسسة المستضعفين، فقد صادرتها من أملاك برويز خان الـذي فر هـو وأولاده عند فرار الشاه . .

تباحثوا فيما يجب عمله واتفقوا على أن يوكل حسين شخصاً في المنطقة يتابع مسألة يوسف ومسألة الأراضي، وأن يساعدوه هم عند اللزوم . .

*

القرابة الغريبة

دخل ديفيد متجهم الوجه فاستقبلته أخته متجهمة الوجه أيضاً، فسأل هل يوجد أحد في البيت فأجابته بالنفي، فجلس على الفور قائلاً:

ـ أخبريني ماذا جرى. . فأنا البارحة لم أنم، وقد اتصلت بأخيك ريتشارد وأخبرته وتشاورنا، وقد تركته قلقاً جداً. . أخبريني ماذا حدث. .

وأخبرته أليس، فقال:

ـ اسمعي يا أليس، أنت وثقت بأولادك أكثر من اللزوم، وهذه مستا طفلة انفعالية واقعة تحت تأثير جمشيد أو أصغر. . من الآن فصاعداً لا تعتمدي على أحد منهم، وقولي لهم انسوا موضوع «الانتلجنس سرفيس»، لقد انتهى الأمر. . إن أولاد الشرقيين لا يفون لأمهاتهم أبداً، وليست هذه أول تجربة. .

اسمعي يا أليس، لقد جئت الآن من عند هيرد وأخبرني أنهم حصلوا على معلومات فظيعة عن جمشيد. . لقد تحول في المدة الأخيرة إلى متحمس لنظام الخميني وهو اقع تحت تأثير موظفي المركز الإعلامي الإيراني،وهم من الشباب المتطرف، ويشك هيرد أن لبعضهم ميولاً إرهابية. . وفي سفره إلى الحج وقع تحت تأثير«الملالي»من أنصار الخميني. . قال السيد هيرد إن الأشرطة التي جاء بها معه تتضمن أفكاراً خطيرة تدعو إلى تدمير الغرب، ولكن ليس فيها ممسك قانوني. .

وقال: من المؤكد أنه يوجد إغراء ما يدفع جمشيد إلى إعطاء هذه الأموال

للحكومة الإيرانية، أو لأحد هناك، قد يكونوا أقنعوه بأن يشتري مكاناً في الجنة، أو وعدوه بأن يزوجوه امرأة جميلة إذا سكن في إيران، أو يعطوه منصباً في وزارة الصحة . .

وقد رجوته أن يرسل أحداً لتفتيش كتب وأوراق جمشيد في المنزل، فخاف من المسؤولية القانونية لأن المنزل باسم جمشيد، وأعطاني آلة التصوير هذه . .

اسمعي يا أليس: يجب أن تصوري كل الرسائل والأوراق التي عنده، وأغلفة كل الكتب، وتأخذي الأفلام إلى السيد هيرد . .

عالجي مع الأولاد مسألة مستا ولا تتركيها مع والدها أو وحدها . . احرصي على أن تكسبي الأولاد كلهم إلى جانبك، ولكن لا تشركيهم بعد اليوم في أي عمل ضد أبيهم . . حافظي على هدوء أعصابك مع الجميع . . ويجب أن تحصلي على مصاريف «الانتلجنس» ومصاريفي من جمشيد . .

وأخذت منه آلة التصوير وصندوق الأفلام، ودخلت إلى غرفتها لتضعها في مكان أمين، ، وشكرته . . وودعها وانصرف . .

*

كانت المياه تجري من تحت أقدام الدكتور دون أن يعلم، وعندما علم شيئاً منها لم يفعل شيئاً، ولم يسمح لمستا أن تفعل شيئاً . .

جاءته بعد أيام من الحادثة إلى عيادته في المستشفى :

ـ ماذا جاء بك يا مستا ألم تذهبي في الصباح إلى المدرسة؟

ـ من ذلك اليوم يا بابا لم أذهب إلى المدرسة، وأرى نفسي سأضطر إلى ترك هذه الدورة الصيفية، أنا في غاية القلق يا بابا، في الليل لا أنام إلا قليلاً، وفي النهار أذهب إلى الحديقة وأمشي في الشوارع . . وقد قررت اليوم أن أخبرك بما

يفعلون ضدك، أنا لا أستطيع أن أكون شاهدة زور وتكون أنت الضحية. . أنا مسلمة يا بابا وقد أصبحت أصلي وأخاف الله. . أنا عندي ضمير مثلك. .

وأخبرته بتآمرهم مع خالهم ضده، واعتذرت إليه باكية لأنها شاركتهم أول الأمر. . قال لها بحنان وهدوء:

ـ لا بأس عليك يا ابنتي، دعيهم يعملون ما بدا لهم، وسيأتي يوم يندمون فيه على تصرفهم. . إن القضية عندهم أن لا أبيع الممتلكات وأتبرع بثمنها للحكومة الإسلامية كما يظنون، وسوف أطمئنهم من هذه الناحية. .

ـ يا بابا أخشى أن يتصرفوا تصرفاً جهنمياً.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أدري، لا أدري. . فحالتهم تجاهك لا توصف. .

ـ تقولين إنك مؤمنة بالله يا أبت، تعاليْ وانظري ماذا يقول في القرآن وفتح لها على قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ كوني مطمئنة يا مستا وانصرفي إلى مدرستك، ولا تهتمي بشيء من خيالاتهم، ولا تخبريني بشيء منها إلا إذا شعرت لا سمح الله أن أحداً يقصدني بسوء، وإذا كنت تريدين أن أكون سعيداً بك فاهتمي بإيمانك، وطبقي الأحكام الشرعية مهما كانت صعبة عليك في أول الأمر. . اسمعي المحاضرات التي جئت بها معي، وخذي من أصغر مجموعة أشرطة «كاسيت وفيديو» واسمعيها، ولا تخبريه بشيء عما حدث يا بابا، فلا يصح أن يقلق بسببنا. . واطمأنت مستا وهدأت نفسها، وغادرت عيادة أبيها بعد أن وعدته بأن تنفذ كل ما طلب منها. .

*

فألهمها فجورهـا وتقواها

اتصل من المستشفى بزوجته قائلاً:

ـ أخبري الأولاد أني أريد أن أجلس معهم مساء.

ـ خيراً، هل يمكن أن أعرف موضوع الحديث؟

ـ سوف تسمعونه جميعاً.

ـ أنا أخاف على أعصاب الأولاد يا جمشيد، لقد مضى على الحديث الأول أكثر من ثلاثة أسابيع، ولم ترتح أعصابهم من تأثيره، فهل يجوز أن نجدد عليهم المشاكل..

ـ لا تخافي على أعصاب الأولاد يا أليس، وكوني مطمئنة أنت وهم.. سوف تخبريهم أليس كذلك؟

ـ حسناً..

*

كان تفكيرهم مختلفاً، واهتمامهم.. فهي ماضية في سوء ظنها بالدكتور وفي مراقبة علاقاته وتصرفاته.. وديفيد وهيرد يقدمان لها باستمرار التفسيرات والتحذيرات فتراها عين الصواب، وتتأكد في نفسها عندما تسمع أنه أخذ يزور بعض الإيرانيين، ويحضر بعض المجالس الدينية..

لقد أبعدت أولادها عن نشاطها المحموم ضده كما نصحها ديفيد، ولكنها

في نفس الوقت أخذت تحرضهم ضده وضد مستا، بل وتهيئهم لتقبل أي عمل من شأنه أن يمنعه من التصرف بأمواله . .

وآخر ما توصلت إليه مع ديفيد أن يستدرجوه إلى ويلز، ويقيموا عليه دعوى هناك، حيث اتفق ديفيد مع قاض على أن يصدر عليه حكماً بالمنع من التصرف . .

أما الدكتور، فكان يريد أن يودعهم وداعاً غير معلن، وأن يطمئنهم على ما في أيديهم من المال والعقارات، وعلى ما في يده أيضاً، وأنه سوف لا يتصرف به إلا بالتشاور معهم، فقد جاءته البشائر من حسين، وأغناه الله عن استجداء هذه الأسرة المادية . .

*

تأخر مجيء الدكتور إلى المنزل إلى ما بعد الغروب، وكانت أليس حريصة على أن تتشاور مع الأولاد وتهيئهم لمواجهة التطورات، لولا أن مستا جعلتها تفقد أعصابها . .

ـ يا شهريار أنت المسؤول، مستا لا تسمع إلا منك، ما دامت لم تبلغ الثامنة عشرة فأنا المسؤولة عنها، ولا يحق لها أن تتصرف، تعال انظر . . وأخذت بيد ابنها شهريار، إلى غرفة مستا وفتحت خزانتها . . انظر لقد أخذت كل ثيابها الجميلة وما أدري هل باعتها وأعطت ثمنها لحكومة الخميني، أو أعطتها إلى أحد، أو رمتها في التايمس . . وجاءت بهذه الثياب التي لا تساوي شيئاً ولا تليق . . تقول إنها ثياب إسلامية . . حتى الثياب فيها مسلم وكافر أيضاً؟

اتصلت بها في المدرسة وقلت لها إن أولاد خالتها سيمرون عليها إلى المدرسة ويأخذونها معهم إلى «وندزر»، فأجابتني بنبرة غير مؤدبة :

ـ لا يا ماما عندي شغل مهم في البيت. . أحست الملعونة أني أريد أن أبعدها عن هذه الجلسة. .

بينما كانت الأم تشكو إلى أولادها أمر مستا، وإذا بها تدخل وهي تحمل ربطة كتب وأوراقاً ملفوفة. . وهي تلبس ثياباً قريبة من الستر الشرعي. . فقالت الأم:

ـ هل تليق هذه الثياب بشابة مثلها. . انظروا إلى الكتب الدينية؛ صارت عندها أكثر من كتب المدرسة وأهم. .

سلمت مستا وسألت عن أبيها فقالوا لم يأت، فدخلت تواً إلى غرفتها وأبطأت ولم تخرج إلى الصالون، فلم تستطع الأم أن تتحمل وقالت تعال يا شهريار، فترجاها شهريار أن تكون هادئة، وطرق باب الغرفة فقالت مستا:

ـ تفضل. .

دخلا إلى الغرفة فوجداها مشغولة بإلصاق الآيات القرآنية والصور. . فأخذت الأم تهز برأسها حنقاً، ولاحظت آية مكتوبة بخط مستا وتحتها ترجمتها بالإنكليزية، «﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورْ﴾ فتغير وجهها وصرخت:

ـ أنا لم أعد أتحمل يا شهريار، هذه الملعونة تريد أن تساعد أباك على تخريب هذا البيت وتدمير مستقبلنا. . من هو الخائن؟ الذي يرسل أموال أولاده إلى حكومة الخميني، ويريد أن يبيع كل ما يملك ويبقينا بدون شيء. . أم الذي يريد أن يمنعه من ذلك. ؟

هذه إهانة يا شهريار، إهانة لنا جميعاً. . يجب أن ترفعها الآن وتمزقها، لا يحق لهذه الملعونة أن تتصرف. .

وأخذ شهريار والدته خارج الغـرفة، يهـدئ من روعها ويعـدها بـأنه سيعالج الأمر مع مستا،ولكن بأسلوب هادئ . . بينما بقيت مستا ساكنة مرابطة في غرفتها حتى سمعت صوت أبيها . .

*

جلسوا إلى مائدة الطعام واجمين، ولكن الدكتور كان وجهه يتهلل فرحاً أشرق على جو العائلة . .

ـ أعتذر لكم عن تأخري ، ولكن لا بأس فليس عندنا حديث طويل ، فقط أردت أن أطمئنكم وأبشركم بأخبار الوكيل ، وأخبار أخي الجديد يوسف الذي لا يريد منا شيئاً . .

وارتاحت أنفسهم ، وأخذوا يتناولون العشاء ، ما عدا أليس التي ظلت تحسب ألف حساب . .

ما إن أنهوا الطعام حتى بدأ الدكتور:

ـ أولاً أهنئكم يا أولادي بعمكم الجديد يوسف وجدتكم والدته فاطمة ، وأولاد عمكم أربعة أبناء وابنتين . . فقد أخبرني الوكيـل اليوم أن المحكمـة أصدرت الحكم بصحة زواج والدي من أم يوسف فاطمة أكبري ، لقد وجدوا صورة عقد الزواج بين أوراق والـدي بتوقيعـه وشهادة الشهـود ، ، ووجدوا التلاعب في ملف الدعوى القديمة التي كانت أقامتها عليه . .

والشيء الرائع أن الوكيل أخبرني أن يوسف يشبهني ، وأن أولاده وبناته تربيتهم عالية ، وهو يعيش مع عائلته ووالدته في لاهيجان ، ويعملون في زراعة الأرز، .وعندهم بستان برتقال صغير. . قال إنهم شكروه جدا لمساعدتهم في إصـدار الحكم ، لأنهم سيتمكنون من تصحيح أسمائهم وتسجيلهـا بـاسم

بهرامي، بعد أن كانت مسجلة باسم فاطمة أكبري . . وقالوا له : فقط كان المهم عندناهذا،لأن فيه ناحية معنوية، أما المال والأرض فلا أريد من أموال أبي أو أخي جمشيد شيئاً . .

ثم تنهد الدكتور وقال : ولكن هل تعرفون لماذا لا يريدون؟ لأنها أموال فيها شبهة، يعني أن والدي كان يستعمل في جمعها طرقاً غير مشروعة . . انظروا إلى القيم المعنوية في الدين،كيف تجعل الإنسان أبياً مترفعاً حتى عن حقوقه . .

وشيء آخر مفرح أيضاً، إن الوكيل أخبرني أنه اكتشف وجود قطعتي أرض إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة،ما زالت ملكيتهما باسم والدي، وقد صادرتهما مؤسسة المستضعفين من برويز خان على أساس أنهما من أملاكه، ولكنهما كانتا من أملاك والدي، وقد استولى عليهم برويز خان مع ما استولى عليه من أراضي الناس، حتى فر مع الشاه . . أخبرني الوكيل أنه تحدث مع مؤسسة المستضعفين وأبرز لهم السندات، فقالوا له تقدم بشكوى إلى المحكمة، وإذا صدر لك الحكم فنحن نسلمك الأرض . . قال إن إحداهما قطعة كبيرة جداً تقع في جالوس على ساحل بحر الخزر الجميل، وأنه يأمل أن يأخذ فيهما الحكم في وقت غير بعيد . .

كان الأولاد يستمعون إلى أخبار والدهم بسرور ظاهر، ويسألونه عن عمهم الجديد وعمتهم، ويتحدثون عن لاهيجان وعن بحر الخزر،وعن البيت الذي أخبرهم أن الوكيل اشتراه لهم في شارع ظفر بطهران . . لقد أصبحت مسألة زيارة إيران والتعرف على بيت عمهم أمراً مقبولاً . . واندفع الدكتور يحببهم بالدين وإيران وزيارتها . .

كان الجميع منسجمين مع هذا الجو الجميل ما عدا أليس، التي أسقط في يدها فوقعت في حيرة . . كانت تنوي مفاجأتهم بدعوة أخيها ديفيد إلى ويلز

وتقدم لهم تذاكر الطائرة التي أرسلها، ولكنها لا تعرف الآن إن كان بقي موجب لاستدراج زوجها إلى هناك، ومحاولة جره إلى المحكمة لاستصدار حكم بمنعه من التصرف . .

لا تعرف أن ما يقوله صحيح، وأن الخطر قد ارتفع عن أملاكهم في بريطانيا . .

وإذا كان كلامه صحيحاً فقد تكون قطعة الأرض التي يتحدث عنها ثمينة جداً، فهل بإمكانها إقناعه بأن يوكل برويز فيذهب ويبيعها . .

لا تعرف هل أن كل ذلك خدعة لهم ليفاجئهم يوماً بأنه باع كل شيء، كما فاجأهم بإعطاء نصف مليون «باوند» لإيران . .

كانت تقول في نفسها: جمشيد صادق مئة بالمئة ،لم يكذب عليّ طول حياته بحرف . . ثم تتذكر قول ديفيد:لقد تغير جمشيد إلى شخص آخر، غامض كذاب ومخادع . . إنهم يعلمونهم ذلك للتغطية على تطرفهم.

لا يجوز أن أصدق شيئاً من كلامه . . يجب أن أكشف خداعه للأولاد . . يجب أن أتصل بديفيد وهيرد وأخبرهما بما حصل . .

*

من بيتي ضربت

كان الدكتور في طريق العودة من عمله عصراً إلى منزله، وما إن استدار من شارع «ليفربول» إلى الشارع الفرعي إلى منزله، حتى اعترضته سيارة سدت عليه الطريق، وفجأة نزل منها ثلاثة أشخاص، ركضوا إليه وسحبوه من خلف مقود سيارته، وانهالوا عليه ضرباً بأيديهم وأرجلهم، وهم يشتمونه ويشتمون الإمام الخميني، ويهددونه بالموت إن لم يترك تأييده له، ثم لاذوا بالفرار، بعد أن تركوه مغمى عليه . .

تجمع بعض الأطفال وبعض الكبار حوله، ولكنهم ظلوا بعيدين عنه يتفرجون عليه وهو ملقى على وجهه، وقد ظهرت بقع الدم على ظهر قميصه . . وبعد نحو عشرين دقيقة وصلت سيارة البوليس واستدعوا سيارة الإسعاف، ولكنه كان قد أفاق وأخذ يمسح الدم الذي نزل على وجهه من رأسه ويقول: الحمد لله، الحمد لله . . ووقف على قدميه بمساعدة البوليس وأجلسوه في سيارته، وسحب أحدهم دفتراً قائلاً:

يبدو أن حالتك جيدة؛ فهل تسمح يا سيد أن ننظم محضراً أولياً بالحادث؟

- تفضل .
- اسمك؟
- جمشيد بهرامي .
- العمر؟

ـ ٥٧ سنة.

ـ العمل؟

ـ طبيب في مستشفى «رويل فري».

ـ الجنسية؟

ـ إيراني.

ـ هل تعرف الذين اعتدوا عليك؟

ـ كلا.

ـ هل رأيتهم من قبل؟

ـ لا أذكر.

ـ هل تعرف جنسيتهم؟

ـ بالضبط لا أعرف.

ـ أما سمعتهم يتكلمون؟

ـ بلى كانت لهجتهم إنكليزية ضعيفة.

ـ يعني ليسوا بريطانيين، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ ماذا قالوا؟

ـ سبوا وشتموا.

ـ هل تشك أنهم إيرانيون؟

ـ نعم.

ـ ومن مؤيدي نظام الخميني؟

ـ كلا، فهم بالعكس تماماً..

ـ هل تدعي على أحد؟

ـ كلا.

ـ يعني لا تريد أن ترفع دعوى نهائياً؟

ـ كلا.

ـ شكراً، وهمس الشرطي لأصحابه قائلاً:

ـ مسكين هذا، هو من معارضي نظام الخميني، ويخاف حتى من إقامة دعوى على من اعتدى عليه.. إن مؤيدي الخميني إرهابيون خطرون..

ونقلت سيارة الإسعاف الدكتور إلى مستشفى قريب، فضمدوا جراحه التي كانت من قبضات حديدية تركز أكثرها على الظهر والرأس.. كان الجماعة فنيين يريدون أن يوجعوه بدون أن يظهروا على وجهه أثراً..

قرر الطبيب أن الجراحات خارجية تحتاج إلى إجازة أسبوع، ونصحه بالبقاء في المستشفى ثلاثة أيام، ولكن الدكتور بهرامي كان يفكر أن يتصل بمنزله ليأتوا ويأخذوه، أو يخرج هو من المستشفى على مسؤوليته، ويذهب إلى المنزل بسيارة تاكسي.. وإذا بزوجته وأولاده يدخلون مذعورين، وتسبقهم مستا إلى سرير والدها وتحتضنه وتبكي.. كانت هي أول من رأى سيارته في الشارع فأخبروها بالقصة، فهرعت إلى البيت، ثم عرفوا مكانه من البوليس..

سلموا عليه جميعاً وهم في حالة من الذعر، وتناثرت دموعهم على وجهه وعلى قميص المستشفى الذي يلبسه.. أما أليس فكانت حالتها مزيجاً يصعب فهمه، فيه الحزن والرضا والقلق، وكل شيء.

طمأنهم عن حالته، وأن الأمر لا يحتاج إلا إلى يومين أو ثلاثة في المنزل، وأنه يريد أن يترك الأمر إلى الله تعالى، ولا يريد أن يقيم دعوى على أحد.. فانتفضت أليس قائلة:

ـ بل يجب أن نقيم دعوى، هذا جزاء من يخدم مرضاهم ويتبرع لهم بأدوية..

ـ وما علاقة هذا بذاك يا أليس؟!

ـ الذين كانوا مكان الحادث قالوا لمستا إن المعتدين مؤيدون للخميني، وإن البوليس قال ذلك . .

مستا ـ أنا قلت لهم مستحيل لا بد أنهم أعداء للخميني .

أليس ـ اسكتي يا مستا، هل أنت تعرفين أكثر من البوليس . ؟

الدكتور ـ البوليس لم يحضر إلا بعد أن أفقت من إغمائي يا أليس، وأنا الذي رأيتهم وسمعت كلامهم . . لقد سبوني وسبوا الإمام ،وهددوني بالموت إن بقيت مؤيداً له، فهل يكونون مؤيدين للخميني . ؟

أليس ـ لعلك لم تسمع جيداً، لعلهم سبوا من لا يؤيد الخميني . . يجب أن نشتكي، ويجب أن أتصل بديفيد ليساعدنا . .

ـ لا بأس يا أليس، لا تتصلي بأحد، ولا تخبروا أحداً أبداً بما حدث، لا أريد أن أشتكي على أحد، المشتكى إلى الله فقط . . أكمل يا شهريار معاملة المستشفى ولنذهب الآن إلى البيت .

*

أمضى الدكتور في منزله أربعة أيام ،ولم يسمح لهم أن يخبروا أحداً ما عدا إدارة المستشفى، واتصل بأصغر وأخبره بأنه يمضي إجازة في البيت بسبب وعكة ألمت به ،ولكنه أكد على أن لا يزوره عملاً بما اتفقا عليه، حتى لا تحمله العائلة مسؤولية سفره . . وطلب منه أن يرتب مع حسين سفره إلى طهران ـ مشهد مباشرة كما أراد حسين . .

أما سلوكه مع الأسرة فقد كان الصمت الكامل، لقد قرر أن لا يفتح معهم أي موضوع، ولا يدخل في أي موضوع يطرحونه، وفيما بقي، كانت عواطفه

ومحبته تغمر الجميع بمن فيهم أليس، وكان ينشرح صدره إذا فتح أحدهم معه موضوعاً دينياً،فيتحدث فيه ولا يمل. .

حتى مستا لم يسمح لها أن تفتح معه حديثاً حول الموضوع، كان يقول لها يا ابنتي احفظي أمك وإخوانك وأخواتك وكوني مؤدبة معهم، وأمرها أن ترفع الآية القرآنية من غرفتها ولا تزعج بها والدتها، وقال لها يا بابا إن الله يدافع عن الذين آمنوا بالطريق التي يختارها، فهل يناسب أن نحمل كلمته هذه وندافع بها بهذه الطريقة عن أنفسنا. ؟

كان يشعر بأن مخاضاً يجري في الأسرة، وأنهم عقدوا عدة جلسات،وأن أليس لا بد أن تكون اتصلت بإخوانها عدة مرات، ولكن كل ذلك لا يعنيه الآن. . كان يقول في نفسه: سبحانك ياربي،أشعر بأنك قررت أن تغنيني عن هذه الأسرة المادية، وأن تجعل ظلامتي سبباً لهدايتها، أو هداية من تريد منها. .

أما عندما تؤلمه جراحه ويتذكر الحادث، فكان يشعر بفرح وخشوع عميقين ويقول: سبحانك يا ربي: جمشيد بن خسرو بهرامي توفق لأن يهان ويجري دمه في سبيلك. . ثم تفيض عيناه بالدموع والخشوع. .

*

مهاجر إلى دار الإسلام

عاد الدكتور بهرامي إلى عمله في المستشفى، ولكنها كانت أياماً قليلة شعر فيها أنه يودع مكاناً عمل فيه نحو عشرين سنة، سابقاً في المبنى القديم، ثم في هذا المبنى الجديد الشامخ كان ينظر إلى زملائه الأطباء ومساعديه ومرضاه، وكل الأشخاص الذين يحيطون به، وإلى العيادة والردهات وغرف العمليات، وإلى حدائق المستشفى وأشجارها الباسقة التي يعرف بعضها منذ أن كانت «أطفالاً». . ينظر إلى ذلك ويقول في نفسه: الحنان إلى الناس والأشياء معنى جميل، ولكن الحنان إلى الله وغيبه أجمل. . أنا متأسف أيها الناس الذين أحبكم في لندن، والأشياء، أني لا أستطيع أن أودعكم وداعاً معلناً. .

*

وأكمل الدكتور إعداد كل شيء. . فقد كتب رسالة إلى مدير المستشفى اعتذر فيها لأنه سيسافر إلى إيران فوراً بسبب ظروف عائلية، وطلب منه إجازة بدون راتب، ووعده أن يتصل به تلفونياً. .

وقد ودع أصغر وبكى لوداع الملاك الطاهر، وقال له أرجو أن لا تتصل بهم ولا تزورهم حتى ولو دعوك، حتى تدعوك والدتهم. . ولم يخبره بشيء من أمرهم، ولا من أمر الحادث. . ولم يرض أن يتصل أصغر بأحد في طهران ليستقبله في المطار، فقد اتفق مع حسين أن يستقبله شخص من قبله، ويذهب معه إلى مشهد. .

*

في عصر ذلك اليوم، كان الدكتور يتجول في حديقة منزله يتفقدها ويودعها. . تفقد أشجارها وورودها جميعاً وبساطها الأخضر الناعم، وسقاها ورشها بالماء، وقطف منها تشكيلة ورود جميلة. . وتفقد حوض السباحة وغير ماءه، وشغل فواراته، وأشعل مصابيحه قبل الغروب. . وحتى أرجوحة مستا يوم كانت طفلة قبل سنوات، رآها مشدودة إلى أعلى فحلها من وثاقها ورشها بالماء وأطلقها تتأرجح وحدها. . قال في نفسه: لقد أصبحت صبية يا مستا، أكبر من هذه الأرجوحة، وأراك يا ختام عائلتي أولهم إيماناً، ولكني لا أسمح لك أن تتأرجحي على أعصاب والدتك. . إنها يا ابنتي والدتك، ولعلها لا تشعر بأنها تفعل شراً، إنها يا ابنتي من قوم ماديتهم ليست في جلدهم ولا في لحمهم، بل في داخل العظام. .

وجاءت مستا إلى المنزل، وبصرت بأبيها يعمل في الحديقة، وقد وضع وروداً على مقعد هناك، فأتت بمزهريتين وجاءت وسلمت عليه ففرح بها، وأخذ ينظم معها الورود. . قال لها ضعي واحدة على الطاولة هنا لجلسة السهرة، والأخرى في غرفة الطعام. . ودخل إلى المنزل ودخلت معه، فقد تذكر قفص البلابل وقفص الحساسين، فأعطاها واحداً وحمل الآخر، وقال لها: الجو ليس بارداً، أخرجيها لتسهر معنا، فقد نسيتم أن تخرجوها اليوم، وعلقاهما على مصباح وسط الحديقة. . قال لها: إنها جميلة يا ابنتي؛ ولكنك لو رأيت بلابل إيران وحساسينها لرأيتها أجمل شكلاً وأكثر حيوية وتنغيماً. . فكيف لو رأيت طيور وعصافير الجنة. . ثم عاد فدخل إلى المنزل. كانت أليس مشغولة بإعداد طعام العشاء، وبعض الأولاد في غرفهم. . فدخل المطبخ وسلم على أليس وشكرها على عملها وسألها هل تحتاج إلى مساعدة فشكرته، فتجول في المطبخ يرتب بعض أسبابه، ويعيد ترتيب ورود صناعية كانت في زاويته. .

ثم دخل إلى غرفته المحببة ،غرفة والدته ، أو المسجد كما يسميها الأولاد ، فقد اقترب وقت الصلاة ، فوقفت مستا عند الباب قائلة :

ـ بابا هل تسمح لي أن أصلي معك . ؟

ـ لعلها أحلى كلمة سمعتها منك في حياتي ، تفضلي يا روح أبيك . .

وعلمها إتقان الوضوء ، والحجاب للصلاة ، وقرأت معه القرآن وشرح لها بعض الآيات ، وصلت معه ،وبكت تأثراً ببكائه في صلاته . . وأعطاها كتاب توضيح المسائل للإمام ، وشرح لها معنى الحكم الشرعي وكيف يلتزم به الإيرانيون . . وحدثها عن جدتها والتزامها بفتوى المرجع ، وأخرج لها من صندوقها الخشبي رسائلها إلى المراجع وفتاواهم ، وقرأ لها معها الفاتحة . . وقال لها : أنا سعيد بك يا مستا ، وهذه المكتبة كلها تحت تصرفك ، وهذا مفتاح لغرفتي أبقه معك . وأريد منك يا ابنتي شيئين : الإيمان الكامل ، والمحافظة على علاقتك بوالدتك وإخوتك وأخواتك واحترامهم الكامل . . لا تتصوري يا ابنتي أنهما شيئان لا يجتمعان ، بلى ، بلى يا مستا . .

ونهضا إلى غرفة الطعام ، ونادت الأم الأولاد ، فجلسوا حول الطاولة والورود الجميلة تشرق في وسطها ،ولكن وجه الدكتور ومستا كانا أكثر إشراقاً . .

في ذلك العشاء ، وفي السهرة بعده ، غمرهم الدكتور جميعاً بمحبته ، ولم يثقل عليهم بالأحاديث الدينية ، بل كان يضمنها كلامه تضميناً . .

قال لشهريار ، إنك ولي العهد وقد قاربت الثلاثين سنة ، ويجب أن تفكر جدياً بالزواج ، حتى توجه تفكيرك إلى الطب وتصبح طبيباً نابغاً . .

وقال لفيدا وليدا أنتما كالتوأمين في الشكل والشخصية والعمل ، فإن استطعتما أن تتزوجا أخوين يحبان بعضهما مثلكما فهو أمر جيد . .

وقال لبرويز، في شخصيتك طاقات كثيرة، لم تظهر إلى الآن، في داخلك يا بني بركان، فاجعله بركان خير وإيمان . .

وأنت يا مستا أريد منك إلى جانب إيمانك الجديد، أن تفكري كثيراً وتكسبي رضا والدتك وإخوتك وأخواتك . . هل تعديني بذلك؟

ـ نعم يا بابا.

وقال لزوجته: وأنت يا أليس رفيقة العمر وأم هذه الباقة من عطاء الله . . لو تعرفي أن الشرع الإسلامي يعتبر واردات الزوجة ملكاً شخصياً لها، ولا يكلفها بشيء من نفقات البيت والأولاد، ولا نفقات نفسها . . إنك عملت يا أليس بعد زواجنا سبع سنوات، وتلك المبالغ تستحقينها عليّ . . قبل أيام كان يزور لندن أحد العلماء، وسألته عن هذه المسألة فقال: ما انفقته من مالها على نفقاتها الكمالية يكون على حسابها، أما نفقاتها الضرورية ونفقات المنزل والأولاد فأنت المسؤول عنها . . وقال إن إرثها من أهلها حكمه كذلك أيضاً . . وقد نويت يا أليس أن أدفع إليك ثمانين بالمئة من مجموع رواتبك التي انفقناها . .

ـ ولو تعرفي أيضاً أن عمل الزوجة في البيت ليس واجباً عليها، وتستطيع أن تأخذ أجرة عليه إذا أرادت، ولكن من أجل حفظ معنويتك واحترامك قررت أن أهدي لك هدية كبيرة إن شاء الله . . أنا مستعد أن أكتب لك سنداً بذلك أو أسجل باسمك المحلات في كارديف . .

ـ أشكرك، أشكرك يا جمشيد . .

*

نهض الدكتور قبل الفجر على عادته، ونهضت زوجته معه، فقد جعلتها

أخلاق زوجها وعواطفه تعيش في حيرة عميقة، وباتت ليلتها إلى جانبه تأرق حيناً، وتبكي بصمت حيناً آخر، وتفكر في كل اتجاه. . لم يكن عندها تحديد ولا وضوح في شيء إلا الحيرة. . كان يقرأ القرآن في غرفته، فطرقت الباب وقالت بأدب:

ـ هل تسمح أن آتي لك بقهوة أو شاي. ؟

ـ أعطني شاياً، وشكراً يا أليس. .

*

كان عليه أن يغادر قبل طلوع الشمس، ليركب الطائرة إلى فرانكفورت ويركب من هناك الطائرة الإيرانية إلى استنبول فطهران. .

فلبس ثيابه وأخذ حقيبته العادية وقال لزوجته:

ـ هذا اليوم يجب أن أذهب مبكراً. .

ـ ألا تريد أن تتناول طعام الإفطار؟

ـ شكراً شربت الشاي.

ـ أعد لك الإفطار بسرعة. .

ـ شكراً يا أليس، ولأني لم أر الأولاد في الصباح فسلمي عليهم وقبليهم عني. .

ـ ودع زوجته وخرج، ولم تشعر أنه لم يذهب بسيارته، وأنه ودعها أيضاً واستقل التاكسي.

*

كان الأولاد غادروا إلى أعمالهم، عندما رن جرس التلفون فرفعته أليس:

ـ آلو، أليس صباح الخير. .

- صباح الخير، جمشيد
- توجد رسالة في غرفتي تحت القرآن، أرجو أن تقرئيها . .
- حول أي موضوع، رسالة ممن؟
- إذا قرأتها فسوف تعرفين طبعاً، شكراً . .
- شكراً

وأسرعت إلى غرفته ورفعت القرآن فوجدت الرسالة، إنها خط جمشيد:

بسمه تعالى

زوجتي العزيزة، أولادي الأحباء . . السلام عليكم .

أنا متأسف لأني اضطررت أن أودعكم بهذه الرسالة، ولكني مع نفسي ودعتكم بالأمس، وودعت البيت والمستشفى . .

لست قلقاً على نفسي ولكني قلق عليكم، ومتأسف جداً وحزين، لأن جوكم في البيت أصبح مثل ليلة شتائية مظلمة، فيها مطر ورعد وعواصف وومضات من الضوء . . وقد حاولت أن أجعله جواً من الصحو والمطر الناعم الهادئ فلم أستطع . وعندما لا تستطيع أن تضيء غيرك فإياك أن تطفئ نفسك . .

لا أحملكم مسؤولية سفري . ولا أقول عنكم إلا الخير، وأرجو أن لا تحملوا أحد المسؤولية؛ لا أصغر مهدوي ولا غره، فقراري بالسفر ليس بسبب تصرف أحد ولكن عدم إعلانه لكم كان بسبب جو البيت . .

أرجو أن تسامحوني يا أليس وأولادي، فأنا لا أريد أن أصادر حرية أحد منكم، ولكن إذا كان يحق لوالد تعب على أولاده ثلاثين سنة، أن يطلب منهم أن يعطوه حريته، فأنا أطلب منكم ذلك . . اسمحوا لي بحريتي يا أولادي، فقد كبرتم جميعاً ولستم بحاجة إلى مصادرة حرية أحد . .

قد تطول سفرتي ثلاثة أشهر، وقد تطول أكثر. . وسوف أتصل بكم كل أسبوع على الأقل. .

لقد سامحتكم جميعاً من كل قلبي، وأدعو لكم بدون استثناء بالهداية في صلواتي. . أرجو أن تسامحوني والسلام عليكم.

المخلص: جمشيد

*

قرأت أليس الرسالة فشعرت بأن رأسها يدور، والبيت. . فاستلقت في مكانها على السرير، تلوم نفسها وتبكي، وتفكر كيف تجده، أين هو الآن حتى تذهب إليه وتنحني أمامه وتعترف له، وترجوه أن يرجع. . ثم تتذكر قول أخيها ديفيد: إياك أن يخدعك جمشيد يا أليس، أراه تحول بعد الحج إلى مخادع. .

*

أما هو فقد كان على متن «اللوفتهانزا» يقطع الجزر البريطانية وأوروبا، وفي داخله أغنية رقيقة، فرحة وشجية، كالعصفور أفلت من قفصه فهو يحن إليه، ولكنه ينشد في نفسه أنشودة الدوحة البعيدة. .

نزل في مطار فرانكفورت، وذهب لتوه فأكد الحجز في الطائرة الإيرانية بعد الظهر، ثم اختار أن يجلس في الصالة القريبة من الباب المحدد، على مقعد جلدي طويل، يسمح لك أن تمد رجليك، وأن تنام بارتياح إذا شئت. .

أسند رأسه إلى ظهر المقعد، وهو يفكر في هذه المشيئة الإلهية، التي تجري في الناس، كل واحد ميسر لما خلق له، وكل واحد كما يقول الشيخ الطبري مشروع له مخطط، وكلمة لله في الأرض، . . وأحس بالرضا أن تجري فيه المشيئة بهذه الأقدار ذات الألوان المتعددة. . وخاطب الله في نفسه: أشعر يا

سيدي بأنك تديرني نحو نتيجة طيبة من حياتي، وكل ما أرجوه أن توفقني لأبقى أهلاً لجميلك هذا. .

وتذكر وهو يرى في مقابله جانباً من سوق المطار، وناساً يأتون وقد اشتروا منه أشياء. . إنه ينبغي أن يشتري هدية للدكتور حسين. . فذهب يتفرج على أقسام السوق،واختار لهمذياعاً كثيرالموجات جيد الالتقاط، لأنه يتكلم العربية، وقد يحب أن يسمع إذاعات الدول العربية. . ثم صعد إلى مطعم المطار فتغدى وتوضأ، ثم نزل إلى القاعة يصلي لله تعالى ويقرأ القرآن. . على جريدة إنكليزية في مطار ألماني. .

*

عاد إلى كرسيه، وإلى جلسته المرتاحة، ولكن هذا الألماني الجالس إلى جواره لم يتركه يتمدد:

- تعرف الألمانية؟

- كلا.

- الإنكليزية؟

- نعم.

- ماذا كنت تفعل هناك؟

- كنت أصلي لله.

- لله عيسى، أو لله الكبير؟

- أنا مسلم ولا يوجد في الإسلام إلا إله واحد هو الكبير. .

- أنت سعيد بهذه الصلاة؟

- جداً.

- كم مرة تصلي في اليوم؟

ـ ثلاث مرات .

ـ أشكرك على رحابة صـدرك ، فهل تسمح لي أن أواصل أسئلتي؟

ـ تفضل .

ـ هل يمكنني أن أعرف ماذا تأخذ من هذه الصلاة، يعني ما هو الفرق بين حالتك قبل أن تصلي وبعد أن تصلي؟

ـ أشعر بأني تكلمت مع الله فشكرته وطلبت منه العون. . لقد أمضيت أكثر عمري لا أصلي أيها السيد، ولكني لم أجد الطمأنينة والقوة في نفسي إلا بعد أن أصبحت أصلي . .

ـ يعني كيف . ؟

ـ يعني ألا يمر عليك أوقات تشعر فيها بالقلق والاضطراب وعدم الوضوح في أي شيء؟

ـ بلى .

ـ الصلاة تزيل هذه الحالة، وتعطيك بدلها هدوء النفس والعقل والجسم والثقة . .

ـ كل ذلك؟!

ـ نعم .

ـ على أي حال . . هذه الصفات العظيمة التي تذكرها ألاحظها فيك، فهل تلاحظ فيّ ضدها؟

ـ لست في وارد تقييم حالتك أيها السيد، ولكن من المؤكد أنك لو كنت تصلي لكانت حالتك أحسن بكثير. .

ـ أشكرك أيها السيد المحترم، هل أنت من تركيا؟

ـ من إيران .

ـ وماذا تعمل؟

ـ طبيب. . وحضرتك ألماني أليس كذلك. ؟

ـ نعم، وأعمل في السفارة الألمانية في أنقرة. .

ـ أهلاً وسهلاً. .

ـ هل عندك اطلاع على مشاعر الشعب الألماني تجاه الإيرانيين. ؟

ـ أسمع أن الشعب الألماني يحبنا، وأننا ننتمي معاً إلى السلالة الآرية. .

ـ هل أنت مؤيد لنظام آية الله خميني. ؟

ـ مئة بالمئة. .

ـ هل تراه يعبر عن ضمير الإيرانيين. ؟

ـ أيضاً مئة بالمئة.

ـ في أي شيء؟

ـ في كل شيء، وأول الأشياء القيم الإسلامية.

ـ هل لك اهتمامات سياسية أو تحب الأحاديث السياسية؟

ـ سابقاً لم يكن عندي اهتمامات سياسية، وعندما بدأت بالتدين وجدت أن الدين يأمر بالاهتمام بالسياسة بشكل عام، فأصبحت أحاول ذلك.

ـ هل عندك اطلاع على وضع إيران والشرق الأوسط. ؟

ـ بشكل عام.

ـ أنت تعرف أوروبا طبعاً، فإني أرى إنكليزيتك أحسن من إنكليزيتي.

ـ نعم.

ـ في نظرك إلى متى ستبقى إيران واقفة في مواجهة الغرب؟

ـ الصيغة الطبيعية للسؤال أيها السيد: إلى متى سيبقى الغرب واقفاً في وجه إيران؟

ـ لماذا كانت هذه هي الصيغة الطبيعية للسؤال؟

ـ لأن وضع إيران طبيعي ووضع الغرب غير طبيعي.

ـ هل يمكن أن توضح لي أكثر؟

ـ أسألك من الذي هو في موقف الاعتداء ومن الذي هو في موقف الدفاع، إيران أو الغرب؟

ـ يمكن أن أكون معك، ولكن المشكلة هي هذا الإسلام الإيراني.

ـ بل المشكلة هذه المادية الغربية.

ـ حسناً، أيهما الطبيعي أيها السيد المحترم الحياة المادية التي نراها في العالم، أم الحياة الروحية التي يريدها آية الله الخميني؟

ـ إذا كان كل شيء يصنعه الناس في العالم يصبح طبيعياً فإن وضع ألمانيا الفعلي يجب أن يكون طبيعياً أيضاً.. أنا أتوقع أن أسمع من الغربيين انتقاداً لثورة إيران، أما من الشعب الألماني المستضعف المغلوب على أمره فلا أتوقع إلا الإعجاب والتأييد.. هذا هو الشيء الطبيعي أيها السيد..

سكت «الديبلوماسي» الألماني هنيهة وهو يفكر، ثم قال:

ـ هل أنت واثق من أن آية الله الخميني سوف يحقق أهدافه في إيران والعالم.؟

ـ أنا واثق من أن الله سوف يحقق أهدافه على يد الإمام الخميني أو غيره..

ـ وسوف تنهزم المادية الغربية، وتسود العالم حياة روحية؟

ـ تسود العالم حياة مادية ولكن بمقاييس روحية.

ـ سوف يكون ذلك على يد ابن النبي الذي سيظهر من مكة.. أليس كذلك.؟

ـ نعم على يد الإمام المهدي، وينزل عيسى من السماء ليساعده..

ـ عجيب، عيسى بعظمته يكون مساعداً لهذا المهدي؟

ـ نعم، سمعت أنه ينزل من أجل أن يقضي على اليهود، ويقنعكم باتباع المهدي.

ـ يقنعنا نحن الألمان؟

ـ الألمان وكل المسيحيين في العالم..

ـ وهذه هي الأطروحة السياسية لآية الله الخميني؟

ـ هذه هي أطروحة الإسلام التي يعتقد بها المسلمون وينفذها الإمام الخميني..

ـ بقطع النظر عن الناحية الدينية، إنه برنامج سياسي عظيم، والخميني رجل عظيم أيضاً..

ـ هل تعرف أيها السيد لو أن هتلر تبنى هذ البرنامج، لاستطاع أن يغير العالم وما انهزم..

سكت الألماني كمن يخشى إعلان تأييده لفكرة خطيرة، فتابع الدكتور:

ـ أنا أقدر ظروفك أيها الأخ، فقد حدثني أحد أصدقائي عن «الدبلوماسيين» الألمان فقال: أنا أشفق عليهم؛ إنهم مقيدون في حركاتهم وسكناتهم أكثر من غيرهم.. على أي حال، أشعر بأن حديثي أصبح محرجاً لك، ولكن اسمح لي بكلمة أخيرة.. نحن وإياكم يجمعنا الاستضعاف، ولا بأس أن تجمعنا وحدة العرق الآري في سبيل هدفنا الإنساني..

ـ شكراً، شكراً..

وانسحب «الديبلوماسي» الألماني من الحوار، وانصرف الدكتور يرتب كرسيه ليتمدد عليه، ويتذكر أصغر الذي تعلم منه أسلوب الحوار مع الألمان.. قال في نفسه: مسكينة ألمانيا، لا زالت تدفع ضريبة طموحات مادية مجنونة، ولا تملك

من شؤونها المصيرية شيئاً . . مسكين هذا «الديبلوماسي» عندما وصلت القضية إلى الشعب الألماني وسيطرة أمريكا وروسيا عليه ؛ وقع في الحرج وخاف . . الحمد لله أن الإمام الخميني رفع رأسنا أمام كل الشعوب . .

*

عاش الدكتور شعوراً خاصاً وهو يقدم تذكرة السفر إلى موظفي الخطوط الإيرانية ، وهو يدخل إلى الطائرة . . فهذه أول مرة يركب في طائرة إيرانية بعد الثورة . . هل أن أخلاق موظفي الطيران تحسنت بعد الثورة ، أم هذا شعوره هو . . كلا ، فقد رأى منهم في مطار جدة أفواجاً يتحركون بحيوية وقد حلقوا رؤوسهم ، يعني أنهم حجوا . . وهذا الحجاب المحترم الجميل الذي تلبسه المضيفات يشعرك بالتغير أيضاً ، ويقول لك عن صاحبته إنها إنسانة معك ومع الناس ، وإن أنوثتها لزوجها فقط . . أما لباس المضيفات الغربيات فيقول لك عن إحداهن إنها أنثى ، وعليك أن تتجاوز هذا الجدار الأنثوي حتى تصل إلى الإنسانة . . تذكر في نفسه قول مستا : الواقع يا بابا أن شعوري بشخصيتي بعد الحجاب أصبح يختلف ، كلامك صحيح مئة بالمئة ، أصبحت أشعر بأني إنسانة ولست لعبة أو جسداً . .

الواحدة من هاته المضيفات تقول لك مع حجابها أنا إنسانة ، ولكن إحداهن يقول ذلك حجابها فقط وكأنها لم تقتنع بعد . .

كان في أوائل الداخلين إلى الطائرة فجلس إلى الشباك ، فقد أحب أن يرى بقية سماء أوروبا وأرضها إن أمكن . .

واجهته في الطائرة صورة طائر «هما» الذي أبقته الثورة شعاراً لخطوط طيرانها . . فأخذ يتأمل في صورته الكبيرة في مقدمة الطائرة وعلى صدور

المضيفين والمضيفات، وتذكر صورته على تذكـرة السفر، وعـلى الطائـرة من الخارج . . إنه يجلس باعتزاز في ظل الثورة الإسلامية، لقد أسلم طائر الهما على حد قول أصغر «لقد أسلمت البوينغ». هذا الطائر الحصان في ثقافتنا القديمة ألا يحتمل أن يكون مطوراً عن صورة ملاك من الملائكة الذين نزلوا على الأنبياء القدماء من نوع البراق الذي عرج عليه نبينا محمد (ص) . . أم أنه من أساطير ملوك إيران، أو أساطير الشعب الإيراني . . على أي حال لقد انتزع طائر الهما حكماً بكونه شعاراً مقبولاً لطيران الجمهورية الإسلامية . .

جلس إلى جانبه شخص إيراني فرحب بهالدكتور،ولكنه كان مشغولاً عن ترحيبه، كأنه ليس هنا، فانصرف عنه الدكتور إلى التفكير في طائرات البوينغ وطائرات الفانتوم . . قال في نفسه: إنها تشبه النكتة أن تكون إيران أعـدى أعداء أمريكا لا تملك إلا الطائرات الأمريكية . . لقد استطاع مسؤولو الثورة أن يشغّلوا الطائرات المدنية، ويوفروا لها قطع الغياروالصيانة،ولو بواسطة طـرف ثالث، ومن الممكن أن تبيعهم أمريكا الطائرات المدنية وقطع غيارها . . لكن المشكلة في الطائرات الحـربية، فكيف يفكـرون بحل مشكلة قـطع الغيار، والذخيرة، وشراء طائرات جديدة . . هل يفكرون بالحصول على ذلـك عن طريق أطراف ثالثة، أو بتقليل الاعتماد على الطائرات الحربية، أو بتصنيع ما يمكنهم تصنيعه . . أو يتركون المشكلة إلى حلول يأتي بها الغيب . . ترى عندما نواجه مشكلة من هذا النوع ونحن نؤمن بالغيب، هل نصبر وننتظر الحل من الغيب، أم علينا مع ذلك أن نسعى بكل الطرق الممكنة . . ماذا يقول القرآن والنبي (ص)؟

وتحركت الطائرة وهو ينظر إلى جزء من مطار فرانكفورت ثم إلى جزء من المدينة وسمائها . . ثم ارتفعت في السماء فحجبت غيوم أوروبا كل شيء . . كل

أوروبا تقع تحت طبقة كثيفة من الغيوم حتى في الصيف، لا تسمح لأهلها أن يروا السماء إلا نادراً. . أهل الشرق هم الذين يرون السماء. . ها نحن في آخر أوروبا من جهة تركيا،ولكن الغيوم السوداء هي هي. .

فكر الدكتور أن يستفيد من الوقت بالقراءة أو النوم، فسأل جاره:

ـ هل تعرف كم تطول الرحلة إلى طهران؟

ـ هذه أول مرة تركب في هذه الرحلة؟

ـ نعم.

ـ ألم تأت إلى أوروبا من إيران عن طريق هذا الخط؟

ـ كلا. .

ـ أنت ساكن في إيران؟

ـ كلا. .

ـ أين تسكن؟

ـ في لندن.

ـ تعمل هناك؟

ـ نعم.

ـ ماذا تعمل؟

ـ طبيب.

ـ عظيم، أهلاً بالزميل، أنا الدكتور أحمد عطا اللهي. .

ـ تشرفنا وأنا جمشيد بهرامي. .

ـ في أي قسم تعمل.؟

ـ في أمراض الكبد.

ـ في أي مستشفى؟

- «رويل فري».
- عظيم، أنا سمعت أن عندنا أطباء كبار في لندن، وأنهم يعيشون أحسن عيشة، أليس كذلك؟
- بعضهم وضعه جيد من الناحية المادية وبعضهم يلاقي صعوبات. .
- يا أخي أنتم في نعمة عظيمة بالنسبة لوضعنا.
- من أي ناحية؟
- من كل ناحية، يكفي أنكم تتنفسون الهواء وتعيشون بحريتكم.
- أنت تعمل في إيران؟
- نعم أعمل في إيران، وأتمنى أن أخرج منها إلى أي زاوية في العالم، هذا الأسبوع أصبحت أفكر جدياً بالأمر، وسأحاول إقناع عائلتي. .
- لماذا؟
- أنت طبيب وتسأل هذا السؤال. . يا دكتور أنتم في الخارج لا تعرفون. . الحياة في إيران لا تطاق.
- أرجو أن توضح لي، فقد أعمل أنا في إيران.
- جدياً تقول ذلك؟
- نعم جديًّا. .
- هل طلبت منك ذلك وزارة الصحة؟
- سابقاً طلبوا ذلك، لكني جئت الآن ولكن ليس على أساس طلبهم.
- يعني جئت ترى الوضع أولاً. . لا تخطىء يا دكتور، إياك أن يغروك بمنزل أو بوظيفة جيدة، أو بشعارات خدمة المواطنين والثورة والإسلام. . كثيرون جاؤوا فلم يتحملوا ورجعوا. . القيود في كل شيء، في عملك في المستشفى، وفي العيادة. .

الأدوية ألغو أسماءها التجارية واعتمدوا الأسماء العلمية، حتى يمنعوا الطبيب أن يستفيد شيئاً من الصيدلية أو شركات الأدوية. . وأغلب الأدوية صارت بيد الدولة، سواء الصناعات الداخلية أو المستوردة. .

الطبيب في طهران لا يستطيع أن يفعل شيئاً. . وفي غير طهران، لا يمكنه الحياة. . مثلاً راجعك مريض في العيادة، وتريد أن تجري له عملية في المستشفى، فليس من حقك ذلك، يقول لك جناب مسؤول القسم أو المدير حالته غير مستعجلة، ويجب أن يعطى موعداً بعد شهر أو شهرين. .

يا أخي تعمل معهم زهرة نهارك من الثامنة إلى الواحدة أو الثانية، ضعفي عملك في العيادة، ولا يعطونك نصف انتاجك في العيادة، ويريدون منك النشاط العلمي والتقارير والبحوث، ويحاسبونك على كل صغيرة وكبيرة. . وهل يستطيع الإنسان في هذه الظروف أن يتقدم علمياً. ؟

تصور يا دكتور أنك تعيش في بلد لا يوجد فيها بار ولا سينما محترمة، ولا تستطيع أن تحصل على قنينة الويسكي إلا بألف صعوبة وبثمن خيالي، وإذا رآك واحد من هؤلاء المتدينين الثقيلي الدم ،حزب الله ،تتكلم مع امرأة في الشارع أو مع الممرضة، مجرد كلام وضحك، ينظر إليك شزراً أو يسمعك موعظة عن الأخلاق والآداب. . وزوجتك وبناتك يجب أن يسمعن الكلام في الشارع والسوق، إذا كان غطاء رأسهن غير موضوع بالطريقة الهندسية الإسلامية، يقولون لهن إن لباسهن سوف يضر بالمجتمع والثورة والإسلام. .

سكت الدكتور بهرامي طويلاً يريد أن يفهم من كلام زميله شيئاً من الواقع، ثم سأله:

ـ أنت تعمل جراحاً أليس كذلك. ؟

ـ نعم جراح باطنية.

ـ وعندك عيادة خاصة؟

ـ نعم.

ـ كم راتبك من وزارة الصحة؟

ـ مع الإضافي لا يصل إلى عشرين ألف تومان.

ـ وتعمل في مستشفى خاص؟

ـ قليلاً، أربع أو خمس عمليات في الأسبوع.

ـ وزوجتك تعمل أيضاً. ؟

ـ نعم هي طبيبة.

ـ أنا لم أفهم أيها الدكتور من أي شيء تشكو بالضبط. .

انفعل الدكتور أحمد وقال:

ـ ذكرتني ببعض الأطباء في المستشفى يقولون هذا الكلام، وكأن الطبيب في إيران بألف خير.

ـ عفواً أيها الزميل، ليس قصدي أن أزعجك، وإنما أن أفهم منك ظروف العمل.

ـ ظروف العمل يا دكتور لا تعجب إلا مجموعة النفعيين الذين يتقربون إلى وزير الصحة ومعاونيه. .

ـ وماذا يحصلون من التقرب إليهم، هل يعطونهم رواتب أكبر، أو يسمحون لهم بشراء الويسكي مثلاً. ؟

ـ المفروض أنهم يصبحون متدينين من أهل التقوى والورع، ولكنهم يطمعون بمركز أكبر، وأن يرسلوهم في بعثات ومهمات إلى الخارج، وهناك يفعلون ما يحلو لهم.

ـ أسألك يا دكتور من الناحية العلمية ، هل يوجد مجال لأن يتقدم الإنسان علمياً، ويقدم لهم خدمة . .

ـ مهما تعبت وقدمت يا دكتور فلا يقدرون ذلك . . طلبوا منا تقديم بحوث عن أمراض المرارة ،فأعددت بحثاً عن جراحة المرارة من أعظم البحوث، تعبت عليه أسبوعين، وعندما جاء وقت «السينما» قدموا مناقشة بحوث جماعتهم النفعيين، فلم أتحمل أكثر من مناقشة بحثين وخرجت . . يا أخي كلها خارجة عن الموضوع فهي بحوث دينية وليست علمية . .

ـ ألم يناقشوا بحثك . ؟

ـ جعلوا وقته بعدالظهر،ولكني خرجت قبل الظهر . .

ـ ماذا كانت البحوث التي ناقشوها بحضورك . ؟

ـ أحدهم قدم بحثاً عن العصيبات الخاصة، التي تنبه الدماغ إلى وجود السكريات في الاثني عشري، فيأمر المرارة بالإفراز . . يريد أن يثبت أن كمية إفراز المرارة تحددها كمية العصبيات التي تذهب إلى الدماغ ،ويريد أن يثبت وجود الله عن طريقها . . والثاني يريد أن يخترع أدوية جديدة، للمرارة، من آيات القرآن وكلام النبي ، وكتب الطب اليوناني . . هذا هو المستوى العلمي المحترم عندهم يا دكتور . وهذا يعتبرونه أشياء جديدة عن الباطنية والمرارة . . أما بحثي العلمي فقالوا عنه لا يوجد فيه أشياء جديدة، قالوا: ولكنا مع ذلك سنناقشه بعد الظهر . . أنا فضلت أن أترك «السمينار» ولا أريد مناقشة بحثي . . أنا لست بحاجة إليهم، هم بحاجة إليّ . .

ـ هل كنت في سفر شخصي يا دكتور أم في مهمة . ؟

ـ كنا في مهمة، من أجل الاطلاع على الأجهزة والأساليب المتطورة في جراحة الباطنية . .

ـ وأين رفقاؤك؟

ـ رجعوا قبل أسبوع .

ـ وتأخرت أنت لاستكمال المهمة؟

ـ الواقع أني اختلفت معهم فتأخرت . . يا دكتور قالوا إن المهمة ثلاثة أسابيع ومن اليوم الثاني لوصولنا وضع مسؤول القسم برنامجاً مرهقاً من الصباح إلى ما بعد المغرب . . وحتى يوم الأحد كان يرتب مواعيد فيما بيننا أو مع بعض الأطباء للمناقشة . . أنا اعترضت . . يا أخي حتى في ألمانيا يريدون أن يصادروا حريتك، يقولون ممنوع أن تذهب إلى البار، ممنوع أن تذهب إلى الملهى . . هذا يؤثر على مهمتك، هذا لا يليق باسم الجمهورية الإسلامية . . يا أخي أنا الذي سأذهب إلى الملهى وليس وزارة الصحة ولا الجمهورية الإسلامية . . على كل تحملت منهم، ولكن بعد أن انتهت المهمة قررت أن أتأخر، وتأخرت عنهم أسبوعاً . .

ـ وهل أعطوك مصاريف هذا الأسبوع .

ـ وهذه أيضاً من تصرفاتهم، قالوا فقط ندفع أجرة الفندق، والباقي يجب أن يكون على حسابك . .

ـ أرجو أن يوفقك الله لأن تتحمل أكثر يا دكتور، وشكراً لك فقد كان حديثك مفيداً لي . . شكراً .

وانصرف الدكتور عنه يفكر في جرائم المادية الغربية، وكيف أفسدت هذا الطبيب حتى أفقدته المقياس والمنطق . . وأخرج كتاباً وأخذ يقرأ فيه، بينما استلقى الدكتور عطا اللهي على كرسيه واستغرق في النوم . .

*

أعلنوا عن نزول الطائرة في استنبول، وطلبوا من الركـاب أن يبقوا في أماكنهم من أجل مواصلة الرحلة. . كانت الشمس قد غابت، ولكن الدكتور تمكن أن يلقي نظرة عند هبوط الطائرة على مدينة استنبول، بحرها وبرها. . على المدينة التي كانت يوماً عاصمة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، فأصبحت اليوم حزينة حتى مبانيها ومآذنها. . هكذا فعل الغربيون ويفعلون. .

ومضت دقائق، ولاحت من الدكتور نظرة إلى أرض المطار ليرى أن صلاة جماعة أقيمت قرب الطائرة. . سرعـان ما انسحب أكـثر هؤلاء الركـاب من أماكنهم، وقرروا أن يصنعوا هذا الحدث في إستنبول. .

استأذن الدكتور من صاحبه وتوجه إلى مكان الوضوء فوجده مفتـوحاً، ورأى مصلياً يتوضأ وضوءاً خفيفاً ناعماً، يأخذ الماء بيده فلا يكاد يريق منه شيئاً في المغسلة، فتوضأ مثله وتبعه إلى مسجد إستنبول. . لقد اختاروا مكاناً جافاً بين بقع الزيت المنتشرة في أرض المطار، وفرش الواحد منهم جريدة أو منشفة أو سجادة، وبعضهم فرش فوطة في مكان السجود فقط، وأمـام الجماعـة عالم يلبس عمامة سوداء كعالم القافلة الخراسانية. . قال الدكتور في نفسه، أين كان هذا السيد الذي لم أره بين الركاب، ولكن طائرة البوينغ كبيـرة. . والتحق معهم في صلاة المغرب. . كان لا يسمع من قراءة العالم إلا قليلاً بسبب صوت الشاحنة التي تملأ الطائرة بالوقود، ولكنه كان يسمع الكثير ويشعر بالكثير. . وأتموا فرض المغرب وقرأ أحد الركاب دعاء، ثم وقف يؤذن لصلاة العشاء يحيي به إستنبول ويذكر مآذنها بالتكبير، يقول لها هذا تكبير طهران يا إستنبول. .

كـان بعض رجال شـرطة المـطار وبعض العمال يتفـرجون عـلى صلاة الجماعة. . ماذا يقول هؤلاء المستضعفون. . لا بد أن عقيدة الإسلام تثور في أنفسهم، ويفهمون من صلاتنا الكثير. .

وأكملوا صلاة العشاء، وتشابكت الأيدي وارتفعت بدعاء الوحدة «لا إله إلا الله، إلهاً واحداً ونحن له مسلمون. . لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون. . أنجز وعده، ونصر جنده، وهزم الأحزاب وحده. .» وارتفعت به الحناجر تبعثه في سماء إستنبول بشرى من أهل إيران لهذه العاصمة الحزينة. .

*

حطت الطائرة في مطار طهران قبل الفجر من ليلة الجمعة. . ومشى الدكتور نحو الباب، وكان أمامه شاب في الثلاثينات، ما إن خرج من باب الطائرة حتى فتح حضنيه لهواء طهران، وتنشق منه ملء رئتيه، وقال بصوت حنون: فداء لترابك يا إيران، كلما سافرت إلى بلاد العالم عرفت قيمتك أكثر. . فقالت له امرأة يبدو أنها تعيش في الغرب ولا تلبس «التشادر»: بالله يا أخي كلامك صحيح، صحيح. . فقال الدكتور في نفسه، كأنك يا هذا ابني شهريار. . آه متى يدرك أولادي هذه الحقيقة وأسمع منهم هذا الكلام. .

*

خرج إلى قاعة المطار فسمع النداء باسمه يدعوه إلى الاستعلامات، فذهب وسأل عن الذي طلبه فتقدم إليه شاب وقال:

- حضرتك الدكتور جمشيد بهرامي؟
- نعم.
- أنا محمد نجاتي من قبل الدكتور رحيمي. .

وذهبا إلى المطار الداخلي. . يصليان في مسجده صلاة الفجر، ويتحدثان، حتى يحين موعد الإقلاع إلى مشهد. .

كل شيء كان جديداً على الدكتور، وغنياً. . المطار الدولي، والمطار الداخلي، ومسجده، والناس، والشعارات الإسلامية، وهذا الشاب الخدوم المهذب. . إن الدكتور حسين يختار اصدقاءه بعناية، أو هم من النوعية التي تنسجم مع أسلوبه في خدمةالناس. . فقد أخبره محمد نجاتي أنه قبل أيام أكمل ما كلفه به الدكتور حسين بشأن البيت، من تصليحات وملاحظة الحديقة، وقد فرشه كله «بالموكيت»، وفرش منه «الصالون» وغرفة الدكتور، ورتب فيها مكتبة، فيها نحو خمسمئة كتاب. . وأعطاه المفتاح. .

وأخبره أنه تقدم له بطلب إلى وزارة العلوم للتدريس في جامعةطهران،كما كلفه الدكتورحسين،وأن المعاملة قطعت المراحل الأولى،وقد طلب الموظف المختص مقابلة الدكتور. .

ـ ماذا تعمل أنت يا أخ نجاتي. ؟

ـ موظف جديد في وزارة النفط.

ـ يعني مهندس. ؟

ـ نعم مهندس مبتدئ .

ـ ومن أين تعرف الدكتور حسين؟

ـ تربطنا قرابة عن طريق الوالدة،فهي بنت عم والدته.

ـ أنتم من أي بلد؟

ـ أنا من طهران، ووالدة الدكتور حسين من طهران أيضاً، ووالده من نيشابور.

ـ كيف العمل عندكم في وزارة النفط؟

ـ العمل جيد إذا نفذوا ما وعدونا به. . لقد وعدوا أن يعطوا المجال

للشباب لتنمية طاقاتهم ومواهبهم، ونحن الآن في دورة تدريبية قبل الذهاب إلى الحقول.

ـ في أي قسم تعمل.؟

ـ في قسم الاستخراج.

ـ كأنك تخشى أن لا يفسحوا لكم المجال كما تحبون.؟

ـ التوجه العام للوزارة جيد.. ولكن أخشى من عرقلة بعض الموظفين فقط..

ـ لا بد أنك تقدر يا محمد بأن بناء الدولة والمؤسسات لا يقل صعوبة عن الثورة، وأن ذلك يتطلب من المتدينين المخلصين الصبر والتضحية..

ـ طبعاً أقدر ذلك يا دكتور، والحمد لله أن وضع قسمنا الآن جيد جداً بالنسبة لما سمعته عن وضعه في السابق.

*

استطاع الدكتور أن يرى أكثر طهران وقد أشرقت عليها الشمس، لقد أنس بسعتها وترامي أطرافها، وواصل النظر من شباك الطائرة إلى أرض إيران وسمائها الصافية.. يبدو أن الطائرة تسلك إلى مشهد خطاً داخلياً لا ساحلياً، فهذه جبال وأراض صحراوية وواحات.. أرضك واسعة يا بلدي ومتنوعة.. فساحلك الشمالي بجباله وغاباته أطول من ساحل ثلاثة بلدان أوروبية، وأكبر منها وأجل.. وساحلك على خليج فارس يفوقه طولاً وأهمية استراتيجية.. ووسطك تشكيلة من الجبال والصحارى والأراضي من كل نوع.. وعاصمتك طهران ليست أكثر عراقة من طوس، وتبريز، وشيراز، وأصفهان، وخوارزم.. ولكن موقعها الوسطي متكئة على جبال آلبرز من وجهها الداخلي يجعلها مناسبة جداً لأن تكون عاصمة، وإلى جانبها قم عاصمة العلم

والثورة. . ولكن العاصمة الأساسية لإيران هي مشهد كما يقول الإمام الخميني، فقيمة الأرض بمن حل فيها، ولا يوجد بقعة في إيران حلّ فيها إمام معصوم من أهل البيت سوى مشهد. .

وتذكر الدكتور والدته في مرضها ووفاتها ففاضت عبرته. . رحمها الله فقد كانت متفقهة إذن حيث اختارت مدينة مشهد لدفنها، وهيأت كفنها ونفقتها، وكانت تؤكد عليّ في حياتها، وعندما ثقل بها المرض: إياك يا جمشيد أن تدفنني في مقابر الكفار كما فعلتم بأبيك. . انقلني إلى مشهد، وإذا لم تذهب معي فأرسل معي شخصاً ،وهذه نفقة دفني ووصيتي في الصندوق. . لا تنفقوا عليّ منكم شيئاً وأعطوا الوصية وما يبقى عن مصارف نقلي ودفني إلى عالم في مشهد، وهو يعرف كيف يتصرف. . رحمك الله يا أماه. . سامحيني أني لم آت معك، ولكني نفذت وصيتك كاملة. كنت تعرفين النبي والأئمة، وكنت أجهلهم. . ولا زلت أجهلهم. .

يجب أن أقرأ عنهم بالتفصيل وأتعرف عليهم أكثر. . الإمام الرضا لا أعرف عنه إلا القليل، ما هي الظروف التي أوجبت على المأمون في عز الخلافة العباسية أن يأتي به من المدينة إلى هنا وينصبه ولياً لعهده. . ولماذا لم يقبل هو إلا محرجاً، واشترط أن يكون قبوله من حيث المبدأ فقط. ؟

ظاهرة الحواريين والأوصياء بعد الأنبياء ماذا تعني. ؟

الأئمة من أهل بيت النبي (ص) قضية حيوية جداً في حياة المسلمين. . لو اجتمعت عليهم كلمتهم في صدر الإسلام لتغير التاريخ، كل التاريخ. .

يقول أصغر إنهم سيتلافون الماضي وستجتمع كلمتهم على خاتمهم الإمام المهدي المنتظر. . هذا الإمام الغائب قضيته تثير العقل والوجدان. .

لها مخزون عظيم في وجدان شعبنا الإيراني . .

الأئمة من أهل البيت كان لهم اهتمام خاص بإيران : أسسوا فيها مدينة قم ، والشمال كان قاعدة لهم ، ولكن لم يدفن منهم في إيران سوى الإمام الرضا . .

يقول أصغر : إن كثيراً من الإيرانيين منذ صدر الإسلام التفوا حول الأئمة من أهل البيت ، وتتلمذوا على أيديهم وجاهدوا معهم . . ولكن غالبية الإيرانيين كانوا سنيين ، وأكثر علماء المذاهب السنية منهم . . ثم تحولوا بالتدريج إلى مذهب التشيع لأهل البيت فصار هو الغالب على إيران . .

قال أصغر : إننا يجب أن نجمع بين تشيعنا المخلص لأهل البيت ، لفقههم وإمامتهم ، وبين إسلامنا الوحدوي العالمي . . فهذه استراتيجية علمنا إياها الإمام الخميني ، لا تكتيك . . الإمام الخميني يقول إنه نفس خط الأئمة ، فقد عاشوا قضية الأمة في مواجهة أعدائها ، كل الأمة الإسلامية ، من تشيع لهم منها ومن لم يتشيع ، ونحن هكذا يجب أن نكون . .

كان أصغر يضحك وهو يقرأ في «الصنداي تايمز» عن الشيعة والسنة . . قال : هذه النقطة التشيع والتسنن ، سوف تعمل عليها مطارق الغرب كثيراً ، ومعهم مطارق البسطاء والمأجورين من السنة والشيعة ، يضغطون بها علينا يقولون : اتركوا المسلمين السنة واحصروا ثورتكم في نطاق الشيعة . . أو اتركوا تشيعكم وصيروا سنة . . ولكنها ضغوط بلا فائدة ، فنحن شيعة وثورتنا ثورة كل المس‍ـ بل كل المستضعفين . . وسوف ترى يا دكتور أنها ستمتد إلى البلاد الإسلامية السنية ، لأنها صادقة في إسلاميتها ، وإلى البلاد المسيحية المستضعفة ، لأنها صادقة في حب المستضعفين ومعاداة المستكبرين . .

ذكرك الله بالخير يا أصغر، لو كان معي لحدثني عن الإمام الرضا، يبدو أن محمد نجاتي هذا محدود الثقافة ولكنه خدوم مهذب، سوف أطلب من الدكتور حسين أن يحدثني عن الإمام الرضا وعن مشهد . .

قال أصغر: إن الإمام الرضا ثم ضريحه المقدس هو الذي حفظ المد الإسلامي في شرق إيران والأفغان والهند . . يكفي أن علماء المجوس والوثنيين والنصارى كان لهم وجود مهم في عصره في طوس وما وراءها، وقد دعاهم إلى المناظرة المفتوحة وناظرهم وحجهم . .

إنه أسلوب جيد لهزيمة الفكر المادي . . ما أعظمها لو أنهم يقبلون المناظرة التلفزيونية مع علمائنا . .

*

ـ بدأنا بالهبوط يا دكتور . . هذه مشهد . . الآن ترى الحرم في وسطها . .

ونظر الدكتور فرأى جانباً من مدينة مشهد، ثم استدارت الطائرة فظهر أكثر المدينة، والحرم في وسطها كإنسان العين، وشمس الظهيرة، ونواة الذرة . .

الطائرة تهبط رويداً رويداً في مطار مشهد، كأنها تدور في سمائها حول الحرم، تحيي الإمام الرضا عليه السلام، وتقول للركاب حيّوه من السماء، فالملائكة تتنزل على هذا الحرم فتحيي صاحبه، وزواره . .

*

الحياة الجديدة في طهران

عاد معه الدكتور حسين إلى طهران، فوصلا ظهراً إلى المنزل وفتح لهما الباب رجل متقدم في السن، سلم عليه حسين وعرفه بالدكتور فأنس به الدكتور كثيراً:

ـ لقد ذكرني في طيبته وبشاشته يا دكتور حسين برفيقنا الخراساني في القافلة، الذي وزع التين واللوز في طريقنا من جدة إلى المدينة. .

ـ أوصيك به خيراً يا دكتور، فقد قبل أن يسكن في طهران لأن أولاده هنا، وقد أقنعته هو وزوجته بأن في خدمتك ثواباً، لأنك مهاجر من أجل خدمة المسلمين.

ـ أشكرك يا دكتور، وأرجو أن أوفق لذلك.

تجول معه في منزله الجديد يريه حديقته وبناءه، ويريه غرفته ومجموعة الكتب التي اختارها له، فأنس الدكتور بذلك، وطلب من حسين أن يصلي في غرفته، فصليا، وما هو إلا أن جاء مشتي حسن قائلاً: تفضلوا. . فأشار إليه حسين أن نعم، وقال للدكتور:

ـ هيا يا دكتور فنحن الآن مدعوان لطعام الغداء.

ـ أين؟

ـ عند مشتي حسن وفي غرفته، فما رأيك. ؟

ـ جيد. .

ـ قلت له افرض أن ضيفين جاءاك من القرية ولا تتكلف، وإن كان عندك تين ولوز يابس فأطعمنا . .

وذهبا إلى غرفة مشتي حسن في طرف الحديقة فاستقبلهما هـو وزوجته، فكان غداء كما أراده الدكتور حسين، متواضعاً مؤنساً لذيذاً . .

*

كان حسين أعد للدكتور بهرامي مفاجأة هذا اليوم، فقد اتفق مع عمته أن تأتي مع أخيه الجديد يوسف وعائلته ليزوروه في منزله الجديد. وعندما طرق الباب عصراً، وجاء مشتي حسن يقول إن جماعة بالباب بينهم روحاني شاب . . عرف أنهم أقاربه وأن الشاب هو ابن يوسف فهو طالب في قم . .

كان دخول عمته مفاجأة كبيرة . . سلمت عليه فدمعت عيناهما معاً، واحتضنته قائلة :

ـ يا حبيبي يا جمشيد، لا يكن في نفسك شيء من استقبالي لك في الحج، فوالله يابن أخـي إن فرحتي بك لا توصف، عندما تأكدت من تدينك ووفائك بوعدك . . هذه يا بني خالتك فاطمة أكبري . . وهذا أخوك يوسف . . وهذه زوجته وبناته . . وهذا ابنه محمد علي يدرس في حوزة قم المشرفة ببركة الشيخ الطبري، فهو الذي اختاره لدراسة العلم . . وهذه فاطمة، وهذه معصومة ابنتا أخيك، تعاليا يا ابنتي، تعاليا سلما على عمكما . . أين مهدي . ؟ مهدي ابني جاء معنا يزورك أيضاً يا بن أخي . .

تضاعفت فرحـة الدكتـور وهو يسلم عليهم بالدموع، وجلس معهم يشكرهم ويجيب على عواطفهم . . وقد زاد من سروره أنهم يعرفـون الشيخ الطبري .

ـ من أين تعرفون الشيخ الطبري يا عمة . ؟

ـ يأتينا يا بـن أخي للتبليغ في شهر رمضان ومحرم منذ سنين عديدة، وأهل المنطقة يحبونه ويحترمونه جداً، لقد استفاد الجميـع منه والحمـد لله وخاصـة الشباب. . وأرسل منهم عدداً إلى قم.

ـ لقد رأيته يا عمة في بعثة الإمام في المدينة واستفدت منه كثيراً. . إنه عالم بحق، وسوف أزوره إن شاء الله. .

تحدث معهم جميعاً، مع عمته، ومع ابنها، وأمه الجديدة وأخيه الجديد. . وولده محمد علي، وبنتيه، وقالوا له إن له ثلاثة أبناء كلهم في الجبهة، وأخبروه عن بقية الأقارب، ووعدهم بأن يزروهم بعد أن يرتب أمر عمله. . وسألوه عن أولاده، فقال لهم الصغيرة مستا تحجبت بعد رجوعي من الحج، وهي وأخوها الكبير شهريار يصليان منذ حوالي سنة، وأرجو أن تدعوا لهم أن يهديهم الله. .

قال لهم: ـ هذا اليوم من أكبر أيام السعادة في حياتي، إن فرحتي بكم عظيمة. الحمد لله أن جمع شملي بكم بعد سنين طويلة،فرقت بيننا فيها المادية الغربية السوداء. . وأرجو أن يجمع الله شملنا مع عائلتي ويهـديهم، ونلتقي جميعاً هنا وفي لاهيجان. . إني سعيد بالخصوص بك يا بـن أخي محمد علي، إن كل الفضل للروحانيين، أنتم الذين ستهزمون مادية الغرب وتنشرون حضارة الإسلام في العالم. .

ـ بمساعدة المثقفين المتدينين أمثالكم يا عم. . أرجو أن تزور قم المشرفة، فتخبرني عندما تحب لكي آتي وأصحبك لزيارة السيدة المعصومة، ولقاء الشيخ الطبري والعلماء. .

ـ إن شاء الله، حتماً يا بن أخي. .

. . . أراد منهم الدكتور أن يبقوا لطعام العشاء ولكنهم شكروه واستأذنوا منه، ليذهبوا إلى زيارة أرحام لهم في جنوب طهران.

البلاء الجميل

في ذلك اليوم اتصل الدكتور بعائلته، ولكنه اتصل أولاً بأصغر فلم يجده. . كان يوم أحد، ولعلهم جميعاً قد خرجوا، لكن الدكتور حسين قال له يجب أن تتصل بهم فالتأخر غير صحيح يادكتور،ولو أنك أطعتني واتصلت بهم منذ وصولك إلى مشهد لكان أفضل. .

ورفعت سماعة الهاتف زوجته أليس:

ـ «آلو»، جمشيد، لماذا فعلت هكذا. . أنت لا تعرف ماذا سببت لنا من مصائب ومشاكل في البيت. . أرجوك أن تأتي إلينا وتعالج مشكلة مستا وشهريار، أنت الآن في إيران أليس كذلك. . يقولون لي أنتِ السبب، ماذا فعلت أنا. ؟ أنا مظلومة مظلومة يا جمشيد، منكم جميعاً، خاصة من مستا وشهريار، هذه الملعونة لم تترك كلمة إلا ورمتني بها، أصبحت مجنونة ومريضة، من مساء الخميس لم تأكل شيئاً، أخذناها إلى المستشفى بالقوة فلم تستقر هناك دقيقة، تصيح وتقول أريد أن أموت في غرفة أبي ولكنها تكذب، إذا جاء وقت الصلاة ترفع المصل المغذي من عضدها وتنهض وتصلي وليس فيها شيء. . أرجوك احضر في أقرب وقت. . كلمها الآن بالهاتف، إذا دخلت أنا إلى غرفتها تصيح وتقول لي كلاماً سيئاً! تقول لا تدخلي حتى تتوبي. . ماذا فعلت لكي أتوب: أنت تعرفني يا جمشيد، وهل أنا السبب في سفرك، هل فعلت شيئاً. .

ـ اهدئي يا أليس،واطمئني، أنا أعالج الموضوع، أعطني شهريار.

ـ كيف حالك يا بابا، حقاً أنت مظلوم يا بابا. . وخنقته العبرات فأعطى الهاتف لبرويز:

ـ أولا نريد أن نطمئن عنك يا بابا.

ـ من ناحيتي اطمئنوا فأنا بخير، أخبرني يا برويز ما القضية.

ـ المشكلة أصبحت متشعبة يا بابا. . أولا، مستا فقدت أعصابها، قضت الليلة الأولى لسفرك بالبكاء في غرفتك، وأخذناها في الصباح بعد جهد جهيد إلى المستشفى فلم تقبل أن تبقى هناك بوجه من الوجوه، فجئنا بها إلى البيت، ومنذ ذلك اليوم وهي في غرفتك نائمة على سجادتك، ولم تأكل أبداً، تتغذى بالمصل، وتسمع القرآن والأشرطة وتبكي، وفي وقت الصلاة تقوم وتصلي بشكل طبيعي، ولكنها تكاد تنهار من الضعف، ولا تقبل أن يدخل أحد منا إلى غرفتها ما عدا شهريار. تتكلم علينا جميعاً، خاصة على أمها، وتتهمها بأشياء خطيرة، وتصرخ وترفع صوتها أمام كل أحد. . قبل قليل غادرنا خالي وخالتي وأولادها، وقد كانت تصيح أمامهم وتقول جميعكم خونة بلا ضمير، وأمي خائنة وقاتلة إلى آخر كلامها الغريب. . طلبنا من أصغر مهدوي فكلمها بالهاتف فلم ينفع معها، وقالت له أنت يا أصغر أشرف من كل من في هذا البيت، وأحذرك أن يخدعوك وتأتي إلى هنا، إنهم يدبرون ضدك مؤامرة كما دبروها ضد أبي. .

ـ لا بأس، لا بأس. . أعطني مستا. . .

ـ مستا، السلام عليكم يا ابنتي

ـ بابا، قلبي يا بابا، أنت ملاك يا بابا. . وأغمي على مستا، فقال لهم الدكتور عالجوها حتى تفيق وأعطوني شهريار. . وتحدث مع شهريار، فطمأنه وأوصاه بوالدته وأخيه وأخواته، ثم تحدث مع مستا فهدّأ روعها، ووعدها بأن

يأتي بها إلى إيران إذا تأخر أكثر من ثلاثة أشهر، وأكد عليها بأن تغير أسلوبها معهم وتعمل على إقناعهم بزيارة إيران. . قال لها في ختام كلامه:

ـ هل تعديني بذلك يا مستا؟

ـ سوف أحاول يا بابا، الحمد لله أني أطمأننت عليك. .

حدثهم الدكتور جميعاً وطلب منهم أن يقفلوا هذه المواضيع نهائياً لأنها لا تناسب أحداً منهم. . فوعدوه بذلك. .

*

كان يستعرض المشكلة مع الدكتور حسين وإذا بجرس الهاتف يرن:

ـ عليكم السلام يا أصغر، كيف حالك. .

ـ أنا بخير يا عم، لكن أرجوك أن تتصل بالبيت وتهدئ الوضع خاصة وضع شهريار ومستا، الحمد لله أنهما أصبحا إلى جانبك مئةبالمئة ،ولكن يجب أن يحفظا علاقتهما بأمهما وبالبقية. .

ـ كلمتهم قبل قليل، كلمتهم مطولاً يا أصغر، أرجو أن تطمئن، لقد وعداني أن يكونا كما أريد، وقد دعوتهم كلهم إلى زيارة إيران.

ـ الحمد لله، وأرجو يا عم أن تتصل بمحاميك أيضاً وتخبره أن يسحب الدعوى الموجهة ضدنا. .

ـ من قبل من؟

ـ من قبلك يا عم.

ـ ماذا تقول. ؟

ـ هذا ما حصل ، فقد اتصلوا بنا يوم الجمعة من مكتبه يخبروننا بأنهم أقاموا دعوى علي وعلى محسن وعلي بأننا المسؤولون عن حادث الاعتداء عليك،

لأنك مناهض لنظام الجمهورية الإسلامية، وأننا ندير مجموعات إرهـابية. . قالوا إما أن تحضروا للتفاهم مع المكتب، أو تأخذ الدعوى مجراها.

ـ حسناً، سوف أتشاور الآن مع الدكتور حسين وأتصل بك. .

ـ الدكتور حسين عندك، أرجو أن أكلمه.

ـ عليك السلام يا أصغر، كيف حالك، ما قصة هذه الدعوى. ؟

ـ أحتمل يا أخ حسين أن زوجة الدكتور طلبت من المحامي إقامة هذه الدعوى بدون علم الدكتور طبعاً. . قال مكتب المحامي إنهم أرسلوا لنا صورة عن الدعوى المقامة ضدنا، وإذا كنا غير مستعدين للتفاوض والمصالحة فسوف تأخذ مجراها. .

ـ هل لهذا المحامي علاقة بالمنافقين. ؟

ـ لا أعرف، ولكن بيت أخت زوجة الدكتور لهم علاقة بهم، وقد اتصل هذا اليوم أحدهم وتكلم بالفارسية، شتم وهدد وقال أنتم مسؤولون عن سرقة الدكتور بهرامي، أنتم خدرتموه وأرسلتموه إلى إيران، وأعطانا مهلة أسبوعين لإعادته، وإلا فإنهم سيقومون ضدنا بأي عمل. .

ضحك الدكتور حسين، ثم قال:

ـ لا بأس، لا تخف يا أخ أصغر. . لا تبال، وأفهمهم عدم مبالاتك. . سوف نتصل بك. . أهم شيء أن تكون مطمئناً واثقاً، هل أنت كذلك. ؟

ـ طبعاً إن شاء الله يا دكتور حسين. .

*

نظر حسين إلى الدكتور بهرامي فرآه يفكر ولكنه لا يظهر عليه أثر الارتباك. .

ـ بماذا تفكر يا دكتور؟

ـ أفكر في أسرار هذا الامتحان الإلٓهي لي ولعائلتي.

ـ وإلى ماذا توصلت؟

ـ توصلت إلى أن كل ما حدث ويحدث فيه هدف، والهدف الإلٓهي دائماً جميل..

ـ يعني أنك مطمئن؟

ـ تماماً والحمد لله.

ـ وماذا تفكر عملياً.؟

ـ الشيء الواضح عندي أن لا أعود إلى السجن الغربي، وأن آتي بشهريار ومستا ليعيشا معي، وأترك الباقين وشأنهم.. ولكن المشكلة هي، كيف أمنع الضرر عن هذا الملاك الطاهر أصغر وزملائه في مركز الإعلام..

ـ تفكيرك جيد يا دكتور، الحمد لله أنك تعيش حلاوة الإيمان في وسط المشكلة ولا تنسى الله تعالى.. يا دكتور بهرامي، الذي لا يرى جمال الفعل الإلٓهي والهدف الإلٓهي في البلاء، لا يرى جمال الحياة.. سوف أترجم لك هذه الحديث الشريف «لَا يَذُوقُ عَبْدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» يعني أن ما حدث كان يجب أن يحدث، أما لماذا، فلألف سبب وسبب نعلمها أو نجهلها، المهم أنه كان يجب أن يحدث.. وما لم يحدث، كان يجب أن لا يحدث لألف سبب وسبب أيضاً..

ـ ألا يعني هذا أن ننفي حرية الإنسان؟

ـ كلا بل يعني أن ننفي اعتراض الإنسان واستهلاك أعصابه في غير محله.. يعني التسليم لأمر الله الذي هو درجة عالية من الإيمان.

ـ سلمنا لأمر الله، ولكن أين أنا من درجات الإيمان العالية.؟

ـ ما دمت سلمت لأمره يا دكتور عن اطمئنان ورضا، وقمت بما عليك من حكم شرعي . . فأنت أسعد من عليها . . وتوقع كل خير . . اسمع هذه البشرى من سيد المرسلين صلى الله عليه وآله ، يقول: «مَا عَجِبْتُ لِشَيْءٍ كَعَجَبِي لِلْمُؤْمِنِ لَوْ مَلَكَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَلَوْ نُشِّرَ بِالْمَنَاشِيرِ لَكَانَ خَيْراً لَهْ» إن هذا يعني التأمين الإلهي الشامل يادكتور، ما دام المؤمن قائماً بما عليه من تكليف شرعي . .

ـ بشرك الله بالخير، ادع لي يا أخ حسين أن أقوم دائماً بما عليّ من تكليف شرعي . .

تشاورا في معالجة المشكلة يقلبان وجوهها فلم يصلا إلى نتيجة . . فقال حسين :

ـ أرجو أن نترك القرار في الموضوع إلى الغد، لعل الله أن يهدينا، وقد أصبح الوقت متأخراً، وعلينا أن نذهب صباحاً إلى وزارة العلوم .

منطق زوجتي

قبل أن يتجها إلى وزارة العلوم، تبسم حسين وقال:

ـ من المحتمل أن ينتظرنا اليوم بلاء آخر يا دكتور، أقـول ذلك حتى لا تفاجأ، لقد حدثني محمد نجاتي عن هذا الموظف الذي طلب مقابلتك، وعن مناقشته له. . وأنت تعرف أنه مازال يوجد في إدارتنا نوعيات سيئة. .

ـ توكلنا على الله يا دكتور حسين.

ودخلا إلى غرفة سكرتير السيد (ج) وقـدما لـه ورقة صغيـرة فيها اسم صاحب المعاملة وتاريخ المقابلة، فقال لهما السكرتير:

ـ اجلسا الآن، ولكن يدخل فقط صاحب المعاملة.

ونحو الساعة العاشرة، صدر الإذن للدكتور بهرامي أن يدخل إلى مقابلة المسؤول المختص. . كان مكتبه فخم الأثاث جيد الترتيب، وكان هو يجلس على كرسي متحرك وراء طاولة كبيرة كاملة الأثاث والتشكيلات، وهو منكب يتصفح أوراق معاملة. . تقدم الدكتور في الغرفة وسلم فنهض وجاء من خلف طاولته فاستقبله ببشاشة وجلس إلى جانبه:

ـ أهلاً بالدكتور بهرامي، الواقع أننا نفتخر بأمثالك من الأدمغة الإيرانية، لقد أعجبت كثيراً بهذه الشهادات، أربع شهادات دكتوراه دولة، وشهادات خبـرة طويلة وتقـدير من المستشفي والجمعيـة الملكية، وعشـرات البحـوث الأصلية. . الواقع أنك تعبت على نفسك كثيراً يادكتور،ونحن بحاجة إليك،

ولكنك تعرف الوضع عندنا وتعرف ظروف العمل والمعيشة، من المؤكد أنك سوف تلاقي صعوبات كثيرة، وما أدرى هل تستطيع أن تتحملها أنت وعائلتك . .

ـ طبعاً عندما جئت حسبت حساب الصعوبات . .

ـ الحساب شيء والتحمل الفعلي شيء آخر يا حضرة الدكتور . .

ـ إن شاء الله عندي الاستعداد للتحمل الفعلي .

ـ لعلك لا تعرف الصعوبات يا حضرة الدكتور، هل رأيت أحداً من الذين كانوا في السابق وتركوا، أو الذين جاءوا جديداً . ؟

ـ كلا، لم أر أحداً . .

ـ بعضهم تركوا وذهبوا إلى بريطانيا، أما رأيت منهم أحداً . ؟

ـ كلا . .

ـ هذا ممكن لأن الذين ذهبوا إلى بريطانيا قليلون، فالغالبية يذهبون إلى أمريكا، طبعاً فالحياة هناك أحسن . . على أي حال أنا من باب مسؤوليتي الإدارية يجب أن أضعك في الجو، وأبين لك ظروف العمل والمعيشة هنا . . مثلاً مشكلة السكن، قد لا نستطيع نحن ولا وزارة الصحة أن نحلها لك . . ومسكلة التعيين، فقد لا يعينوك أكثر من أستاذ مساعد . . والراتب . . وأشياء من هذا القبيل . .

ـ أرجو أن توضح لي ماذا تريد أن تقول لي .

ـ لقد وضحت لك . . هذه ظروفنا والخيار بيدك . .

ـ يعني تنصحني أن أبقى في مكاني . .

ـ إذا قلت أنصحك بذلك فهذا يخالف إيماني بالجمهورية الإسلامية وحرصي على خدمتها، ولكن يمكنك أن تفكر وتجيبني بعد أسبوع أو شهر مثلاً،

هل باستطاعتك أن تتحمل صعوبات العمل هنا، أم تصرف النظر عن الطلب. ؟

- لا، لا أصرف النظر عن الطلب، فقد فكرت مسبقاً أرجو أن تمشّي المعاملة قانونياً. .

- كما تريد يا دكتور، ولكن هل عندك وقت لمتابعة المعاملة بنفسك. ؟

- وهل يجب أن أتابعها بنفسي؟

- في بعض الأمور نعم.

- وهل بقي منها الكثير؟

- ما زالت في أولها يا دكتور.

- وكم تحتاج من الوقت؟

- إذا انتهت في ثلاثة أشهر فهذا من حظك، وقد تطول ستة أشهر. .

فكر الدكتور، ثم قال:

- لا بأس، أنت أكمل ما يتعلق بك، ولتأخذ مجراها القانوني. .

- كما تريد يا دكتور، إذن أرجو أن تأتيني بنسخ مصدقة من الشهادات. .

- والنسخ المقدمة لك، أليست مصدقة. ؟

- تاريخها قبل أكثر من ستة أشهر. .

- وما علاقة التاريخ باعتماد هذه الوثائق. ؟

- هذه مسؤوليتي وأنا أعرفها يا دكتور. .

- لم أعرف ماذا تقصد.

- أقصد من حقي أن أدقق في الوثائق التي تقدم إلي.

- يعني عندك شك فيها. ؟

- هذا شغلي وليس شغلك يا دكتور، ونهض واتجه إلى كرسيه وهو يقول: -

إذا أردت أن تمشي معاملتك فجئني بكتاب يؤيد صحة الوثائق من قسم معادلة الشهادات.

ـ هذا قسم في نفس وزارتك وبإمكانك أن تطلب منه ذلك أيها الأخ..

ـ لا، أنا لا أطلب، أنا لست صاحب المعاملة...

خرج الدكتور من الغرفة وهو يبتسم، فنهض حسين مشيراً إليه بالذهاب، ولكنه كان بحاجة لأن يستجمع أفكاره، فجلسا..

ـ ما الخبر يا دكتور؟

فكر الدكتور بهرامي طويلاً وهو يبتسم، ويتعجب، ثم قال:

ـ ما أدري ماذا أقول، ولكن المؤكد أني كنت في هذه الغرفة في مناقشة مع زوجتي، إنه نفس المنطق الذي تتكلم به زوجتي حرفياً..

فضحك حسين، وأخبره الدكتور بما حدث، وعادا إلى البيت..

*

هذه البنت وهذه الأم

صليا الظهر، وقرأ الدكتور حسين شيئاً من القرآن، وأخذا يتحدثان في معالجة المشاكل فقال الدكتور حسين وهو يبتسم:

ـ أليس من الأفضل يا دكتور أن نقوم بتجميد مشكلة الزوجة هناك، إلى أن ننتهي منها هنا؟

تبسم الدكتور بهرامي قائلاً: ـ

ـبلى،وقد فكرت أن أتصل بأخيها ديفيد فهو الذي يستطيع أن يؤثر عليها، ولكن لم أجد شيئاً أقنعه به..

ـ ألم تفكر بالاتصال بها؟

ـ لا ينفع يا دكتور حسين، فهي من أولئك الزوجات اللاتي يشعرن بالانتماء إلى أهلهن فقط، ويشعرن بالغربة عن الزوج والأولاد إلى آخر عمرهن..

ـ والاتصال بالمحامي؟

ـ لا أعرف كيف دفعوه إلى هذا العمل باسمي.. ولا أعرف ماذا أقول له..

ـ ألا ينفع أن تقول له إنك لم تكلفه بهذه الدعوى؛وأنه يحق لك أن تلاحقه قانونياً إذا أقامها باسمك.؟

ـ كما رتبوا هذه المسألة فقد يرتبون غيرها يا دكتور..

ـ ألا ينفع أن تطلب منه تجميد القضية ما دمت في إيران، لأن الدعوى على موظفين في مكتب الإعلام للجمهورية الإسلامية قد تضرك، وأنت في إيران. ؟

ـ فكرت في أن ذلك قد يكون مقصوداً منهم.

ـ ألا ينفع أن تطمئنهم بأنك سوف ترجع عندما تبيع قطعة الأرض في جالوس. ؟

ـ نعم، هـذا قد يطمئنهم كلياً. ولكنـه أمر غـيرواقعي،فلا أنـا أفكـر بالرجوع، ولا أريد أن أبيـع أرضاً إلا إذا كـان ضرورياً لتبرئـة ذمتي وذمة والدتي. .

ـ أحسنت يا دكتور، لنبق هذا الوجه لحالة الضرورة، ولكن لنتصل الآن بأصغر لعل عنده جديداً. .

واتصل الدكتور حسين بأصغر. .

ـ كيف حالك يا أصغر، أرجو أن تنفعك الروحية التي كسبْتها في الحج في هذه الأيام.

ـ إن شاء الله يا دكتور، وأستمد منك روحية. .

ـ هذا اليوم ذهبنا أنا والدكتور إلى وزارة العلوم من أجل المعاملة، ولكن ما الجديد عندكم. ؟

ـ لا يوجد جديد، سوى أن ابنة الدكتور مستا اتصلت بي صباحاً،وعلى ما يبدوفإنها كانت تتكلم من خارج البيت،تقول إنها بخير وكانت مسرورة لكلامه معها البارحة، وكانت مطلعة على قضية الدعوى، وقضية تهديـدنا من قبـل المنافقين، وقالت اطمئن مئة بالمئة،وسوف ترىٰ في هذين اليومين نتائج سارة، وأكدت عليّ أن لا أخبر والدها ولا أزعجه بشيء. .

ولكن حسين أخبر الدكتور، وقال:

ـ هذه بشارة يا دكتور، ألا ترى معي أن الحل قد يكون على يدها.

ـ قد يكون فهي ذكية وقوية.. ولكني لا أحب أن يتجرأ الولد على والديه..

*

واتصل الدكتور بزوجته:

ـ كيف حالك يا أليس.؟

ـ لقد أصبت بدوار يا جمشيد، وكله من هذه الملعونة مستا.. بعد حديثك الهاتفي البارحة نهضت وأكلت وليس فيها شيء، ومن الصباح ذهبت هي وشهريار..

ـ كيف سلوكهما معك يا أليس.؟

ـ أنا قلقة يا جمشيد من شهريار ومستا، من كل شيء.. صديقك أصغر يحرضهما عليّ، وكل شيء يتهموني به يقولون أنت وأخوك وأختك.. أنا أريد أن أعرف هل أن أصغر هذا أصبح أعز عندكم مني، هل صرت أنا وإخوتي عدوة لكم.. إذا لم يترك أصغر وجماعته أساليبهم الإرهابية سوف أذهب إليهم في مكتبهم وأهينهم، اسمح لي أن أشتكي عليهم يا جمشيد باسمك، أنا مطمئنة أنهم وراء حادث الاعتداء عليك، البوليس يعرفهم وأنت لا تعرفهم..

ـ كوني منطقية يا أليس، ما هذا الكلام؟ قلت لك لا أريد أن أشتكي على أحد، أنا لا أسمح لأحد أن يشتكي باسمي على أي شخص.. لا يجرك الشيطان إلى مثل هذه الأمور يا أليس، يجب أن تكوني زوجة محترمة وأماً محترمة.. قولي لشهريار ومستا عندما يرجعان أن يتصلا بي، وسوف أشدد عليهما أن يحترماك.. ولا أحب أن أسمع منكم مثل هذه الأحاديث.. مفهوم.؟

ـ نعم يا جمشيد..

الصبر الايراني

كانا يتناولان الشاي بعد طعام الغداء فأخذ حسين يمازحه :

ـ أيهما أطيب يا دكتور، طعام بيتكم أم ماء اللحم الفاخر الذي أعده هذا المؤمن مشتي حسن وزوجته، ومن بعده هذا الشاي اللاهيجاني . ؟

ـ بل هذا ألذّ وأزكى . . ثق يا أخ حسين أني في سعادة عظيمة بعودتي إلى بلدي، وأشعر أن من لطف الله بي أن عرفني عليك أيها الأخ لكي اتعلم منك . . إنك تتناول الأمور والقضايا دائماً من جانبها الجميل السهل . . وهذه فلسفة دينية لتعاطي الحياة . . إن من يعيش معك يشعر بالارتياح إليك وإلى هذه الفلسفة التي تعيشها . .

ـ أي فلسفة يا دكتور، إنما هي محاولة للتشبه بعباد الله المؤمنين، الذين يعيشون الحياة بجمالها دائماً . . حتى وهم في البلاء، حتى وهم في المرض الشديد، حتى وهم ينشرون بالمناشير . هكذا كان أصحاب الأنبياء والأئمة عليهم السلام يصبرون بقلوب راضية مطمئنة، أما أنا وأمثالي فنتصبر تصبراً بقلوبنا القلقة . .

البارحة كدت أفقد صبري يا دكتور بعد أن سمعت أخبار العائلة وأصغر، وها قد رأيت اليوم كيف ظهرت خيوط الفرج من حيث لا نحتسب من نفس بيتك . . والبوم في وزارة الإعلام شعرت أنك أكثر صبراً مني ،فحمدت الله على

نعمته عليك. . إن من أهداف هؤلاء المنافقين في الإدارات، أن يجعلونا نفقد صبرنا ونترك خدمة هذه الدولة، أو نخطئ في التعامل معهم قبل أن ينكشفوا، فيصبحوا مظلومين في الظاهر. . إن هدفهم الخبيث هو التخريب على هذه الدولة وتشويه سمعتها. . ولا حل لمشكلتهم إلا بالصبر عليها. . ومعالجتها حالة حالة عندما تنكشف. .

هل سمعت المرأتين اللتين تنازعتا على طفل، وجاءتا إلى أمير المؤمنين عليه السلام كل منهما تدعي أنه ابنها. . فقال عليه السلام إذن نقسمه بينكما. . أما الأم الحقيقية فصاحت وقالت لا، أعطوه لها، بينما رضيت الأم الكاذبة بأن يقتل أو كادت ترضى. . المؤمنون هم أم هذه الثورة وهذه الدولة. . نحن أم الطفل يا دكتور، ويجب أن نصبر. . فما رأيك. .

ـ اطمئن يا أخ حسين، فإن هدف خدمة هذه الدولة هدف كبير عندي، ومصيري. . ولا تخش أن أصاب بردة فعل من شخص في وزارة أو عشرين شخصاً. . لقد فكرت ونحن عائدون من وزارة العلوم، ووضعت لنفسي برنامجاً، ولكن بقيت فيه فقرة تحتاج إلى مساعدتك. . فمن الصباح إلى آخر الدوام في متابعة المعاملة أنا ومشتي حسن ولو طالت ستة شهور. . وليلاً في القراءة. . ويوم الجمعة مع محمد علي ابن أخي في قم، للاستفادة من الشيخ الطبري وغيره من العلماء. . وأريد مساعدتك في فترة العصر، أريد فيها عملاً في مستشفى أو مستوصف أو عيادة، عملاً ينفع الناس، أريد أن أشعر بعد أربعين سنة من البعد أني بدأت أخدم أهلي وشعبي. . ودمعت عينا الدكتور، وتابع:

ـ لو تعرف كم كنت سعيداً عندما عالجت أولئك المؤمنين في بيتك في مشهد. .

فبكى الدكتور حسين وقال:

ـ الحمد لله، أنا مطمئن عليك أيها الأخ، ومطمئن إلى أن الله تعالى سوف لا يتركك.. زادك الله إيماناً وتسليماً..

*

العاصفة

كان الدكتور بهرامي يطبق برنامجه الذي ارتضاه لنفسه في طهران . . يعمل ساعتين يومياً في مستوصف قريب بأجرة رمزية، ويقرأ في التفسير والتاريخ والسياسة . . ويتابع معاملته في وزارتي العلوم والصحة، يرافقه مشتي حسن، ويساعده أحياناً محمد نجاتي ومرتضى مهدوي أخو أصغر، ويساعده الدكتور حسين . . ويزوره من حين لآخر . . لقد قرر أن يواجه الروتين الإداري والسيد «ج» بالصبر إلى آخر الطريق . .

كان يتصل أسبوعياً مرتين أو أكثر بعائلته وبأصغر، وقد اطمأن إلى أن المشكلة انتهت أو تجمدت، فمكتب المحامي لم يرفع الدعوى، واعتذر تلفونياً من أصغر وزملائه، والتهديد لأصغر لم يتكرر، والأولاد انصرفوا إلى أعمالهم، والأم سكتت عن تحركاتها، وشهريار ومستا عادا يعيشان معهم في انسجام، أو في هدنة . .

لكن الأحداث كانت تجري في بيته بشكل آخر وبسرعة، وقد اتفق الجميع على شيء واحد فقط هو أن لا يخبروه، أما شهريار ومستا فلا يريدان إزعاجه، وأما الآخرون فلا يريدونه أن يعرف . .

*

بدأت رياح العاصفة منذ قررت مستا أن تكشف مؤامرة أمها وخالها ضد أبيها، قالت ذات يوم لشهريار:

ـ يا شهريار أنت توافقني على أن بابا مظلوم وضحية . ؟

ـ نعم .

ـ أنا أقول إن كل ما حدث لأبي وأصغر هو من تحركات والدتي وخالي ديفيد . .

ـ محتمل يا مستا، ولكن والدتي تقسم الأيمان أنها لا علم لها بشيء . .

ـ غير صحيح ، غير صحيح ، وأريدك أن تساعدني يا شهريار حتى نكشف المؤامرة .

ـ بماذا؟

ـ نربط آلة تسجيل على هاتف المنزل بدون أن تعرف والدتي، وسوف ترى . .

ـ لا ، لا يا مستا . . هذا عمل غير أخلاقي .

ـ كلا يا شهريار، هذا عمل أخلاقي جداً .

ـ نسأل أصغر . .

وسألا أصغر، فقال لهما هذا عمل تجسس، والتجسس حرام إلا في حالات نادرة، ولا بد له من إجازة من الفقيه ولي الأمر أو من ممثله . . ولكن مستا لم تقتنع ، فسكتت أمام أصغر وشهريار، ثم نفذت العملية وحدها . .

لم تمض إلا أيام حتى اكتشفت مستا خيوط المؤامرة وأصبحت تملك أسرار اللعبة ، فقررت أن تلعب بأعصاب المتآمرين جميعاً ،وأن لا تخبر شهريار وأصغر إلا عند الضرورة . .

اكتشفت علاقة والدتها عن طريق بيت خالتها بالمنافقين ، الذين كانوا وراء حادث الاعتداء على الدكتور، ووراء دفعها إلى الشكوى على أصغر وزملائه . .

واكتشفت الصفقة الخطيرة التي أقدم عليها خالها وأمها مع المحامي، لا على الشكوى على أصغر فقط، بل على نقل ملكية كل شيء باسم الدكتور وشهريار وتسجيله باسم أمها . .

كانت تحتفظ بنسخة من أشرطة تجسسها عند أصغر دون أن يعرف، تقول له هذه الأشرطة لوالدي، ولكن أبقها عندك ولا ترسلها له الآن . . وبدأت تبعث لهم بالبريد الرسائل المسجلة ومعها الكلمات اللاذعة :

أرسلت شريطاً إلى السيد نصيري الذي دبر حادث الاعتداء على والدها، وهو يتحدث مع أمها عن بقية المبلغ لـ«الشباب»، وهي تشكره لأنهم لم يضربوه أبداً على وجهه . . وكتبت مع الشريط بطاقة «من هم الإرهابيون أنصار الخميني أم أعداؤه» وأرسلت الشريط نفسه إلى أمها ومعه بطاقة : «عاشت الزوجة الوفية لزوجها»

وأرسلت شريطاً إلى المحامي يتحدث فيه مع أمها عن عمولة بنسبة أربعة أو سبعة بالمئة ويتخوف من المسؤولية القانونية، ومعه بطاقة عليها : «عاشت عدالة القانون في بريطانيا العظمى» . .

وأرسلت شريطاً إلى خالها ديفيد وخالها جورج، وإلى هيرد ضابط المخابرات، وخالتها . . . ومعها بطاقات لاذعة . . وبدأت الأشرطة تصل وبدأت الأعصاب تتمزق . .

كانت تتفرج على أعصاب أمها تحترق، وهي لا تستطيع أن تفعل لها أو لشهريار شيئاً، بل لا تستطيع أن تخبر أولادها حتى عن وصول الشريط إليها، ولا عن البطاقة المكتوبة بالآلة الكاتبة وليس بخط مستا . فأصيبت بالدوار، ولم تعد تطيق أحداً أو ترتاح إلى شيء . . كانت النتائج المباشرة التي حصلت عليها

مستا في الأسبوعين الأولين، أن المحامي رفض إقامة الدعوى على المكتب الإعلامي، قال لأليس وديفيد: أرجوكما لا أريد أن أدخل في مشاكل مع حكومة الخميني. . وكلف مكتبه بالاتصال بأصغر معتذراً بأنه حصل التباس، دون أن يبين ما هو ذلك الالتباس. . أما السيد نصيري ومجموعته المنافقة فقد انهزموا ولم يعاودوا تهديدهم. . ولعله أصيب بالخوف وابتعد حتى عن بيت خالتها، أو لعلهم أبعدوه، فقد كانت تسألهم عنه فيتضايقون من سؤالها، ويقولون لا علم لنا به ولا نراه. .

ولكن دم الحقد أخذ يغلي في رأس والدتها وخالها عليها وعلى شهريار. . ولم يعودوا يتكلمون من هاتف المنزل حرفاً عن الموضوع. . رأت والدتها ذات يوم تتكلم من الهاتف العمومي قرب المنزل، فضحكت في قلبها، وتقدمت إليها قائلة:

- مساء الخير يا ماما.

- مساء الخير، «باي». . وقطعت المحادثة وتجهم وجهها.

- لعل هاتف البيت معطل يا ماما.

- لا ليس معطلاً. . اتركيني وشأني. . اتركيني أعصابي منهارة. .

ولكن أمها وخالها قررا المضي في خطتهما. . كانت ترى اجتماعاتهما المقفلة وترى أن برويز أخذ يشاركهما فيها، ويتصل من الهاتف العمومي أيضاً، وقد ذهب مع أمها إلى ويلز في نهاية الاسبوع. .

واستطاعت مستا أن تعرف أخيراً من موظفة في مكتب المحامي أنهم سجلوا كل شيء باسم والدتها. .

*

يا أخي ياشهريار،من صباح الأمس وأنا في دوامة،إلى أن علمني الله كيف أدافع عن أبي.

ـ ما الخبر.؟

ـ ياشهريار، أنت كنت لا تصدقني، والآن عندي كل المستمسكات، سوف أعطيك الأشرطة المذهلة عن جرائمهم لتسمعها وتحكم.. ولتعرف أنت وأصغر أن التجسس عليهم حلال وعمل أخلاقي..

ولكن الجريمة الجديدة أنهم تواطؤوا مع المحامي، وسجلوا كل شيء باسم أمي.. لقد أخبرتني الموظفة في مكتب المحامي،ووعدتني أن تسرق نسخة عن كل عقار ومنها العقار الذي باسمك في شرق لندن.. ولكني اهتديت إلى حل أرجوك يا شهريار أن توافق عليه، تذكرت أن والدي عندما ذهب إلى الحج سجل لك وكالة عامة.. إنك تستطيع أن تتصرف، أرجوك أن تمنع تصرفهم ومؤامرتهم..

وفتحت مستا الخزانة وأعطته الأشرطة، وأخذ شهريار يستمع إليها ويندهش ويتألم،.. ثم أخذ يبكي.. ثم قال لمستا اتركيني يا مستا.. أنا ذاهب إلى غرفتي أفكر في هذه المصيبة التي حلت بنا، وفي الشيطان الذي يريد أن يخرب هذا البيت..

*

شهريار: ـ أرجوك يا أمي، أرجوك يا برويز لنجلس جميعاً على العشاء فأنا عندي حديث..

أليس ـ كما تريد يا شهريار، تعالي يا فيدا وليدا، اذهب وادع الآنسة مستا..

وجلس الجميع لتناول طعام العشاء، وكانت المرة الأولى التي يجلسون جميعاً بعد سفر الدكتور. كانت أليس متماسكة الأعصاب فقد ذهب عنها أكثر قلقها بعد أن سجلت العقارات باسمها، وحاولت أن تظهر مع الجميع بمظهر الأم فتسكب لهم الطعام.. وعندما انتهوا من العشاء قالت:

ـ تفضل يا دكتور شهريار، نحن حاضرون.

أنا فكرت بحالة والدي، إنه اختار طريق الدين، وأعطاه الله إيماناً كبيراً من الحج، وأعطاه الله أخاً وأعطانا نحن عماً جديداً وأولاد عم.. ومع أنهم أصحاب تدين وإباء لا يريدون منا شيئاً، ولكني أشعر أن والدي يجب أن يعطيهم.. فكرت أن قطعة الأرض في إيران قد لا تحكم لنا بها المحكمة.. فلماذا لا نتفق نحن على شيء، مثلاً نبيع عقاراً هنا ونتصل بوالدي نقول له أن يقدم ثمنه هدية إلى بيت عمنا..

ـ هذا هو حديثك يا شهريار، باختصار أنا شبعت من سخافتكم ومن جنونك أنت ومستا.. لا أحد يستطيع أن يتصرف ببوصة واحدة من العقارات لا أبوك ولا أنت، كلها مسجلة باسمي، والذي يريد أن يعطي منكم لعمه، لعمته، لحكومة الخميني، فليعط من جيبه وراتبه..

ـ يا ماما من الذي سجل العقارات باسمك.

ـ سجلها أبوك قبل أن يسافر، وإذا أردت أن تسأله فهذا الهاتف اسأله.. كفاني تلف أعصاب منك ومن مستا يا شهريار.. أنا عارفة أيضاً أنكما تعملان ضدي وضد أخوالكم وخالتكم، وأن أباكم يريد أن يبقى في إيران، لقد وعدوه أن يزوجوه هناك، وأنتما اذهبا لعنده، كفاني مشاكل، كفاني ظلما منكم..

وأخذت أليس تصرخ وكادت تقع عن الكرسي، فنهض أولادها وأخذوها إلى غرفتها، وسقوها الماء، وهدؤوا روعها. .

أما شهريار فقد ذهل لهذا التصرف وتأكد له كل ما قالته مستا. . قال لها:

ـ كل الحق معك يا مستا، أنت أذكى مني وأشجع. . أنا حاضر لأعمل كل ما تريدين. .

*

طار صواب أليس عندما أبلغها المحامي أنه وصله اعتراض قانوني على تسجيل العقارات باسمها، بأنه عمل غير قانوني لتعلق حق الغير به. . فقد كان الدكتور وكل ولده شهريار بتاريخ سابق، وقد تصرف الوكيل حسب وكالته وطبق القانون، وباع العقارات لأخته مستا، على أن يكون هو المشرف عليها حتى تبلغ السن القانونية. . ومع أن المحامي وعدها بأن يعالج المشكلة، إلا أن أليس أخذت تتصرف كالمجنونة، فذهبت على الفور إلى المركز الإعلامي وشتمت أصغر وزملاءه وهددتهم بكل شيء. . ولم يستطيعو أن يتفاهموا معها بكلمة واحدة. . ثم هجمت على شهريار عندما دخل إلى البيت وشتمته وضربته فبقي معها مؤدباً مطأطئ الرأس. . أما مستا فاستقبلتها أمها من الباب الخارجي بالضرب والشتم، فاستطاعت أن تفلت من يديها بعد أن خدشت وجهها بأظافرها. .

كان مساء رهيباً على البيت، وقف فيه برويز إلى جانب أمه، يقول إن شهريار ومستا يستحقان أكثر من ذلك، لأنهما سيئا الأخلاق مع أمهما. . بينما أخذت ليدا وفيدا تبكيان في غرفتهما. .

ثم توالت المكالمات الهاتفية على شهريار ومستا من خالهما ديفيد وجورج وخالتهما، وكلها توبيخ وتأنيب، ولم تخل من التهديد . .

ـ قومي يا مستا نخرج من هذا البيت الذي حل فيه الشيطان . .

وأخذا بعض أسبابهما وخرجا، دون أن تشعر بهما أختاهما، ودون أن تقول لهما أمهما أو برويز إلى أين . .

*

إطفاء الحريق

اتصل أصغر بالدكتور حسين، فقيل له في طهران: ففرح بذلك لأنه يسهل التشاور في المشكلة، فاتصل بهما في طهران.

ـ عليكم السلام يا أخ أصغر، كيف حالك، هل أرسلت لنا «إيخمان» آخر..

ـ إنك مرح دائماً أيها الأخ العامل.. وقص عليه تطورات المشكلة، خلال الأسابيع الخمسة من سفر الدكتور.. ثم تكلم مع الدكتور فتألم لما سمعه كثيراً ولكنه بقي رابط الجأش يسأله عن جوانب من المواضيع.. ثم وعده أن يتصل به..

*

ـ السلام عليكم يا أصغر.. أرجو أن تخبر شهريار ومستا بشكل حاسم ونهائي أني لا أرضى عنهما إذا واصلا ايذاء أمهما وأخوالها وأخيهما.. ولا أرضى عنهما إلا إذا جاءا إلى طهران في أول طائرة.. أرجوك يا أخ أصغر أقنعهما بكل وسيلة، وأرسلهما إلينا في أول طائرة هذا رأيي النهائي ورأي الدكتور حسين أيضاً..

ـ وأنا معكما يا دكتور، فأنا أخشى أن يتطور الوضع إلى الأسوأ، ولا أراهما يستطيعان السكوت.. وأرجو أن تخبر والدتهما أني وزملائي سامحناها من أجلك يا عم..

ـ شكراً يا أصغر، واعتذر لي من الإخوان. . أنا خجل منكم كثيراً. . أرجو أن تسامحوني. .

*

ـ «آلو» أليس. . مساء الخير. . كيف حالكم. ؟

ـ يا جمشيد أنت سافرت وتركت شهريار ومستا يتسلطان علينا ويهينانا جميعاً. .

ـ في أي شيء. ؟

ـ أنت أعطيت وكالة لشهريار قبل سفرك إلى الحج لكي يحافظ على أملاكنا، أم لكي يلعب بها ويبيعها إلى طفلة تحت السن القانوني. ؟

ـ طبعاً ليحافظ عليها. .

ـ شهريار أصبح مجنوناً أكثر من مستا، وأخبرك أنه باعها جميع ما نملك. . يعني نحن صرنا أصفاراً، صرنا من خارج هذه العائلة، وهم فقط البشر.

ـ اسمعي يا أليس. . أنا قبل قليل فقط عرفت بمشاكلكم مع بعضكم، بما فعلته، ومافعلوه،اسمعي ما أقول: لقد جررتم هذه الأسرة إلى مستوى لا يليق بأحد أبداً. . أنت مخطئة وهما مخطئان، وسوف أتصل بهما وأوبخهما وأبعدهما عنك، وآتي بهما إلى هنا. . لا أسمح لهما ولا لك بهذه الألعاب الشيطانية. . أنا أعدك إذا تركت هذه المشاكل أن أسجل لك نصف ما أملك. . وأجبر الأولاد كلهم على احترامك. . مفهوم. .

ـ كما تريد يا جمشيد، أرجوك خذهما عني. . لم يبق عندي أعصاب تتحمل. .

ـ هل تعديني بالسكوت وعدم تشويه سمعتنا أكثر مما حصل؟

ـ نعم أعدك، وهل ستتأخر في إيران. . لقد مضى عليك أكثر من شهر. .

ـ تأخرت أم لم أتأخر، أعدك بأن تكوني راضية ،وأحفظ لك جميلك عليّ في حياتي، إذا أطعتني وسكتّ. .

ـ أعدك بذلك. .

*

واتصل شهريار ومستا بالدكتور، من بيت أحد أصدقائه، وحاولا معه بكل أسلوب أن يسمح لهما بتأخير سفرهما إليه، ولكنه لم يسمح وألزمهما بالسفر. . يريد أن يحفظ سمعة العائلة ويحفظ علاقتهما بهذه الأم مهما كانت. . وألزمهما أيضاً أن يذهبا إلى البيت،ويعتذرا من أمهما،ويودعاها قبل السفر. .

*

أطاعا أباهما ودخلا البيت مساء بقلب مفتوح معتذرين، فأثر ذلك في نفس أختيهما فبكتا، وأثر قليلاً في نفس برويز، ولكنه لم يؤثر في قلب هذه الأم التي بقيت جامدة الوجه والملامح ،وهي ترى دموعهما وحقائبهما، ولم تقل لهما باتا هنا الليلة يا ولديّ، ولم تخرج معهما إلى الباب الخارجي؟؟

حياة الورود في طهران

قال له مشتي حسن: ـ ألا تقيم حفلاً يا دكتور على تمام هذه المشكلة بخير. ؟

ـ إنها تستحق حفلاً يا مشتي حسن، وأنت تستحق جائزة، فقد تحملت معي نحو شهرين،انتظاراً في الدوائر وتنقلاً من دائرة إلى دائرة. . وهل من المتعارف عندكم أن يقيم الإنسان حفلة عندما تنحل عنده مشكلة . ؟

ـ يعني عندما يتحقق للإنسان أمر مهم، أو تندفع عنه مشكلة، فإما أن يكون قد نذر نذراً، أو يقوم بعمل ما. .

ـ عمل مثل ماذا؟

ـ عندنا في قرى خراسان، يعطي شيئاً للمسجد أو الحسينية مثلاً، أو يعمل وليمة، أو يوزع حلوى. . أو يذهب لزيارة الإمام الرضا عليه السلام، ويعمل شيئاً هناك. .

ـ وماذا ترى أن نعمل نحن؟

ـ أرى أن تذهب أنت والأولاد ليلة الجمعة إلى زيارة حضرة شاه عبد العظيم، تزورون وتفرقون الحلوى. . (يقصد مقام عبد العظيم الحسني أحد كبار الرواة المجاهدين من أبناء الإمام الحسن السبط، وهو معاصر للإمام الرضا، وقبره في مدينة الري القديمة، التي أصبحت اليوم جزءاً من جنوب طهران).

ـ لا أريد أن أثقل على الأولاد يا مشتي حسن، وأريد الليلة أن أجلس معهم وأحدثهم، فهل تتفضل وتذهب نيابة عنا أنت وزوجتك . .

ـ هذا سروري يا دكتور، أصلاً أنا وزوجتي نذرنا إذا انحلت المشكلة في هذا الشهر أن نزور ونعطي شيئاً للجبهة . .

ـ كم نذرتما أن تعطيا للجبهة . ؟

ـ مئة تومان .

ـ أشكرك كثيراً يا مشتي حسن، إذن تذهب اليوم أنت فتزور عني وعن شهريار، والحاجة تزور عن البنات، وتوزعان الحلوى هناك وتتبرعان للجبهة . .

*

في عصر يوم الخميس كان مشهداً جميلاً حيث الدكتور وشهريار عند الباب يقدمان إلى مشتي حسن كل منهما صندوق الحلوى وباقة قرنفل، ليوزعها عند مقام عبد العظيم، ومبلغاً للجبهة . . وزوجته في الصالون تتسلم هدايا البنات وباقات الورود . . لقد ذهبن هن وشهريار إلى شارع ولي عصر، واخترن أحسن الحلوى والورود، وكتبن عليها اسم أبيهن وأخيهن وأسماءهن . .

والمشهد الجميل الآخر عندما أخذوا يعدون مكان جلستهم في الحديقة ومكان الصلاة، فقد أرادوا أن يحتفلوا مع بعضهم بهذه المناسبة أو المناسبات السعيدة . . فالدكتور بعد غد يباشر عمله في جامعة طهران ومستشفى تابع لها، وشهريار يباشر عمله خلال أسبوع في مستشفى سينا، وفيدا وليدا قد باشرتا عملهما في قسم الأشعة بنفس المستشفى . . ومستا تأمل أن يتم قبولها في كلية الطب . .

*

كان أذان المغرب من الراديو يملأ الحديقة، ويعطي الفرح الذي في قلوبهم معنى الشرعية والقداسة. . كما يعطي الوضوء ماء طهران وقطراته معنى مقدساً. .

توضؤوا ووقفوا للصلاة على سجادات من نوع واحد،أهدتها لهم عمتهم رقية، لقد اشترتها من مشهد وباركتها بالمسح بضريح الإمام الرضا عليه السلام. . أهدت لهم سجادات بعدد أفراد العائلة حتى برويز وأليس. . قالت لهم تفاءلوا بالخير يا عمتي، وادعو الله أن يهديهما ويأتي بهما. .

عندما يقف الدكتور للصلاة على هذه السجادة اليزدية الجميلة، غالباً ما يتذكر عمته ووالدته. . وأحياناً يتذكر سجادتي أليس وبرويز المطويتين في انتظارهما، ولكنه يصرف نفسه عن التفكير بأمرهما ويستعيد معاني من الصلاة في الحج، ومعاني من صلاة الجمعة في طهران. . أما المعنى الأهم في صلاة اليوم فهو أن أولاده يصلون معه في منزلهم الجديد في طهران، وفي مطلع حياتهم الجديدة.

قالت مستا:

ـ لماذا لا نصلي معك جماعة يا بابا؟ أليست صلاة الجماعة أفضل.

ـ بلى يا مستا، ولكني سألت الدكتور حسين فقال من الأحسن أن تنووا الصلاة فرادى. .

ـ لماذا يا بابا.

ـ لأن إمام الجماعة يجب أن يكون متقياً عادلاً. .

ـ أنت يا بابا متق وعادل، أنا أعرفك تخاف الله ولا تظلم أحداً.

ـ العدالة معناها أن تكون كل أموره حسب الحكم الشرعي يا مستا، مئة بالمئة. . وإن شاء الله تصبح أمورنا كذلك. .

ـ لماذا صلينا خلف الدكتور حسين في بيته جماعة ولا نصلي خلفك. . يعني هو عادل أكثر منك يا بابا. .

ـ أين أنا من الدكتور حسين يـا ابنتي، أموره كلهـا على حسب الحكم الشرعي، إنه متدين من قديم، والعلماء الذين يعرفونه يشهدون أنه عادل. . أنتم لا تعرفونه ياأبت، إنـه من عباد الله الصـالحين، ونحن مـا زلنا في أول الطريق. .

أذَّن الدكتور فيهم وأقام الصلاة، وقرأ لهم بعد الصلاة جزءاً من دعـاء الإمام زين العابدين لأولاده:

«اللَّهُمَّ وَمُنَّ عَلَيَّ بِبَقَاءِ وُلْدِي، وَبِإِصْلاَحِهِمْ لِي، وَبِإِمْتَاعِي بِهِمْ. . إِلَهِي أُمْدُدْ لِي فِي أَعْمَارِهِمْ، وَزِدْ لِي فِي آجَالِهِمْ، وَرَبِّ لِي صَغِيرَهُمْ، وَقَوِّ لِي ضَعِيفَهُمْ، وَأَصِحَّ لِي أَبْدَانَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ وَأَخْلاَقَهُمْ، وَعَافِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي جَـوَارِحِهِمْ. . وَاجْعَلْهُمْ أَبْرَاراً أَتْقِيَـاءَ بُصَـرَاءَ، سَـامِعِينَ مُـطِيعِينَ لَـكَ، وَلأَوْلِيَائِكَ مُحِبِّينَ مُنَاصِحِينَ، وَلِجَمِيعِ أَعْدَائِكَ مُعَانِدِينَ مُبْغِضِينْ. . »

وقرأ لهم ترجمتـه، وشرح لهم معنى صحـة البدن والـدين والأخلاق. . ونهضوا يصافحون بعضهم قائلين: تقبل الله. . تقبل الله. .

*

قالوا: ـ تفضل يا بابا، وجلس الدكتور في المكان الذي اهتموا بإعداده للحفلة، وأخـذوا يكملون الترتيبات الأخيـرة، يأتـون بـالفـاكهـة والحلوى والورود. . وجاءت مستا بباقة ورد بيضاء، وخلفهـا فيدا تحمـل صندوقـاً، وضعت الورد أمام أبيها وقالت:

ـ يا بابا،تقبل منا هذه الهدية الرمزية، باقة ورد بيضاء،مثل قلبك، ودورة تسجيل قرآن بصوت المنشاوي الذي تحبه. .

فشكرهم الدكتور، وقرأ البطاقة المعلقة عليها:

بسمه تعالى:

إلى أبينا الغالي الذي يحب الله كثيراً، بمناسبة بدء عمله في الوطن العزيز.. مع التماس الدعاء.. شهريار، ليدا، فيدا، مستا..

*

كان قلب الدكتور خفاقاً في حديثه مع أولاده أكثر من أي وقت مضى.. تحكي عنه نبراته الحنونة الفرحة، وهذه الدموع الساكنة في عينيه والأهداب..

ـ يا أولادي يا أحبائي، أما أنا فأشعر بأني ولدت من جديد، وأنكم ولدتم من جديد.. أشعر بأن حياتي الماضية كلها فيها شيء واحد جميل؛أنها أوصلتني إلى هذه الحياة الجديدة..

الحياة في ظل الدين جميلة يا أبت، وجمالها واسع واسع متنوع وعميق.. لا يقاس أبداً بالجمال الذي نراه في حياة البعد عن الدين.. والإنسان لا يستطيع أن يقارن بين الحياتين إلا إذا عرفهما بنفسه، أو فكر فيهما بعقلانية..

الحياة بدون قيم هي الجحيم يا أولادي، مهما بدت أول الأمر جميلة ومعقولة.. والقيم، من الذي يحددها، نحن أم الله.؟ نحن البشر علمنا محدود جداً، وأهواؤنا كثيرة.. لا نستطيع أن نقرر القيم الحقيقية لحياتنا.. الله بعلمه المطلق، وحكمته المطلقة، ورحمته المطلقة هو الذي يقررها..

كنت أتحدث في هذا الموضوع مع الدكتور حسين فقال: والقيم لا بد أن تقوم على مبدأ الجزاء، وإلا فإنها تبقى نظريات معلقة.. ولا بد لها من قوانين، وإلا فإنها تبقى نظريات غير قابلة للتطبيق.. ولذلك وضع الله تعالى لنا القيم، على أساس مبدأ الثواب والعقاب، وحددها بقوانين الأحكام الشرعية..

قال: كلما فكرنا وجدنا الأساس هـو الأحكام الشرعية. . وبمقـدار ما ينسجم معها الإنسان يكون التزامه بالقيم، ويكون إيمانه بالله وحبه له، وتكون سعادته وشقاؤه. . قال لي: اجعل هدفك أن تتعرف على الأحكام الشرعية في كل مجالات عملك وتحركك، وألزم نفسك بتطبيقها حرفياً، ثم انظر ما أجمل الحياة وما أسعدها. . فاهتموا يا أولادي بمعرفة الحكم الشرعي وتطبيقه. .

لقد رأيتم السعادة في قلب مشتي حسن وزوجته. . إن هؤلاء المتدينين يا أبت يعيشون الآخرين ويحبونهم. . قال لهما الدكتور حسين هؤلاء مهاجرون في سبيل الله لخدمة الجمهورية الإسلامية وفي خدمتهم ثواب. . وقد رأيتم كيف يعطفان علينا ويخدماننا بأعينهما. . وكيف ذهبا فرحين ليزورا عنا ويدعوا لنا. . كانا نذرا نذراً من أجلنا. . فهل رأيتم مثل هذه القيم والعواطف الإنسانية في المدنية الغربية.؟

تعرّفوا يا أولادي على الجمال والسعادة في حياة المؤمنين وتعلموا منهم. . إنهم يعيشون جمال الحياة ومعانيها بشكل لا يوصف. .

الحمـد لله، الحمـد لله، أني أعيش بقيـة حيـاتي بينهم. . إنها نعمـة لا نستحقها يا أبت أن نعيش مع هؤلاء الناس المؤمنـين ونحسب منهم. . كلما فكرت أني عدت إلى إيران، وأني بعد غد سوف أبدأ محاضراتي في الجامعة على طلاب وطالبات مؤمنين، فيهم الكثيرون من نوعية أصغر، تخنقني العبرة. .

سمعت أنهم قالوا لهم إنه متدين وقد ذهب إلى الحج، فقرروا أن تكون الساعة الأولى احتفالاً بي. . إنها عواطف صادقة يا أولادي يبعثها الدين في نفوسهم. . ونحن يجب أن تنبض قلوبنا بهذه العواطف وهذه الأخلاق، يجب أن نتخلص من جفاف حياتنا المادية في لندن. .

اشكـروا الله يا أولادي أن أنقـذكم من جفاف الحيـاة الغربيـة بل من جحيمها . . وكم أنا سعيد بكم عندما لمست انسجامكم مع الأجواء الإسلامية في لاهيجان ومشهد، وطهران . . كان يوم الجمعة الذي وصلت فيه إلى إيران عيداً عندي، ويوم وصلتها يا شهريار ومستا عيداً آخر، ويوم وصلتها يا فيدا وليدا عيداً آخر، وكان يوم الجمعة الماضي عيداً لما رأيت تفاعلكم مع دعاء كميل في المهدية، ثم مع صلاة الجمعة . .

أدعو الله يا أولادي أن نفرح بعيد جديد، يوم يهدي الله أمكم وبرويز فيتركان أفكارهما وينضمان إلينا . . لقد فعلا أشياء كثيرة . . ولكن لا بأس إذا أحسا بخطئهما . . أما إذا لا سمح الله لم يهتديا فنحن غير مقصرين . . ونحزن عليهما وندعو لهما بالخير . . أنا لم أفقد الأمل، وأرجو أن ترشدوني إلى طريقة تنفع في هدايتهما . . وإذا كنتم توافقون على أن نعطيهم كل شيء عندنا في بريطانيا، وتأملون أن ينفع ذلك في هدايتهما، فأنا حاضر . .

سألت الشيخ الطبري عن مشكلتهما فقال: إن واجبنا تجاه كل مشكلة أن نطبق الحكم الشرعي الذي علينا، ونترك الباقي إلى الله تعالى، وهذا هو معنى التوكل . . سألته عن الحكم الشرعي الذي عليَّ فقال: العـاطفة، والمـوعظة الحسنة . .

وسألته يا أولادي عنكم فقال: ينبغي أن يتزوجوا، انصحهم بذلك . . فأنا أنصحكم يا أولادي بالزواج . . قال: أصلاً الزواج المبكر «استراتيجية» في المجتمع الإسلامي، فشخصية الشاب والفتاة التي تتكون في ظل الزواج، لها ميزات كثيرة عن تلك التي تتكون في ظل العزوبة . . والأطفال الذين ينجبهم الأبوان في سن مبكرة، لهم ميزات كثيرة عن الذين ينجبونهم في سن متوسطة أو متأخرة . .

والمجتمع الذي يسود فيه الزواج المبكر،له ميزات كثيرة على المجتمع الذي يتأخر فيه الزواج . .

أحب لو أني سجلت لكم حديثه، لقد عدد كثيراً من الميزات في الشخصية، وفي الأطفال وفي المجتمع، بسبب الزواج المبكر، وكلها مهمة ومنطقية . .

* * *

. . تواصل حديث الدكتور مع أولاده عن الزواج وإيران والعمل، وعن أمهم وأخيهم، وشاركوه في الحديث، وكانت مستا أكثرهم حماساً وكلاماً . . قالت :

ـ يا بابا،في مسألة أمي وبرويز أنا أختلف معك، لكني أطيعك وأنفذ ما تأمرني به . . ها أنا كل أسبوع أتصل بها وأكلمها أحلى كلام، ولكني أعتقد أنه لا فائدة، وسوف يستمران في تصرفاتها . . لقد اتفقوا أن ينتقل خالي ديفيد ويسكن في لندن، ويفتح مؤسسة تجارية باسمهم ثلاثتهم . . من أين له رأس المال، نحن نعرف أنه مزارع فاشل،وقد باع نصف أراضيهم في ويلز . . حتماً يريدون بيع العقارات أو قسماً كبيراً منها . . لقد أقنعهم بذلك، ويريدون أن يزوجوا ابنته الفاشلة إليزابيت إلى برويز . .

ـ لا تستعجلي بالأحكام يا مستا وسوء الظن . .

ـ حسناً، أنا مطيعة يا بابا، ولكن سوف ترى . .

*

في آخر السهرة قال لهم الدكتور: الوقت مناسب الآن لأن نتصل بأمكم وأخيكم، فركضت مستا وجاءت بالهاتف قائلة :

ـ هل تسمح لي يا بابا أن أتصل أنا أولاً . ؟

ـنعم ،ولكن كما أوصيتك يا مستا ، بكل عاطفة واحترام . .

ـ طبعا يا بابا .

ولكن مستا فوجئت بأن الذي رد على الهاتف كان خـالهاديفيد،الذي تعتبره أصل الشر . . وتساءلت في نفسها ماذا جاء يعمل في لندن في وسط الأسبوع ، ودارت الأفكار في رأسها بسرعة .

ـ «آلو» خالي ديفيد ، كيف حالك . ؟

ـ أنتم كيف حالكم ، الحيا ة عند آية الله أحسن من الحياة هنا ، ها . . لقد سمعت أن والدك مريض ، صحيح . ؟

ـ كلنا بخير، سعداء جداً، وبابا بالخصوص بألف خير، بعد قليل يتكلم معك . .

ـ سمعت أنكم لا تريدون العودة ، أولاتستطيعون ،لأن السفر على الإيراني ممنوع إلا بصعوبة كبيرة .

ـ لا ، لا تصدق يا خالي ، كل إنسان يستطيع أن يسافر ، وكلنا سوف نرجع .

ـ إنك تكذبين علي يا مستا ، أنا أعرفك شيطانة وكذابة . .

ـ لا ، لا أكذب عليك يا خالي ، وأنا دائمة صادقة وعنـدي معلومات ، والدليل على ذلك أني أهنئك بتأسيس المؤسسة الجديدة ، أنا اخترت لها يا خالي اسما كبيراً «مؤسسة ما وراء البحار للهندسة والتخطيط»

ـ من أين عرفت يا ملعونة ، اليوم أخذنا الإجازة ، حتـما عندك اتصـال بمخابرات الخيمني .

غضب الدكتور لكلامها وأخذ يشير إليها بحاجبيه ويده أن لا ، ولكنهـا كانت بدأت، بتفجير القنبلة :

ـ ولكني متأسفة يا خالي أن أقول لك إن بroويزسوف لن يتزوج إليزابيت لأنها أكبر منه بكثير،والأعظم من هذا أن مركز الشركة سوف ينفجر بكم في الشهر الأول من تأسيسها . .

ونهض الدكتور مغضباً وأمسك بـالهاتف، ولكنها ضحكت وأقفلت، قائلة :

ـ لقد أقفل الهاتف، أرجوك يا بابا لا تغضب علي حتى تسمع ما حدث . .

ـ لقد سمعت ما حدث، هذا عمل سيئ يا مستا . . قالها الدكتور بغضب، ولكنها تابعت :

ـ إنه عمل جيد يا بابا، لقد انتهت المؤامرة، انتهت، أنت لم تسمع ماذا قال لي . . اسمح لي أن أتكلم . . وكادت تبكي . .

ـ تكلمي، وعاد الدكتور إلى كرسيه وما زال مغضباً . .

ـ أولا كان يتكلم بأسـوب السخريـة وكأنـه يقول لي لقـد انتصرت . . وحكت لهم حديثه ولهجته وكيف جن جنونه في النهاية، وشتم وقال:

ـ أنا أكاد أجن من مخابرات الخميني،اتركوني، اتركوني، إرهابيون، لا أريد أن أعرفكم ولا أعرف حتى أليس، ها أنذا ذاهب عنكم إلى الأبد . .

قالت مستا وهي فرحة :

ـ يا بابا لقد انتهت المؤامرة، أنا أتحمل المسؤولية، قولوا عني ما شئتم . . اضربوني . . أنا اعتبر هذه من بركة ليلة الجمعة . . الآن يرجع ديفيد إلى ويلز ويصرف النظر عن كل شيء . .

شهريار : ـ يا بابا لا تغضب من مستا، هو الذي أثارها، وقد تبين أن رأيها صحيح مئة بالمئة . . من أين لخالي رأسمال مؤسسة هندسية . ؟

فيدا: أنا وليدا لم نتدخل في شيء، ولكن من الأول كنا نقول لبعضنا أن الحق على خالي وماما . .

الدكتور ـ خذي لي الرقم . . ورفعت السماعة الزوجة :

ـ «آلو» أليس، كيف حالك، أعطني ديفيد أكلمه . .

ـ لقد ذهب ديفيد . . لقد فعلتها معه يا جمشيد . . هذا منك لا من مستا . . ماذا فعل لكم أخي حتى تهددوه بالقتل والتفجير . . أنتم تتحملون المسؤولية إذا حدث عليه شيء . . كله منك . .

ولم يستطع الدكتور أن يقنع زوجته بالواقع ولا أولادها . . كانت متيقنة كأخيها بوجود شبكة إرهابية تتابع أخبارهم وتنقلها إلى شهريار ومستا والدكتور . .

سألوها عن برويز فقالت بعصبية :

ـ ليس هنا وديفيد ليس هنا، لا أقول لأحد أين ذهبا، ولا أعرف أين . . أكملوا المحادثة مع أمهم، وساد جلستهم الصمت، والدكتور واضع يده على جبينه يفكر، ولكن مستا التي كانت مصرة على صحة ما فعلت بل وفرحة به، قطعت الصمت وقالت :

ـ أنا أقول إن خالي ديفيد خاف من إرهاب الإمام الخميني وأراد أن يذهب إلى ويلز بالقطار، ولكنه خاف أن يذهب وحده فذهب معه برويز ليوصله إلى القطار . . يا بابا لقد انتهت المؤامرة ، فلماذا نحن متألمون؟ الآن يرجع العقل إلى رأس برويز ووالدتي . . وقد يهديها الله . .

ـ لا أعرف يا مستا ماذا أقول . . ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن . .

ـ نعم يا بابا، لقد شاء الله أن تنتهي المؤامرة فكان ذلك . . أنا

متـأكدة أنهـا انتهت، وأن خالي ديفيـد الآن في القطار السـريـع إلى ويلز يتلفت حوله، وضحكت وضحك شهريار ثم تابعت: أحسبـوا الطريق من البيت إلى محطة وستون ذهاباً وإيـاباً واتصلوا بـالبيت، تجدوا بـرويز قـد رجع من أحسن عمل قام به في حياته. . فبادر الدكتور:

ـ أنت لا تتصلي بهم، لا تتكلمي مع أحد إلا بإجازتي.

ـ بأمرك يا بابا. .

*

وأعادوا الاتصال بالبيت في لندن، فرفع السماعة برويز، وكان الأمر كما قالت مستا، فقد أوصل خاله إلى قطار ويلز. . كلمه شهريار وفيدا وليدا، ولم يسمح الدكتور لمستا أن تتحدث معه، قال لها ممنوع أيضا أن تلقني أحداً منهم أن يقول شيئاً، فقالت بأمرك يا بابا. .

كان جو برويز يختلف عن خاله وأمه. . فقد أطال الكلام مع شهريار وطلب منه أن يكلم أباه، ولكن الدكتور أشار له أن لا، فقال لبرويز:

ـ الوالد حالته النفسية لا تسمح الآن، فهـو غير مـرتاح من تهم الـوالدة وخالك لنا. . غداً تكلمه إن شاء الله.

ـ أرجوك يا شهريار أنت أخونا الكبير. . كلم الوالد أنت. . أولاً وأخيراً حلّ المشكلة بيده، أنا لا أوافق الوالدة وخالي على كـلامهما، ولكن كـل شيء يا شهريار يدعو إلى الحيرة: فقبل أيام وصلتني أشرطة بالبريد حيرتني. . وبالأمس فتحت معي الوالدة وخالي موضوع إليزابيت، واليوم اتصلت بي سيدة تنصحني أن لا أتزوج من إليزابيت، وأنا لم يكن عندي تفكير في الموضوع. . ثم اليوم فجر الموضوع حديث مستا مع خالك. .

أنا متحير، متحير بما يحيط بنا من أشباح، ولكن الحل أولاً وأخيراً بيد الوالد، أرجوك تحدث معه، ونحن بأمره . .

ـ كلنا نتمنى أن تعيدا النظر أنت والوالدة يابرويز، الوالد كما تعرف ليس في قلبه إلا الخير والعاطفة . .

ـ أرجوك تكلم معه، والوالدة أصبحت قريبة جداً، لقد تكلمت معها الآن، وهي حاضرة حتى إلى زيارتكم، ولكن يجب أن يطمئنها الوالد، ويجب أن تعتذر منها أنت ومستا . .

*

أخبرهم شهريار بكلام برويز، فظهر السرور على وجوههم . . وقالت مستا بفرح :

ـ الحمد لله يا بابا هذه بركة ليلة الجمعة . .

فقال الدكتور مبتسماً : ـ أليس يحق لهم أن يسموك شيطانة . ؟

ـ كلا، أنا ملاك يا بابا، الشيطان الآن في قطار ويلز . .

ـ ألست أنت التي دفعت تلك السيدة إلى الاتصال ببرويز . ؟

ـ بلى يا بابا . .

ـ والأشرطة ؟

ـ أنا أيضا كلفتها بإرسالها إليه . .

ـ إذن أنت وحدك جهاز المخابرات والإرهاب الإيراني في لندن . .

ـ كلا يا أبي، الله معي . . ﴿إِنَّ اللَّه يُدافِعُ عَنِ الذين آمنُوا، إِنَّ اللَّه لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفور﴾ . .

*

وتشعب الحديث بين الدكتور وأولاده عن خوف الغربيين والمنافقين من

الإمام الخميني والجمهورية الإسلامية. . وعما يجب عمله تجاه والدتهم وبرويز بعد التطورات الجديدة. . ولكن مستا بقيت على رأيها بأن والدتها وبرويز لن يتراجعا وسيواصلان تصرفاتهما كالسابق. . قالت:

ـ الأمر بسيط؛نقول لوالدتي اعتذري من بابا واعترفي بأنك أخطأت بحقه وعملت ضده أشياء كثيرة،وأنك مستعدة أن تسكني حيث يشاء في لندن أو طهران. . فإذا كانت ناوية للخير تقبل. .

قال بعضهم: تقبل، وقالت مستا مستحيل أن تقبل، ووافقها شهريار، كانت تعرف أن أمها من النوع الذي يركب رأسه إلى آخر نفس، حتى يعلم علم اليقين أنه في حصار محكم من جميع الجوانب، وأن جميع وسائله قد استنفدت. . وقد صدق حدسها، فعندما كلموها أصرت على أنها لم تفعل شيئاً وأنها مظلومة منهم جميعاً. . فقال لهم الدكتور: حسناً اتركوا الموضوع لما يأتي به الغيب. .

*

قال شهريار: حسناً نترك الموضوع، ونعود الى الكلام في السر الذي يجعل الغربيين يخافون من الإمام والجمهورية الإسلامية،أو ما عبرت عنه يا أبت بالخوف من طرف واحد. . أرجو أن توضح لي ذلك. .

ـ الناحية المعنوية هي الأساس في كل صراع يا بني. . وأعداء الجمهورية الإسلامية يملكون المعنويات المادية، يعني اعتدادهم بتفوقهم التكنولوجي فقط. أما الإمام والشعب الإيراني فيملكون المعنويات الإلهية. . يعني عندهم يقين بأن الله وعدهم بالنصر وسوف ينصرهم، هذا اليقين يجعلهم أقوياء مطمئنين،ويجعل الطرف المقابل يخاف ويساعدهم بخوفه على نفسه. .

ـ يعني أن سبب انتصارات الجمهورية الإسلامية سبب نفسي لا حقيقي . .

ـ السبب النفسي سبب حقيقي وأساسي يا شهريار، فكيف تقول إنه سبب غير حقيقي . . أنا لا أقول إن أسباب النصر محصورة به، ولكنه أحد الأسباب الأساسية الدائمة . . أسباب النصر بالعشرات أو بالمئات يا بني، والله هو الذي يجعل النصر عن طريق هذا السبب أو ذاك . .

ـ كيف تتصور أن يكون النصر على النظام العراقي يا أبي، بأي سبب . . ؟

ـ الله يعلم يا بني . . كثيراً ما ينزل الله النصر بأسباب لا تخطر على البال، ولكن السبب المعنوي حتماً سيكون له دور.

مستا :ـ أنا عندي سؤال يا بابا : هل صحيح أن الإمام عنده منظمات فدائية في لبنان وبلاد الشرق الأوسط وأوروبا وأمريكا، كما تقول وسائل الإعلام الغربية . ؟

قضية الإمام والجمهورية الإسلامية تختلف يا أبت عن بقية الدول والقيادات . . الغربيون يحاولون تصويرها بأنها حكومة إيرانية متطرفة ولها شبكات إرهابية في الشرق الأوسط والغرب . . ولكن القضية هي قضية بعث الحضارة الإسلامية من جديد وإزالة سيطرة الغرب وثقافته عن الشعوب . .الإمام أصبح ملهم الثورة لكل الشعوب الإسلامية والشعوب المستضعفة غير الإسلامية أيضاً . . وهذه الشعوب تتحرك ففيها علماء وشباب ومنظمات يعملون في مقاومة الاستعمار الغربي أو الروسي، هم يقدسون الإمام ويرونه قائدهم وملهمهم . . الغربيون لا يريدون الاعتراف بهذه الحقيقة، فيقولون إنها منظمات إرهابية إيرانية . .

ـ يعني توجد منظمات ولكن لم يؤسسها الإمام أو الحكومة . .

ـ طبعاً في البلاد الإسلامية بين المسلمين الموجودين في أوروبا وأمريكا يوجد أنواع من الحركات والمنظمات . . ومنها الكثير الذي وجد بعد انتصار الثورة وبتأثيرها . .

ـ والجمورية الإسلامية والإمام يؤيدونها جميعاً . .

ـ يؤيدونها بشكل عام ، ولكنهم بشكل أساسي يؤيدون الأعمال التي تكون بإشراف العلماء . . إنهم يؤمنون بأن العلماء والروحانيين هم القيادة الشرعية للعالم الإسلامي ، لأنهم يعرفون الإسلام ، ولأنهم أتقياء . .

شهريار : ـ أحب أن أسألك يا بابا،هل هناك أشياء جديدة في نظرتك إلى الجمهورية الإسلامية بعد أن جئت إليها . . ؟

ـ طبعا يا بني ، فالذي يعيش بعيداً عن إيران سيبقى في نظرته جوانب كثيرة ناقصة ، مهما كان مطلعاً . .

ـ ألم يؤثر على نظرتك يا بابا كثرة الروتين وعرقلة المنافقين في الوزارة . .

مستا : ـ صحيح يا بابا ، لماذا يتركونهم ، أنا سمعت أنه يوجد منهم الكثير في الوزارات ، وفي أماكن مهمة ! ؟

ـ كلا لم يؤثر على نظرتي وجود هؤلاء المنافقين . . فقد كنت أعرف أنهم يوجدون في أجهزة الحكومة ، وفي مجيئي صادفت واحداً منهم في الطائرة من فرانكفورت إلى طهران ،وسمعت منطقة المتناقض ، ولكن الابتلاء بهم في معاملة يختلف عن السماع عنهم . . وقد فوجئت أول مرة بالسيد «ج» الذي حدثتكم عنه ، ثم لم أفاجأ بعدها به أو بأمثاله الذين صادفتهم . . أحدهم قال لي بكل وقاحة :

ـ هل أنت مجنون حتى تترك وضعك في لندن وتأتي إلى طهران . . فقلت له ـ لو تعرف أيها السيد كم أكون سعيداً إذا أعطيت كل ما أملك وملكت قلبا مؤمناً طاهراً، كقلب فلاح من قرى إيران . . إني أطمع أيها السيد أن أمضي بقية عمري في خدمة هؤلاء الطيبين، لعل قلبي يصبح شبيهاً بقلوبهم . .

لقد تأثر هذا الرجل يا أبت . . إنهم ليسوا سواء . . فمنهم أناس أصبحوا صالحين، ومنهم ما زالوا يقومون بتصرفاتهم لعرقلة أعمال الناس وتشويه سمعة الجمهورية الإسلامية . . قال لي الدكتور حسين :

ـ افرض نفسك مسؤولا عن إصلاح جهاز وظيفي فيه أكثر من مليون موظف، وفيهم الكثيرون من السيئين وأشباه السيئين، ماذا تفعل . . هل تقوم بإصلاحه دفعة واحدة وتتحمل نتيجة ما يحدث اجتماعياً وعملياً، أم تقوم بإصلاحه بالتدريج وتتحمل تخريب العناصر المنافقة إلى مدة من الزمن . ؟

قلت له : ماذا فعلوا هم . ؟

قال : عملوا بالتدريج . . بدؤوا بالكوادر والمفاصل الوظيفية . . فملؤوها بالعناصر الجيدة، وأبقوا كل الذين لم يكن لهم ماضٍ معروف بالفساد أو معاداة الثورة . . وواصلوا الإصلاح من خلال مراقبة سير العمل وتوظيف العناصر الجديدة . .

ثم قال : صحيح أن هذا الأسلوب يفسح المجال لبقايا المنافقين أن يؤذوا ويضروا، ولكنه أيضاً يفسح لهم المجال لأن يتحولوا إلى صالحين، ولا يوقع الدولة في ظلم عوائلهم بحرمانهم من الوظيفة، أما الذين يبقون سيئين فيعالجون أمرهم، كل واحد منهم على حدة، بعد أن تتم الحجة عليه . .

وجدت هذا الكلام منطقيا يا أبت، سواء من ناحية مصلحة العمل في

أجهزة الجمهورية الإسلامية، أو من ناحية إنسانية الإسلام والإمام الخميني حتى مع المنافقين وعوائلهم . . وكنت أقول لنفسي عندما أتعب من الروتين ومن عرقلة بعض المنافقين : ما دمت مقتنعاً بصحة شيء فيجب أن أقبل نتيجته السلبية عندما تمسني . . فكنت أتقبل الأمر وأصبر . .

شهريار: ـ هل عندهم أجهزة مؤمنة لمراقبة سير العمل في الوزارات والمؤسسات . . ؟

ـ يا أبت لا يصح أن تبقي نظرتنا إلى علماء الدين أنهم بسطاء، يجب أن نعرف أنهم من أعمق الناس وأذكاهم . . أصلا الإسلام يا أبت يلزم الإنسان أن يكون منتبهاً ذكياً، لأنه يوجب عليه أن يطبق أحكامه الشرعية . . أما ترى عندهم وزارة خاصة للمخابرات، وقد أوجب القانون أن يرأسها دائماً عالم مجتهد تقي لأن عملها أكثر أهمية وأكثر دقة من الوزارات الأخرى . . ؟

وقد سمعت من الدكتور حسين أمراً جديداً مهما يا أبت لم يكن يخطر ببالي، قال لي: كيف تتصور أن الإمام يطلع على مجرى الأمور في داخل إيران وخارجها . . ؟

قلت له من كبار المسؤولين والإذاعات، فقد أخبرني أصغر أنه يسمع الإذاعات العالمية . . قال الدكتور حسين: أنا أقصد عن غير طريق الصحف والإذاعات وتقارير المسؤولين والعلماء . . قلت له، ماذا غير ذلك . ؟

قال: سمعت أن عنده جهازا خاصا يراقب المسؤولين، ويقدم له التقارير عنهم . . وأنه يوجد أشخاص غير مشهورين، يدخلون على الإمام بدون استئذان، ويجلسون معه وحدهم لمدة طويلة أو قصيرة . .

قال الدكتور حسين: إن الأحكام الشرعية تحرم التجسس بشكل قاطع

على المسلمين، ولـذلك لا تستـطيع وزارة المخـابرات أن تتجسس إلا عـلى المنافقين أو المشكوكين جداً، ولكن يوجد حكم شرعي يستثني من ذلك المسؤولين في العاصمة والمحافظات، ويوجب على ولي الأمر أن يكون له عون عليهم. . وقد أراني الدكتور حسين النص الشرعي في نهج البلاغة حيث يأمر الإمام علي عليه السلام بإنشاء مثل هذا الجهاز.

ـ هذا شيء عظيم يا بابا.

ـ كنت أتخوف على الجمهورية الإسلامية من أمرين: من المنافقين الذين يعملون ضدها من داخل مؤسساتها، ومن نقص القدرة التكنولوجية عندها، ولكني في هذين الشهرين أصبحت أكثر اطمئنانا إلى أن مسؤولينا أعمق مما نتصور، وأن إيران لا بد أن تصبح دولة صناعية متقدمة. .

إنهم مخلصون ينصرون الله يا أبت، ولا بد أنه سينصـرهم بألف سبب وسبب. .

*

ويلز الجديدة

اليوم عادوا من لاهيجان، فقد أمضوا فيها نصف عطلة الربيع، والنصف الآخر يمضونه في طهران وقم. . كانوا في حفاوة عمتهم رقية خانم وأبنائها وبناتها، وحفاوة أمهم فاطمة أكبري وعمهم يوسف وأبنائه وبناته. . وكانوا أيضاً في حفاوة الطبيعة الجميلة لشمال إيران، فقد رأوا قسماً كبيراً منها. . ذهبوا من طريق جالوس، وعادوا عن طريق قزوين، وتنزهوا على ساحل بحر الخزر (بحر قزوين) وعلى جبال طبرستان الزاهية، وفي أوديتها الغنية. .

قالت مستا: ـ والله يا بابا إن شمال إيران مظلوم، حرام أن نقيسه بويلز، إنه أجمل حتى من الساحل الإسباني. . أنا أفتخر بأني من هذه المنطقة الجميلة. .

شهريار: ـ أنا لم أر في كل أوروبا وأمريكا أودية وجبالاً أجمل منها، إنها تشبه شمال فرنسا ولكنها أجمل منه. . آمل أن تعمها النهضة وشبكات المواصلات المتنوعة فتكون من أشهر مناطق العالم السياحية.

مستا: ـ طبعاً يقصدها السياح المحترمون ولا يكون فيها المخدرات والجرائم كما رأينا في إسبانيا وفرنسا. .

شهريار: ـ طبعاً يقصدها الذين يريدون الصحة وهدوء الأعصاب بدون مخدرات وفساد. . الشاه كان همه أن يجعل فيها مؤسسات سياحية للمخدرات والفساد، ولكن رأيتم كيف اهتمت الجمهورية الإسلامية بالنهضة الزراعية والعمرانية،فبدأت تتغير معالم المنطقة ومستوى معيشة أهلها. .

الدكتور: ـ أكثر ما فكرت فيه ، هو أن يصبح عندنا مع هذه الطبيعة الجميلة والمياه الصحية والمعدنية شبكة مستشفيات حديثة، يقصدها الناس من أنحاء العالم، فنعالجهم من الأمراض، ونعالجهم بمعاملتنا وروحيتنا من أمراض الروح أيضاً . .

. . تواصل حديث السهرة عن منطقة الشمال وأهلها الطيبين، وعن آخر التطورات في وضع أمهم وبرويز، وعن زواج شهريار الذي قرر أن يخطب ابنة أحد الأطباء بعد عودة والدها من الجبهة، وعن زواج فيدا وليدا . .

قال الدكتور: ـ أنا أوافقك يا فيدا، فالأشياء التي سمعتها عن أحمد شيرازي هذا غير مشجعة، وإذا أردت أن تعطي جواباً سلبياً فذلك إليك . . أما حسن بهرامي يا ليدا فإن كل من يعرفه يمدحه. والأهم من ذلك أنك سمعت شهادة عمتك رقية خانم بحقه ومدحها له . .

شهريار: ـ بدون مجاملة يا أبي وأخواتي، أنا أشعر بأني في هذه الأشهر الخمسة قد ولدت من جديد، بأني وجدت أبي وأخواتي، وجدت حبهم لي وحبي لهم، كأني لم أكن أشعر بأن لي أباً وأخوات في بريطانيا، وحتى والدتي وبرويز شعرت بحبهما هنا . . كأني لم أكن أحس بالحياة في بريطانيا . . كل شيء هنا أصبح عندي جديداً جميلاً، وهذا من فضلك علينا يا أبي، أنت فتحت لنا هذه الآفاق . . قبل أيام، كنت في جلسة اللجنة الطبية نناقش حالة تليف، وطال النقاش وكنت متعباً، فتذكرت أني الآن في عبادة لله، لأني أقصد خدمة المسلمين، فتجدد نشاطي وشعرت بحيوية جميلة . . سوف لا أنسى فضلك علي طول حياتي يا أبي الحبيب، وسأبقى في خدمتك أزورك يومياً، وفي خدمتكن يا أخواتي الحبيبات، قلت لهم في الوزارة عندي شرط واحد للبيت فقط أن يكون في شارع ظفر، في أقرب نقطة ممكنة من بيت والدي، فوعدوني بذلك . . وأنا

متأسف يا أختي ليدا لأنك ستصبحين بعيدة عنا، ولكن لا بأس،فأنت عند عمتنا الغالية رقية خانم وبين الأقارب، وسيكون عندنا بيت جديد في لاهيجان بيت أختنا ليدا وصهرنا حسن . .

مستا :ـ والله يا شهريار عندما كنت في الأسبوع الماضي أسمع مجلس تعزية لسيد في مسجد تجريش،شعرت بأني كنت في لندن ميتة، وأني عندما بدأت بالالتزام بدأت أحيا . . كان يتحدث في تفسير آية قرآنية لم أحفظها تقول عن الكافرين إنهم أموات وعن المؤمنين إنهم أحياء، وعندما قال يوجد حياة وموت للبدن وحياة وموت للروح، وبدأ يفسر كيف أن حياة الروح هي الأساس في نظر القرآن المجيد، تعجبت أول الأمر كيف نسمي الكافرين والبعيدين عن الدين أمواتاً ونقول إنهم في القبور. . ولكن عندما فكرت كيف كنت أعيش قبل التدين قلت في نفسي :حقاً إني كنت ميتة وفي القبر،لأني لم أكن أشعر بشيء من عوالم الإيمان، ومعاني الحياة العميقة الجميلة التي فيها . . لقد أرسلت «كاسيت» إلى صديقاتي وقلت لهن أرجو أن تعذرنني إذا خاطبتكن أيتها الأموات أيتها اللواتي في القبور أرجوكن أتوسل إليكن اخرجن من الموت اخرجن من القبر، وجرّبن حياة الإيمان لشهرين فقط، لترين أنها هي الحياة وأن ما أنتن فيه هو الموت . .

وأرسلت «كاسيت» إلى برويز، كله عن حياة الروح وموتها وحياة الضمير وموته . . أطَمئنك يا بابا أني لم أسئ الأدب معه أبداً، بالعكس لقد تأثرت وأنا أتحدث معه وبكيت، قلت له يا أخي يا حبيبي ،أنا على يقين بأن روحك يوماً ما سوف تثور وضميرك سوف ينتفض، فلا تساعد ماما على طريقها، وساعدها على أن تدخل معنا في حياتنا الجميلة فكلنا نحبها . .

عندما قلت له في الهاتف ما رأيك أنت يا برويز،هل ترى من المنطقي بعدكل

هذه التصرفات أن تقوم أمنا بتقديم شكوى تطلب الطلاق ونصف الممتلكات، ولم يصدر من بابا تجاهها أي عمل سلبي، وهي تتصرف في كل الواردات!؟ قال شهريار : أنا أرى أنه من حقها أن تعيش حياتها كما تريد، ولكن ما تقولينه يا مستا أيضاً معقول. لقد أصبح لي أمل ببرويز ولو ضعيف، ولكن لا أمل لي بماما ما دام خالي ديفيد على قيد الحياة.

الدكتور: ـ أنا سعيد بكم يا أبت، لو تعرفون كم تكون سعادتي عندما أراكم منسجمين في أجواء الإيمان ومعانيه، أو أسمعها منكم. . كانت أمنية عزيزة عندي أن أراكم في طريق الإيمان، والحمد لله فقد تحققت هذه الأمنية، وغيرها من الأمنيات والأحلام. . أشعر بسعادة عظيمة لهذه النعم الإلٓهية التي تكرم بها علي، وأشعر بالخشوع والخجل. . أنا لست أهلاً يا أبت لأن يهديني إلى شيء من الإيمان، أو يوفقني لأن أخدم عباده المؤمنين ودولته الإسلامية، أو يهدي أولادي، أو يرزقني أخاً طيباً مثل يوسف، أو يرزقني أرضاً أعطي منها سهم أخي ووالدته، وأسدد منها كل الحقوق الشرعية التي في ذمتي، وبعض ما في ذمة والدي، دون أن أحتاج إلى بيع شيء في لندن. . لست أهلاً لشيء من هذه النعم العظيمة التي أغدقها الله عليَّ، بعد عمر قضيته في الضياع والجاهلية. .

وحتى الابتلاء بوضع والدتكم وأخيكم هو نعمة إذا أدينا تجاهها تكليفنا الشرعي، وعاملناهما بالأحسن، أنا واثق أنهما سيتعبان من طريقهما يوماً ما، الطريق الأعوج يا أبت متعب، وإذا استطاع الطرف المقابل أن يجرك إليه فقد أتعبك مع نفسه، وسوف تتعبه أنت مع نفسك أيضاً. . أما إذا بقيت في الطريق المستقيم، فسيتعب هو ويرجع إليك وترتاحان معاً. . عاملوهما يا أبت باستقامة

وأخلاق إسلامية ،واصبرا عليهما فلا بد أن يتعبا من طريقهما ،ويعودا إلينا إن شاء الله . .

اشكروا الله يا أبت على نعمته عليكم ، فها أنتم والحمد لله تسلكون طريق الإيمان وتعيشون في دولة الإسلام . . اجعلوا همكم وتفكيركم دائماً بالعمل ، فهذا هو الشكر الحقيقي ، العمل يعني الذي تقول عنه شريعة الإسلام ، إنه عمل يريده الله تعالى ويحبه ، قال لي الشيخ الطبري : إن من أفضل العمل خدمة الناس ، وإن الله لا يرضى عنا إلا بخدمة الناس ، والجنة لا تنال إلا بخدمة الناس ، فلنفكر دائماً بخدمتهم بكل وسيلة ، ولنتقن كل عمل نعمله حتى شرب الماء ورد السلام . .

اعملوا يا أبت حتى يرضى عنا ربنا العظيم ويحبنا ، فقد عصيناه كثيراً وضيعت أكثر عمري ، وضيعتم أنتم من عمركم الكثير . .

*

(تمت)

فهرس

هذا الكتاب

يطرح المقاربة التالية:

إنّ مشكلتنا مع الماديين الغربيين والشرقيين إننا نريد أن نعيش الحياة وأشياءها ببعدها المعنوي، بشهادتها وغيبها، بكامل مساحتها وواقعها... ويريدون هم أن يعيشوها ببعدها المادي المحسوس، ببعدها الأدنى فقط... إنَّ مَثَلَ أحدهم كمن ينظر إلى "شجرة" فلا يرى فيها إلاّ ثمراً يؤكل أو خشباً يباع... هذا كله صحيح!!، ولكنّها عالم قائم لها أنظمتها الغذائية، والتنفسيّة، وعملياتها في التمثيل الضوئي... ولها في كل سنة من عمرها قصة، وفي كل فصل حكاية... ولها أهل وأقارب ومحيط... ولها التسبيح للّه وصلاة، ولها نسيم وظل وعصر وزهور، وفراشات وطيور... ولكنهم... أي الماديين لا يريدون أن يروا فيها إلاّ ملءَ بطن أو ملءَ جيب.

إننا نقول لهؤلاء: "إن الإنسان مخلوق عظيم جداً ومقدس، إلى حد أنه هو وأرضه محط أنظار الملائكة والعوالم الأخرى... وأن أمره دقيق وحساس ومؤثر في الكون وفي المستقبل جداً...